الأعمال الرقمية الكاملة

لفاضل السباعي

دراسة وتحقيقاً

د. أحمد عمر

د. محمد المهدي رفاعي • د. خالد خالد • د. إياس الرشيد

د. إسلام جانكير • د. عرابي عرابي • د. أنس صالح

الجزء الثالث



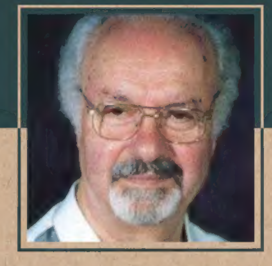
الرقم

ـل الـ

ســة

الجزء الثالث

«إلى الأصدقاء.. الذين يقرؤون الخواطر التي أكتبها وأنشرها في صفحتي، يوميًا وعلى مدى سنوات، مؤرِّخًا الحالةَ التي يعيشها البلد، متابعًا الحراك الثقافي في الوطن الكبير، في تجلّياتٍ أَستوحيها من المجتمع بقِيَمه التليدة والمستحدثة، وبما أُوَشّي ذلك من ذكرياتٍ شخصية هي غيضٌ من فيضِ الذاكرة الجَمعية في بلاد الشام. أناشدكم الاهتمام بهذا الإرث، المتنوّع، الذي لا تُعوزه الصراحة والصدق ولا الدقة والموضوعية والنزاهة، ومساعدتي في أن أقدّمه للقراء في مجلدات بعددها... والعون الذي ألتمس أن يتولّى هذه المهمّة القادرون عليها من المثقفين الغيورين على الوطن والمجتمع والتاريخ والأدب والحقيقة...»



فاضل السباعي



+90 506 023 22 35 www.dar-ikdam.com

+90 212 671 62 48 dar-ikdam@gmail.com

www.facebook.com/dar-ikdam





3. cilt isbn

الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي

دراسة وتحقيقاً

الجزء الثالث

د.أحمد عمر | د.محمد المهدي رفاعي

د.خالد خالد | د.إياس الرشيد

د.إسلام جانكير | د.عرابي عرابي

د.أنس صالح

اسم الكتاب: الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي دراسة وتحقيقا
المؤلف: مجموعة مؤلفين
الناشر: دار إقدام للطباعة والنشر
الطبعة: الاولى
سنة النشر: 2023
مكان النشر: اسطنبول- تركيا
isbn: 978-625-6483-03-3
3. cilt isbn: 978-625-6483-06-4

أحلام العودة

من مفارقات الزمان أنّ النكبة، التي نزلت بالفلسطينيين وأسفرت عن تشريدهم في البلدان، منحتهم تسميات إقليمية لم يتوقّعها الناس ولا التاريخ: "فلسطيني سوري"، "فلسطيني لبناني"، "فلسطيني أردني"، "فلسطيني مصري".

اليوم نزلت بالسوريين نكبةٌ مماثلة أسفرت عن تشريدهم، فهم: "سوري لبناني"، "سوري أردني"، "سوري مصري"، وليس هناك "سوري فلسطيني" فغير متاح ردُّ الجميل بعد، ولكن أضيف "سوري تركي". وفي تركيا افتُتحت -بعد نصب الخيام- المدارس، وأُعِدّت المناهج، ومُنحت الشهادات.

طال الأمد على القافلة الأولى من المشرّدين العرب وهم يحلُمون بالعودة إلى الديار، عشر سنين، عشرون، خمسون، سبعون...

فهل يطول كذلك على القافلة الثانية وهم يحلُمون؟

فلوريدا: فجر الخميس ١٩-٦-٢٠١٤

قتل البديل.. قتل الوطن

وفي حرص الحكم الفردي على البقاء، يَجِدّ في قتل البديل المتوقّع، وفي إفراغ الأمّة من رجالاتها النابهين، إلّا إذا التحقوا به ووظّفوا مواهبهم في خدمته. وإنك لتراه في ذلك لا يتورّع عن إجهاضهم وهم أجنّةٌ في ضمير المجتمع.

وعندما يكون للوطن أعداء، فإنّ قهقهاتهم تبلغ أسماع المقهورين، وهم في الأقبية المعتمة، أو تحت الأنقاض، أو في الحقول التي تحترق.

فلوريدا: ظهيرة الخميس ١٩-٦-٢٠١٤

منمنمات.. للزمن الآتي

هل خطر لك أن تكتب تفاصيل صغيرة حميمة مرّت في حياتك؟

صغيرًا كنت، وأنت تلعب في الحارة مع أترابك؟ تمضي صباحا إلى المدرسة. الطريق. الناس ذاهبون إلى أعمالهم. البرد، مطر أو ثلج، وأنت تواري يدك في الكمّ وتدع الأخرى معرّضة؟

كيف تتّخذ النساء في أُسرتك مجلسَهنّ، يوم إعدادهنّ أكلة الكبّة الحلبية أشكالا، قليًا، وشيًا، وطبخًا بالباذنجان واللحم والسُّمّاق؟

أبوك، أو جدّك، يستيقظ، في صباحات الصيف قُبيل الفجر، يتوضّأ، يجلس على طرف الليوان (الإيوان) المطلّ على أرض الحوش، يقرأ القرآن، فيصل صوته الحنون إليك، عبر النافذة، معطّرًا برائحة الياسمين، وأنت على فراشك يغلبك النعاس، قبل أن يتوجّه إلى الجامع القريب (هذه كتبتها عام ١٩٦٥!).

وماذا أقول؟

إن كنتَ كتبت شيئًا من هذا، فأنت تؤرّخ لنفسك (سيرة ذاتيّة)، وللناس الذين تعيش بينهم (تأريخ اجتماعي). وسوف يبقى ما تكتب في سمع الزمان، تقرؤه الأجيال، فيتعرفون كيف كان أبناء مجتمعك يتصرّفون، يتكلّمون، يعيشون، يحلُمون.

ما زلت أقرأ، بين يوم وآخر في شبكة التواصل الاجتماعي، نمنمات من ذلك، ينسُلها، يزخرفها، يبرع في صوغها، الصديقان:

• محمد صباح الحواصلي، الذي يقيم منذ عشرين سنة مغتربًا في سياتل (أقصى الشمال الغربي من الولايات المتحدة)

• وأحمد أديب الشعار، الذي ما زال يستمع، وهو في مدينته حلب، إلى إيقاع البراميل، ودون توقّف يكتب.

فلوريدا: مساء الجمعة ٢٠-٦-٢٠١٤

حرب أخرى

كانت حرب الخليج الأولى قومية بامتياز، هدفت إلى استرداد قطر عربي كان قد سقط في أيدٍ غريبة. وهي حربٌ أغرتْ بها أمريكا من وراء ستار، دامت ثماني سنين، أُزهِقت فيها أرواح، وبُدّدت أموال، وأُهدِر وقت كان أولى أن يُبذل في التقدّم والعمران.

هل تعمل أمريكا، اليوم، على إثارة حرب أخرى، مذهبيّة هذه المرة، من وراء الستار ومن أمامه، تخوضها دولُ المنطقة كلُّها، تحت عنوان وضعته لها: الفوضى الخلاّقة، تأتي على الأخضر واليابس، تُمحَى فيها من الخارطة دول وتُرسَم دول؟

وإسرائيل، البعيدة القريبة، تملأ الفضاء غناءً وفرحا!

فلوريدا: فجر السبت ٢١-٦-٢٠١٤

حول عمل العلامة الأسدي «موسوعة حلب المقارنة»

تخضع الموسوعات في العالم -وهي ثمرة جهود جماعات ومؤسسات- للمراجعة الدائمة، من تنقيح وإضافة، فيصدر في كلّ حين مجلد إضافي supplement، ثمّ بعد جيل أو نحو ذلك يعاد إصدار الموسوعة بطبعة جديدة، تنقيحًا وإدخالًا لموادّ إضافية في مواضعها.

وأما عندما يتجرّد فرد، هو العلامة الأسدي م. خير الدين مشكورا أعظم الشكر، لتصنيف موسوعة حلب المقارنة (سبعة مجلدات) على مدى خمسين عاما من عمره (وأحسب أنه عمل غير مسبوق في تراثنا العربي بهذا الحجم)، فإنّ الحاجة إلى المراجعة تكون أولى.

قبل أعوام (ربما في صيف ٢٠٠٨)، بمكالمة هاتفية بيني وبين الأكاديمي الدكتور محمد ألتونجي من دمشق إلى حلب، بَدَوْنا على اتفاق بضرورة أن تتشكّل لجنة ذات تخصصات، لمراجعة هذه الموسوعة، واعتقدنا أنّ مهمتها غير قابلة للانتهاء.

فلوريدا: مساء السبت ٢١-٦-٢٠١٤

حكاية الطواقي!

ذات يوم حدّثتني زميلة لي، تَشغل وظيفة سكرتيرة لأحد المسؤولين في الإدارة المركزية بجامعة دمشق، وهي ذات جمال وأناقة، عمّا تلاحظه من الغَيْرة، في ابنتها الصبيّة، نحوها، ساردةً من الوقائع ما أثار استغرابي منها أكثر ممّا روت عن ابنتها. أيُعقل أن تغار بنتٌ من أمّها؟

وبفضول الكاتب الروائي الذي يبحث في أعماق النفس البشرية، حدّثت بذلك زميلةً من أعضاء اتحاد الكتّاب، فإذا هي تروي لي حكاية، عن أمّ وابنتيها التوأمين، لا تقلّ عمّا رويتُ لها غرابةً:

أمٌّ هي ربّة بيت، تتقن العمل بالمَخْرز، تحوك به من الصوف الطواقي، تعتمرها الفتيات أيام الشتاء مستدفئات متزيّنات، تتسوّق الصوفَ المتخلّف عند البائع، في دكانه بالجادّة القريبة، أواخر الربيع، تشتريه بتراب المصاري، وتبيعه الطواقي البديعة الزاهية الألوان في موسمها، تتسلّى بحياكتها، كلّ يوم طاقيتين أو ثلاثا، فتجني بذلك ربحًا صغيرا تدّخره ولا تُفرّط به.

كانت بنتاها، وهما طالبتان في الجامعة، تُحسنان هذا العمل أخذًا عن أمّهما البارعة. ولكنّ الأمّ تحرمهما من الاستفادة من الصوف الذي بالرُّخْص تشتريه، وإذا امتدّت إليه يدٌ منهما، زجرتهما: «اتركوه، هادا صوفي!»

لاحظ الأب، وهو موظف متوسّط الحال، ذلك وتألّم. ولم تُجْدِ وساطته بين الأمّ وبين

البنتين، الزهرتين الفوّاحتين المتفوّقتين في الدراسة الراغبتين في تحصيل الخرجيّة بكدّ اليمين. فكان أن منحهما مبلغا يكون رأسمال لمشروعهما الصغير.

تابعت الزميلة: وفورًا نزلتا إلى الجادّة، واشترتا من البائع صوفا، بالسعر العالي لا بأس، وسهرتا ليلتهما فأنتجت كلٌّ منهما طاقيتين، وفي الصباح كانت الطواقي الأربع عند البائع.

أرهقني سماعُ هذه الحكاية، التي تجاوزت فيها الغَيرةُ إلى الاستئثار ومنع الخير. أحببت أن أهزُل، سألتها: «وهل ردّت الزهرتان، الفوّاحتان، رأس المال إلى أبيهما؟ »، أجابت: «اعتذر، فقدّمتا له هدية!. »

قلت في نفسي: أيقسو الإنسان أحيانا إلى هذا الحدّ على مَن خرج من الرحم أو من الصُّلب! فأيّ تناقض يُضمره هذا القلب الثاوي وراء الضلوع!

فلوريدا: مساء الأحد ٢٢-٦-٢٠١٤

أنثى الطير القاسية!

تحت خاطرة حكاية الطواقي!، حدّث الصديق الكاتب الروائي خيري الذهبي بحكاية أنثى الطير التي قتلت أنثى أخرى استئثارًا بالذكر المتاح.

ذكّرني هذا بحكاية من قبيلها، كان رواها لي مَن زارني في عملي عام ١٩٦٨، عن أنثى طير، عاين مسألتها بنفسه: أنّ حَمَامًا يرعاه حمياتي في مزرعة، وقد أفرد لكلّ زوجين مأوى خاصًّا بهما. اتفق أنّ ذكرًا من إحدى هذه المجموعات طار يومًا في السِّرب ولم يعد، فبدا الحزن شديدًا على أنثاه.

ما لاحظه محدّثي أنّ الأنثى في الزوجين المجاورين لها، خشيت على ذكرها من أن يميل إلى الأنثى الأرملة، أو المهجورة، أو المفقود ذكرها! فكانت تهبط عندها، وتعتدي عليها بأن

تنقرها في قفاها، وهذه مستسلمة لها حتى الموت!

فلوريدا: فجر الإثنين ٢٣-٦-٢٠١٤

ولا استشرفوا مستقبل الأمة!

لست أعتَب على الأقليّات ولا على الشرائح المهمّشة من المجتمع، التي مكّنت النظام من أن يستميلها بما قدّم لها من فُتَات، أدركتْ بعده أنّ ما تناولته باليمين فقدته باليسار، كرامةً وابتعادًا عن مكوّنات المجتمع الأساسية.

ولكني ألوم رجال البلد من عام ١٩٤٥حتى ١٩٥٨، لأنهم لم يبالوا بالمهمّشين، لا ولا استشرفوا آفاق مستقبل الأمة للأجيال القادمة!

فلوريدا: ضحى الإثنين ٢٣-٦-٢٠١٤

لأنها لا تُبادر

لأنه لا يليق بها أن تُبادر

فإنها تُتقن لعبةَ أن تُغريه بالمبادرة

ثمّ

يظن نفسه الفارسَ المقدام!

فلوريد: فجر الثلاثاء ٢٤-٦-٢٠١٤

صورة فوتو.. على غلاف كتاب

لفهم ما أرويه الآن، أتقدّم بالقول: إنّ أبي رحمه الله (١٩٠٧-١٩٨٤) قُدّر له أن يُنجب تسعة عشر من البنين والبنات (أحد عشر منهم ذكور وإني أكبرهم)، وقد أنجبوا حتى اليوم

نحو مئة من الأحفاد والأسباط.

أقول: إنّ مِن بين إخوتي واحدًا يهوى المطالعة والأدب، وإن لم يكن يملك موهبة الكتابة، تأتّى له أن يقيم في سبعينيات القرن الماضي بالقاهرة، متعاطيًا الأعمال التجارية البسيطة، ولم يَفُته أن يأخذ في ذهابه إلى مصر نسخا من بعض أعمالي الروائية.

ذات يوم تلقيت منه رسالة يُسهب فيها بالحديث عن أنه يفتخر بأنّ أخاه مبدعٌ للروايات الجميلة، هذه التي يتوسّل هو بها للوصول إلى قلوب العذارى، مدّعيًا أنه المؤلف، فكان يُعير الرواية لإحداهنّ ثمّ يستردّها ليُعيرها إلى أخرى، فتخلّيت عن رصانتي وكتبت إليه مؤنّبًا: «يا منظوم! أنا أزرع وأنت تحصد؟ أنا أعاني من أوجاع الكتابة وأنت تتلقى الإعجاب! »، فكانت نكتة تُروى.

ثمّ إنه كتب إليّ معبّرًا عن بالغ أسفه لأنه كان، على الغلاف الأخير لإحدى رواياتي، صورةٌ فوتوغرافية تمثّلني، يشكو من أنّ ذلك يمنعه من الاسترسال في الادّعاء! أخي هذا، زهير، قابع اليوم في حلب، لا يستطيع مغادرتها، ومضطر للاستماع إلى وقع البراميل!

كتبت هذه الخاطرة الآن مستمدّا عناصرها الثاوية في ذاكرة زمن توارى، أيقظها تعليقٌ عابر، من الصديقة نيروز بوزان (طالبة علوم بجامعة تشرين، مقيمة على الحدود ما بين سورية وتركيا)، أشارت فيه إلى صورتي على غلاف روايتي تلك، رياح كانون (بيروت ١٩٦٨)، صورة كانت تمنع أحد إخوتي في شبابه من أن يُعيرها للمعجبات!

فلوريدا: صباح الثلاثاء ٢٤-٦-٢٠١٤

أين يقع بيتي!

حسب الخارطة المستحدثة للجمهوريّتين السورية والعراقية، تقسيمًا ولملمةَ أجزاء، التي

نشرتها مجلة دير شبيغل الألمانية الشهيرة، وقد تولّدت فيها أربع دول طائفية وإثنيّة مرسومة الحدود التقريبية، هي: السُّنية، والشيعية، والعلوية، والكردية، رأيت، وأنا اليوم في مغتربي، أنّ بيتي بدمشق أصبح يقع ضمن حدود الدولة العلوية الوليدة.

معقول هادا، يا ناس!!

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ٢٤-٦-٢٠١٤

عن الباحث الدكتور أحمد رْحَيّم هبّو

حديث ذكريات

يوم دعتني كلية الآداب بجامعة حلب، إلى لقاء يجمعني مع الطلاب لأتحدّث عمّا أسعفتني به الأيام من بنات أفكار احتضنتْها قصصٌ لي وكتبٌ وأعمال، عرفت أنّ عميد الكلية يومذاك كان من بين تلاميذ كنت أقف أمامهم على المنبر، قبل ربع قرن من الزمان، في قاعة درس هو فيها طالب في ثانوية سيف الدولة بحلب، ألقي دروسا في اللغة العربية أو في التربية الوطنية. واليوم، في الثاني والعشرين من آخر شهور العام ١٩٨٠، أقف على منبر أمام طلاب الآداب، أتلقّى منهم أسئلة، وفي الصفوف الأمامية من المدرّج يجلس العميد الدكتور أحمد رحيّم هبّو، المتخصّص باللغات الساميّة من الجامعات الألمانية، وعشرة من الأساتذة الأجلاّء، أجل، وأعطي إجابات، خلال ساعتين، ختمتهما بقراءة آخر ما كنت كتبت من القصص، سبع دقائق استغرقتها قراءة القصة لا أكثر، تدور حول ما يلحق بالمواطن المثقف - النخبة من جور السلطان، يضربونه حتى الموت، صفّق لها الطلاب كثيرا. إلّا أنّ اللقاء انتهى بأنّ العيون الواشية جعلتهم هناك، بما نقلتْ إليهم، يقرّرون سحبي إلى التحقيق، وما أجدى تدخُّل صديقي تلميذي القديم، لدى فرع الحزب بالجامعة.

وكان ما كان ممّا لست أذكرهُ فظنّ خيرًا ولا تسأل عن الخبر!

ويتعيّن عليّ أن أبيّن، هنا، أنه تلت ذلك اللقاءَ لقاءاتٌ ظلت تجمعنا مع أصحابه الذين كانوا قد شكّلوا جماعة يتبادلون فيها الزيارات في البيوت، ويرتادون المنتديات الثقافية، ويحضُرون أمسيات صباح فخري. وكلهم زملاء من تلك المرحلة الدراسية العزيزة. ومنهم الطبيب الدكتور عبد الجواد سعود (الذي هو صهري الأول). وقد رأيت فيهم من حميميّة العلاقة ما حبّب إليّ أن أستجيب لدعوتهم لي، فأتحمّل عناء السفر من دمشق إلى حلب. وكان لزوجة الدكتور أحمد، ابنة عمّه الغالية غالية رحيّم أستاذة الأدب الفرنسي، حضورُها الجميل. وأشهد أنّ الزوجين كانا مثالًا في الذوق والدماثة والرقيّ.

وليس لي، وأنا في حديث الذكريات هنا، أن أنسى آخر لقاء جمعني بالدكتور أحمد، في مؤتمر حمص في التاريخ (في الثلث الأخير من شهر تشرين الأول/ اكتوبر ٢٠٠٨)، في مطعم، انفردنا بطاولة نحن ستّة من الباحثين، أربعة من الأساتذة العراقيين رجالًا وزوجات قد تحمّلوا مشقّة السفر برًّا (لغياب السفر بالطائرات)، وقد توسّطْنا المائدةَ متقابلَين تلميذي العميد وأنا. وأذكر أني لمّا ذكرت، في التعريف، اسمه أسرع أحدهم، وهو أستاذ للتاريخ بجامعة الموصل، يعبّر عن فرحته بلقاء مؤلف كتاب المدخل إلى اللغات الساميّة، ثمّ أخذ يعّدد كتبا أخرى للدكتور احمد ومشيرًا إلى بعض بحوثه حول اللغات الساميّة، والآراميّة والسُّريانيّة. وأعتقد أنّ ما انتابني من الإحساس بالاعتزاز يضاهي أو يفوق ما اعترى صديقي صاحب تلك الأعمال.

وأذكر أني أشرت، في ذلك المساء، إلى كتاب كان قد صدر في عام قريب عن دار طلاس للدراسات والنشر بدمشق (وربما هو أطروحة علمية لصاحبته جهينة نصر علي)، المُعَرّب والدخيل في المعاجم العربية، فاستمعت إليه يوجز الرأي بأنّ موضوع الألفاظ المعرّبة لا يُغني فيه جمْع الألفاظ من مظانّها ونسبتها إلى حيث نسبها الأقدمون، بل تحتاج إلى لجنة قوامها

متخصّصون باللغات يحقّقون في كلّ لفظ وينسبونه إلى أصله. وكان هذا كلامًا صحيحًا جدًّا.

ولقاء قبله، على تباعد اللقاءات تسوقها المصادفات، أني التقيت به، مساء يوم من أواخر العام ٢٠٠٥، وأنا أحضُر الاجتماع السنوي لجمعية البحوث العلمية في فندق الأمير بحلب. كان اللقاء عابرًا في المصعد، فاستسنحت الفرصة لأسأله، وأنا أعرف منزلته الحزبية، سؤالًا ممّا جريت على أن أطرح مثله على أصدقائي من الناشطين في الحزب الحاكم واسعي الأفق، عن إسراف النظام في كذا وكذا من الأمور، مشيرًا إلى تبديده لجماعة ربيع دمشق (٢٠٠١). فأخذ يجيبني، بدماثته المعهودة، ووصل المصعد، ونزلنا، وتابع الحديث قبل أن نتفرّق. ولكنّ ما أتوقّف عنده أنه كان بصحبته أستاذ جامعي ممّن أعرف مقدار استفادته من النظام، فجعل هذا يُنقّل بصره، مندهشًا، بيني وبين الدكتور أحمد، حتى خيّل إليّ أنه يحدّث نفسه فيقول: كيف يسمح هذا الرجل لنفسه بأن يطرح مثل هذا السؤال؟

مع تزايد حزني على رحيل الدكتور أحمد رحيّم هبّو وأنا أستذكر الآن وأكتب، أعترف لكم، أيها الأصدقاء، بأنّ ما يخفّف من حزننا أنه ترك إرثًا علميًّا متميّزًا، تعتزّ به أسرته، ويستفيد منه الباحثون في كلّ مكان. أسكنه الله فسيح جنّاته.

فلوريدا: الأربعاء ٢٥-٦-٢٠١٤

أنين ينبعث من صرير قلم... كله ألم... اقرؤوا!

والله ما شربت كأس ماء، ولا تناولت طعاما، أو غسلت يديّ بماء طهور إلا ذكرتك يا وطني، الظمآن الجائع، الذي يستمر تدميرك.

وماذا أملك من أجلك إلا التذكّر، والحنين، والألم، والتعبير بالكلمة، يا وطني الذي تآمرت عليه كلّ الدنيا؟

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ٢٧-٦-١٤

الشاعر عمر أبو ريشة

سفيرًا للديبلوماسيّة، سفيرًا للإبداع

لم تؤكّد لنا المراجع المتاحة ماهيّة الدراسة التي حصّلها الشاب عمر أبو ريشة (المولود بحلب ١٩١٠) عند ذهابه إلى إنكلترا، ولكنّا نعرف أنه عُهد إليه بإدارة دار الكتب الوطنية بحلب منذ إنشائها عام ١٩٣٦.

وفي تألّقه شاعرًا ألقى، في أعقاب نكبة العرب الكبرى، قصيدة عصماء، في نادي الضباط بحلب، ألهب فيها الأكفّ والنفوس. وقد حفظنا، نحن طلاب ثانوية المأمون أبياتا منها تناقلناها. من ذلك:

أيها الجنديُّ، يا كبش الفدى يا شعاع الأمل المبتسم

ما عرفتَ البخل بالروح إذا طلبَتْها غُصصُ المجد الظمي

هل أقول: إنّ صعود نجمه شاعرًا ذا مواقف، فضلاً عن إدارته تلك المؤسسة الثقافية، قد مهّدا له الذهاب إلى السلك الديبلوماسي في عام ١٩٤٩، متنقّلاً بين أمريكا الجنوبية والهند والنمسا؟ فكان سفيرًا للإبداع مثل سفارته الديبلوماسية الموفقة، إلى أن أحيل على التقاعد عند بلوغه السنّ، وآثر الإقامة في بيروت.

ولا نبعد عن الواقع إذا قلنا: إنّ عمر أبو ريشة يُعدّ واحدًا من أربعة شعراء كبار في جيله: بدوي الجبل، والأخطل الصغير، ومحمد مهدي الجواهري، مثلما كان في الجيل الذي سبق شوقي وحافظ وخليل مطران. ويُسَلَّم له بأنه من أوائل الشعراء الذين حقّقوا الوحدة العضوية في القصيدة، كما قال أحد الدارسين: «تتنامى القصيدة بيتا بيتا، وصورة صورة في ترابط

واتساق، حتى تصل إلى نقطة الذروة«.

أكتب هذا وقد أدليت بشيء منه في نقاش ثرّ جرى اليوم في صفحةٍ تساءلَ فيه بعضهم عن المؤهِّل العلمي الذي كان يحمله شاعر، يتفوّق إبداعُه على كلّ المؤهّلات.

توفي الشاعر في الرياض عام ١٩٩٠، ونُقل جثمانه بطائرة خاصة ليُواري بحلب، وأقيم له تأبين في حلب ودمشق وبيروت.

فلوريدا: ليل الخميس ٢٦-٦-٢٠١٤

القَراصيّة

بين صباح فخري ومحمد عبد الوهاب

والقَراصِيّة، التي يُغنّي لها فنّان العرب صباح فخري، هي فاكهة تُشبه ثمرتُها ثمار الخوخ (البرقوق في مصر)، لونًا وحجمًا وطعمًا، لكن تختلف عنها بنكهةٍ حموضة مستحبّة من شأنها أن تجلو الصدر ممّا يعتاده من قَشْع.

وممّا تحدّثنا به المراجع العلمية أنّ القراصية غنيّة بالفيتامينات، وهي تنفع القلب والدماغ وتحافظ على صحة العظام، كما تنظّم ضغط الدم، وتزيد في قوة الإبصار، وتُليِّن أليافُها الأمعاء. ولكن يُنصح بعدم الإسراف في تناولها من قِبل من يعملون على تخفيف الوزن، لغناها بالسكرّيات الطبيعية.

إلّا أنّ ذلك كلّه ما كان في اهتمام عبقريّ اللحن والأداء محمد عبد الوهاب، يوم زار دمشق، ربما في مطالع الثمانينيات من القرن الماضي، فقد بدا لنا، في لقاء على الهواء في التلفزيون، عاتبًا لأنه سأل عن القراصية، التي سمع بها كثيرا، فلم يجدها. وفات فنان العرب الكبير أنّ سؤاله عنها جاء في غير أوانها وفي غير موطنها، فهي تزرع في بساتين حلب الشرقية، وفي

الصيف تُجنى.

ويُلاحظ أنّ عبد الوهاب كان شديد العناية بما يجلو الحَنجرة. ولعلّ بعض المتتبّعين يتبيّنون أنه، في تسجيل أغنيته الشهيرة المطوّلة، التي تُعدّ فتحًا في عالم الغناء: الجُندول، كان يسترق – في محاولته الجلاء– سعلاتٍ خفيّة، في أثناء العزف في الفواصل الموسيقية، ليس يدركها إلّا السمع المرهف!

وصباح فخري يصدح، بصوته الفريد قوةً ومساحة، مغرّدًا بتلك الأغنية، المستمدّة من صفوة التراث الشعبي، كلماتٍ بسيطة ولحنًا شجيًّا:

القراصية منين منين   ياللي سقوها بدمع العين

والقلب ما يهوى تنتين   بدّو وحدة حلبيّة!

والحلبيّات اليوم، وكل السوريّات، تُراق دماؤهنّ هدرًا، أو يَمُتنَ جوعًا وعطشًا وتشريدا.

فلوريدا: ليل الجمعة ٢٧-٦-٢٠١٤

وإنّ لنا الفُتات!

في ذلك المؤتمر، حول تاريخ الطبّ في الإسلام، الذي عُقد بجامعة طهران ١٩٩٢، كنّا، نحن المشاركين فيه من سورية الحبيبة، ثلاثة:

• أنا. (واسمحوا لي أن أكتبها بالقلم العريض!). وقد قُبِل بحثي مع الاستضافة وبطاقة السفر. وكان عن الطبيب الأندلسي ابن سَمْحون (بعضهم يكتبه ابن سَمجون بالجيم)،

• وطبيبٌ قد قُبِل بحثه، مع الاستضافة، لكن دون بطاقة سفر،

• وطبيب آخر، لم يُقبل بحثه ابتداءً، لكنّا وجدناه –بنفوذه– بيننا في الطائرة المحلقة بنا في اتجاه طهران.

لن أتوقّف عند معاناتنا ساعة النزول في المطار هناك. رجالٌ ونساء، ينوؤون بحَمل مشتريات من دمشق الجميلة (فهم حجّاج وتجّار شنطة)، زحامٌ وفوضى وضجيج، ورائحة عرق أجساد. واتفق أن رأينا بيننا الفنان هيثم حقي وقد جاء لحضور مؤتمر فني. لم يشفق علينا زميلنا صاحب النفوذ فيضمّنا إليه لحظة جاء من سفارتنا هناك رجالٌ يستخلصونه، وتركنا لمصيرنا، ومضى مستأثرًا بالمعزّة والإكرام.

ولكني أودّ أن أشير إلى ساعة عودتنا، أنا والطبيب الأول والزوجتان، ونزولنا في مطار الوطن. لقد انسلّ، كالشعرة من العجين، صاحب البحث غير المستوفي للشروط العلمية، داخلاً إلى قاعة الشرف متيسِّرًا أمرُه، وتركنا واقفين في صفوف الانتظار! هذا الرجل وصل، بعد ذلك اليوم، إلى أن يصبح سفيرا لنا في الخارج.

وتفصيل ذلك، أيها الأصدقاء، تجدونه في الفصل المتعلّق بزيارتي لطهران، في كتابي قمرٌ لا يغيب، هذا الذي لم تُمكّنّي ظروفُ البلد من نشره، في الدار التي أنشأتها لنشر أعمالي، قبل أن أغادر إلى حيث لا أعرف متى أعود!

فلوريدا: مساء السبت ٢٨-٦-٢٠١٤

المولود البِكر

يقولون:

الأمّ عندنا تتمنّى أن يكون مولودها الأول بنتًا، لتكون لها الصديقة التي تعتمد عليها في حياتها الآتية، ولكنها تكتم هذه الأمنية تمشّيًا مع رغبة الزوج ومَن حولها. هذا في الحَمل الأول.

هل هذا صحيح؟

فلوريدا: الثاني من رمضان ١٤٣٥ مساء الأحد ٢٩-٦-٢٠١٤

زيد وعمرو

ذات عام، وأنا طفلٌ صغير، سألني جدّي الحاج سليم المفتي السباعي، الحمصي الساكن حلب، أن أُعرِب له: ضربَ زيدٌ عَمْرًا، فما عرفتُ، لأني كنت في أول دخولي الصف الثاني الابتدائي.

ولكني في السنة التالية، أجبت عن سؤاله صحيحًا، فأدخلت السرور إلى قلبه.

ثمّ بدا أنه نسي، فوجّه إليّ السؤال ذاته في السنة التي تلت، فذكّرته -وأنا أظهِر ضيقًا- بأنه سألني هذا السؤال في السنة الماضية، وأني أجبته، وأنه سُرّ بإجابتي، وقلت: «جدّو، هات سؤال أصعب. شو فعل وفاعل ومفعول». وأذكر أنه ضحك من أعماقه، وربما زاده سعادةً ما أبديت من ضيق، وعانقني، مطمئنًّا إلى أنّ حفيده يتقدّم في النحو.

ومن المؤسف أنه لم يُقدَّر له أن يظلّ بيننا إلى يومِ أخذت القلم، وشرعت أكتب وأنشر في المجلات وفي الكتب أشياء تستحقّ القراءة. رحِمه الله.

فلوريدا: فجر الإثنين ٣٠-٦-٢٠١٤

وهل بعد رمضان الوطن رمضان!

وتسألني الأخت العزيزة ضياء قصبجي من حلب، سويعة الفجر الآن عندي والظهيرة عندها، عمّا إذا كان هناك مجال للمقارنة بين رمضان دمشق وحلب وبين رمضان فلوريدا؟

أعتقد أنّ المغتربين في كلّ مكان يحاولون استحضار أجواء الوطن بما يستطيعون من صوغ تفاصيل الحياة اليومية، وذلك ما يعِزّ على المتوحّدين، وإن كان يتاح على نحو ما عند مَن تجمّع في المغترب منهم عددٌ أكبر من الأهل والخلاّن، وإنّ لي ههنا، بحمد الله، ثلاثةً من البنات والبنين، والحفيدين ديمة ورامي. ولكلّ منهم أسرة، نحاول عبرها استدعاء التاريخ وتقليص

الجغرافيا.

وإني لأسأل: هل بعد رمضان الوطن رمضان؟ إنّ كأس ماء أملؤها بيدي من نافورة البركة في حديقة بيتي الدمشقي «أحبّ إليّ من لبس الشفوف».

وأسأل مرة أخرى: هل بقيت الفيجة فيجة، والكهرباء، والياسمين، والشحارير تزورنا من الغوطة الشرقية كالعهد بها؟

وكل عام وأنت وأسرتك، والوطن في ألف خير.

فلوريدا: فجر الإثنين ٣٠-٦-٢٠١٤

الرجعيّون يشيّعون رجعيّا

في صيف بعيد، يفصلنا عنه سبعة وأربعون صيفا على وجه التحديد، تلقّى الموظفون في الدولة، صباح يوم، أمرًا من إداراتهم بأن يتوجّهوا فورًا إلى مكان سمَّوه، ليكونوا في استقبال واحد من اثنين من أعظم قادة العالم يومذاك، رئيس الاتحاد السوفياتي بودغورني.

أسرَعوا خِفافًا، يتفقّد أعدادَهم بعنايةٍ رؤساؤهم. بدوا قوافل من موظفي الدولة، ومن المنتسبين إلى الهيئات السياسية والحزبية والمنظمات الشعبية من عمال ومحامين وأطباء ومهندسين، فملؤوا الساحة التي يطلّ عليها ذلك المبنى المتواضع المسمّى قصر الضيافة، حتى فاضت بهم فانساحوا إلى الشوارع الفرعية، ووقفوا تحت وهج الشمس عُراةً ممّا يقي رؤوسهم من الحرّ الشديد.

ولأنّ الزعيم تأخر وصوله فقد بدؤوا يُبربرون عاتبين على الزعيم الذي لا يُحكِم مواعيده، والشيوعيةِ الأممية التي لم تُلَبِّ مطالب الفقراء، والاتحاد السوفياتي الذي خاب توقّعنا فيه بالحرب التي كانت قد وقعت قبل أيام وسمّيناها نكسة حزيران، حيث احتلّ العدوّ الهضبة على

مناعتها، وصحراء سيناء على شُسوعها، وابتلع الضفّة إلى حيث لا يعلم أحد متى تُستَرد.

ثمّ إنّ المذياع أعلن أنّ الضيف تأخّر وصول طائرته، وأنه سيحلّ بيننا عند المساء، وطلب من المتذمّرين أن يعودوا إلى هنا ساعة يحلو الجوّ ويرقّ النسيم! إلّا أنّ الضيف عندما حلّ في عاصمة الشام مساء، لم يكد يجد في استقباله أحدا!

ثمّ إنّ الناس رووا فيما بعد أنّ الضيف كان في موكبه، يجتاز أحد شوارع العاصمة الجميلة، وإذا بالموكب يتوقّف لعرقلة سير. عَجِب! سأل؟ فقالوا له: هذه جنازة رجعيّ يشيّعه الرجعيّون!

ولم يكن المُشيَّع إلّا المواطن العربي الأول، الرئيس شكري بك القوتلي، الذي نالت البلاد في عهده استقلالها، وكان قد توفي قبل أيام في مشفى ببيروت غيرَ مُبالى به من النظام، يشيّعه الشعب الآن إلى مثواه الأخير.

فلوريدا: فجر الثلاثاء، الأول من تمّور/ يوليو ٢٠١٤

مشادّة.. على باب حمّام النسوان!

وأهابت به أمُّه قبل أن يصلوا إلى باب الحمّام، أن يُقَصِّر قامته. ولكنّ ذلك ما كان يخفى على عين المعلّمة، الباركة كالجمل على مصطبتها تراقب النسوان!

لما رأته مندسًّا بين إخوته يريد أن يتوارى، رفعت صوتها غاضبةً: «والله حرام عليك، يا أم علي! ابنك، ما شاالله، صار رجّال، تجيبه معك لحمّام النسوان! »، فتدافع أمّه: «هـ الولد بنظرك صار رجّال! «، فتقول المعلمة: «روحي جيبي أبوه فرد مرّة! ».

مشادّة بات يعرف تفاصيلها منذ طالت قامته. مئة مرة يقول لأمّه: «يامو! مشان ألله خلّيني أروح مع أبي لحمّام الرجال»، وهي تسخر منه: «حتى ترجع لي بأوساخك».

وكانت تشهد هذا النِّقَار وتشاركُ فيه، نسوةٌ يكنّ في البرّاني على مقربة من مصطبة المعلّمة، بعضهنّ يقترحنَ التسامح على أن تكون المرة الأخيرة، وهؤلاء هنّ العجائز العطوفات، ولكنّ الأصغر سنّا كنّ يستنكرنَ دخوله حمّامهنّ. وأما الصبايا، فكنّ يَشْدُدْنَ مآزرهنّ إلى ما فوق الأثداء، وهنّ يبتعدنَ عن أنظاره!

من قصة حمّام النسوان بتصرّف، حلب ١٩٥٦، ١٩٦٣، من كتاب حياة جديدة (ط ٣، دمشق ١٩٩٢)

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢-٧-٢٠١٤

الموت قتلًا

الموت تشريدًا

الموت تجويعًا وحرمانَ دواء.

فلوريدا: مساء الأربعاء ٢-٧-٢٠١٤

في حمّام النسوان بين فكّي كمّاشة!

والذي كان، أيها الأصدقاء، أنّ الولد علي سمحت له المعلمة، بعد المشادّة بينها وبين أمّه وراء الباب، بالدخول، على أن تكون هي المرة الأخيرة. وأقتطِف لكم الآن حالة ممّا جرى له في حمّام النسوان، عملية الاستحمام (غسل الرأس أولًا)، في الخَلْوة التي مكّنتهم القَيّمة من الدخول إليها، مشاركين فيها أمهاتٍ وما حولهنّ من أولاد.

أخذت أمّه تدلق طاسات الماء تغرفها من الجرن على رأسها وجسدها، وهي تتشاهد وتقول: «الحمد لله على نعمة النظافة، ما أحلى الحمّام!».

ثمّ تناولته هو، وجعلته بين ساقيها، وشمّت رأسه: «ريحتك خْمَام!»، احتجّ. «بلّشْنا! ريحة

راس ولد ما استحمّ من أسبوعين!». ودلقت عليه طاسات أولى، صرخ: «ساخنة أمي، برّديها!»، قالت: «وكيف أنظّفك، يا أوسخ ولد! (ثمّ بأسف) هذي آخر مرة، وبعدين يستلمك أبوك!». وعصرته بين ساقيها فأصبح محبوسا وكأنه بين فكّي كماشة من حديد.

تمّ أول، تمّ ثان، [1] ثالث... وهو يُعاني ويَعُدّ حتى العشرة، وتُمرّر في شعره ذلك المشط العظمي اللعين الذي يحسّ وكأنّ أسنانه تنغرز في جلدة رأسه.

وآن لها أن تُطلقه، لتتناول أخاه وتُحكم حوله كمّاشتها. انتصب هو واقفًا، سألته، قال: «إلى الوسطاني أشمّ هوا، أكاد أختنق! ».

وفي الردهة رأى صبية جميلة شقراء، تخطر أمامه خارجة من الجوّاني، وقد بدا جسدها بعد التفريك مورّدا. تعلّقت بها عيناه. لاحظتْه، وهي تتوجّه إلى خلوتها، فارتفعت منها اليد لتستر بمئزرها النحر والكتفين، فغضّ بصره استحياء: يبدو أنّ النساء هنا صدّقوا أنه أصبح رجلا!

من قصة حمّام النسوان، حلب ١٩٥٦، بتصرّف، في كتاب حياة جديدة

فلوريدا: فجر الخميس ٣-٧-٢٠١٤

لندن ٤١.. حلب ١٤

وأنا طفل في العاشرة، كنت أستمع مع الناس، في ابتداء الحرب العالمية الثانية، إلى إذاعة هنا برلين، صوت المذيع العراقي يونس بحري، وهو يتلو الأخبار، ينقُر بين الخبر والآخر، على ما نظنّه شبيها بطاسة من نحاس، ويُعلِمنا بأنّ أسراب الطائرات التي انطلقت في يومه من ألمانيا قد عادت إلى قواعدها سالمة، بعد أن ألقت حمولتها فوق لندن.

وما كان ليخطر في بال أحد يومذاك، أنه سوف تأتي أيامٌ على السوريين، تنطلق فيها

---

(١) في لهجة حلب، غسل الرأس مرة واحدة: تِمّ، وتِمّين: غسله مرتين.

طائراتنا الحربية من العاصمة دمشق قلب العروبة النابض، لتُلقي حمولتها على حلب عاصمة الصناعة والعمران والتراث، وتعود إلى قواعدها سالمة.

الجديد هنا أنّ طائرات اليوم، الوطنية، لا تُلقي قنابل من نوع تلك التي كان يتبادلها الطرفان المتعاديان هناك، بل تُسقط براميل متفجّرة فتّاكة، تدكّ البنيان، وتجرف المعالم، وتُبيد النساء والأطفال. ثمّ تبدو البهجة واضحة على وجوه يونس بحري الجُدُد فرحًا بالإنجاز.

فلوريدا: ضحى الخميس ٣-٧-٢٠١٤

في حمّام النسوان، حوار في بيت النار!

اعتادوا أن يطلقوا على الجوّاني في الحمامات العامة اسم بيت النار لحرارته الشديدة. دفعته أمّه أمامها، مجتازةً به القنطرة. أخذ يحسّ بالعرق يتصبّب من جسده، وأيقن أنه مقبلٌ على المعركة الكبرى!

وما هي حتى أشهرت كيس التفريك الأسود الذي لبسته في كفّها، تمرّ به على جسده كالمنشار. قالت وهي تحدّق إلى زنديه: «قنطار وسَخ... تفو!».

نوى ألا يهادنها هذه المرة، قال: «بدأنا!».

ـ تستحمّ مع الرجال، آآ! من يعرف يكيّسك مثل أمّك؟

هادنها: «طيّب، آتي معك إلى حمّام النسوان».

ـ ومقصوفة الرقبة؟ (وأمَرَتْه) أدِرْ ظهرك.

استدار. أخذت تحكّ في موضع لا تفارقه، صرخ: «أمي! هرأت ظهري. تحوَّلي إلى موضع آخر مشان الله! هذا لحم مو حجر!

ـ وفتايل الوسخ التي تتساقط منك؟

ـ هذي ليست فتايل وسخ، إنها لحمي، يامو!

رَبَتَت ظهرَه: «الآن صار ظهرك مثل المرآة».

قال متوجّعا: «وما لزوم المرآة على ظهري، يا أمي! ».

ـ إذا ظللت على كراهيتك للنظافة، فألله أعلم لن تجد بنتا ترضى بأن تكون زوجة لك!

ـ صرت أكره النسوان من أجل هذا الكيس!

أمرته: «نزّل لباستك حتى أكيّس أليَتَيْك. «!

ـ كيّسي من تحت.

ـ نزّل، خلّصني، بدّي أشتغل بغيرك.

ـ لا أنزّلها أمام النسوان، يتفرّجوا عليّ!

رآها تضحك: «صدّقت، يا ضرسان، إنك صرت رجّال!. «

من قصة حمّام النسوان، حلب ١٩٥٦، بتصرف، كتاب حياة جديدة.

فلوريدا: فجر الجمعة ٤-٧-٢٠١٤

ولكنه ضَحِكٌ كالبُكا!

أضحكتُ سنّكم، تقولون!

والذين يُعانون تجربة الموت؟

الموت تحت الأنقاض!

الموت على قارعة الطريق!

المنتحِبات على أمواتهنّ!

المستَلْقون فوق جثث الأبناء والبنات!

يُراودني شعورٌ بأني خُنتُهم!

ولكنّ ما يُخفِّف من هذا الألم

أنّ ما قدّمت لكم

كان ممّا كتبت قبل ستّين عاما.

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ٤-٧-٢٠١٤

في حمّام النسوان تعاسة.. في آخر الليل!

أهو نافلةٌ من القول إمّا بيّنتُ لكم أني كتبت هذه القصة عن الحمّام وأنا في العشرينيات من عمري، وقد استهواني رصْدُ تفاصيل من الحياة اليومية في مجتمعي، متطلّعًا إلى ما هو أرحب؟

قدّمتُ القصة من إذاعة حلب في شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦. فلمّا لاحظت مقدار الاستحسان الذي نالته عند المستمعين، ثمّ عند القرّاء إذ نُشرت في مجلة الأديب اللبنانية (نوفمبر٥٦ (، ثمّ بعد أن ظهرت في أولى مجموعاتي القصصية "الشوق واللقاء" (حلب ١٩٥٨)، عزمت على إعادة كتابتها لكن مطوّلةً، مضيفًا إليها ما أمدّتني به الذاكرة الشعبية، فجاءت خمسة أمثال ما كانت عليه طولًا، ونزلت بعنوان الحمّام في الطبعة الثانية من كتابي الآخر حياة جديدة (بيروت ١٩٦٤)، الذي أدرجتُ في آخر صفحات طبعته الثالثة (دمشق ١٩٩٢) شهادات لعديد من الكتّاب في أدبي، كان لهذه القصة منها نصيب وافر.

إنّ ما قدّمتُه، أيها الأصدقاء، في الحلقات الثلاث الماضية، لا يعدو أن يكون محطّات اخترتها، ربما كانت هي الأكثر إثارة وتأثيرا اجتماعيا وعاطفيا وطرافة: مشادّة على باب الحمّام، بين فكّي كمّاشة، حوار في بيت النار.

وقد أكون أخفقت، الآن، في أن أنقل محطة أردتها أن تكون الأخيرة: معاناة الأمّ المنهكة، والزوجة المهمَلة من رجل يضنّ بأن يأتي إلى باب الحمّام ليصحبها وأولاده إلى البيت، في سواد الليل وزمهرير الشتاء، وهي تتصوّره الآن يكرع السمّ مع أصدقاء السوء!

عندما صحت هذه المرأة إلى نفسها في آخر المساء أدركت مدى التعاسة التي تعيش فيها، فأخذت تندب حظّها وتبكي، مخاطبةً ابنها الأكبر: أسعى وأركض وأُفني عافيتي، ثمّ لا ينالني منك ومن أبيك سوى الشقاء! أين هو الآن؟ قلّة وذلّة! لا يسأل عني، لا يسأل عنكم! أخرج من الحمّام، نظيفة مثل الياسمين، فلا أراه! ما هذه الحياة يا ربي؟ زوجي على فقره يُهملني، وأولادي يعذبونني!

كان عليّ يستمع، يُصغي. رقّ قلبه لندب أمّه الحزين. أمعن النظر إليها. رآها حقا جميلة ونظيفة وناصعة، مثل الياسمين. يحبّها. إنه يحبّ أمّه كثيرا. ثمّ ما أحس إلّا والدموع تسيل على خدّيه: لماذا يعذّب هو أمّه؟ لماذا يهملهم أبوه؟

هل تأذنون لي أصدقائي، بأن أقدّم في الغد شهادات لكتّاب كبار: ستّ الشام الأديبة إلفة عمر باشا الإدلبي، المجمَعيّ الأردني الدكتور عيسى الناعوري، الشاعر الحلبي علي الزيبق، والقاضي من جبل العرب توفيق أبو عياش، وآراء لأدباء وقراء ارتقت إلى أن تأخذ مكانا لها بين الأدباء الكبار؟

فلوريدا: فجر السبت ٥-٧-٢٠١٤

في حمّام النسوان إلفة عمر باشا الإدلبي.. والتجربة الذاتية!

ممّا جاء في رسالة مؤرخة في ١٠-٦-١٩٥٩ تلطّفت بكتابتها إليّ ستّ الشام الأديبة الكبيرة إلفة عمر باشا الإدلبي بعد أن بعثت إليها، من حلب إلى دمشق، بنسخة من الكتاب الذي

تضمّن قصة الحمّام في وضعها الأول، قالت ما يتعلّق بهذه القصة:

»وأمّا قصة الحمّام فهي صورة صادقة عن حياتنا الاجتماعية، وما أحرانا أن نؤرّخ أدبيًّا لهذه الصور الآخذة بالزوال، فإنها تكون ولا شكّ مصدرا صادقا لكتابة تاريخنا الاجتماعي في المستقبل«.

وخطر لها -رحمها الله- أن تسألني: «بربك، أليست القصة تجربة ذاتية؟ «

وأذكر أني كتبت لها (وليس أرشيفي قريبا مني) ما معناه أنّ ذكريات الإنسان في العشرين السنة الأولى من حياته، هي الأغنى والأغلى، وهي منبعٌ ثَرّ للكاتب الروائي، ومنه يغترف. ولكن ذلك لا يعني أنّ ما يخطّه يراعه هو كلّه ممّا كان وقَع. إنّ للخيال، منذ يشرع في كتابة النصّ، إنّ للإبداع، دورَهما الأسمى: التعديل بالحذف والإضافة والتجميل والتزويق. وإلّا ما كان هناك فنّ روائي. وإنه كثيرا ما تنبَتّ الصلة بين النصّ والأصل الموحي. أذكر في ذلك أنّ بعضهم قد يروي لي حادثة وقعت له وتأثر بها، فأستوحي، وعندما يقرأ لا أعدم منه احتجاجا بأنه لم يجد نفسه فيما كتبت! وما كان هذا ليهمّني.

في قصة الحمّام أخذتُ، من تجربتي صغيرًا، المعاناةَ من التغسيل في الخلوة، ومن الوجع من الكيس الأسود، أمددتُها بخيوط من وقائع أخرى، وأخذت أنسج على نَوْلي، سَدًى ولُحْمة: مُشادّة على الباب، مَعْك الرأس، الفتايل... وختمتها بشكوى الأمّ من إهمال الزوج لها عائدةً إلى بيتها كزهر الياسمين. ذلك تفسير مني، وأنا في الخامسة والعشرين من عمري، بأنّ إسراف الأمّ في النظافة هو تعويض عن حرمانها من أن يحتضنها الزوج الآبق.

يقينًا ليس هذا ما وقع في أسرتي، فإنْ ظنّ ظانّ، فهي شهادةٌ بأنّ نبض القصة، أنّ التخييل الذي قدّمتُ، جعلاه يظنّ، وأحبِبْ به من ظنّ!

فلوريدا: فجر الأحد ٦-٧-٢٠١٤

هل كان يمكن لحزب الله

أن يرسل قواته

للمشاركة في الحرب بسوريّة

لولا رضًا من إسرائيل

الحارسِ غير الأمين في المنطقة

ولولا مباركةٌ منها

تصاحبها قهقهات فرح؟

فلوريدا: ليل الأحد ٦-٧-٢٠١٤

في حمّام النسوان الكتابة عن الناس البسطاء

زارني، في صيف ١٩٧٤ على سبيل التعارف، طالب بجامعة دمشق، متخرّجٌ طبيبًا أو كان على أهْبة التخرّج، اسمه مازن حَمَد. وقد قدّمت له، بعدما تبيّنت فيه اهتمامًا بالأدب عبر فكره السياسي اليساري، كتابي حياة جديدة. وما هي إلّا أيام حتى كانت بين يديّ رسالةٌ منه مطوّلة (مؤرخة ٦-٨-٧٤)، يعبّر فيها عن رأيه بقصص الكتاب، ومنها الحمّام. وبدا سخيًّا بالإشادة بأنها تحكي حياة الناس البسطاء العاديين!

وهذا مقتطف من الرسالة (نزل في أخر صفحات الطبعة الثالثة من الكتاب، دمشق ١٩٩٢):

«وخيّل إليّ وأنا أقرأ قصص الكتاب، أني أعرف كلّ واحد من شخوصها، فهم يتحرّكون أمامي، وأنا أسمع كلماتهم وأشهد تصرّفاتهم، فشخصيّاتهم منتزعة من الواقع غير مفروضة عليه، وهي واقعية مستمدّة من حياة الأغلبية الساحقة في مجتمعنا: الناس البسطاء العاديين،

هؤلاء الذين لا يروق لبعض الكتّاب أن يكتبوا عنهم على صفحاتهم المصقولة. وإذا كتبوا فإنّ كتابتهم تجيء من فوق!

وهي أيضًا واقعية جريئة، وبالخصوص في قصة الحمّام، التي يصوّر المؤلف لنا الواقع بواقعية -إن صحّ التعبير- وبلا مكياج أو تزيينات إضافية قد تؤدّي إلى تشويه معالم اللوحة بدلًا من إضفاء الجمال عليها. وهذا يجعلني أطلق على فاضل السباعي اسم: الكاتب الإنسان.

إني ألوم نفسي كثيرا على ما فاتني من أيام كنت فيها أجهل أحد أدبائنا الكبار [أخجلتم تواضعنا!]. ولكنّ ما يخفّف من وطأة شعوري بالذنب أنّ المسؤولية لا تقع كلّها على كاهلي، بل يشاركني فيها أولئك الذين يخافون الكلمة الصادقة فيحاولون دفنها«.

ولم أقرأ للطبيب الدكتور مازن حمد، بعد هذه الرسالة، أدبًا، مع أنّ له نظرًا فيه وفي جماليّة المستوحَى، ولكني علمت أنه يعمل منذ مدة طبيبا ناجحا في أحد مشافي الولايات المتحدة الأمريكية. له مني التحية.

فلوريدا: فجر الإثنين ٧-٧-٢٠١٤

مهندس في جيولوجيا البترول يداعب القلم

ظلّ بعض أصدقائي الأعزّاء يُطرون -تكرّمًا منهم- ذاكرتي (التي لـمّا يصل إليها ألزْهايْمر)، مع أني أعرف أنّ كثيرا منهم يضاهونني في قوة الذاكرة، منهم الصديق ابن أسرتي الحمصية المتفرّعة في الأرجاء، المهندس هيثم السباعي الذي يحرص على أن يقرن باسمه فرعَ الأسرة: دْرَاق، على حين أني لا أذكر فرعي المفتي إلّا في نادر الأحوال.

كتب العزيز هيثم، بالأمس القريب، كلمة ترقى إلى مستوى الأدب بمعنيَيه. وهو الذي أراه يداعب القلم جوّالا في صفحته في مجالات شتى حتى التاريخ، وأخصّ تاريخ مدينته حمص

المَرَزّأة، مستحضِرًا من ذاكرته الغنية أول لقاء جمع بيننا في باريس أواخر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٧، متجاوزًا لقاء قبله، يوم زرته في مقر إدارته في حقول النفط في أقصى الشمال الشرقي من الوطن في ربيع العام ١٩٧٧، فقد كنت ضيفا على المركز الثقافي في الحسكة ثمّ على مثيله في القامشلي. وقد رغب مدير الثقافة يومذاك صديقي وتلميذي زهير غزاوي في أن نزور حقول النفط، فتلك فرصة. وكان اللقاء الأول بيني وبين المهندس هيثم. وأذكر أنه هتف إلى بيته ونحن في ساعة الظهيرة ملتمسًا من زوجته الفاضلة إعداد غداء، مع أنه كان هناك مطعم في مكان العمل، إمعانًا منه في الإكرام، ثمّ كان اللقاء التالي في أواخر ذلك العام في باريس. وأشير إلى أني لم أعرف شخصه من الوهلة الأولى، فقد كان ملتحيًا على استحباب. ولم أكن قد اتخذت لحيتي الصغيرة في أعقاب خروجي من الاعتقال. واستمرّ تواصلنا، ونحن في باريس عام ١٩٧٨، أزوره في بيته بضاحية نانتير Nanterre في الشمال الغربي من مدينة النور، أبلغ بيته وأنا أسكن جنوبها في كاشان Cachan، مغَيِّراً أربع مواصلات. ومرة ذهبت إليه وفي رفقتي صديقة يابانية. وسوف أظلّ أذكر أحاديث السمر، وأيضًا مائدة العشاء، بمكوّناتها الشامية، التي أفتقدُها في غير بيته الكريم، تشرف عليها ربة البيت الدمشقية، وتؤنسنا في ذلك الطفلتان مايا ودانة وشقيقهما أغيد المولود حديثا.

وما لا يعرفه ابن العم هيثم أني في كانون الأول/ ديسمبر من العام ١٩٨٣، كنت في موسكو ضيفًا من اتحاد الكتّاب العرب بدمشق على اتحاد الكتّاب السوفيات، فعرفت من الإعلامي السوري الشاب فايز الصايغ أنّ قريبًا لي، هو المهندس هيثم السباعي، يزور موسكو حينها، ولم يُقدّر لي الاجتماع.

وأما قصتي عن الحمّام وأمثالها، فقد بدأت، يا ابن العم، في استيحاء الأجواء الشعبية التي يُخيّم عليها الفقر والجهل والمرض، منذ نويت أن أكون في عداد الكتّاب أوائل خمسينيات القرن

الماضي، ثمّ زاوجت ما بين هذا وبين موضوعات أخرى بُعيد ١٩٦٣، أنسُل شخوصها من دنيا المثقفين الذين يتعرّضون للإقصاء والقهر والموت.

كان تعليقك، يا أستاذ هيثم، على مَن كَتب تحت خاطرتي: ولكنه ضحكٌ كالبُكا (ظهيرة الجمعة ٤-٧-١٤)، مستوفيًا كل الشروط الجميلة عدا واحدا: أنك بدلًا من أن تنزّله تحت تلك الخاطرة، وضعته سهوًا تحت خاطرة أخرى: في حمّام النسوان ٤ - تعاسة في آخر الليل. وما زلت أنتظر أن تتلطّف بنقله إلى مكانه المناسب.

قبل عام ويزيد حاولت أن أحصي حَمَلة القلم من آل السباعي، ابتداء من مراد السباعي وأخيه خليل، وفاضل السباعي وشقيقه نادر، ووليد السباعي، إلى أن عرفت أخيرا أنّ زوجة الشاعر محمد علاء الدين عبد المولى سوسن السباعي تكتب الشعر المنثور. واليوم أهمّ بأن أضيف هيثم السباعي (المقيم في كندا منذ ١٩٩٨)إلى القائمة، فقط أنجِدنا بكتاب لك تجمع فيه ما يخطه يراعك من القول الجميل.

فلوريدا: ضحى الإثنين ٧-٧-٢٠١٤

في حمّام النسوان أمّ علي. تحليل سيكولوجي

في مطلع العطلة الصيفية لعام ١٩٦٨، دخل علَيّ، وأنا في مكتبي بوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل- فرع دمشق، فتى دون العشرين، طويلٌ نحيل، ذو نظارة مستديرة العدسات، يسألني ما كان يريد اغتنامه من فرصة عمل في الصيف، ليجمع قرشين من عرق الجبين، قبل دخوله السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية، ولم يكن هذا متاحًا على نحو ما يريد، ثمّ بادرني يسأل: «ما هذه الضجة المثارة حول أدبك في مجلة الأديب اللبنانية؟.«

وتبيّن لي أنه كان قد سأل أحدهم، قبل دخوله عليّ، عن اسم صاحب المكتب، فعرف أنه

واحد من الكتّاب الذين يقرأ لهم في نلك المجلة، وكان قد اطّلع على كتابي حياة جديدة (ط بيروت) في مكتبة أبيه، الموظف في وزارة المالية وقد سبق التعارف بيننا، وعرفت أنّ هذا الفتى مولعٌ بالقراءة ولعًا، حتى إنه لم يدع كتابا في مكتبتهم البيتية، من أدب معاصر وقديم، إلّا قرأه.

وليس يدري أحد كيف دخل عليّ بعد أيام وفي يده دفتر ممّا يستعمله تلاميذ المدارس، قد ملأ صفحات منه بكلام جدير بالقراءة، يدور حول كتاب "حياة جديدة"، كانت فيه اللغة تفوق سنّه الصغيرة جدا.

لم يُصدّقني، لا ولا صدّق نفسه، أنّ هذا الذي كتب في العشيّة يصلح للنشر، ولكنه حمل المقالة منسوخة على الآلة الكاتبة، ومضى بها إلى مجلة المعرفة (التي تصدر عن وزارة الثقافة، وكان يرأسها معاون الوزير أديب اللجمي)، تسلّم منه المحرران (ظافر عبد الواحد ونوّاف أبو الهيجا) المقالة مع وعد بالنظر. فلما راجعهم اتّهموه بأنّ مؤلّف الكتاب هو من كتب المقالة عن نفسه ونَحّله إياها، كما يفعل بعض الكتاب أحيانا!

غضب الفتى نبيل حمود لنفسه ولكرامة المكتبة التي قرأها في البيت عن بكرة أبيها، وذهب إلى أبيه يشكو. كانت أسرته من مدينة يبرود التاريخية شمالي دمشق، التي ينتمي إليها المفكر الكبير أنطون مقدسي وهو أحد أركان وزارة الثقافة. فجرى التهاتف. وما انصرم العام إلا كانت المقالة منشورة في آخر أعداد تلك السنة.

وإليكم، أيها الأصدقاء، الفِقرة التي خصّ بها نبيل حمّود في مقالته قصة الحمّام، ديباجة متينة، وعبارات جزلة، ومعرفة بعلم النفس أيضًا!

كتب:

«والطفل علي في قصة الحمّام جازِعٌ من أمّه، فهي قاسية غَشُوم، ما تفتأ تضربه ساعة الاستحمام كلما ندّت عنه حركة. فهي امرأة مكبوتة في بيتها قد تحكّم فيها زوجها وطغى عليها،

وهو يتركهم ليذهب إلى حيث الكؤوس الدِّهاق.

إنها، والحالة هذه، لا بدّ أن تبثّ أشجانَها ووجْدَها، وتقتل كَمَدَها، فلا ترى شفاءً لذلك إلا ضرب ابنها. وهذا تحليل سيكولوجي من المؤلّف نستشفّ منه تمرّسه ومعرفته بالعُقَد النفسية ومركّبات النقص!«.

دخل نبيل حمّود كلية الآداب، وغدا أستاذا للغة العربية في الثانويات الرسمية، وتوثقت الصداقة بيني وبينه. والغريب أنه لم يكتب بعد تلك المقالة مقالة!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٨-٧-٢٠١٤

عَمَى البصيرة

قبل يومين (في السابع من تموز ٢٠١٤) شاركت في صفحتي، من شبكة أخبار مدينة درعا، بصورة لثماني جثامين لأسرة واحدة، ملفوفة بأكفانها البيضاء ومنتظمة واحدا بجوار الآخر. وقد تمّ التعريف بها من قِبل الشبكة:

»مجزرة حدثت في داعل [محافظة درعا] نتيجة القصف بالبراميل المتفجرة راح ضحيتها عائلة من مدينة نوى كانت نزحت هربا من براميل الموت لتلقاها البراميل في داعل، نزحوا معا، ثم رحلوا معا. حسبنا الله ونعم الوكيل«.

وتساءلت من ناحيتي: «هل إسرائيل التي تقتلنا؟«.

فجاءني تعليقان:

أولهما: «حسبي الله ونعم الوكيل«،

وثانيهما كتبه ناشط من بلد المليون ونصف المليون شهيد يقول: «إسرائيل هي التي تفعل ذلك يا أخي«.

ولهذا أقول: إنه لمن الصعب أن يفقد الإنسان نعمة البصر، ولكن الأصعب أن يُحرم من نعمة البصيرة!».

وحسبي الله ونعم الوكيل.

فلوريدا: مساء الأربعاء ٩-٧-٢٠١٤

أيّة أحلام!

هل استجاب الوليّ الفقيه لندائه، سبحانه، بأن يبدأ في التمهيد لخروج المهدي المنتظر من غيبته الطويلة، فيزحف باتجاه الغرب لا يلوي؟

تمامًا كما استجاب بوش لنداءٍ من الربّ، بأن يغزو العراق، تحقيقًا لرؤيا يوحنّا، فيقسّم بابل إلى ثلاث، تكون بعدها حرب مجدو تُغرق بطاح فلسطين بدماء مئة مليون من أبناء البلاد (يعني العرب المسلمين!) قبل أن ينزل المسيح، فيتنصّر يهود إسرائيل، ويحُلّ في العالم السلام!

فأية أحلام ورديّة، أو دمويّة، تدور في خَلَد الغيبيّين، يتعيّن على سكان المعمورة أن يتحمّلوا أوزارها!

فلوريدا: فجر الخميس ١٠-٧-٢٠١٤

لا إقامة

لا رعاية صحيّة

لا دخل، لا عمل

ضيفٌ تُثقِله السنون

ويظنّ الشانئون

أنه في خمس نجوم يقيم!

فلوريدا: ضحى الخميس ١٠-٧-٢٠١٤

ما تبقّى منها

ذات يوم حدّثني زعيمٌ منهم يرأس جماعة فلسطينيّة، أنّ «الضفّة راحت! «.

سألته مقهورا: كيف؟

قال: أكلتْها المستوطنات والطرقُ الالتفافيّة التي تقود إليها!

قلت: يعني كم بقي منها لكم، لنا؟

قال: بحدود الثلث!

توسّلت إليه: لا تقل هذا، أرجوك. أنت تُبكيني! ماذا فعلتم خلال الأيام؟ أين الشعارات التي هتفتم؟

ورأيت صورته تَغيم في عينيّ، وهو ينسحب لحظة رفعتُ كفّي إلى وجهي

فلوريدا: ظهيرة الخميس ١٠-٧-٢٠١٤

لا تشتم شعبك

ظنًّا منك أنك تنجو من عاره

فأنت جزءٌ من هذا العار المظنون.

فلوريدا: فجر الجمعة ١١-٧-٢١٠٤

خبِّرْني، أيها القمر!

تلكّأت ذاكرتي بأن تُمِدّني بعدد الأيام التي صُمنا. خرجت بعد الإفطار إلى الحديقة. ومن بين أشجار الغابة، تكحّلت عيناي بمرآه، هذا الذي مرّ قبل سويعات في سماء بلادي: إيه، أيها القمر! خبّرْني كيف الناس هناك؟

باحت لي استدارتُه بأنّا بلغنا النصف من هذا الشهر الكريم، ولكني لاحظت أنّ وجهه تورّد بمثل ما تستحمّ أرض الوطن ليل نهار!

كل عام والمسلمون والعالم بخير... وأيّ خير!

فلوريدا: ليل الجمعة ١١-٧-٢٠١٤

في حمّام النسوان والشعر الحرير!

بعد منتصف الليل عندها، دخل يسألها: هل تسمحين بأن أسألك: الإعلان، الذي تنشرين في موقعك موسيقى الحرية الجميلة، هل أنت متأكدة من صحة ما جاء فيه فلا يكون مزيّفا؟

كتبتْ متأنّيةً: أعتقد بصحّته!

قال: ذلك أنه إن لم يكن صحيحًا مضمونُه السخيّ (إسعاف المصابين في الوطن بتركيب أطراف اصطناعية مجانًا، في القارة الأمريكية، والسفر على نفقة المسعفين)، فإنّ ذلك يسبّب لهم خيبة في القلوب!

قالت: جميل أن تلفحني منك هذه الغَيْرة الإنسانية.

قال يُجاسنها القول: وجميل ما يلاحظه المتصفّحون عندك عن نشاطك الإغاثي.

قالت: أسألك، يا سيدي الكريم، بعد أن راق الحوار بيننا: هل اسمك -الذي يظهر لي

الآن على الشاشة- يدلّ على أنك الكاتب القصصي المعروف؟

قال: يُفترض ذلك!

قالت: أنت صاحب كتاب حياة جديدة!

قال: نعم، سيدتي.

قالت، وقد خُيّل إليه أنه يسمع صوتها: يا إلهي! دعني أحدّثك عن حاسّة غريبة عندي! إني أتذكّر أحيانًا أمرًا قديمًا، ثمّ لا ألبث أن أصادف في يومي ما يتعلق بهذا الأمر! مثلا تخطر على بالي أغنية قديمة، تروح تتردّد في سمعي طول النهار، ثمّ يتّفق لي أن أستمع إليها تذاع من الراديو! وقع لي، قبل أربع ساعات، أني قلت لصديقة لي استحمّت لتوّها، وكأنني أقرأ في كتاب: «قالت الأمّ لولدها: ألا ترى فتايل الوسخ تنزل من جسمك، يا ولدي، أجابها الطفل: هذه ليست فتايل وسخ، إنها لحمي يامو! »، فسألتني صديقتي: «ما هذا الذي تقولين؟ »، قلت: «عبارة وردت في قصة قرأتها وأنا في الوطن! ». فضحكنا طويلاً. الآن، يطلع لي كاتبها في الفيسبوك! اليوم أتذكر قصة الحمّام ساعة المساء، وفي منتصف الليل أصبح وكاتبها صديقين! ولكن المشكلة، يا أستاذي، أنّ مثل هذا الحظّ لا يواتيني في اليانصيب!

قال: منذ متى قرأت القصة؟

قالت: من عشرين سنة وأكثر.

قال: وأعجبتْك؟

قالت: جدا، وزعلت ع الولد!

قال: ما رأيك في أن تترجميها إلى الإنكليزية؟

قالت: لغتي الفرنسية أقوى.

قال: طيب، إلى الفرنسية. في ترجمة هذه القصة يفضَّل أن يكون المترجم أنثى لخصوصية النصّ، وأن تكون حلبيّة للممارسة الشديدة في عملية الاستحمام!

قالت: هون حطّنا الجمّال، والمصطلحات؟ يمكنني أن أجد مقابلا بالفرنسية لكلمات مثل البرّاني، الوسطاني، الجوّاني، ولكن كيس التفريك الحلبي هذا، والبيلون[١] الذي تُغرق به الحلبية رأسها في الحمّام، كلٌّ من هذين اللفظين يحتاج إلى شرح!

قال: لعلمك كيس التفريك الأسود يُصنع من خيط خشن، حتى يتمكّن الكيس من قشر أوساخ الجسم! والبَيْلون؟ هذه الكلمة مستمدّة من اللغة الإغريقية، بيلونيوم، ومنها كلمة البلاّنة، المرأة التي تُدير شأنا في حمّام النسوان، وهناك بيت البلاّنة في معرة النعمان. البيلون نوع من الطَّفْل، حجرٌ يتفتّت، يذوب، عند النقع في الماء، وتنحلّل ذرّاته حتى فقدانها الرمليّةَ، يُقتلع من أرضٍ بلدة في ريف حلب اسمها كشْتْعار. من خصائص البيلون أنّ المرأة الحلبية تَلْطَخ ساعة الاستحمام شعرها بطينته، وتتركها على رأسها حتى تجفّ، ثمّ تغسلها... تكون قد امتصّت ما علق بالشعر من أوشاب، فيغدو شعرها بعد الاستحمام أنعم من الحرير، ويتنعّم به زوجها.

احتجّت: سنذكر هذا في الشرح عند ترجمة القصة؟ الزوجة تنعّم شعرها من أجل أن يتنعّم زوجها بشعرها الحريري! يا سيدي الكريم! هنا، في ترتيب مكوّنات العائلة، تأتي الزوجة في المقدمة، يليها كلب العائلة، وبعدهما الزوج [كأنه يسمع ضحكتها!] لسوف تُثير بقصتك عليّ زوبعة من الانتقادات: تهبّ الهيئات المدافعة عن المرأة، يقولون: ولماذا لا تُنعّم المرأة شعرها لتستمتع هي به، ويطلقون ألسنتهم بأقوال قد تبلغ حدّ الشتائم. لا، يا أستاذ، أنا لا أتورّط في

---

(١) البيلون أو ما يطلق عليه الترابة الحلبية هو عبارة عن صخور ذات لون أحمر ورمادي تشتهر بها محافظة حلب، وكانت قديما تستخدم إلى جانب الصابون الغار في الاستحمام من أجل صحة الشعر وجماله.

ترجمة هذه القصة!

وأدرك شهرزاد الصباح.

دمشق الشام، فاضل السباعي - لمى نعمة، مونتريال، كندا، منتصف ليل ٢٢-٩-٢٠١٢

فلوريدا: فجر السبت ١٢-٧-٢٠١٤

أنصح وزارات التربية

بألّا يُعيِّنوا المعلماتِ اللواتي لم يُكتب لهنّ الزواج

في وظيفة مديرات للمدارس الإعدادية والثانوية للإناث.

فلوريدا: ظهيرة السبت ١٢-٧-٢٠١٤

إنْ غَضَّ النظامُ الطَّرْفَ عن الخاطئين

فتلك مصيبةٌ

فإنْ هو شجّعهم

كسبًا لولائهم ووفائهم

فالمصيبةُ أعظمُ... بكثير!

فلوريدا: فجر الأحد ١٣-٧-٢٠١٤

قرأنا في كتب التاريخ أنّ قومًا يقهرون قومًا آخر

قرأنا في كتب التاريخ أنّ قومًا يقهرون قومًا آخر، فيغتالون حرّيته، ويستبيحون ماله، ويَطَؤون عرضه وكرامته.

ولكنّا ما قرأنا أنّ فئة من الناس يستبيحون إخوانهم في الوطن، قتلاً وإبادةً وتدميرًا، لأنهم

يطالبون بوقف الفساد وتغيير الحال.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ١٣-٧-٢٠١٤

التشدّد عند المعلمات والمعلمين

عودةٌ إلى ما كتبتُ قبل يومين، ممّا تراءى لي في مسألة اختيار المديرات في مدارس الإناث، أحبّ أن أشير -من واقع معرفتي الشخصية- إلى أنّ الشدّة التي تمارسها المعلمات على الطالبات تفوق مثيلتها عند المعلمين. وقد استلهمت من ذلك، قبل أربعين سنة، قصة سمّيتها عينان سوداوان (كتابي رحلة حنان، سلسلة اقرأ، القاهرة ١٩٧٥).

ومن المؤسف أنّ نظام الفتوّة، قبل إلغائه منذ عشر سنين، كان مجالًا خصبًا للتشدّد بلغ حدود التشفّي وإيقاع الأذى. ولعلّ مردّ ذلك إلى العُقد الطبقية مقرونة بالنزعة الحزبية. وقد وجدتُ في قصة، كتبتها إحدى صديقات الشبكة (طالبةُ دكتوراه في الآداب أطلعتني عليها بصورة خاصة ولمّا تنشرها بعد)، ما يعبّر باقتدار عن قهر المعلمات للطالبات، وما يدعو إلى وِقفة تأمّل!

وأزعم أني قرأت في سِفْر التعامل اليومي، أنّ ما يصدر عن مديرة المدرسة التي لم يُكتب لها الزواج، وكذلك المعلمة، هو أقسى ممّا يبدر من المتزوجات وذوات البنين والبنات. وليس هذا تجاوزا مني للحقيقة، فإنّ الواقع يؤيّد، وكذلك علم النفس، ولا بأس في ذا، فإنه في جبلّة الإنسان. وغنيّ عن القول أنّ هذا ليس بالقاعدة المطّردة، فإنّ مِن المعلمات الأمهات مَن هنّ في هذا أشدّ وأقسى.

ومع غياب الشفافيّة في كثير من المجالات في حياتنا العامة، أذكر ما وقع في إحدى مدارس حلب، قبل بضعة عشر عاما، من أنّ المديرة، المتميّزة(!)، رأت أن يكون المدخل الرئيسي

للمبنى الذي تشغله المدرسة، الواسع العريض، خاصًا لها وللمعلمات، وتركت للتلاميذ الصغار مسربًا ذا درج ضيق ودرابزون[1]، يزدحمون فيه عند الانصراف، ازدحامًا زاد يوما فبلغ التدافع فيه أن يدوس بعضهم بعضا، ومات منهم عدد، ورُفعت دعاوى. أعرف أنْ ليس لهذه الواقعة من علاقة بالموضوع، ولكنّ الألم الذي يحزّ في النفس ذكّرني، وكذلك غياب العدالة والإنصاف.

فلوريدا: فجر الأحد ١٤-٧-٢٠١٤

يوم كنت في الصف الثاني الابتدائي

أوجعت الصديقات قلبي، وهنّ يُشرنَ إلى ما تلقّينَ من عقاب في زمن الطفولة القريبة أو البعيدة، وما وجدت أحدًا من الأصدقاء يشكو. ألأنهم نجَوا من عصا المعلم، أم أنّ الذكورة تمنع من الاعتراف؟

أنا أعترف.

كان معلمي في الصف الأول الابتدائي، عبد المجيد سيريس، طيّبًا، وما تلقّيت منه أذى.

ولكنّ الأذى، مكثّفًا، تلقّيناه من معلم الصفّ الثاني سعيد البُجُق (العام الدراسي ١٩٣٦-٣٧).

كان سعيد أفندي مغرمًا بالضرب. رأيناه يوما يوصي النجّار، في دكانه الصغيرة بجوار باب المدرسة، بأن يصنع له عصا، وجدناها مبسّطة من حيث تَهوي على الأكفّ ومستديرة عند المقبض. لم يكن يكتفي بالأكف يُلهبها، بل يُغافل أحدنا، وهو مستدير يكتب على اللوح،

---

(١) طرَف الدَّرَج يتمسك به الصاعد والنازل ويقي من السقوط.

فيُهوي بالعصا على الرَّبْلة من الساق[1] إذا ما ارتكب في كتابته هفوة. والأهل الفهمانين يفوّضون شيخ الكتّاب: «اللحم إلَكْ والعضم إلنا! ». يا إلهي كيف تربّينا!

مرة جاءه إلى غرفة الدرس ابنه الفتى، رأيناه وسيمًا لا يشبهه، فهفت إليه أفئدتنا فهو ابن المعلم ونسينا عصا أبيه، وتساءلنا: ترى هل يضربه في البيت كما يضربنا؟

بعد انتقالي من مدرسته، صادفته يوما في طريق، فأطرقت بناظري إلى الأرض وكأني لا أراه: هل كان ذلك مني خوفًا، أم كرها؟ الذي وقع لحظتها أني، بعد أن تجاوزته في المشي خطوات، التفتّ، فرأيته متسمّرا في مكانه يتابعني بنظراته، ليتأكّد من أني أبصرته وتغاضيت! فخجلت أمام نفسي، ولكن تملّكني شعورٌ صغير بأني انتقمت لعذابات عام دراسي كامل. ثمّ لم تقع عيني عليه بعد ذلك اليوم.

وفي الصف الثالث، كان معلمنا زاهد تاج الدين. ما زلت أذكر شعورنا نحوه بالإعجاب والمحبة وقد اتخذ منا أصدقاء له. استفدنا منه كثيرًا دون ضرب. في الامتحان تشاركنا في المرتبة الثانية: أنا وعبد الله وراق، الذي يكون اليوم الجدّ لحفيدة لإحدى شقيقاتي: مايا وراق الطفلة الرائعة في عاصمة قطر.

واسمحوا لي، أيها الأصدقاء، أن أروي لكم هذه السالفة: كانت ابنتي خلود (تقيم اليوم بالقاهرة) تتلقّى، وهي في ثانوية ساطع الحصري، العربية على يد مدرّسة قديرة ومحبوبة هي زهراء عبد الواحد. وكثيرا ما حدّثتني عنها. بعد نحو عشرين سنة، التقينا بها في أمسية أدبية بالندوة الثقافية النسائية، فكان تذكير وتعارف، وإشادةٌ باقتدارها وامتلاكها قلوب طالباتها، بم أجابت الأستاذة زهراء؟ «وأنا كنت أجد متعة كبيرة في إلقاء الدروس عليك وعلى زميلاتك المتميّزات، يا خلود! ».

---

(١) اللحمة الغليظة تحت الركبة.

أيها المعلمون والمعلمات! اعلموا أنّ لتلاميذكم، لتلميذاتكنّ، ذاكرةً تحفظ وتروي!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ١٤-٧-٢١٤

غيبوبة

المثقفون الذين يثرثرون في المقاهي

والشاغلون دواوين الحكومة

والآكلون من خبز السلطان

وهواة الأدب والطرب والرياضة

والصُّنّاع، والبائعون، والمستهلكون

والمشرّدون على قارعة الطرقات...

ألم يكن فيهم مَن يرى

ويرفع صوته بكلمة «لا!»؟

فلوريدا: صباح الثلاثاء ١٥-٧-٢٠١٤

يُراوِدُني

أنْ لا غَنَاءَ فيما أقول

فلوريدا: عصر الأربعاء، ١٩رمضان ١٤٣٥ ١٦ تموز/ يوليو ٢٠١٤

الذين يُهجِّرون الناسَ من أوطانهم

الذين يُهجِّرون الناسَ من أوطانهم

التي ما عرفوا غيرها لهم سكنًا

الذين قطّعوا بالأمس الأيادي

وصَلبوا على الشجر

أولئك...

لقد ظلّ النظام، على مدى زمن، يهادنهم

وبالحسنى يعاملهم

ويشتري منهم الإمدادات

التي بها يتقَوَّون ويزدادون غرورًا وطمعًا!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٣-٧-٢٠١٤

العودة إلى المنزل الأول

والذين يغادرون أوطانهم

نازحين، أو لاجئين، حتى إنْ نزلوا في أفخم الأماكن

ينكسر في داخلهم شيء

لا يَجْبُره إلّا العودة الكريمة إلى المنزل الأول

فإنْ كان قد أتى عليه الدمار

حفروا له بالأظافر

وبَنَوْه برموش العين.

فلوريدا: ضحى الخميس ٢٤-٧-٢٠١٤

أسرة من الأُسَر

كتبت إليّ في الخاص كلمات كأنها برقيّة:

أبي أصابه قنّاص في رأسه.

أخي تحت التعذيب مات. ولمّا أخبرونا تعالوا استلموه طالبونا بمبلغ نعجز عن دفعه.

أخي الآخر مطلوب، لأنه كتب في الفيسبوك ما لا يُرضي، فهرب إلى تركيا.

آسفة ع الإزعاج... ماذا نفعل؟

حلب: ليلة القدر ١٤٣٥

- - - - - - - - - - - - - -

وعجزتُ عن الجواب!

فلوريدا: مساء الجمعة ٢٥-٧-٢٠١٤

إنه الزمن الرديء

حين أصدرتُ مجموعتي القصصية الثانية عشرة، شاء الشاب باسم الذي كان قد تخرّج حديثًا في كلية الآداب، أن يجرّب قلمه فيكتب عن قصص هذا الكتاب، التي بدت وكأنها تتبارى في التنديد بالقهر والفقر والفساد التي عمّت البلاد، مبتدئا نشاطه، بصفته كاتبًا جديرًا، بأن تُقرأ كلماته في جريدة مرموقة.

كان باسم الابنَ الأوحد لأبويه مع شقيقتين جامعيتين. وكانت فرحته بما كتب وعبّر من التنديد بالفساد، لا يضاهيها إلّا ما اعترى أباه من الخوف عليه! ناقشه: «يا ابني، ما كتبتَه كلام خطير! »، فأجابه بما كنت أودعته في أذنيه، من أنْ لا خوف ولا حرج إذا ما نشر الكلام في

الجريدة الحكومية. وظهرت المقالة متألّقة بإخراجها، بعنوان مطوّل، يختال فيه الاسم الجميل باسم...، الداخلُ حاملُه حديثا في دنيا الأدب.

ساعة الضحى من يوم النشر، والأسرة فرحة ببشائر الأدب تهلّ من قلم الكاتب باسم، رنّ الهاتف في البيت: الأمن يطلب باسم يأتيهم حالًا! وإذن، الجريدة تنشر والأمن يطلب!

رفع الأب صوته: «راح الولد! قال بدُّه يطالعه قرايبنا أديب!»، وبكت الأمّ وبنتاها. وما إن ذهب الابن إلى الأمن حتى كان الأب يتوجه إلى من يبتغي وساطتهم!

وهناك سألوا باسم عن أولئك الزملاء، الذين كان يجتمع وإياهم في مكتبة الجامعة، يدرسون استعدادًا لامتحانات الفصل الأخير؟ فأجابهم ثابت الجَنان، بأنّ واحدًا منهم أصبح في الكويت، والثاني في البحرين، والثالث في قطر، والرابع في الإمارات، والخامس في الخُبر. وعاد إلى البيت ليُستقبل بالزغاريد.

لما بلغتني التفاصيل، لم أشأ أن أسأل الوالدين، عمّا تملّكهما من الخوف؟ لأني أعرف أني سوف أسمع مثل هذا: إنه الزمن الرديء، يا أستاذ!

كان عنوان الكتاب "تقول الحكاية". وأما باسم، فهو منذ عامين في دولة السويد، قد أتقن لغتها، ليكون إنسانًا منتجا بعيدا عن دوائر الخوف والخطر والظلام.

فلوريدا: فجر السبت ٢٦-٧-٢٠١٤

معصوب العينين

إنّ أحدنا ليتساءل

ونحن نراهم ينهالون على معصوب العينين

ضربًا بالأحزمة الجلدية وبقضبان الحديد،

ويركلونه في خاصرته ببساطيرهم الثقيلة،

ويتسلَّون بتمرير حدّ المُوسى على ظهره العاري،

ويَغُزّون سكاكينهم المدبّبة بلحمه الطريّ،

مؤجّلين إطلاق رصاصة الرحمة،

إلى حين يغادرون المكان، ضاحكين...

نتساءل:

إلى أيّ حدّ هم مجرّدون من معاني الإنسانية!

وكم هم مطمئنّون إلى نجاتهم من حبل المشنقة

في المستقبل القريب أو البعيد!

فلوريدا: فجر الأحد ٢٧-٧-٢٠١٤

عشيّة العيد

وتجتمع الأسرة من بنين وبنات، وأصهارٍ وكنائن، وأحفادٍ، وأولادٍ لهؤلاء وأولئك، في منزل أحدهم، بجوار خضرة وماء وأزهار وأنوار، يضجّون فرحًا ومرحًا. وكان آخر ما تناولوه القطائف، المورَّدة الوجنات فكأنه الشوقُ عندها إلى الوطن البعيد!

وهو، هو مَن يكون بمنزلة العميد لهذه الأسرة المغتربة المغرَّبة، يرى ويشهد، ولا يُفارق خاطرَه الحلمُ بأن يعود إلى حيث يتناول بيده كأس الماء، وقد تجمّعت فيها القطراتُ المتساقطة من نافورة على سطح بِركة، ما تزال شحارير الغوطة ترسل أغاريدها من بين أغصان الشجر المطلّ يُصغي إلى ثرثرة الماء.

وكل عام والوطن بخير... ولكن أين هو الخير، يا وطني!

فلوريدا: أول أيام عيد الفطر ١٤٣٥، صباح الإثنين ٢٨-٧-٢٠١٤

«سلّمي لي عالوالد»

قالت تحدّثني بمرارة:

ذات مرة شكوت لزميلتي الحميمة في الجامعة أنّ أعجب مقرّر عندي هو التربية القومية، أقرأ في هذا الكتاب كثيرا ولا أفهم منه إلّا قليلاً، نلت في السنة الأولى به خمسين درجة والنجاح خمس وخمسون، فحملتُه إلى السنة الثانية إضافةً إلى جزئه الآخر المقرّر ثانية، على حين أنّ صديقتي نالت فيه تسعة وتسعين، وهي أبدا ليست من الطالبات المجدّات!

الذي كان من صديقتي، المرحة الضاحكة لدرجة اللامبالاة، أن صحبتْني إلى مدرّس هذا المقرّر -وهو واحد منهم مثلما هي- مشترطة عليّ أن أغلق فمي في أثناء الزيارة فلا أنبس ببنت شفة!

أخذ الأستاذ يسألها عن الوالد. وفي الحديث الجادّ، أشار عليها أن تكتب على أول سطر في ورقة الإجابة في مقرّره غدا، عبارة صغيرة: «عروبة عروبة وبس»، وبإمكانها أن تترك بعدئذ الورقة بيضاء! ثمّ انعطف يدوّن أمامه كلمتين، ولم ينس في توديعنا أن يقول لها: «سلّمي لي ع الوالد«، وأنا لم أنس أن أسألها بلطف مُتناه، ونحن على الرصيف، ما إذا كان يمكنني أن أستعير كلمة السر هذه؟ فأسرعت تجيب: «لا، بعدين الأستاذ تضعف ثقته بي!».

ثمّ كان أن وفّقني الله فحصلت على درجة النجاح، وصديقتي وفّقها الأستاذ فحصلت للمرة الثانية على الـ٩٩، ولم أسألها ما إذا كانت تركت ورقة الإجابة بيضاء.

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ٢٩-٧-٢٠١٤

ما أحسنَه من أب!

عرفتُ من أمر صديق لي ما تجدر روايتُه، من أنّ له ابنًا هو الأوحد، لـمّا تزوج قدّم له سكنًا، بيتَه الذي هو جَنَى العمر، مؤثرًا أن يظلّ هو في بيته المستأجر.

وكان هذا الأب يلاحظ ما ينشَب من خلاف بين الزوجين الشابين، اللذين رزقا طفلاً ولا أبهى. ومردّ الخلاف إلى العين الزايغة وغَيْرة الزوجة المحبّة.

ذات ليلة اشتدّ النقاش والنقار بينهما، حتى وصلا إلى الطلاق، ومنه إلى من ذا الذي يرعى الطفل؟ الزوجة تقول: إنّ الشرع يحكم لها بالحضانة، وهو يعبّر عن رغبته في أن يضمّ طفله إلى من ترعاهم أخته مع أولادها!

قامت الزوجة تهتف إلى حَميها، أبيه، عارضةً عليه ما توصّلا إليه من جنون، فقال لها: «هاتي أحكي معه!».

ثمّ أنشأ يقول له: «اسمع، يا ولدي! البيت الذي تسكن هو بيتي، وأثاث البيت مكتوب لزوجتك. بإمكانك أن تأخذ قميصك وتتأبط شحاطتك، وتغادر البيت الليلة إلى حيث أختك، التي تظنّ أنها ستتولى رعاية طفلك، وتدع أسرتك الصغيرة في البيت، وأنا، من القليل الذي تملك يميني، أنفق عليها!».

تقول الحكاية: إنّ الزوجين كانا في الصباح يتناولان الفَطور ويداعبان الطفل بمرح.

فلوريدا: فجر الأربعاء ٣٠-٧-٢٠١٤

نظّارة عاتمة من يدٍ بعثيّة

حلَمتُ عصر اليوم حُلمًا عجيبا، أنّ من بين الإعجاب الذي أتلقّى من الأصدقاء ومن العابرين في صفحتي في شبكة التواصل الاجتماعي، كان هناك إعجاب من فتاة بان لي أنها من

قلب النظام، بل هي تنتمي إلى إحدى الأُسَر القريبة من أسرة الرئيس.

وكان الغريب أن تلتمس مني، عَبر رُسُل، أن أذهب إليها في مكتبها، قصد التعارف وجهًا لوجه. وقد أقلّتْني إليها سيارةٌ فخمة، تتقدّمها وتلحق بها سيارتا حراسة. ومع أنه خيِّل إليّ لوهلة أني مرافَقٌ إلى اعتقال إلّا أنّ خوفًا لم يمسّ شغاف قلبي.

رأيتها تتصدّر مكانًا، وقد أحاطت بها كوكباتٌ من صبايا وشبّان في لباس موحّد، بقدر ما كانت هي خاليةً من التزيّن والتبرّج. فالجمال طبيعيّ لا يضاهيه إلّا شبابها الغارق في نعماء العشرينيات من العمر الجميل.

بعد الترحيب سألتني عن أهمّ أعمالي الأدبية، مبديةً أسفها لأنها لم تسمع باسمي إلّا حديثًا من الشابكة، وسألتني لماذا فضّلتُ الاعتزال؟ ولم أجد أنّ من أدب التعارف الآنيّ أن أُلمّح لها بأنهم هم الذين عزلوني وقدّموا عليّ مَن هم دوني، فأدخل في حوار معها غير متكافئ وعقيم.

الذي كان أني، بعد أن ذكرت لها عناوين بعض أعمالي، رأيت أحد مساعديها -وكان رجلاً كهلاً مختلفًا- يتقدّم منها ليضع بين يديها روايتي تلك التي أولع بها قرائي، وكانت -يا للعجب! - هي النسخة الخَلَقُ المستعملة التي أصبحتُ أُعيرها لأصدقائي من القراء بعد نفاد آخر الطبعات. ولا أدري كيف وصلت إلى أيديهم، فأعربت عن عزمي على أن أقدّم لها النسخة الأولى من الطبعة التي أعدّها متى هدأت الأحوال.

أعترف بأنّ السيدة كانت لبقة جدا، إلّا في أنها لم تتطرّق إلى الحديث عن خواطري، الساخنة، تلك التي دأبتُ على نشرها في صفحتي، المحرّضةِ لها على الإعجاب والتعارف! وقد رأيتها تقدّم لي، في الأخير، نظّارة أنيقة، عاتمة العدستين، متمنّيةً لي أن أضعها على عينيّ ساعة الكتابة!

واستيقظت.

مَن حولي فسّروا المنام بأنّ العقل الباطن عندي ذهب بي إلى عالم المسؤولين الصميمين، بعد أن اعتزمت العودة إلى الوطن، وأنّ النظّارة العاتمة ما هي إلّا إشارة إلى أن أغيّر نظرتي إلى الأمور. وبدا أنه فاتهم أني تابعت -بعد وصولي إلى هنا- ما كنت جريت على قوله قبل أن أصل إليهم قادمًا من هناك.

فلوريدا: عصر الأربعاء ٣٠-٧-٢٠١٤

مسلسلات عن أيّام البعث

كُتّاب المسلسلات السورية

الذين أوسعونا تنديدًا

بالحكم العثماني الظالم

وبالانتداب الفرنسي البغيض

لم يخطر في بال واحد منهم

أن يُقارب أيّامَ البعث!

أهي نصاعة الصفحة، فليس فيها أكشن؟

أم أنهم فضّلوا أن يتركوا هذا

لجيل من الكتّاب آتٍ على الطريق؟

فلوريدا: فجر الخميس ٣١-٧-٢٠١٤

الفارق بين التقدّم والتخلّف

إنّ الفارق بين العالم المتحضّر

وبين الدول المتخلّفة

هو تمامًا الفارق:

بين أن تتوقّف السيارات في شوارع المدينة

أمام موكبٍ من البطّ

يجتاز من رصيف إلى رصيف

وبين أن ترمي الطائرات الحكومية

حمولتها جزافًا على الأبرياء

وهم حول موائد الإفطار

أو يستغرقهم النومُ في بيوتهم

التي بنَوْها بأيديهم حجرًا حجرا

فلوريدا: ضحى الخميس ٣١-٧-٢٠١٤

الفتاة رَهف، وآثار البلاد

يوم كانت تشاهد في تلفاز البلد هناك، وهي طفلة، ما يخصّ العرب، فإنها تنادي أباها أن يأتي ليشاهد ما يَحْكون عن جماعته!

في تلك العاصمة الغربيّة وُلدت، وتعلّمت، وتخرّجت في جامعاتها.

ذات يوم وقع في يدها كتابٌ يتناول الحديث عن الآثار في العالم، ومنها ما سبق أن حدّثها أبوها عنه في بلده، فما كان اهتمامها به ليزيد عن الاستماع. بعدئذ أخذت تطلب الكتب، وتسأل عن المراجع والمصادر، فتستزيد من المعرفة عن الآثار في بلد أبيها العظيمة، ما ظهر على وجه الأرض منها وما زال مدفونا تحت التراب، كمملكة ماري، ومملكة إيبلا الغنيّةُ رُقُمُها

بالمعلومات.

ومع جِدِّها في تعلّم لغة الآباء، أخذت تطالب والديها بأن تزور تلك الأماكن، لتشاهد الصُّروح التي بنتْها يد الأجداد، على مدى آلاف السنين، في وطنها المولودة بعيدة عنه، يأتي إليها السيّاح من كلّ بقاع الأرض ليتملَّوا النظر منها ويمتلئوا إحساسا بالعظمة والروعة والجمال.

لمّا قامت الانتفاضة واشتعلت الحرب، رأت بأمّ العين كيف تغتال النيران والمدافع الآثار: ذلك الجامع الكبير العظيم، الذي زارته وصلّت فيه ركعتين، المشيّدُ منذ أكثر من ألف عام، يُحرق!! ثمّ يتسلّى جهلةٌ بأن يجعلوا مئذنته السامقة مرمًى لمدافعهم الهمجيّة، ويكوّموها حجارة!

بكت هناك. وازداد حبّها لوطنها، وتعاطفها مع الشعب الذي تنتمي إليه، وكرهت الظالمين.

الاسم رَهَف. والعمر اليوم أربعون وزيادة. والعاصمة برلين.

فلوريدا: فجر السبت ٢-٨-٢٠١٤

استعادة.. الموت صبرًا!

ويَلمّونهم، ثمّ يسوقون بعضهم إلى المحاكم، وبعضا إلى التعذيب، وبعضهم الثالث إلى الموت صبرا!

والموت صبرًا هو أن يُلْقُوا بالمعتقل في أماكن مغلقة، مجرّدًا من ملابسه أو كالمجرّد، لا غِطاء ولا وِطَاء، ويمنعون عنه الماء والغذاء والدواء، فيموت بطيئًا مع الأيام.

تلك ميتة كان قد أصابنا الجزع ونحن نقرؤها في صفحات التاريخ الظلماء، أن يُدَلّى المحكوم بالإعدام، من فتحة في سقف حجرة بقلعة حلب، رأيناها –وقد سمّاها الناس حَبْس الدمّ– ليموتوا شيئًا فشيئًا. وقد ذُكِر، صحيحًا أو مختلقًا، أنّ الفيلسوف الشابّ الوافد على

حلب، شهاب الدين السَّهْرَوَرْدي، حُكم عليه بهذه الميتة (عام ١١٩١م(وقضى فيها. ثمّ أطلَق المنصفون عليه لقب الفيلسوف المقتول، وانتشرت فلسفته الإشراقية، وأخذ بها بعدُ الشيخُ الأندلسي الشهير محيي الدين بن عربي، دفينُ دمشق في سفح الجبل.

تُرى... كم سهروردي سوف يطول حزنُنا عليهم، ابتداءً من هذا الزمن الأليم! ولعلّ الفارق الأظهر بين الأمس واليوم، أنهم في أيامنا لا يسلّمون الجثامين لأصحابها إلّا لقاء فدية، خُوّة، إتاوة، مكافأة... فبهذا يربح السجّانون أيضًا!

ألَا ما أظلمَهم في الاعتقال، وفي الإماتة، وفي الإفراج عن الجثمان!

لكأنّهم يجهلون أنّ للتاريخ عينًا تُبصر ويدًا تُسجّل، حتى إن تمتّعوا اليوم بتأييد العالم، أو بغضّ نظره عمّا يفعلون.

فلوريدا: فجر الإثنين ٤-٨-٢٠١٤

يا أيّهذا الأسمرُ الساكنُ في البيت الأبيض

ويا أيّها الأبيضُ الساكنُ في البيت... السُّخام

سوريّة الجميلة

سوريّة التاريخ والأبجديّة

تُدمَّر، تنزِف، تحترق...

وأنتما، وقادةُ العالم

ما بين شَدٍّ على اليد

وبين غَضٍّ نظر!

فلوريدا: ضحى الإثنين ٤-٨-٢٠١٤

الصبر على الأذى

نحن لا نملك ما يملك عدوُّنا من السلاح.

لكنّا، بالقليل الذي في أيدينا، نستطيع أن نُزعجه وهو المرتاح، نُقلقَه وهو المطمئنّ، نقضَّ مضجعه وهو الذي يرفل في النعيم، ونجعل من نهاراته سُودًا ومن لياليه سهرًا وخوفا وأرقا.

ونحن نعلم أنه سوف ينتقم منّا تقتيلاً وتدميرا، مستعينًا بترسانته من السلاح، أمام أعين العالم المنافق.

إنها وسيلتنا الوحيدة التي أبقتْها لنا الأيام، حتى نوقف الموت البطيء الذي يزحف نحونا: المقاومة، والصبر على الأذى حفاظًا على الحياة.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٥-٨-٢٠١٤

«تاني مرة لا تعيدها!»

طبيب سوري من جسر الشغور (بمحافظة بإدلب)، خريج الجامعات الفرنسية، يتميّز بعلمه، عمل طويلا في مستشفيات كندا، هو الدكتور محمد حاج حسين. جاءه، قبل مدة، صديقٌ من الناشطين هناك، هو عيسى بريك (من مؤسسي النادي العربي الكندي في مونتريال)، يُجري معه لقاء لنشره في مجلة يصدرونها باللغة العربية هناك.

جعل الطبيب يسأله، وقد تقدّمت به السنّ، عن الأحوال في سورية أين وصلت، فحدّثه عن تحركات الناس في الوطن، وعن الاعتقالات والتعذيب في السجون.

هنا عاد الدكتور إلى الماضي، أيام كان في مرحلة الدراسة الإعدادية، فروى أنه في أواخر أيام الانتداب الفرنسي، وفي عهد الرئيس شكري القوتلي، أقيمت في المنطقة مناسبةٌ احتفالية، وكان مقرّرًا أن يلقي الطبيب، وهو فتى باسم تلاميذ جسر الشغور، كلمة... عبّر فيها عن

منتهى سخطه على الاستعمار الفرنسي، بما في ذلك المسؤول الفرنسي الذي كان حاضرا الاحتفال!

ويقول إنه بعد أن أنهى كلمته، النارية، جاءه مسؤول الأمن وأمسك أذنه وهو يقول: «يا محمد، لا تقلّل أدب مرة تانية! »، ثمّ تركه.

ويتابع الدكتور محمد حاج حسين، وهو على فراش المرض، قائلا بمرارة: «إن بقي لي عمر فسوف أعتذر من الاستعمار الفرنسي! ». ثمّ ارتفع صوته بالبكاء. رحمه الله.

فلوريدا: فجر الأربعاء ٦-٨-٢٠١٤

ويمضي الزمن

عندما أتناول في الصباح فَطوري المعتاد

يُراودني شعورٌ

بأنه لم يمضِ على تناولي فَطورَ أمس

إلّا ساعةٌ أو بعضُها!

فلوريدا: صباح الخميس ٧-٨-٢٠١٤

من التراث الحلبي اللامادّي: انت شغْلتك مفسِّر منامات!

من الحكايات التي يؤلّفها الخيال الشعبي ويروق تداولها بين الناس دون أن يملّوا سماعها، هذه الحكاية التي أوردها العلاّمة خير الدين الأسدي في كتابه الكبير موسوعة حلب المقارنة، وقد جدّد الباحث الدكتور أحمد أديب الشعار روايتها في صفحته يوم أمس.

تقول الحكاية: إنه نزل حرامي على بيت ليس فيه إلّا امرأة وحيدة. لمّا تنبّهت لوجوده في

بيتها، بادرت تسأله بثبات: «خيّو، الله يرضى عليك، خود اللي بتريده، بس فسّر لي المنام الي شفتُه هلّق«قال لها مطمئنًا: «هاتي»

قالت: «شفت بمنامي هالساعة الله يعطينا خيرها، أنو حرامي نزل على بيتي، صرت أصيح بمَلو صوتي: يا أبو حمدو، يا جارنا، الحقْني، في حوشنا حرامي«وكانت ترفع صوتها، فسمع جارها أبو حمدو استغاثتها، وجاء وقبض على الحرامي.

تقول الحكاية: هنا صار الحرامي يضرب رأسه ويقول لنفسه: «يا كلب! أنت شغلتك مفسِّر منامات إلّا حرامي».

وقد جاءت التعليقات متفاوتة في معانيها، ما بين وصفِ الحرامي بالغباء، ووصف المرأة بالذكاء، وبعضهم علّق هازلًا أنْ ليس للمرء أن يُغيِّر شغلته، وخالفهم آخرون بأنّ على الإنسان ألّا يحصر معرفته في حدود مهنته بل يتجاوزها إلى معارف أخرى!

وهناك حكاية ثانية، عن دخول حرامي إلى بيت امرأة، كانت عجوزا وغنيّة، عنوانها يا نوري، طْهورك أحسن ولّا طْهوري!، قد تقرؤونها غدًا.

فلوريدا: فجر الجمعة ٨-٨-٢٠١٤

من التراث الحلبي اللاماديّ «شلون، يا نوري؟ طْهورك أحسن إلّا طْهوري؟ »

يحكى أنّ امرأة عجوزا غنيّة، كانت تسكن وحيدةً في بيتها. ذات ليلة تنبّهت على حرامي في البيت، فقالت تُسايره: «ليش ما بتصبر حتى الصبح، وتتزوّجني؟ أنت شاب ما شا الله عليك، وأنا عجوز ختيارة، كام سنة وبتوكّل، وبتورَتْني، وبصير كلّ شي في البيت إلك! ».

والله الحرامي انبسط من الفكرة.

سألته عن اسمه، قال «نوري».

قالت: «اسم حلو. في العيلة، جدّك، حدا من أعمامك، قرايبينك، اسمه نوري؟ ».

وظلّت تطرح عليه طول الليلة سؤالا بعد سؤال، إلى أن قالت له: «شو رأيك، يا نوري، تحدّثني عن طْهورك لمّا كنت ولد، وأنا بحدّثك عن طْهوري؟».

فوجئ نوري وقال: «لكن أنت... اللي عندي ما عندك!»

قالت: «طيّب احكي لي عن طْهورك».

أخذ يقول: «كان عمري عشر سنين. عزَمنا الأقارب والجيران وأهل الحارة. جاء ابن قطاية [بدمشق الصفّوري] وقطش الزايد. تألّمت شوي. طلع دم. ربط الوريد. كوى الجرح. وركّبوني الحنتور، ودوّروني دورة القلعة. وأكلنا اللحم. هادا كلّ طْهوري».

كان قد طلع النهار، ودبّت الحركة في الحارة.

قالت: «عن طْهوري أنا، اجوا بنات خالتي عيّوش ورقّوش، وبنات عمتي عدويّة وفكريّة، هدول مسكوني من إجري اليمين، وهدول من إجري اليسار، وأنا أصيح، أُوَلْوِل من الألم: وْلي! وْلي! وْليييييي»

سمع المارّون في الحارة ولْوَلَةَ امرأة. كسروا الباب ودخلوا. قالت لهم: «حرامي، امسكوه! ». وأخذوا نوري إلى الحبس. فذهبت إليه لتقول: «شلون، يا نوري؟ طْهورك أحسن إلّا طْهوري؟».

روى هذه الحكاية، أول أمس، تعليقًا على الحكاية السابقة، أحد الأحفاد، أحمد رامي زكور، مختتمًا إياها بأنها من تأليف جدّه لأمه، وأضاف أنّ «لجدّه المئات من هذه القصص»، وأقول: ليته يرويها.

وأعترف أن ليس لي من فضل في الحكايتين إلّا إعادة الصياغة.

فلوريدا: فجر السبت ٩-٨-٢٠١٤

مترفون... ولاجئون!

لاحقًا للرابط أدناه (صباح اليوم السبت ٩-٨-٢٠١٤)، الذي حوى صورتين متناقضتين على نحو صارخ: مائدة عامرة، يتحلّق حولها ذوو شهية، وأخرى للاجئات سوريات، نسوة وأطفال، طعامهم خبز وبصل وحبّات بندورة!

قال الذين ندّدوا بما استطاعت أن تطلقه الصورتان من صرخة تبلغ الأسماع الصمّاء: لماذا لا يُلقي المعارضون السوريون الأضواء على تصرّفات أغنياء بلدهم؟

للجميع أقدّم مقطعًا من مقالة للأديبة السورية المعارضة ديمة ونوس نشرتها الخميس أول أمس، تحت عنوان تمارين على الكراهية، تنتقد فيها المترفين من أبناء بلدها، المقيمين والمغادرين، ما يتعلق بالنقاش غير المتوازن الذي أثارته الصورتان الصارختان.

تقول الكاتبة السورية ساخرةً:

يحقّ لرجل الأعمال الشهير وفيق سعد أن يقيم عرسا لابنته الوحيدة البالغة سبعة وعشرين عاما، في صالة المرايا بقصر فرساي القريب من باريس، وأن ينفق مئة مليون دولار على عرس استغرق ساعات، وقد أقيم بعد أيام قليلة من مذبحة الحولة.

يحقّ لعبد الحليم خدّام أن يحجز، قبل شهر من اليوم، جزيرة كابري الإيطالية لإقامة حفلة زفاف لحفيده الذي يحمل اسمه وكنيته، بكلفة ملايين الدولارات.

ونبيل الكزبري، الذي أقام قبل شهر عرس ابنه في فندق وسط دمشق، ولم يتح له المكان المتواضع مساحة كبيرة من البذخ، فاكتفى بحشو الطعام بليرات ذهبية، فصار المدعوّون يأكلون بأيديهم ويمزّقون قطع اللحم والخبز بأصابعهم لالتقاط الليرات. كان العرس مجزرة

تتماشى مع ما يشهده السوريون من المجازر.

يحقّ لرجل الأعمال جمال دانيال أن يتبرّع بأكبر مبلغ شهدته الجامعة الأمريكية ببيروت، بثلاثين مليون دولار لترميم مبنى سيحمل اسمه لاحقا. واللاجئون السوريون يسكنون الخيام!

ولم ينته الكلام.

فلوريدا: مساء السبت ٩-٨-٢٠١٤

ماذا يجري في وطني!

شبابٌ أعرف بعضهم، طلابُ دراسات عليا، منهمكون بتحضير الأطروحات في مختلف التخصّصات، قد جمع بينهم التآخي بقدر حبّهم للعلم والتحصيل، يسكنون البيوت المستأجرة. فإنْ انتهت مدة العقد عند بعضهم تعذّر التمديد، فوكالة مالك البيت، الغائب عن البلاد، تحتاج إلى توثيق ذي إجراءات أمنيّة معقّدة.

وربّ واحد منهم يغادر ليعمل في الخارج، ناجيًا بنفسه من القنص ومن سماع القصف. وقد يبعُد آخر إلى حيث يتاح له لجوءٌ في إحدى الدول الباردة.

فجأةً يفتقدون واحدًا منهم، خرج لقضاء غرض ولم يعد: هل تَخَيَّره قنّاص؟ أم اختُطف لشُبهةٍ وزُجّ به في غَيابة؟ كلما سألتهم عنه، في شبكة التواصل، والقلب في وجع، يأتيني الردّ الحزين: لا يعرفون، ولا يجرؤون على السؤال!

قبل أن أنشر كلمتي هذه، خطر لي أن أبعث بمسوّدتها إلى أحدهم، وسرعان ما كتب إليّ: أبكيتَني.

ثمّ قال كلاما لا أقوى على نقله!

ربّاه! ماذا يجري في وطني!!

فلوريدا: فجر الأحد ١٠-٨-٢٠١٤

وَجَعٌ وطنيّ مزمن!

منذ وصلتُ بلَدَه، وأنا أعتَب عليه، وأنقده، وأسرف في العتب والنقد والتأنيب، مِن «يا أيهذا الأسمر الساكن في البيت الأبيض!»، إلى ما لا أريد أن أذكر. ومع ذلك ما طرق باب بيتي زُوّارُ فجر، ولا اعترضني واحد منهم في نزهة نهاريّة أو مَشية مسائيّة.

في وطني الحبيب، إذا استوقفني صاحب الدكان المهتمّ بالسياسة، وأنا على رصيف بيتي، ليسألني عن الانتفاضة ما إذا كانت ماضيةً نحو النجاح، أم أنّ النظام باق، فإني أرى، المسكين، يتلفّت يمنة ويسرة عشر مرات، ثمّ يرفع كفّه إلى خدّه، ليس للغناء أو الأذان بل ليمنع، في ظنّه، تسرُّب الكلمات إلى الأسماع، حتى أُضطرّ إلى أن أقول له: «أنت، يا رجل، ما تركت أحدًا في الطريق إلّا لفتَّ نظره إلينا! قل ما تريد وخلّصني».

قبل أربعين عاما ويزيد، تخيّلت أحداثا تقع لموظفٍ حكوميّ، خطرت في باله -وهو منصرفٌ من عمله- خواطر تمسّ النظام، فإذا به يجد عن يمينه مَن يُلقي القبض عليه ويسوقه إلى حيث الإهانة والعذاب. (نُشرت القصة، وعنوانها العينان في الأفق الشرقي، في مجلة الكاتب المصرية عام ١٩٧٥، ثمّ تُرجم الكتاب الذي نزلت فيه القصة إلى الفرنسية وصدر في باريس عام ٢٠٠٢).

السؤال، أيها الأصدقاء:

لماذا خطرت، وتخطُر، في بالي مثلُ هذه الأفكار خُطُورًا يحملني على أن أجعل منها قصة، قصصا، يُقبل على قراءتها المثقفون المحرومون من نعمة الحرية؟

وأيضًا: لماذا أستعيد اللحظة التفكيرَ فيها، وأنا على بعد آلاف الكيلومترات من وطني الحزين؟

هل لهذا دلالة على أنّ النظام ليس في خير؟ أم أني أنا في حالة وَجَع وطني مزمن؟

فلوريدا: فجر الإثنين ١١-٨-٢٠١٤

الكتابة في السياسة.. والكتابة للوطن

كتبت إليّ صديقةٌ على الخاص تستغرب إلى حدّ الإشفاق، اعتزامي العودة إلى الوطن، أنا مَن تراه يكتب في ظلم الحكّام وجَور الأيام، وتناشدني -مؤيَّدةً من صديقات لها- أن أعدِل عن السفر!

قلت لها:

ولكني لا أكتب في السياسة، أيتها الشابّة! أنا أكتب فيما أفرزته السياسة من فساد في الفعل والقول والعقل. بدأتُ في ذا قبل مولدك الذي أجهل يومَه، ولكنني بدأته يقينًا عُقَيب تملّكهم المقاليد، التي لم يُحسنوا فيها القيادة والسيادة، فتردَّوا، وأخذونا معهم إلى وِهاد من الفقر والقهر لا قرارة لها. أكتب، على حين كان آخرون يفرحون ويترنّحون طربا.

نعم، يا بنيّتي! أنا لا أكتب في السياسة، هذه التي من شأنها التحوُّل. ولكني، مثل عاشق متيّم، أعزف للوطن ألحاني، وأغنّي لغدٍ ربما يتأخّر فلا تُشرق شمسه إلّا بعد رحيلي.

ولم يأتني منها جواب.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٢-٨-٢٠١٤

وأخذ الرجال يموتون!

في منتصف ليلِهِ هنا، وفي ساعة من الصباح الباكر في الوطن هناك، كتبتْ تسأله عن أحواله. ومن المزاح البريء إلى التعبير عن الألم غير الدفين.

قال: يوم عزمتِ على اللحاق بأخيك، في تلك الدولة العربية، تعملين هناك بإبداعك الموصوف، أغلقوا الباب في وجه السوريين المنكوبين!

قالت: أرأيت؟!

قال: وعندما ضاءلتِ من آمالك، ورغبت في أن تنقلي عملك إلى بلدتك الصغيرة الوادعة، هربًا من المهالك كان القتال قد وصل إليها!

قالت: ولن تنسى أني يوم بلغت سنّ الزواج صار الشباب يموتون في الطرقات!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٢-٨-٢٠١٤

القتلُ، والتقتيلُ، والإبادة

مستفعلن مستفعلن فعولن

• عندما تقصف طائرةٌ سوقًا شعبيًا... فهذا «قَتْل».

• فإذا عادت بعد دقيقتين، وقصفت المتجمّعين بمن فيهم المسعفين، فهذا «تقتيل».

• وأما إذا رُشّ تجمُّعٌ سكانيّ بالغاز، عن بُعد، فهذا اسمه «إبادة».

صرنا نعرف مستويات القتل وتسمياتها، ونتناقلها دون خوف أو بكاء!

و... تفو على العالم!

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٣-٨-٢٠١٤

حوار في محطة تروكاديرو

في نصّ سرديّ، كتبته وأنا في باريس ربيع ١٩٧٨، ورد الحوار التالي بيني وبين إحدى رفيقات الرحلة (من الرحلات التي تنظمها الإدارة الفرنسية للموفدين الأجانب)، في أثناء عودتنا ونحن في محطة تروكاديرو.

سألتني السؤال المعتاد: ما جنسيّتك؟

قلت: سوري، وأنت؟

قالت: إسبانية.

سألتها: وزوجك إسباني؟

قالت: إنه من تشيلي.

قلت: سبق أن صادفته، شتاءً، في رحلة دَنْكِرْك، ثمّ في رحلتنا إلى شاتو دو لالْوار.

قالت: اشتركَ في كثير من الرحلات.

قلت: تزوجتما في فرنسا، أظنّ؟

قالت: تعارفنا في باريس، وتزوجنا من سنة (ثمّ قالت) أنت... أنت لا تُشبه العرب كثيرا!

ضحكتُ: لا تقوليها! إني عربي أصيل، وأسرتي من أصل مغربي، ويقال إنها نزحت قبلا من الأندلس يوم غربت عنها شمس الإسلام!

قالت: فأصلك من إسبانيا! (ابتسمتْ) قد تكون من أسرتي، فأنت تُشبه بعض أقاربي!

قلت: ربما! وقد تكونين أنت من بقية أسرتنا التي ظلّت هناك، فأنت تشبهين بعض قريباتي في الوطن، بهذا كنت أفكر طَوال الرحلة.

ونهضنا لحظة أقبل المترو، الذي يذكّر انسيابُه الرقيق بحفيف أجنحة اليمام وهي تطير.

عنوان القصة في الليل تحترق الغابة. نُشرت في مجلة الموقف الأدبي (دمشق، خريف ١٩٧٨)، ثمّ في كتابي الألم على نار هادئة (ط ١٩٨٥، ١٩٩٠، ٢٠٠٢).

فلوريدا: صباح الأربعاء ١٣-٨-٢٠١٤

السوريون اليوم!

إلى ماري عيسى

ناشطة سورية

عانت من الاتهام، والمحاكمة، والإرهاق

يوم أطلق سراحها غيّرت مسكَنَها

وصل الاضطرابُ إلى حيث تقيم

غادرت مع الزوج والأولاد إلى لبنان

لتفكر... بحثًا عن مأمن جديد

ذهبت إلى كردستان العراق

واختارت مدينة أقرب إلى الوطن

اليوم...

يقترب منها الهدير والزئير

والسيوف الملتمعة

والأرماح المرتفعة

أيها السوريون الأمجاد

يا من تمادى العالم في تواطئه على ما تملكون

من روعة التاريخ والجغرافيا

قَدَرُكم اليوم

أن تواجهوا ما اعتدتم من صروف الزمان!

فلوريدا: فجر الخميس ١٤-٨-٢٠١٤

« الخروج من النفق» كادوا يهربون وهم يستمعون!

في عودتي إلى صفحات سبقت في الشابكة، استوقفتني رسالة من أديب كانت قد قامت بيني وبينه الصداقة. أقرأ الآن ما كتب لي قبل عام:

»كان ذلك، يا أستاذي الكريم، قبل سنوات ستّ أو سبع، يوم استضافتك مدينتنا بأمسية تقرأ فيها بعض قصصك، توجهنا بعدها مع أعضاء من إدارة المنتدى إلى أحد المغاني المطلّة لتناول العشاء. ما ظلّ في ذاكرتي ولن أنساه أنّ الأصدقاء طلبوا إليّ ليلتها أن أغمز لك بأنك قد تخطّيت قدراتهم على تحمّل تعليقاتك على الأوضاع حتى كاد بعضهم يهرب!

اليوم، وقد قرأت بعض أعمالك الأدبية، دعني أتخطَّ فأكتب لك بمداد الأدب والحبّ والفخر، فأقول: إني حين أتملّى معاني كلماتك، أشعر بالهيبة الملفَّعة بالجمال، أعانق روحك الثائرة متمنّيا ألا أغادرها إلّا بعد قبلة من نسج الروح العاشقة لكلّ ما كتبت وتكتب للكبار وللصغار، يا أديبنا الغالي! الآن أشعر بالارتياح بعد هذا التعبير! » اهـ.

أقول: كان عنوان القصة الخروج من النفق، استوحيت فكرتها وأنا في المعرض الدولي للكتاب بالقاهرة أوائل العام ٢٠٠٣، وقد بدت لي من كثافة المضمون ما جعلني أعجز عن متابعة كتابتها وأنا منشغل في المعرض. ولم يتسنَّ لي العودة إليها إلّا في صيف ٢٠٠٤ وأنا نزيل

لوس انجلوس، ونُشرت بعد زمن في مجلة دبي الثقافة (اكتوبر ٢٠٠٧)، وكان ذلك بداية لعلاقة نشرية مع المجلة.

أشير إلى مضمونها بأسطر: ناشط في مجال حقوق الإنسان، يجد نفسه فجأة -وبرفقته ولده الصغير- في مكتب للأمن يتعرض للتحقيق بتهمة الإساءة للنظام. وبعد حوار غريب بينه وبين المحققين استطاع أن ينفي عن نفسه كلّ ما أرادوا توجيهه إليه من التهم. ولحظة همّ بالمغادرة سأل عن ولده، فعلم أنهم قد اقتادوه إلى التحقيق، ثمّ يعتذرون له بأنه مات بين أيديهم في أثناء الاستجواب دون أن يعترف لهم بشيء!

عنوان القصة الخروج من النفق. وقد أتيح لي أن ألقيها في مكتبة الإسكندرية في ديسمبر من العام ٢٠٠٧، على هامش الاحتفالية بالذكرى الـ٧٥ لرحيل شوقي وحافظ، كما ألقيتها في المراكز الثقافية أبو رمّانة والعدوي بدمشق والمركز الثقافي بحلب. ولمّا تنزل في كتاب لي بعد. وسوف أعمل على نشرها في صفحتي اليوم.

فلوريدا: فجر الجمعة ١٥-٨-٢٠١٤

«الخروج من النفق» القصة كاملة، بقلم فاضل السباعي

كلّ ما يعيه أنه يقف وإلى جواره ولدُه، في باب غرفةٍ تُشبه إحدى الحجرات في مستشفى، وهو يفيض في حديثه عن الفساد الذي استشرى! وكان رجالٌ سبعة أو ثمانية يُصغون إليه وقد اكتست وجوههم بذعر كان يزداد كلما أمعن في الحديث، وولده ما زال يترجّاه:

- أبي! أرجوك، لا تُسرف في الانتقاد!

كان بين السبعة أو الثمانية الذين في الغرفة، رجلٌ يتمدَّد على سرير، هو الوحيد الذي لم يَبْدُ الذعر في وجهه، وبسمةٌ ترفّ على شفتيه... فجأة رآه يقول:

- أحسنت! كلامك كلُّه صحيح ومفيد، يا أستاذ "س"!

فلم يشكّ "س" في أنّ هذا الرجل واحدٌ من معارفه، ومن ذوي الضمائر الحيّة، فزاد في انتقاده:

- لقد اجتاح الفساد كلَّ شيء، حتى أصبح واجبًا على كل مواطن منّا أن يَجهَر برأيه كي تصل أصواتنا إلى أسماع السلطة.

أيّده الرجل:

- أعرف عنك جرأتك. سمعت وقرأت وشهدت. إنك حقًّا مواطنٌ مقدام. زدنا ممّا عندك.

فخُيِّل إليه أنه في حُلُمٍ جميل. بسط ذراعه نحو ولده، ابن الاثني عشر ربيعًا، يشدّه إليه وكأنه يتمنّى له أن يشرع في الجهر برأيه في انتقاد الفساد، منذ الآن وليس غدًا أو بعد غد.

وبينا هو كذلك، وجد أنه قد غدا في وسط الغرفة لا في بابها، بين هؤلاء الرجال وقد أحاطوا به، الآن، فكأنه واقعٌ في قبضتهم، بمن فيهم ذو الضمير الحي، الذي لم يعد متمدِّدًا على السرير، بل إنه يقول صنيع من يَشي به:

- هذا الرجل سبَّ السلطة، يا سيّدي المحقِّق!

فتوجه هذا إليه:

- كيف سمحت لنفسك بأن تسبَّ السلطة؟!

فأُرْتِجَ عليه حتى لم يجد لديه -وهو المِنْطيق- ما يردّ به على السؤال.

قال المحقّق:

- هل أصبحتْ سُبَّة السلطة، في زمننا الرديء، أغنيةً تترنَّم بها الشفاه؟!

التفت (س) إلى الواشي:

– ولكنك كنت الوحيد الذي أيّدني في انتقادي وقلت لي "أحسنت"، واستزدتَني القول؟

– كنت أزحلقك!

– تُزحلقني؟!

قال المحقّق:

–كيف مكَّنتَه من أن يزحلقك، وأنت "المتحذلق" كما أراك؟

–ليس في المسألة "زحلقة" ولا "حذلقة"، أيها المحقّق! كنت أنقد الـ...

–تنقد؟!

–نعم، أنقد السلطة وما استشرى في ظلّها من فساد.

–فساد؟ تقول فساد في السلطة!

–ومية فساد! أَلا ترى المتسلّطين وما فعلوا في البلد؟

–المتسلّطون؟ أظنّ أنك تعني المسؤولين!

–إيّاهم أعني.

–وماذا رأيت المسؤولين يفعلون؟

–نَهَبوا المال العام، وابتزّوا الناس في أموالهم وأرهقوهم في أحوالهم، وكفُّوا عن أن يكونوا حكّامًا حكماء، وتركوا الأعداء يمرحون على الحدود والعملاء يسرحون داخل الوطن!

عبس المحقّق:

–أنت تتفوّه بكلامٍ خطير!

–بل إني، بصفتي مواطنًا محبًّا لوطنه، أُمارس حقّي في النقد البنّاء، وفي التقريع والتجريح

إنْ تطلّب الأمر، مدافعًا عن موقفي بلساني وقلمي وأظفاري وأسناني.

– لم يعد ينقصك إلاّ أن تقول: وبأنيابي أيضًا!

– من فضلك لا تسخر.

– أنت تعرَّض نفسك للمساءلة القانونية.

– ليس هناك مَن هم أولى بالمساءلة القانونية وغير القانونية، من أولئك الذين يقترفون الفساد أشكالاً وألوانا، في كلّ يوم وفي كلّ ساعة.

– إنهم المسؤولون، وإنّ فوقهم من يحاسبهم. وأمّا أنت، المواطن، فإنّ لي الحقَّ في أن آمر بتوقيفك الآن.

– عجبًا! أَبلغَ الأمر أن يُلقى القبض على المطالبين بالإصلاح ويُترك الفاسدون يتابعون ما هم فيه؟

– ليتك تدرك خطورة ما ينطِق به لسانُك، أيها المتحذلق!

– وليتك تعرف، أيها المحقّق الذي يبدو لي مستجدًّا، أنّ الحكّام كلَّ الحكّام في العالم، ما زالوا يستلهمون أقوال الحكماء وأفكارَهم فيما ينشُدون من الصَّلاح والفلاح. وإنّ رئيسنا "نظام الدولة" نفسه، بعد أن بلغه ما وصلتْ إليه الأحوال، أخذ يستمع إلى أهل الرأي، متجاوزًا البِطانة وما تضمّ من مُمالئين ومصفِّقين. إنّ هتافًا مثل «بالروح، بالدم، نفديك يا زعيم»، يجب أن يُرفض من أساسه، فليس يجوز أن يُفَدّي أحدٌ من الناس أحدًا، ولكنّ الجميع يُفَدّون القيم، القيم الكبرى الغالية، وفي قمّتها "الوطن"، فلنهتفْ جميعا: «بالروح، بالدم، نَفْديك يا وطن». لا تفتحْ عينيك على سَعَتهما هكذا! يقينًا، إنّ ما تتلقّاه مني الآن من قول، تسمعه لأول مرة في حياتك، ولكني ما أزال أُصرّح به منذ دهر، أجهَر به بأعلى صوتي. وقد قلتُه، أعني كتبتُه بأناملي هذه، في رسالةٍ بعثت بها إلى سيد القصر. ما لك ترفع حاجبيك! وخيَّرتُه بين أن أجعلها "رسالةً

مفتوحة" أبعث بها إليه على صفحات الجرائد وراء الحدود، وبين أن تكون رسالةً خاصة مني إليه!

- أَفعلتَ هذا، بربّك؟

- أقول: كتبتُ إليه!

- وبِمَ أجابك؟

- فضَّل أن تكون الرسالة خاصة.

- وكيف عرفت؟

- دعاني إلى القصر.

- أنت مثَلتَ بين يدي رئيسنا المفدّى "نظام الدولة"؟!

- وطال حواري معه.

- ونطقتَ أمامه بما تقوله الآن؟!

- وأكثر منه.

- وما تزال تتنقَّل بين الناس؟!

- ويحَك! أَوَكنت تتوقَّع أن يُلقي بي في غَيابة سجن، أيها الـ...؟!

ارتفع صوت المحقّق وقد نَفِدَ صبره:

- أيها الرجل! خبِّرني من أنت! إني حتى الساعة أجهل من تكون!

- أَلَم يخبرك ذلك المتخفّي في صورة مريض على سرير في مستشفى؟ إذن فقد نقل إليك المعلومة شوهاء وناقصة، قبل أن ينسلّ بخفّة قطٍّ بَرِّيٍّ، مستحقًّا مكافأته على ما أخبر به!

في هذه اللحظة رأى (س) أحدهم يدخل المكان بخفّة قطٍّ بريّ آخر. انحناءةٌ على الأذن.

همسٌ وإسرار. انسلال. والأسارير انفرجت. أقبل عليه المحقّق:

– أستاذ (س)! من صميم قلبي أُهنِّئك، على أقوالك وطروحاتك وعلى كلّ ما يدور في رأسك من الأفكار الخيِّرة والخواطر النيِّرة. أنت مواطنٌ عظيم، مفكّرٌ جليل، أستاذٌ ممتاز. إنّ الوطن في أمسّ الحاجة إليك وإلى أمثالك العظام، أنتم مخلِّصو المجتمع من آفاته وعاهاته، حتى يصبح مجتمعًا رَخِيًّا رَضِيًّا، يعيش أبناؤه بطمأنينةٍ وسعادة.

وأقبل عليه، يصافحه ويهمّ بمعانقته، وهو يَشْرَق بدمعه.

ابتسم (س) بمرارة: هل على كلّ محبٍّ لوطنه أن يجادل كلَّ مواطن، ويُفيض في الشرح والتفنيد، قبل أن تتنزَّل عليه القناعة، أو يهبِط قطٌّ بريّ، ويكون بكاءٌ وعناق؟!

تنبَّهَ فجأةً، فلم يجد ابنَه إلى جواره:

– أين ولدي؟!

تلفَّت المحقّق حواليه، قال كالمعتذر:

– عفوًا، سيّدي! يبدو أنهم ساقوه إلى "قسم الأحداث"!

– قسم الأحداث؟! ولماذا؟! وأين يقع قسم الأحداث هذا؟

– هناك، هناك... اصحَبوا أستاذَنا الجليل إلى قسم الأحداث، يا شباب!

وخرج يُسرع الخُطا.

– ولكن لماذا اقتدتموه إلى قسم الأحداث؟!

– من أجل التحقيق معه؟

– وفيم تحقّقون؟!

أخذ يُهرول، وهم يُهرولون خلفه. وأمام بابٍ حديديّ موصد توقَّفوا. قرعوه.

- نريد الحَدَث الذي جئنا به إليكم قبل ساعة.

جاء الردّ:

- ولكنه لم يعترف بشيء!

- أبوه برفقتنا. أعطونا إيّاه.

ظهر وراء الباب رجلٌ ضخم:

- أنت أبوه؟

- أعطوني ولدي.

- حاولنا انتزاع الاعتراف منه، ولكنه أصرَّ على الإنكار!

- أيّ اعتراف! وأيّ إنكار!

- ويؤسفنا أن نُبْلغك أنه مات في أثناء التحقيق!!

- قتلتموه، أيها الأوغاد؟! أين ولدي؟ أريده حيًّا.

وقدّموه إليه جثّةً هامدة.

- أيها المتخلّفون! أيها الجهلة! أيتها الوحوش المتخفِّية في إهاب بشر! قتلتم ولدي!!

حمل ولده بين ذراعيه. ضمّه. قبّله، وقبّله، وقبّله.

- يا ولدي! قتلك برابرة هذا الزمان!

وأخذ يجري.

- ولكن لماذا، لماذا قتلوه؟!

وجد نفسه في نَفَق... يجري، ويصرُخ:

- يا ولدي! من غير ذنبٍ قتلوك!

أمعن في جَرْيِه، ومَن معه يَجرون في إثره.

لاح له في آخر النفق نور. يقترب من النور. النور يبتعد. يصرُخ. الجدران تُشاركه الصراخ، ومِن الأرض ينبعث أنين. كلُّ ما حوله يشاركه الصراخ والأنين.

- قتلوك، يا ولدي!

وولده على صدره.

وما زال يجري نحو النور... الذي يزداد بعدًا عنه كلما اقترب منه.

• القاهرة: ١٠-٢-٢٠٠٣، ولوس أنجلوس: ٧-٧-٢٠٠٤

فلوريدا: صباح الجمعة ١٥-٨-٢٠١٤

ليس للأزهار دائمًا عطر

ولا للأشجار ثمر

ولا للأطيار تغريد!

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ١٥-٨-٢٠١٤

خاطرة في حبّ النحو!

أَرتكبُ اليوم نميمة في حقّ أستاذ الأدب العربي الذي علّمنا في الصفّ العاشر بثانوية المأمون بحلب قبل ستين أو سبعين عاما -وكان من الأساتذة المصريين المُعارين، قديرًا وينظم الشعر- فقد قضينا العام الدراسي كلّه وهو كالمُضرب عن تعاطي الإعراب، إلّا إذا دعت الضرورة الملحّة في كلمة عابرة، ولكني أشهد بأنه نمّى فينا تذوّقَ الأدب ونزعة الفكاهة، هو

الأستاذ فريد رمضان.

من ناحية أخرى أشهد بأنّ الأستاذ المناظِر له في سنة الكفاءة التي سبقت، الأستاذ صبري الأشتر، بدا لنا مغرمًا بالنحو غرامًا حتى ليفتنّ في تلقيننا أصوله.

وأذكر ولا يمكن أن أنسى، أنه لم يتوصّل أحد من التلاميذ بيننا في ذلك اليوم إلى إعراب كلمة خَبْطَ تلك التي وردت في بيت شعر لـ زهير بن أبي سُلمى «رأيت المنايا خبط عشواء، من تُصب... » إلّاي! رفعت يدي، بعد تخبّطهم ما بين مفعول به ثان وحال وتمييز، لأقول إنها «مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: رأيت المنايا تخبط خبط عشواء»! هنا ارتفعت ضحكة من أحدهم (س. ج)، وقد ظنّ أني أتكلم عابثًا، فألوى عليه الأستاذ يسأله: «لماذا تضحك؟ »، فأشار الفتى وعبّر، فقال له: «يحقّ له هو أن يضحك عليك»، فأطلقتها من عندي عالية، أضحكت الصفّ وأحرجت الأستاذ.

لله درّي، إنه فعل التلاميذ! صبري الأشتر أصبح فيما بعد الدكتور صبري الأشتر عميد كلية الآداب بجامعة حلب.

هذا الشطر من البيت استعرتُه، بعد عقود من السنين، في قصة لي سمّيتُها الأول، حين جعلت إعراب هذه الكلمة سؤالا معجِزا من ممتحنٍ لخَرِيجٍ يؤمِّل أن يصبح معيدا بالجامعة (نُشرت القصة في مجلة العربي، ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٣).

وكنت قد تعلّقت بالنحو وبالعربية منذ الصف الرابع الابتدائي بمدرسة العرفان بحلب، على يد مربّ فاضل، يحبّ التعليم والتلاميذ والوطن، هو الأستاذ نديم الفرّا. رحم الله الجميع.

ثم إني درست العلوم الإنسانية، لكن في غير كلية الآداب.

فلوريدا: فجر السبت ١٦-٨-٢٠١٤

هل كان لأمريكا أن تغضّ الطَّرف... إلى أن تهدَّدت أسوار بغداد!

طيب... وأسوارنا؟

نفطنا المنهوب؟

والحقول المحروقة؟

والأيادي المقطوعة؟

والجماجم المرفوعة؟.

فلوريدا: مساء السبت ١٦-٨-٢٠١٤

وبلغ الإعجاب الذِّروة

وأنا طالب مستجدّ بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة، أحبّ وزير المعارف (التربية والتعليم العالي) في حكومة مصطفى النحاس باشا، الدكتور طه حسين، أن يُمتِع طلبة الجامعة العريقة، التي كان قد درّس فيها وشغل العمادة بكلية الآداب، بمشاهدة استعراض لرقصة الفْلامنكو الإسبانية، في ستاد المدينة الرياضية الملحقة بالجامعة بالجيزة، فتوجّه الطلبة في ذلك اليوم جماعات يملؤون أدراج الملعب، وما كان لي أن أحضر لموعد عندي مع الأمن لتأشيرة الإقامة بصفتي طالبا أجنبيا.

ثمّ كان ما رواه الطلبة الذين حضروا، عمّا حدث في الملعب قبيل نهاية الاستعراض، حديثا امتلأت به أعمدة الصحف في اليوم التالي، من أنّ الإعجاب طفح في صدور الطلبة، فنزلوا من الأدراج، مقتربين من الراقصات شيئا فشيئًا، مضيِّقين النطاق حولهنّ، إلى أن أطبقوا عليهنّ، وحظي السعيد منهم باحتضان راقصة.

وقد أسرع الوزير يكتب إلى السفير معتذرا.

والسفير الإسباني أجاب، بكياسة الديبلوماسي، بما معناه أنْ لا بأس في هذا، فهو نوع من التعبير عن الإعجاب.

حدث ذلك في خريف ١٩٥٠.

فلوريدا: فجر الأحد ١٧-٨-٢٠١٤

لا تدع المرج يطول في حديقتك!

أمس، رأيت صهري بشار، الذي أقيم عنده أيامي هذه في فلوريدا، مستاءً من مراجعة أحد المسؤولين في إدارة الضاحية السكنية له، يَلفت انتباهه إلى أنّ المرج في حديقة بيته قد طال ويتعيّن جزُّه!

وبيان ذلك أنّ الأمطار الاستوائية المتهاطلة في كلّ هنيهة في فصل الصيف، تجعل المِهادَ الفيروزيّ الأخضر الذي تكتسي به الحدائق المحيطة بالبيوت، سريع النموّ، والعُشبة إن طالت مالت، فلا يعود سهلا قصّها بسكاكين العربة الجزّازة. وإنّ بين الجيران مَن يندب نفسه للمراقبة والإخبار، حريصين جميعًا على أن تكون حدائق البيوت بديعةً وغنّاء فعلاً لا قولا! وبشار يقوم بهذه المهمة في بعض أيام الآحاد، إلّا إذا كان في الخطّة التوجُّهُ إلى منتجع يقضي فيه أفراد الأسرة مجتمعين ساعات النهار.

لا أشكّ في أنه قد طال استرسالي في بيان ذلك، بقدر ما طال المرج المطلوب جزّه، ولمّا أُبيِّنْ أني أخذت أُسَرّي عن صهري بأن حدّثتُه: لو كان في بلدنا غيورون، يلاحظون التقصير ويعملون على تفاديه ويلاحقون المسيئين والظالمين، لما استشرى الفسادُ في مجتمعنا، ولكنّا تابعنا مسيرة البناء -تلك التي بدأناها منذ عهد الاستقلال- فجعلنا الوطن فردوسا تهفو إلى زيارته النفوس المولعة بالجمال. فلا تدع المرج يَطُل في حديقة بيتك حتى لا يصعب جزّه، يا صهري

العزيز!

أقول: صحوت اليوم، الأحد، ليس على هدير العربة الجزّازة فحسب، لكن أيضًا على رائحة المرج المقصوص تملأ أرجاء البيت. فذكّرتْني بمروج بلادي، التي باتت تُخَضِّلها الدماءُ في كلّ مكان.

فلوريدا: عصر الأحد ١٧-٨-٢٠١٤

وُدَعـاء رُحمـاء!

في أوائل السبعينيّات...

كان يحدّثني في بيروت، ويُفيض في الحديث، صديقٌ سوري، فنان تشكيلي، يقيم ويعمل من يومه في لبنان، يقول:

إنه ما اجتمع مصادفة بواحد من أولئك الضباط السوريين الشباب، الناجين بأرواحهم من معركة الصراع على الحكم في البلاد، منذ آذار ١٩٦٣: بُعيد ٢٣ شباط ٦٦ وبُعيد ١٦ تشرين الثاني ٧٠... إلّا وجدهم وُدَعاء رُحماء، يتكلمون بأصوات خفيضة ويُصْدرون الرأي عن نفوس مَهيضة. وقد كانوا قبل الفرار سيوفًا مُصْلتةً على الأعناق، يتّهمون كلّ من خالفهم بالرجعيّة والعمالة للأجنبي، ويبيحون لأنفسهم مصادرة الأموال والأنفس والحريات. فكأنهم في اتّضاعهم تلك الساعة، يستجدون الصفح والمغفرة!

فلوريدا: مساء الإثنين ١٨-٨-٢٠١٤

القادمون إلى المدينة

أعترف بأنّ ما حَفَزني إلى كتابة هذه الخاطرة، في هذا الصباح الفلوريديّ الباكر، أني أَرِقْت، فنهضت، فجلست، واستوقفتْني خاطرةٌ في صفحة صديق، فأحببت أن أُسهم في تغذية معانيها

بما تُسعفني به الذاكرة، من أنّ التجمّع السكاني في مكان ما، يجتذب الناس من القاطنين في التجمّعات الأصغر حوله لدواعي المصلحة والحياة، ثمّ يكون هناك تجمّع سكانيّ أكبر يجتذب بدوره، وهكذا وصولًا إلى حاضرة الدولة، أو العاصمة، التي يسكنها السلطان ودواوينه الحاكمة.

وغنيّ عن البيان أنّ القادمين المنضمّين إلى هذه التجمّعات ينتمون إلى مختلف شرائح المجتمع، ممّن يرتقون في علمهم فيصبحون فقهاء، وعلماء، وكذلك تجارا وصنّاعا وشغّيلة، وبينهم لصوصٌ أيضًا!

ولأذكر أنّ سكان حيّ الميدان بدمشق كان كثيرٌ منهم (قديمًا، واليوم اختلفت الأمور) هم من أبناء الأرياف القريبة والمحافظات الأبعد أيضًا، تشهد على ذلك أسماؤهم: آل الحلبي، والإدلبي، والحموي، والحمصي، والديري، والحوراني. حتى كلمة مهايني، وهي أسرة ميدانية معروفة، تعني الانتساب إلى بلدة مهين في ريف حمص المتاخم للبادية. ذلك أنّ المنتجات الزراعية والحيوانية كانت ترد إلى دمشق، إلى أسواق هذا الحي التجاري الرئيسي، فيأتي بها ممثلون عن أصحابها للتسويق، فيقيمون ويتدمشقون.

وتاريخيًا أذكر جحافل المجاهدين من التركمان القادمين إلى بلاد الشام للمشاركة في تحريرها من الفرنجة أيام القائد الهمام نور الدين زنكي، ثمّ الأكراد الذين نزلوا أيام القائد صلاح الدين في محلّة تقع شماليّ غرب دمشق (وظلت تُعرف باسم حيّ الأكراد إلى أن استُبدل به اسم ركن الدين في عصرنا). وأصبح، وسوف يظلّ، كلّ هؤلاء جزءًا من النسيج الاجتماعي السوري.

ودعوني أعرّج قليلاً على مسيحيّي حلب، فإنّ بعض الأُسر فيها هم من ذراري الفرنجة (إن لم تخنّي الذاكرة)، استأمنوا وعاشوا، وبعضهم من أُسَر القناصل الأجنبية الذين كانت

قنصلياتهم تتموضع في أشهر مدينة في الامبراطورية العثمانية بعد اسطنبول، حلب (حين أغفل التاريخ دمشق بصفتها عاصمة منذ انتهاء دورها في عهد المماليك مقرًّا لنائب السلطان)، استطابوا العيش، هم وأسر التجار الأوربيين، في بلادنا الجميلة -دليل الأمن والأمان- وعاشوا مواطنين كراما، بالإضافة طبعا إلى السُّريان أبناء البلاد الأصليين، الذين لم يذكر التاريخ أنّ المسلمين قاموا بذبحهم (وإنما كانت حوادث ١٨٦٠ بجبل لبنان استثناء. ولن أدخل في التفاصيل تجنّبًا للإثارة(.

وإن سمحتم قلت: إنّ جدّي الحاج سليم السباعي قدم من حمص إلى حلب عام ١٩١٥، وسكن وأسرته الصغيرة في زقاق الزهراوي تحت رعاية آل السباعي الذين كانوا قد سبقوه إلى حلب قبل قرنين من الزمان. وعندما كنت أشير إلى ذلك في مجلس أدبي بحلب، فإنّ الأديبة المرهفة ضياء قصبجي (ابنة حلب، من حيّ الجلّوم العريق)، كانت تتمنّى عليّ لو أكتم حِمصيّة الأسرة!

طال الاسترسال، ولكني لن أدعه يُلهيني عن العودة إلى ما قلت أعلاه: واللصوص أيضًا، لأنّ الوافدين من الأرياف والتجمعات السكانية الأصغر، يضمّون مختلف الشرائح، فلا يبعد أن يكون فيهم من هؤلاء!

وهنا أذكر نهفة: في إحدى زياراتي للقاهرة (شباط/ فبراير ١٩٦١)، اجتمعت بالشاعر والكاتب الكبير علي الجندي (عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة آنذاك)، فأخذ يحدثني، ونحن على مائدة الغداء في منزله في مصر الجديدة، عن مدى حبّه للقاهرة، واستفاض في حديثه حتى قال: إنها قد أصبحت تعجّ بالأخلاط والأوشاب من الناس، وتمنّى -غير جادّ- لو أنه يلتمس من الرئيس عبد الناصر (وكان من المعجبين به) أن يُرَحّل من القاهرة مليونين من العَوَنْطجيّة الذين يَعيثون فيها فسادًا إلى قُراهم في الصعيد!

أعود: إنّ استقطاب التجمّعات السكانية الأكبر للبشر، هو ظاهرة ديموغرافية طبيعية. ولكنّ الوفود إلى عاصمتنا، في نصف القرن الماضي، أمر يبدو أنه قد تجاوز الظاهرة الطبيعية.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٩-٨-٢٠١٤

الخيال في استئصال الفساد

صديقة في التواصل الاجتماعي، كان قد كُتب عليها أن تهجر الوطن مع الأهل في اتجاه الغرب، وهي تكتب بالقلم تغريدات تنشرها، وتُبدع بالريشة لوحات تشارك بها في المعارض الفنية، ووهبها الله سبحانه صوتًا ترسله في الليالي المِلاح (العائلية) غناءً يُثير الحنين إلى الوطن.

كتبت لي، صباح هذا اليوم، تحدّثني عن مدى ألمها من تجذُّر الفساد في البلاد. حتى ذهب بها الخيال إلى أن تتمنّى أن تتملّك الإنسانيةُ يوما «جهازا مغناطيسيّا عملاقا»، يُحلّق في سماء الوطن، تكون مهمّته أن يجذب الفاسدين والمفسدين، يخرجهم من أوكارهم وجحورهم، ويلقي بهم بعيدًا، فيتطهّر الوطن ويعود كامل النقاء والصفاء!

وبيّنَتْ: ورد هذا في خاطري عند قراءتي آخر ما نشرتَ من كلمات.

ولم يَفُتها أن تسألني بحنان الأخت الصغرى: هل نويت حقًّا العودة إلى الوطن؟ أخاف عليك! إذن دعني أسمع صوتك قبل الرحيل!

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ٢٠-٨-٢٠١٤

أبناؤنا أكبادنا

أبناؤنا أكبادنا التي تمشي على الأرض، قلوبنا التي تخفق في صدورنا، يتخطّفهم الموت في كلّ ساعة، في كلّ منعطف طريق. وهم عند الأمم المعوّلُ عليهم في بناء الغد!

كم نحن حزانى عليك، يا بِشر، وعلى كلّ من يفارقنا من أندادك من أزاهير المجتمع! من

أين، أين، نأتي بالصبر بعد غياب الملايين الذين يرحلون، أو يضيعون في متاهات الحياة، ويهيمون على وجوههم في كلّ مكان!

ليرحمك الله، وليرقأ دموع أهلك ومحبّيك. وأنا واحد منهم وإن بعُد بي المكان. ولكنك، ولكنكم في سويداء القلب، أيتها الشموع المضيئة التي تنطفئ باكرًا، وباكرا جدا.

فلوريدا: صباح الجمعة ٢٢-٨-٢٠١٤

أُمْنيّة!

أتمنّى للمسؤولين عن مأساتنا أن يعيشوا الغربةَ التي يعانيها شعبنا، وذلَّ التشرّد، والجوعَ، والمرض دون دواء،

وأما الذين تخضّبت أياديهم بدمائنا، فليتجرّعوا المرارةَ من الكأس ذاتها.

ولا أكثر من هذا!

فلوريدا: الخميس ٢١-٨-٢٠١٤

في انتظار الفوضى الخلاقة!

فليقتلْ بعضكم بعضًا، مستخدمين الصواريخ، والسكاكين، والغازات الفتّاكة

وليحصد الموت منكم الصغار قبل الكبار

ولتدمّروا بلادكم العريقة، حتى لا يبقى فيها حجر على حجر

واستنفدوا أموالكم التي فوق الأرض، واستنزفوا ثرواتكم التي في باطنها

ولا تنسَوا أن توقظوا أحقادكم الدفينة منذ ألف عام

فقط... حافظوا لنا على أمن إسرائيل!

وإن شاء فريقٌ منكم أن يقدّم لنا عرضًا أكثر سخاءً، فإنّا مستعدّون لأن نجلس وإيّاه حول

طاولة مستديرة، ونتفاوضَ على شروط أفضل

نحن نرقب من بعيد

لا نلطّخ أيدينا

ننتظر ما يُسفر عنه ذاك الذي أحببنا أن نسمّيه الفوضى الخلاّقة!

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ٢٢-٨-٢٠١٤

وجع الضمير...

أعترف بأني كلما رأيت في الشابكة أناسًا يضحكون وهم في سهراتهم المنزلية، أو يمرحون في نزهاتهم الخلوية، وكلما وقعت عيني على موائد فيها كلّ ما تشتهي النفس من المآكل التي تتفنّن في إعدادها السيدات السوريات، أتذكّر...

أتذكّر الخيام، التي تتهاوى تحت عصف الريح، وطوفانَ الشتاء، وقيظ الصحراء، فأشعر بغُصّة في الحلق، وحُرقة في العينين، ووجع في الضمير.

ولا أستثني نفسي، حين يذهبون بي إلى المتنزّهات في أحضان الطبيعة، حيث الشيّ على المناقل وتعاطي الماء المثلّج.

فما بال أولئك الذين يرفلون بنعيم انتزعوه من جباه الآخرين، مستنزفين فيه عرقَهم والدمعَ والدم!

فلوريدا: فجر السبت ٢٣-٨-٢٠١٤

ذات يوم أليم، صحوة الضمير

الذين يمارسون ظلمَهم اليوم

سوف يَصحُون، في غدٍ ما، على فظاعة ما فعلوا.

فأين يذهبون... بضمائرهم... ومصائرهم؟

فلوريدا: فجر الأحد ٢٤-٨-٢٠١٤

ذات يوم أليم، لست أنا مَن فعل!

ليس لأحد أن يصف ضربَ النظام لشعبه، بالشجاعة.

ولكن ما القول في أنه عندما يقذفهم بالغاز، يبادر إلى الإعلان أمام العالم: «لست أنا من فعل هذا؟»

فلوريدا: صباح الأحد ٢٤-٨-٢٠١٤

ذات يوم أليم، جرائم الخمسينيّات وجرائم السنين الخمسين

يتساءل المواطن:

ما الجرائم التي ارتكبتها أنظمة الخمسينيّات حتى تُعاقَب بطلوع آذار؟

ثمّ

ما المساءلة التي سوف يخضع لها آذار، يوم تشرق شمس الحرية؟

فلوريدا: ضحى الأحد ٢٤-٨-٢٠١٤

ذات يوم أليم إغـداق!

أغدق عليهم

حتى تقطّعت أنفاسُهم فرحا

فلما استردّوا الأنفاس

وأدركوا

وهمّوا بأن يقولوا

تبيّنوا أنهم عاجزون عن الكلام

كان ما تقطّع فيهم

ألسنتُهم أيضًا

والأنامل التي بها يكتبون.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٢٤-٨-٢٠١٤

ذات يوم أليم هل تسامحون؟

نعم...

نحن نشاطركم الرأي في أنّ دعوى النظام، بأنكم تعتزمون ذبحنا، باطلةٌ من أساسها!

وهو من ناحيته، قام يمارس هذا في حقّكم، بالسكاكين والغاز والإبادة، وجعلَنا -دون إرادة منا- كأننا مشاركون له فيما يفعل.

فهل تغفرون لنا الصمتَ الذي تردّينا فيه، وتسامحوننا، فلا تنتقمون؟

فلوريدا: مساء الأحد ٢٤-٨-٢٠١٤

وكان الأحد يومًا أليما

وحيدًا ظللت في البيت

حضر الوطنُ عندي

تبادلنا الأحاديث

تناولنا طعاما من حواضر البيت

وشربنا الشاي الياسميني

والقهوة الشامية

كان يحاول أن يُخفي عني وجهه المدمّى

وتقاطرت الخواطر...

فلوريدا: منتصف ليل الأحد ٢٤-٨-٢٠١٤

صديقي يكتب أشواقه

رياض القادري صديقي من عهد الفتوة الأولى بحلب. أحبّ الأدب وقارَبَه يسيرا. ظلّ يتهمّم -ونحن في دمشق أصدقاء التجهيز بحلب في أربعينيّات القرن الماضي- لدعوتنا لسهرة شهرية في نادي الصحفيين بالعفيف، نحن الثلاثين شخصا من العاملين في الدولة المتقاعدين. بالأمس سافر إلى السعودية

عند ابنته الوحيدة قرّة عينه كوثر وزوجها والأحفاد، ترافقه زوجته الوفيّة عفاف، التي اختارها الله هناك.

وإنّ لحفيدته الشابة أميّة حُبّي، التي صحبها يومًا إليّ بدمشق طفلةً تهوى الأدب، صفحةً في الشبكة تغرّد فيها.

له أقول: ذهب الرفاق واحدا بعد آخر، وبقينا، أنت في الرياض يا رياض، وأنا في فلوريدا!

اليوم تنشر حفيدته، الجميلة الذكية أميّة في صفحتها، هذه المقطوعة "قولي لعينيك"، التي يعبّر فيها الجدّ عن حبّه وحنينه لجدّةِ أميّة: عفاف حسام الدين ستّي. رأيت أن أقدمها لأصدقائي، بما فيها من بساطة وعفوية وأشواق، في زمن تفرّق فيه السوريون، منهم من روّى

الأرض بدمه، ومنهم من يعيش تحت الخيام، ومنهم من هام على وجهه في كلّ اتجاه.

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٢٥-٨-٢٠١

أم محمد.. تُربّب الكبّاد!

يوم كنت أهتف إلى بيته، كانت تطلع لي أمّ محمد، أسألها عما إذا كان أبو محمد قد دعا -وما نسي- أصدقاء التجهيز لسهرتنا الشهرية غدًا في نادي الصحفيين بالعفيف، فتغتنمها زوجة صديقي سانحة لتسألني بصوتها الذي بات كليلا: «الكبّادات عندك اصفرّوا؟»، فأقول: «إذا ما اصفرّوا أخلّيهن يصفرّوا من أجل خاطر أختي أمّ محمد!».

ويمرّ صديقي رياض القادري ببيتي. وتتكرّر الحكاية الطريفة: أمدّ المِقْطاف (القضيب الطويل في رأسه مشبك) إلى الكبّادات الأبعد، رغبة في أن أُبقي الأقرب للفرجة، وألتمس من صديقي أن يتلقّى بكلتا يديه الكبّادة الهابطة فلا يدعها تسقط على الأرض فتنفزر، وأراه دائما يتحاشى مهواها ويقول، وهو الضابط القديم المسرّح من خمسين سنة: «شكلها متل القنبلة اليدوية المحزّزة!».

كانت أمّ محمد (عفاف ستّي) من سيدات دمشق اللواتي وصلت أناقتهنّ إلى الطبخ. تقوم ببَشر الثمار، أو تَعهد إلى من يبشرها. ثمّ نَقْعٌ، وسلق، وتغطيس في القطر. ولا يفوتها أبدا أن تُحمّل زوجها دَبْليزا[١] صغيرا فيه ما فيه من المربّى يلمع كالذهب الأصفر وإن كان دون رنين. فكان ذلك يُشجّعني على أن أبادر إلى سؤالها تاليًا: «أمّ محمد، لازمك شي كبّاد؟».

تذهب، يرحمها الله. وننتظر. ولكن هناك من يريد أن يذهب الوطن!

---

(١) الدبليز: إناء من زجاج، في لهجة بعض السوريين. والشائع: القَطرَميز. ربما أصلها من الدَّبّة في الفصحى، فهي بمعناها.

لماذا، كلما كتبت في أمر، أُعرّج على الوطن؟

فلوريدا: مساء الإثنين ٢٥-٨-٢٠١٤

كلمات قديمة مطلوب القبض عليها!

أحبَّ الأدب قبل أن يخضرّ فيه العود. واتفق وهو بعد فتى مع زميله في المدرسة عفيف كيالي، على أن يُصدرا مجلة، فقاما يحرّران مادة العدد الأول، وبجرأة طبعاه (ثلاثين صفحة)، ذهب المطبوع هدايا لزملائهما الطلاب، منهم من قرأ ومنهم لا.

ولم يفارقه حبُّه للكتابة. مقالات ينشرها في الدوريات اليومية، وخاصة مجلة الجندي (جيش الشعب فيما بعد). وقد انتظم في السلك ضابطا في أوائل الخمسينيّات، قبل أن يتحوّل إلى الوظيفة المدنية.

وظلّ ولعه بالأدب في حدود المغازلة لم يتجاوزها إلى الاحتضان. وكنت كلما قدّمت له عملا لي مطبوعا، أراه يتأمّله قبل أن يقول مازحا: «تعرف، فاضل! لو أني تابعت لسبقتك!»، ونضحك.

قبل سنوات استبدّت به الذكريات الأدبية، فعزم على أن يجمع ما كان كتب في شبابه الأول، ونثره نثرًا في الدوريات هنا وهناك. يقول لي: «بدّك تساعدني، أنت لها!». فدللتُه إلى حيث توجد الدوريات مؤفلمة. فأخذ يتردّد، ويستعرض باحثًا عن كلماته القديمة، يبغي إلقاء القبض عليها. ومن المؤسف أنه لم يعتقل منها إلّا نَزْرًا يسيرا لا يجدر أن يخرج في كتاب.

واشتعلت الانتفاضة. ترك في الوطن أوراقه، وحمل في الصدر ذكرياته، وذهب إلى المنفى الاختياري حيث الأبناء والأحفاد.

إنه صديق العمر رياض القادري، نزيل العاصمة التي باسمها يتسمّى.

له الصحة والعمر المديد.

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ٢٦-٨-٢٠١٤

الشمس تشرق من جديد

عندما قرأ الفتى أحمد أنّ في كتاب "العربية لغتي"، المقرّر الجديد الذي وضع في التداول حديثًا للصف الثاني الإعدادي، نصًّا لصديق جدّه فاضل السباعي، طار إلى بيت الجدّ يُخبره!

أخذ الجدّ الهاتف ليقول لي، في دالّة صديق العمر: «كيف يظهر لك نصّ في مقرر يدرسه حفيدي أحمد في الصف الثامن، ولا يكون النصّ، لا يكون الكتاب، من مقتنياتي؟! والآن، كيف السبيل إلى أن أرى الكتاب عندي هذا المساء؟».

أجبت صديقي رياض قادري: «ولكن، يا أبو محمد، النصّ هو في كتابي حياة جديدة، الذي تجده في مكتبتك إذا بحثت».

أوعز الجدّ لحفيدته أميّة المـحِبّة للأدب ولأحمد دارس النص، فجاؤوه بالكتاب. فتَحَ، قرأ: الشمس تشرق من جديد! قال لأحفاده متباهيًا: «هكذا يكون الأصدقاء!».

تقول الحكاية: إنّ مؤلفاتي انتقلت تلك الليلة كلّها إلى بيت الحفيدين أميّة وأحمد.

لـمّا سمعت بذلك قلت لصديقي أبو محمد شامتًا: «تستاهل!».

فلوريدا: مساء الثلاثاء ٢٦-٨-٢٠١٤

وأخذنا نَجْرُد كتب التراث الطبي

غاب عني اسمه بصفته واحدًا من الطلاب الذين كنت، في سنوات الخمسينيّات، أعلّمهم العربية بحلب، وأنا محام في التدريب، ولكنّ اسمي ما غاب عن ذاكرته. وبدا أنه كان يتابعني

في الدوريّات الأدبيّة كاتبًا، ثمّ باحثا في تاريخ الطبّ العربي، تلك الهواية التي استبدّت بي في ثمانينيّات القرن الماضي. هتف إليّ، في عام ١٩٩٢ أو ما حوله، يريدها معرفةً نِدّيّةً هذه المرة!

كان قد درس الطبّ بجامعة دمشق، وفي الولايات المتحدة تخصّص في طبّ العيون، وبها عمل بضعة عشر عاما، وازداد شهرةً في السعودية حيث عمل بضعة عشر عاما أخرى. إنها الأيام يدفع بعضها بعضا.

حدّثني، ونحن في بيتي بدمشق، بأنه ما كان يظنّ أنّ التلميذ والأستاذ اللذين كانا، يجتمعان حول مائدة الطبّ العربي، وقال مشيرًا: «هذا الركن في مكتبتك أريد أن أجرُد ما فيه ممّا لم يصل إلى علمي». وشاء أن نقتعد الأرض، على البلاط والوقتُ صيف، جلسةً عربية، نتناول فيها الكتب التي خلّفها لنا الأجداد، واحدا واحدا: «هذا اقتنيت نسخة منه، وذاك، يا سلام، سمعت به والآن أراه محققا مطبوعا!»، ويكتب عناوين، ونستحضر في ذلك نهفات التلاميذ والمعلمين، بالعودة إلى العام الدراسي ١٩٥٤-٥٥، ويذكر ما تأتّى له أن يحقّق -هو وابن عمته الباحث الدكتور محمد قلعه جي- كتابا، اثنين، عشرة، بضعة عشر، كتبا تراثية في طبّ العيون، ويسألني أن نعمل معًا في تحقيق مخطوطة "أدب الطبيب" للرّهاوي، لولا أنّ محققًا سبقنا.

ثمّ ذهب بقائمة العناوين إلى مكتبة النوري، التي أخذتْ على عاتقها أن تبعث بالكتب طردا بريديّا إلى عنوانه بالرياض. وما هو إلّا قريبُ وقت حتى كان له بدمشق أشهر مركز في طبّ العيون، ودارةٌ (فيلاّ) في ضاحية غربية يجتمع فيها أصدقاؤه في كلّ حين.

ومن مفارقات الزمان، أنّ الأيام التي جمعتنا بحلب، والعلمَ الذي أظلّنا بدمشق، نجدها تجمعنا ثالثة. وأين؟ في الولايات المتحدة، مغترِبَين، يحيط بكلّ منّا الأبناء والأحفاد، في ولايتين تقرّب المسافة بينهما الطائرة بساعتين!

بالأمس علّق في صفحتي على خاطرة لي (عن صديقي بالرياض رياض قادري)، قال وكأنه يخاطبني: «إن كان للغربة من فائدة، فهي أنها فجّرت فيك موهبة جديدة كانت كفِلِزّات الذهب مطمورة تحت أكداس من مشاغل الحياة. وكم من فلزّة غادرت الوطن ولم يغادرها الوطن. لك الله، يا وطني! » (الإثنين ٢٥-٨-٢٠١٤). طعّم كلماتِه بيسير ممّا عنده من غزير العلم، فأتى بفلزّة متميّزة وهو يدري أو لا يدري!

إنه الطبيب النّطاسِيُّ في طبّ العيون، الدكتور ظافر وفائي. كل التحية له والمحبة والتبريك.

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٧-٨-٢٠١٤

القَنال.. والمراقد!

هل هناك مَن يحدّثني عن أوجه الشبه بين هاتين الذريعتَين:

• ادّعاء دول العدوان الثلاثي أنهم، في هجومهم على مصر، أرادوا حماية القنال،

• وادّعاء حزب الله اللبناني أنه، في اجتياز ميليشياته الحدود السورية، يريد أن يحمي المراقد الشيعية؟

فلوريدا: فجر الخميس ٢٨-٨-٢٠١٤

شعورك.. وأنت أمام الأهرام!

في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، قبل ستة عقود من الزمان ويزيد، كان أستاذنا الشيخ محمد أبو زُهْرة يدرّسنا الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وخلافه، وما سمعته مرة إلّا وهو يُلقي محاضراته علينا باللهجة العامية المخالَطة بشيء من لهجته الريفية. وكان -رحمه الله- يروي لنا، في أثناء المحاضرة، بحديثه الطليّ شيئًا من ذكرياته الشخصية المستطرفة.

من ذلك أنّ أستاذهم بجامعة الأزهر، طلب منهم مرة أن يكتبوا عن مشاعرهم وهم أمام بناء الهرم الشامخ.

قال: ثمّ إنه جرى بين التلاميذ، كالعادة، أن يتحدث كلّ منهم عما كتب، فكان هذا يقول: تملّكني إحساس بالعظمة! وذاك بالفخار بما خلّفه الأجداد! وهكذا... فلما سألوه أجاب: كتبت أني بشعر بالذلّ وبالقهر لأنّ البناء الشامخ ده لم يُبنَ إلّا بزنود عمال السُّخْرة وهم تحت الكُرْباج! فسألوه: إنتَ كتبت كده؟ قال: وأكثر من كده... قالوا: مبروك عليك الصفر اللي حتاخده بإذن الله!

ولست أذكر ما قال عن الدرجة التي حصل عليها أستاذنا الفاضل، في يوم يعود إلى ما قبل قرن تولّى، وإن كنت ما أزال أتفهّم شعوره بالألم الذي عبّر عنه وهو أمام تلك الصُّروح التي بُنيت في زمن يعود إلى ما قبل آلاف من السنين.

ولكني أحبّ أن أشير إلى ما ينتاب الناس اليوم، ونحن في القرن الحادي والعشرين بعد الميلاد، من المشاعر وهم يشاهدون بأعينهم المساجد والجوامع تُقصف، والأسواق الأثرية تُحرق، والقلاع والحصون تُدكّ، وتُهدم البيوت على رؤوس النائمين فيها، وتُرفع الرؤوس المقطوعة على أسِنّة الرماح!

فلوريدا: مساء الخميس ٢٨-٨-٢٠١٤

غزّة.. وليست المعادلة بالكمّ!

ليس لأحد أن يقول: ولكنهم قتلوا منّا كثيرًا ودمّروا كثيرًا! لا، أيها السادة، المعادلة ليست بالكمّ، إنها بالكيف!

لا ضير في أن يقابِل استشهادَ مئة منّا قَتْلُ عشرة هناك. إنّ صاروخًا واحدًا، اثنين، عشرة،

تسقط على رؤوسهم، جديرةٌ بأن تُشيع فيهم من الخوف ما تمرّسنا به عبر خمسين سنة، ستين، سبعين.

هو ذا الشعب، المطالِب بوجوده، وليس بحريته فحسب، يصرخ: نحن محاصَرون، نحتاج إلى الحرية، والخبز، والماء، وإلى كلّ مستلزمات الحياة! نحن نموت... ولكنّا عزمنا على أن نَنْسُل من قلوبكم خيوط الإحساس بالأمان!

نعم، أيها الأحرار، نحن نفقد أعزّة، ونخسر كثيًرا ممّا هو غال وثمين. وذلك كي نستردّ ما هو أعزّ: الوجود خالصًا لنا.

فلوريدا: ضحى الجمعة ٢٩-٨-٢٠١٤

مجانين الحرية!

كان يتّفق له أن يجادل بعضهم، فيسمعهم يقولون:

- العمى على هالشعب! لَكْ بياكل قتل وقهر وفقر وما بيرفع صوته!

فيقول لهم:

- اتقاءً لهراواتكم الغليظة، ولمسدساتكم الكاتمة للصوت والأخرى الفاضحةِ له. وتريدون أن يتجارؤوا على فتح أفواههم للاحتجاج!

- نراك أنت تتكلم!

- وهل تتوقّعون أن يكون الجميع مجانين حرية!

فلوريدا: عصر الجمعة ٢٩-٨-٢٠١٤

ألا يعرف النظام أن يحزن؟

أيها النظام!

قضيتم على أطفالنا، ذبحًا بالسكاكين وخنقًا بالكيماوي... حَزِنّا، وتنصّلتم.

اليوم... يَقتُل، مَن هادنتموهم بالأمس، جنودَكم، أبناءنا، رميًا بالرصاص، جماعاتٍ بالمئات، في لحظة تاريخية. حَزِنّا نحن، ولم نركم تحزنون!

نتساءل: ألَا تعرف قلوبُكم الحزن، أم أنكم ولدتم بلا قلوب!

فلوريدا: ليل الجمعة ٢٩-٨-٢٠١٤

ذات أصيل.. في ضاحية غنّاء

تأخّر صهري بشار اليوم في عودته إلى البيت، وابنتي سهير ما زالت تحضّر وجبة العشاء، فخرجت وحيدًا للتريّض ساعة الأصيل، في هذه الضاحية الغنّاء. ولم يزعجني كثيرًا حارسُ البيت والحديقة، عنتر، في محاولته التقرّب مني مداعبا، وأنا لا أحبّ جنس الكلاب!

أمشي الهوينى على الرصيف في الضاحية المسمّاة باي-سايد ليك Bay-Side Lake، فوق الرصيف الضيّق المصبوب كبلاطات من الإسمنت قريبًا من حافة الطريق، يفصله عنه شريط من المرج دائم الخضرة. أمرّ تحت ظلال أشجار الغابات السامقة، التي ما آن لها أن تُقطع لتُشيّد مكانها الدارات. ولغزارة الأمطار في فصل الصيف أكثر مما هي في الشتاء، احتفروا ما يشبه مجاري الأنهار كي تستوعب فيضان المطر الغزير، وهأنذا أمشي فوق جسر لها. وهناك ما يشبه البحيرة لا يجفّ ماؤها، تحيط بجزيرة صغيرة تنبعث من أشجارها أناشيد البلابل والطيور. إنّ الدفء، الذي تنعم به ولاية فلوريدا في كلّ فصول العام، يجعلها المكان الأنسب لإقامة ملاعب الغولف، التي يؤمّها المتقاعدون تغَصّ بهم المساكن في شبه الجزيرة هذه، بأدنى

الولايات المتحدة في إطلالتها على المحيط الأطلسي.

في الطريق ألتقي بالمترَيّضين من الفتيان والفتيات، ينزلِقون بزحّافاتهم فوق هذه الأرصفة التي تتّسع لهم على ضيقها، وبراكبي الدراجات. أرى الرجال والنساء، ذوي السنّ المتقدّمة، قد خرجوا في هذه الساعة يُريِّضون كلابهم العزيزة ويتريّضون، أعرفهم من بُعد ويعرفونني، نتبادل التحية بهزّة الرأس. لكنْ ما بال هذين الزوجين يتمهّلان، لكأنهما يريدان بعد التحية أن يستوقفاني لتداول الحديث، وما لي الاستطاعة في ذلك، فإني -حتى إن ملكت اللغة- أجدني عاجزا عن مجاراتهم بنطقهم المندغم بعضه ببعض أو الإصغاء إلى موضوعاتهم اليومية.

في البيت كان عبق الفاصوليا الخضرا يملأ المكان، والرزّ إلى جانبها والسلطة ومخلل الخيار والفليفلة، وصهري قد جاء. لم يبقَ، أيها الأصدقاء، إلّا أن أقول لكم: «تفضّلوا!»، أنتم يا من أضيفَ إلى معاناتكم إيقاعٌ جديد: قذائف الهاون اليومية على دمشق، علمت أنها بلغت أمس ثلاثا وعشرين، ثمّ استدركوا فقالوا: بل سبعا وعشرين. ترى ما العدد اليوم، وعندي الآن الساعة الثامنة مساء، وتجاوزتم أنتم منتصف الليل؟

وآه، يا وطني الحبيب الذي ما آنَ لِمحنته أن تبلغ غايتها!

فلوريدا: أصيل السبت ٣٠-٨-٢٠١٤

وردّته الأيام إلى حيث ينبغي أن يكون!

ظَلِلتُ، في تلك الأيام، أتساءل: لماذا يجتهد زميلي القاصّ ز. ت، مسؤول النشر في اتحاد الكتّاب، في أن يَحُول دون نشر كتابي المتميِّز حزن حتى الموت، خمس عشرة قصة تُعرّي القهر والفساد، راضيًا أن يجعل نفسه أداةً في قبضة النظام، يمنعنا من النشر ويقمعنا في التعبير، فيُجرّحنا ويؤذينا؟!

عفوا، قلت: المتميِّز، وما أظنّني بالغت، فالكتاب نُشر بعدئذ في بيروت بثلاث طبعات متتاليات، والرابعة في الدار التي أنشأتها بدمشق مضطرًّا لنشر أعمالي، وكان الإصدار الخامس في باريس باللغة الفرنسية!

وأما المانع القامع الذي كان، فقد ردّته الأيام إلى حيث ينبغي أن يكون، فهو اليوم في صفوف المعارضين، يحاول أن يُغَشّي ذاكرتَه بالنسيان، فيقول للسيدة التي التقاها في مؤتمر يتبنّى الحرية وكأنه يتذكّر: أظنّ أنّ الوالد مستاء منّي من أجل كتاب لم يُنشر!

أرجو ألّا يلومني أحد في أني أكشف، فقد كان هذا وأمثاله ينعمون بالرضا ويجلدون.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٣١-٨-٢٠١٤

امرأة تحبّ وطنها

عندما نشرت بالأمس، في إحدى المجموعات، خاطرة أبديت فيها حزنا على المئات الذين أعدموا بدم بارد من أفراد جيشنا الوطني، عاتبًا أنّ النظام لم يُبدِ حزنا، رأيت مسؤول المجموعة، المدوّنة، يتأذّى ممّا كتبت، فيمنع، أو هو سحب الخاطرة بعد النشر، بناء على طلب الأعضاء. وليس هذا بالأمر الكبير، ولكني أقف عند ما كتبته إحدى العضوات (وهي مربّية فاضلة خريجة كلية الآداب)، عبّرت فيه عن بالغ ألمها ممّا تناوله قلمي.

قالت: «الوطن في هذه الآونة جريح، لا تزيدوا الجراح. سورية حضن حنون. أنا على ابن أخي، وأنا وابن أخي على الغريب [أعرف القول: أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب]. من بردى شربت حتى ارتويت. على ربوع الشام ترعرعت. كل الولاء والعرفان لسوريتي حبيبتي».

وتعلن في ذلك: «حياديّة كلماتي. والآن تراجعت الأنامل عن الكتابة، وتبخّرت الخواطر

إلى غير رجعة. اعتزلت التعليق».

أسرع مسؤول الصفحة يسترضيها: «أيتها المربية الفاضلة. نحن نرحب دوما بما يكتب أستاذنا الفاضل من مقالات وخواطر وذكريات، إلا أن مقالته الأخيرة حذفت بناء على طلب الكثيرات والكثيرين من أعضاء المدونة. وإن قولك باعتزالك التعليق، سيدتي الفاضلة، إنما هو مصادرة لفكرك وكرم أناملك وشفافية أقوالك. آمل العودة عن قرارك».

قالت: «لا يروق لي تسقّط الخطأ، أسمو في الملمات فوق الانتقادات، ليس أوانها والوطن ينزف. لنداوِ الجراح، نطيّب خواطر أيامى ثكالى يتامى. القلب على القلب، والحب شعاري، عشق سوريتي حبيبتي. كيف لا وقد احتضنت فلسطين بقدها وقديدها [تقصد: بقضّها وقضيضها]. سامحي أبناءك سوريتي. الدم ما بصير مَي».

تحبين وطنك، يا سيدتي، نعم... لكن كيف؟ ترينه ينزف وتكتفين بإعلانك عليه الحبّ؟

ألا يخطر في بالك أن تقولي لمن يُسقطون البراميل على رؤوس فقراء الوطن: أوقفوا إسقاطها! وللذين يبعثرون الكيماوي على أجساد الأطفال: أوقفوا الرشّ! وللذين أُعدموا المئات في الرقة أمس: أين النظام يصون أبناءه، أبناءنا؟ وللذين يرمون قذائف الهاون على دمشق: يكفيكم ترويعا!

تتحدّثين عن احتضان القضية الفلسطينية، وتنسين مخيم اليرموك اليوم؟ وتل الزعتر بالأمس؟ وجولان الأربعين عاما! أي حبّ رومنسيّ هذا، يا سيدتي المربية الفاضلة!

وسامحيني لأني أنا من يزيد في الجراح، وليسوا هم في حصاد الأرواح!

فلوريدا: فجر الإثنين ١-٩-٢٠١٤

الاضطهاد المستمرّ

هل يمكن القول:

إنّ هذا التنظيم

الذي بات يكسب أنصارًا ويحقّق انتصارًا

كان وليد اضطهاد على فئة كبيرة من الناس

استمرّ خمسين ستّين سنة

مارست فيه الديكتاتورياتُ المتعاقبة

التعدّي والتحدّي

فجعلتْه يتكوّن يدًا ضاربة

يردّ بها الاعتداء

ويبالغ في الاعتداد

ويغلو في الانتقام

ويتخبّط في كلّ اتجاه؟

فلوريدا: ضحى الثلاثاء ٢-٩-٢٠١٤

ورفضوا الإسلام المعتدل

لو كان لي أن أتوجّه، اليوم، بالسؤال إلى أولئك الذين كانوا، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، يخطّطون للاستيلاء على السلطة، ما إذا كان من الحكمة أن يضعوا أيديهم في أيدي الاتجاهات الإسلامية -وقد كانت في غاية الاعتدال- ويمضوا معًا في بناء سورية الحديثة؟

(ومن المعتدلين الأماثل مفتي الجمهورية في زمنه محمد أبو اليسر عابدين والشيخ علي الطنطاوي والدكتور مصطفى السباعي والشيح حسن حَبَنَّكة الميداني والشيخ محمد النبهاني الحلبي)، أم أنهم كانوا يفضّلون التحالف مع الحلقات القابلة للكسر، حذرين من أن يخطف الإسلاميون الحكم مثلما هم يبيّتون؟

فقضَوا بديكتاتوريتهم على الإسلام المعتدل، واستفزّوا حتى أجّجوا نيران التطرّف. وهم اليوم يرفعون الصوت في طلب العون!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٣-٩-٢٠١٤

أيكون الغرب متواطئًا ضدّنا؟

نحن نفهم جيدا، أن يهتزّ ضمير الغرب إزاء الاعتداء على حياة أبناء العراق، من مسيحيّين وإيزيديّين، ونؤيّد صحوة هذا الضمير، ونفرح بها إلى حدّ البكاء!

ولكنّا نقف حائرين، وعاجزين حتى الغباء، عن فهم صمت هذا الغرب على إبادة الشاميّين، أفرادًا وجماعات، أطفالًا ونساءً ورجالًا، حاراتٍ وضواحيَ ومدنًا صغيرة وكبيرة.

ذلك يجعلنا نصدّق أنها مؤامرة كونية، تقصد إلى تفتيت أعرقِ منطقة أَنجزت حضارةً عبر التاريخ، وأهمِّ ملتقًى بين القارّات، وأجمل طبيعة، وأحلى بشر!

فلوريدا: فجر الخميس ٤-٩-٢٠١٤

سوريّة مسلسل مثير!

شعبٌ تَحُزّ أعناقَه السكاكين، تُزهق أرواحه تحت الأنقاض، تُدمّر بُناه التحيّة والفوقيّة، يستنشق روائح الكيماوي، يتشرّد، يَعرى، يجوع، يُهان، يموت في صحارى الغربة.

والعالم يتفرّج، وكأنه يشاهد مسلسلاً تلفزيونيًّا مثيرًا، والجارة اللدود تقهقه، فالأيام تُغدق

عليها أكثر ممّا كانت تتمنّى!

فلوريدا: صباح الخميس ٤-٩-٢٠١٤

بحيرات دم!

كأني استشفَفْتُ دمعاتٍ تتلألأ بين أسطرها، كلماتها، حروفها، نقاطها الملزوزة، وهي تحدّثني، تكتب لي، عن فقدانها عيادتَها -بجانبِ ما سمّته معبر الموت- بصاروخ عابر للمسافات، وأنهم أمطروا منزلها، جيرانها، حارتها، بوابل، ألجأهم إلى أن يحملوا ضحاياهم على أيديهم، ويرحلوا.

وأما عندما أخذت تروي لي أنّ ما كانت تشاهده في ذلك المعبر، مِن تساقط العائدين بمشترياتهم، برصاص قنّاصين آثمين، فتختلط دماؤهم بالقوت الذي يحملون... أنّ ذلك ألهمها أن تُدوّن يوميات شعب تمارَس في حقه كل ضروب القهر، سوف تظهر في كتاب يُطبع الآن في بيروت، أقول: فعندئذ تراءت لي لآلئ الدموع، وقد تحوّلت بين الأسطر إلى بحيرات دم ينبعث منها لهيب يبدد الظلام.

فلوريدا: فجر السبت ٦-٩-٢٠١٤

الاستفادة من التقنيّات المعاصرة

مجلة الكترونية، معنيّة بفرع من فروع الإبداع، يتولّى إصدارها جماعةٌ من المبدعين العرب، يتوزّعون في مساحات شاسعة على متن كوكبنا الدرّي، من القارّات الأمريكية والأوروبية إلى إفريقيا وآسيا... يعمل متولّيها الأول أستاذا بجامعة في الشرق الأقصى، وتُسهِم النخبة العاملة فيها، تحريرًا وإخراجًا، وتواصلاً مع الآخرين، من حيث يقيم كلٌّ منهم، عبر الشابكة، مستفيدين من التقنيّات العلمية في أرقى مجاليها.

ولعلك تقرأ في أولى صفحاتها: المجلة تؤمن بحرية الأفراد والمواطنة وحقوق المرأة ونبذ الكراهية والعنصرية. لا تنتمي إلى تيار سياسي أو أيديولوجية دينية.

في هذه البرهة الزمنية ذاتها، نرى في أماكن ما من الوطن العربي الكبير، أنظمةً تهدر دماء شعوبها، بهمجيّة القرون الوسطى، لكن مزوّدةٌ بآلة القتل التي ابتكرتها عقلية العصر الحديث، من غارات وغازات، وصواريخ عابرة للمسافات!

وكلٌّ يستفيد من العصر ما يَهوى.

فلوريدا: ظهيرة السبت ٦-٩-٢٠١٤

ولمحبّة الابنة لأمّها طعمٌ آخر

قرأت، قبل سويعات، أحلى عبارة توجّهها ابنةٌ لأمّها: «أنت تسكنين كلّ كلّي، يا أمّي»

خطّتها أنامل الشابّة التونسية أميرة الرومي، ونُشرت في موقع الرابطة العربية للأدب الساخر الذي يُبثّ من المغرب.

أعترف بأني لم أقرأ، ولا أتصور أني أقرأ في أيامي الباقية، كلامًا قريبًا من هذا المعنى يعبّر به ابنٌ بارّ عن محبّته لأبيه!

فلوريدا: مساء السبت ٦-٩-٢٠١٤

المزّة.. اليابان.. أمريكا!

استيقظت فجر اليوم مؤرَّقًا، لأتلقّى رسالة من سوريّ مغترب، ومن أين؟

«أنا مقيم في اليابان، وغير مرتاح. أولاد أختي في أمريكا، منهم صيدلانية تعمل في ولاية فلوريدا. أفكر في الهجرة إلى هناك. إن استطعتَ أن تساعدني برأيك. أشكرك على كل حال».

كتبت له:

«أعتقد أنّ ابنة شقيقتك تفيدك أكثر مني. يبدو لي أني معروف عند الناس كاتبًا أكثر من معرفتي أنا بأمور الهجرة! كنت عزمت على العودة إلى الوطن حسمًا لغربتي، لولا الهاون على دمشق والحُمَمُ على جوبر، فأجّلتُ ولم أعدل. أتَرى أين وصلت الحال بنا، نحن معشر السوريين: غربة عبر القارات! لكن أيّ ريح حملتك إلى اليابان، يا أخي!. «

فكتب: «لي ولدان في اليابان. ومنذ سنتين وأنا هنا. لديّ إقامة. العمر في السبعينيات. قلت أهرب. ولكن كلما طال المقام ازددت إحساسًا بالغربة. ربما كانت الشام/ المزّة أهون من الغربة. أقرأ خواطرك ولا تفوتني واحدة منها. أتمنى أن تكون أسعد مني حظًّا في غربتك».

فلوريدا: صباح الأحد ٧-٩-٢٠١٤

صديقي يؤلف كتابًا

في الكياسة التي يتحلّى بها صديقي الوسيم هيثم، والرهافة التي بلغت أطراف أنامله، وهو الفنان الضوئي المتميّز، رأى أن يدخل عالم التأليف بكتاب يتناول فيه ما يتعيّن على المرء أن يتصرّف فيما سمّاه السلوك الجميل في تعامله مع الناس والمجتمع والحياة، فشرع في الكتابة وما تلعثم قلمه، يكتب فصلا بعد فصل: في أدب القراءة وفي أدب الكتابة وأدب القلم وأدب استعارة الكتب، وكتب في أدب المصافحة، والنداء، واستعمال هاتف الآخرين، ومعاملة السيّاح، وارتياد الحدائق العامة، ومشاهدة اللوحات الفنية. كلّ فصل في صفحة أو اثنتين، حتى قاربت الفصول المئة. وجاء كلّ فصل أرقّ ممّا سبق. فلما وصل إلى التدخين -وهو وأنا من الكارهين له- اكتفى بعنوان التدخين نافيًا عنه صفة الأدب!

كان ذلك -أذكر ولا أنسى- في منتصف السبعينيات من القرن الماضي. وقد وضع

مخطوطة كتابه بين يديّ لأدقّقها لغويًّا. ولست أدري كيف خطر له أن يُعرّج، في إحدى سفراته إلى لبنان، فيدخل على كمال جنبلاط في مكتبه، ويلتمس منه كتابة مقدمة للكتاب. وما خيّب الزعيم اللبناني الكبير رجاءه.

ولم يكن سهلاً أن يحظى كاتبٌ ناشئ بناشر لكتابه الأول. ولكنّ صديقًا لهيثم من أيام الدراسة، غدا صاحب مطبعة (صَفّ يدويّ على الطريقة التقليدية)، تعهّد بأن يطبع له الكتاب: يؤمّن الورق، ويكون الصفّ حسب التيسير، وسداد قيمة التكاليف مقسّطًا وحسب التيسير أيضًا.

وطال لبْثُ الكتاب في المطبعة، قبل أن يخرج بمئة وثلاثين صفحة، دون تاريخ نشر (وأقدّره بأواخر السبعينيات، وتاريخ إهداء نسخته لي يُبيّن، والكتاب في بيتي بدمشق)، ودُون تلك المقدمة العتيدة، التي ظلّت مغيّبة في دُرجٍ مُعتم لتغيّر الظروف، فقد انتقل الزعيم اللبناني من خانة الأصدقاء السياسيين الطيّبين إلى خانة أخرى!

وأحرص، هنا، على أن أشير إلى أنّ صديقي المؤلف خصّني بعشر نسخ من كتابه، لأوزّعها على أصدقائي من الكتّاب، فما أبقيت منها إلّا اثنتين، كما أتاح لي أن أبدي رأيي في كتابه الأثير بكلمات، نشرها مع غيرها على الوجه الآخر من الغلاف، هي ذي: «ما أحسب أنّ أحدا ممّن أعرف معرفة شخصية، جديرٌ أو قادر على أن يؤلف في هذا الموضوع جدارةَ صديقي هيثم. هذا الكتاب الصغير الحجم، الرشيق النصح، الجمّ الفائدة، شدّ ما تفتقر إلى مثله المكتبة العربية».

ويدخل -يحدثني مبتهجًا- مكتبة معروفة بدمشق، وهو يحلم بأن يرى في الغداة كتابه، الذي سمّاه "في أدب السلوك"، معروضًا في الواجهة. قلّب الكتبيّ الكتاب، وبادر يعتذر بأنّ عنده كثيرا من الكتب ولا أحد يشتري، وكاد لسانه يعلن «ومين بيشتري هالكتاب؟ » ولكنه

لم ينطقها! واتفق أن كانت في المكتبة سيدة تنتقي كتبا، لمحت الكتاب بين أيدي الرجلين. استأذنت، وتصفّحت، وسرعان ما سألت عن الثمن؟ ومن يومها -يحدّثني هيثم- وصاحب هذه المكتبة يهتف إليه ويطلب نسخًا!

ثمّ إنه وقع لصديقي ما يقع لبعض المؤلّفين: أن يفقدوا آخر نسخة من الكتاب الذي ألّفوه. فقدّمت له إحدى النسختين الباقيتين وأنا أنبّهه: «إن ضيّعتَ هذه، فلن أتخلّى لك عن الأخرى!»، وضحكنا.

إنه صديق ثانوية المأمون بحلب، في الأربعينيات، صديق العمر كلّه، «هيثم الكواكبي»، حفيد المفكر العظيم عبد الرحمن الكواكبي، شفاه الله ورعاه ممّا يُلمّ به من أوجاع السنين.

فلوريدا: ضحى الإثنين ٨-٩-٢٠١٤

«من الخوف يموتون بالجلْطَة»!

١من٤- قصة احتفال في الساحة العامة

في قصة كتبتها في مثل هذه الأيام من عام ١٩٨٢، بعنوان "احتفال في الساحة العامة"، جعلتُ هتافا يجري على ألسنة رجال النظام وهم يتجوّلون بين الجماهير:

نحنَ رجالِكْ، يا سلطَهْ

بالنارْ نضربْ، والبلطَهْ

واللي ما نصلْ ليهمْ

م الخوفْ يموتوا بالجلطَهْ

وفي دُرجٍ أودعت القصة. إلى أن تراءى لي، في عام ٢٠٠٥، أن أبعث بها إلى مجلة الآداب اللبنانية، وقد حرصت على أن أعلمهم أنّ ثمة موافقة من وزارة الإعلام على نشرها مع مثيلاتها

في كتاب، فنشرتها المجلة في عددٍ ثلاثيّ أصدرته في خريف ذلك العام، مذيلة إياها بحاشية تشير إلى موافقة الإعلام السوري حذرًا من منع توزيع العدد في البلد. والكتاب، وعنوانه تقول الحكاية، صدر في مطلع ٢٠٠٦.

أقول: تخيّلت النار والبلطة، ولم يخطر لي الكيماوي!

فهل كنت في ذا كليل الخيال؟ أم أنّ أفكارهم هم أبعدُ من أن يبلغ مداها خيالُ قاصّ هوايتُه اختراع المآسي وابتداع المواويل؟!

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٠-٩-٢٠١٤

«بالروح، بالدم نفديك يا حفيد»

٢من٤– قصة احتفال في الساحة العامة

والحفيد المقصود بالهتاف هو حفيد الزعيم الأعظم والأغلى على قلبه.

بالروحْ، بالدمْ

نفديكَ يا حفيدْ

برموشْ العينْ

نحميكَ يا مجيدْ

وهتفوا أيضًا:

يا حفيدَ العُظَما

ذُخرَنا يوم المِحَنْ

دمتَ للدهر، وما

غيرُكم يبني الوطنْ

أعترف بأنّ القصة، المكتوبةَ مسوّدتُها في صيف ١٩٨٢، كانت خاليةً من هذا النظم، ولكني، وأنا أُعدّها للنشر في عام ٢٠٠٥، تتالت عليّ الأشعار، ما قدّمتُ أعلاه من المعاني الشائعة، ومعان أخرى همجية. هتفوا:

نحنا لها، نحنا لها

روسَ العِدا نذلَّا

وانْ كانْ مانْها تنحني

نكسّرها ونحتلَّها

تقول القصة: «فجأة... أزّت في الفضاء طلقة، يبدو أنها طائشة، تلتها رشّةٌ من بندقية رعناء. والموسيقا توقّفت عن الصُّداح. وبعد ذلك أخذ الرصاص يرتشق في كلّ اتجاه. والذين كانوا قد أطلقوه قبل دقائق ابتهاجًا، عادوا يطلقونه انتقاما. والجمهور أخذ في الفِرار من الساحة».

واعذروا شهرزاد إن أدركها الصباح، فانتظروها إلى غد.

فلوريدا: مساء الأربعاء ١٠-٩-٢٠١٤

«مؤامرهْ، مؤامرهْ.. دنيئةٌ مدبّرهْ»

٣من٤ – قصة احتفال في الساحة العامة

بدا أنّ الرصاصة، التي أزّت في الفضاء، لم تكن طائشة تمامًا، كانت تستهدف حفيد الزعيم الأعظم، إلّا أنها أخطأت الهدف قليلاً.

في الساحة، في كلّ المباني المحيطة بها، كان آباء وأمهات يحتشدون في الشرفات ويسدّون النوافذ، قد جاؤوا إلى بيوت أصدقائهم ليُكحّلوا العين بمرأى أكبادهم وهم يمشون في

المواكب الرياضية على إيقاع الموسيقا النحاسية.

قال واحد منهم حديدُ البصر: «أظنّ أنهم تمكّنوا من قتل مطلق النار!»، ولم يجرؤ أحدٌ من سامعيه على أن يقول: ولكنهم قتّلوا الناس تقتيلاً!

هاهنا ارتفع في الساحة هتاف:

مؤامرهْ، مؤامرهْ

دنيئةٌ مدبّرهْ

وكلُّ مَن وراءها

لا يستحقّ المغفرهْ

خطّ قلمي لفظ مؤامرة قبل أن يُشيعوا بيننا أخيرًا مصطلح مؤامرة كونيّة. هل كان هذا منّي حَدْسًا!

وهتافُ صاعق آخر:

قَتَلهْ، قَتَلهْ * سفّاكينْ الدمْ

راحْ يْعوموا * بْحَمّامات الدمْ

والآباء، المتجمّعون في ذلك البيت عينه، المُطلّ، فُجعوا وهم يرون فلذات أكبادهم جثثًا مضرّجة في الساحة. وفجأة، طُرق عليهم باب البيت، قدمٌ ثقيلة تخبط الباب خبطًا.

ويا له من ثقيل ظلّ شهرزاد، إذ تقول: غدًا!

فلوريدا: فجر الخميس ١١-٩-٢٠١٤

ومازالت

تلك الدولة المستعلية

تصنع عسكرًا يحكمون بالقدم

وتنظيمات تمارس القتل والإبادة

وهي تنظر من بعيد

وتبتسم

وإذا ما وقع

أن تمرّد المصنوع على الصانع

أعادت الابتكار والتصنيع

غدت لعبتَها المفضّلة!

فلوريدا: ليل الخميس ١١-٩-٢٠١٤

كائن من حثالة البشرية!

عندما يقوم أحدهم في لبنان الجميل، بترهيب ثلاثة أطفال سوريين من أبناء اللاجئين، بأن يُلوِّح لهم بسكين أو ساطور، يوهمهم بأنه سوف يذبح ويَقطع الرقبة، ويسألهم أن يقدّموا واحدًا منهم أولًا، ولا يستحيي من أن يُمكِّن من تصوير ذلك ثمّ تعميمه، هذا معناه أنه كائنٌ ينتمي إلى حثالة البشرية، وأنه مجبولٌ بعَفَن التاريخ، وصديده وقَيحه وبكل نجاساته. ويدلّ أيضًا على أنّ لبنان لم يعد بهؤلاء جميلاً!

فلوريدا: مساء الجمعة ١٢-٩-٢٠١٤

«العهد البائد دمّرناه »!

٤من٤- قصة احتفال في الساحة العامة

الآباء والأمهات، الذين كانوا يملؤون بيت صديقهم الكريم، تقطّعت نِياط قلوبهم وهم يرون الأطفال، أطفالهم، جثثًا منطرحةً في أرض الساحة العامة. وفي أثناء ذلك كان هتاف يطرق أسماعهم:

دمْ، دمْ، دمْ

اضربْ ولا تهتمّ

رصاصْ متل المطرْ

أشلاءْ ما تلتمّ

وهم في هذا الرعب، سمعوا خبطًا على الباب. فاحتبست أنفاسهم، وتجمّع بعضهم إلى بعض. واندفع عسكريّ شاهرًا بندقيته: «أنتم هنا؟!«.

تقدّم فصيحٌ منهم، وهو يغتصب ابتسامة: «أهلاً وسهلاً بالأخ المناضل. نحن هنا، بدعوة من صديقنا صاحب البيت وزوجته، لنشاهد فلذات أكبادنا وهم يشاركون في هذا الاستعراض الوطني يمشون تحت الرايات المرفوعة«.

سأل: «من منكم صاحب البيت؟«.

تقدّم المضيف بخطواتٍ مشلولٍ. أمرَه: «قف خطيبًا في مدعُوّيك، وحدّثهم عن فظاعة ما ارتُكب الآن من محاولة اغتيال حفيد الزعيم الأعظم، وبرِّر، بمنطق مقنع، ردّة الفعل من رجالنا تجاه الخونة، وآبائهم، وأبنائهم، والأحفاد. فإن خانك التعبير نلت جزاءك في الحال، أنت ومدعُوّوك!. «

التقت الأبصار عند شفتَي المضيف. وفي تلك اللحظة كانوا يسمعون ذلك الهتاف:

نحنا رجالِكْ، يا سلطَهْ

بالنارْ نضربْ، والبلطَهْ

واللي ما نصلْ ليهمْ

م الخوفْ يموتوا بالجلطَهْ

سمع صاحب البيت ذلك، فسقط على الأرض مجلوطًا.

والبندقية تحركت في يد العسكري. نَحَبت النساء، والرجال توسّلوا.

قال العسكري: «سوف أمنحكم فرصة أخرى. تقدّم، أنت أيها الفصيح، تكلم وانقذ أرواح أصحابك».

عاد الفصيح يغتصب ابتسامة:

»في الحقيقة، أيها الإخوة المواطنون، إنّ ما اقترفه ذلك الإرهابي في الساحة تحت، شيء يتجاوز فظاعة الإرهاب إلى الخيانة العظمى. إنه تآمر من الإمبريالية والشعوبية والديماغوجية. وأما ردّة الفعل الفورية تجاه الإرهابيين وأهاليهم، فإنها تصرفٌ حكيم، لأنّ... لأنّ من صلب هؤلاء خرج الإرهابيون، ومن صلب الإرهابيين يخرج الأطفال».

سألهم العسكري: «هل ترون أنّ ما قاله خطيبكم صحيح؟«

أجابوا بصوت واحد: «صحيح، صحيح، صحيح! «

قال: «إن كنتم تكذبون فأنتم تستحقون عقاب المنافقين. فإن كنتم صادقين، فكيف سمحتم بأن يخرج من أصلابكم أولئك الخونة؟ خذوا، أيها المارقون من دين الوطنية«.

ولم يُقدَّر لهذه الأهزوجة أن تطرق أسماعهم، لأنهم كانوا قد فقدوا السمع وكلّ شيء!

العهدْ البائدْ دمّرناهْ

والوطنْ نحنا عمّرناهْ

عيونْ الدهرْ بكرهْ تْشوفْ

وتشهدْ ع اللي أنجزناهْ

دمشق الشام: ١٩٨٢ من كتاب تقول الحكاية، دار إشبيلية، دمشق ٢٠٠٦

فلوريدا: منتصف ليل الجمعة ١٢-٩-٢٠١٤

إرهابيون، ومرتدّون

ومن عبث الأيام أنّ المطالبين بحرياتهم

هم، في نظر النظام، إرهابيون

يستحقون الموت قتلاً وتشريدًا

وفي نظر آخرين، مرتدّون

يستحقون الموت إبادةً وصلبًا

فأية مؤامرة كونية

تمارَس في حقّ الشعب والوطن!

فلوريدا: فجر السبت ١٣-٩-٢٠١٤

تغيير.. وتعزيز

كان النظام يُزري بخصومه السياسيين، فيُسمّيهم الرجعيين. وبعد ١١ أيلول استعار ما انتشر في العالم من جديد المصطلح، فوصمهم بالإرهابيين.

وهو خصّ نفسه بشعار وحدة، حرية، اشتراكية، فعزّزه بشعار آخر: المقاومة والممانعة.

له دائما أجملُ الأوصاف وأكملُها، ولنا رديئها ورجيمُها. وذلك كلُّه لأننا نطالب بالتمتّع

بحريتنا وهو يريد الاستئثار بها.

فلوريدا: مساء السبت ١٣-٩-٢٠١٤

التعرّف على مروِّع الأطفال السوريين الثلاثة

لم يكن ذلك اللبناني (من قرية حبشيت في النبطية) المدعو محمد فحص الذي أقدم بالأمس على ترويع الأطفال السوريين الثلاثة بتهديدهم بالذبح، معتوهًا، ولا هو يعاني من خلل في عقله، لكن الخلل في نفسه، بما نشأ عليه من حقد وضغينة واستهتار بأمثال أولئك الأطفال، فقام يُرعِب ويُرهِب، وأمّه الجاهلة تصور.

والشكر كلّ الشكر لموقع ليبانون ديبايت الذي نشر وساعد، ولشعبة المعلومات، التي تأتّى لها توقيف الفاعل خلال ساعة واحدة، هذه المؤسسة الاستخباراتية الحديثة، التي تولّاها من بدايتها الضابط المتميّز العميد وسام الحسن، واستطاع فيها تصيّد المتخابرين مع إسرائيل، فأُخرِجوا من أوكارهم، وحاولت يدُ الإثم والغدر اغتياله مرة، وتحقق لها ذلك في الثانية، فكان فقدنا عظيما لأشجع ضابط في المخابرات العربية، وأكثرهم تفانيًا ونبلاً.

فلوريدا: ليل السبت ١٣-٩-٢٠١٤

اعتذار يجيء متأخرًا

إلى أصدقائي في العالم الافتراضي الذي يُجمّله التواصل في الفكر والأدب وتُعطّره المودة.

أتلقّى أحيانا من الأصدقاء مَن يُكْرمني بأن أقرأ له نصّا هنا أو هناك وأبدي فيه رأيًا، أو أجيبَ عن أسئلة للنشر في بعض الدوريات. وقد بدا لي أن حُسن الظنّ بالمقدرة يدفعني إلى الموافقة دائما، ثمّ تتبيّن لي صعوبة التحقيق.

واسمحوا لي أن أبيّن أني لاحظت، وأنا في سنّي المتقدّمة، أنّ المزاجيّة في الكتابة باتت

تَغلب عندي وتتحكّم أكثر من ذي قبل. فإني، مع مواظبتي على الكتابة والنشر في صفحتي بمجالات، أجد أنّ القلم يَحْرُن في يدي إذا ما وعدت والتزمت، وأفتقد المقدرة على الاستجابة، متعرِّضًا لعذاب نفسي صغير لحظة يسألني الصديق ما وعدت، فأبدو عاجزا عن تقديم المبرّر.

ذلك ما جعلني أتمنّى أن أكون أكثر جرأة في الاعتذار. بالأمس تسألني صديقة فلسطينية بالقاهرة مقابلةً صحفية لجريدة تصدر في لندن، ولم يغيّر موقفي قولها المجامل «أنت قامة أدبية يستفيد منها القراء»! اعتذار لم أحسن تقديمه للصديقة السورية في أربيل يوم طلبت مني مقابلة لمجلة في ألمانيا، ولا للصديقة المغربية مقابلة لمجلة في أبو ظبي، ولا للصديق السوري في باريس لموقع افتراضي، فضلا عن كتابة مقدمات لكتب تخطّها أناملُ رشيقة لِشُداةٍ في الأدب.

مع هذا الاعتذار، الذي قد يكون متأخرًا، أحسّ تحرّرا من التزاماتي، آملاً أن تعينوني في الاستمرار به!

فلوريدا: ظهيرة الأحد ١٤-٩-٢٠١٤

الإقامة في بيت الابنة

لاحظت أنّ غير قليل من الآباء والأمهات، الذين يلتحقون بأبنائهم وبناتهم في ديار الغربة، أو ممّن يُضطرون إلى الهجرة تحت وطأة الظروف الراهنة، يقيمون عند بناتهم هناك، أكثر ممّا تطيب لهم الإقامة عند بنيهم!

هل ذلك لترحيب يلقَونه من الابنة الحنون منضمًّا إليها الصهر المحبّ، أكثر ممّا يتبدّى لهم من الترحيب من قبل الابن الحبيب ومن ورائه الكنّة المحبوبة؟

فلوريدا: مساء الأحد ١٤-٩-٢٠١٤

ما يقال له: مزاج المبدعين

فرحت، أول هذا الشهر، يوم بدّلَ ابني الوحيد فراس بيتَه، ذاك الذي يستغرق الطريق إليه سيرًا ثلاثة أرباع الساعة، وسكنَ بيتاً آخر يقع داخل الضاحية التي أقيم فيها ببيت سهير وبشار. أمشي إليه، أقطع طريقًا أول ذا تعرّجات وآخر مستقيًا. أسير على رصيف يحفّه المرج من جانبيه وتظلّله الأشجار التي لا انتفاع منها في سويعات الأصيل هذه. أرنّ جرس البيت، فأسمع من الداخل صيحات الأحفاد بأن الجدّ جاء.

أمس رأيت ابني في الحديقة يشوي شرحات وأجنحة وهو يمسح عرقه، وكنت قد شممت رائحة الشوي من رأس الحارة! في العادة يمرّ صهري بشار عائدًا من عمله، فيصحبني بعد سويعة حنان أنعم بها في بيت الأحفاد. فلما غدوت في فناء البيت، لحقت بي كَنّتي قمر تحلف الأيمان إلّا أن أبقى أشاركهم الطعام.

افتقدتُ الصبيتين الكُبريين زين ونايا، قالت الأمّ: إنهما تحضران مباراة كرة قدم. ودخلتا بعد عشائنا، تصحبهما زميلة أمريكية اسمها بِريانا Briana، استحيت أن ترسل بصرها نحوي، فأخذتُ أُلوّح لها متحرّشًا للتحية، فاضطرت للالتفات، حيّت ببسمة ثمّ غضّت طرفها. وقد أقبلت الصبايا الثلاث على الطعام بشهيّة ملحوظة.

لماذا لا أقيم في بيت ابني؟ في بيته ثلاث غرف مخصصة للنوم، وفي بيت ابنتي سهير غرفتان للنوم إضافيتان، ملأت إحداهما بلوحات فنية من عملها، وأبقت لي الأخرى للنوم، والصالون الوسيع أعمل فيه وأتجوّل!

أبوح لكم بسرّ. يوم نزلت في بيت ابنتي سهير، كدت ألتمس منها -وما فعلتُ- أن تدعني وشأني عندما تراني مستغرقًا بالكتابة، فلا تقطع عليّ سلسلة أفكاري! وإذا هي تميل عليّ، هامسةً بألّا أعقد معها حوارا من حواراتي المطوّلة، لحظة أرى ريشتها تخفق على سطح اللوحة، وهي

تتلقّى فيض الإلهام!

فكيف، بالله عليكم، تكون مراعاة مزاج المبدعين هذه، إذا ما أقمت في بيتٍ مع حفيديّ اللذيذين جودي وسَمِيّي فاضل الصغير، يدخلان عليّ كل هنيهة، يقبّلان ويحتضنان، وكأنهما يودّعان جدّهما الذي إن عاد إلى الوطن فلن يكون بعدئذ لقاء!

فلوريدا: فجر الإثنين ١٥-٩-٢٠١٤

تحيّة للأصدقاء

دعوني أؤكد لكم أنّ ما أتلقّاه منكم في شبكة التواصل الاجتماعي، من كريم التقدير، ونبل المشاعر

خلال المدة الماضية، أوشك أن ينسيني كلّ ما نالني من تهميش النظام لي، وكَيد أتباعه، خلال خمسين السنة الماضية!

كلّ الشكر لكم، أيها الأحبّاء...

فلوريدا: ليل الإثنين ١٥-٩-٢٠١٤

الديكتاتور العادل هل هو أمنية الجماهير العربية؟

في يوم غير بعيد كتبت أنّ أعظم ثلاثة حكام في دول العالم الثالث، في أيامنا، هم: نيلسون منديلا الجنوب إفريقي، ومهاتير محمد الماليزي، وثالثهم جارنا التركي رجب طيب أردوغان، الذي نقلته جماهير بلاده، في مرحلة حكمه الثالثة، من رئاسة الحكومة إلى رئاسة الجمهورية غير منازَع. وقد تناوله بالأمس شانئوه بالقول بأنه يبحث بين رجاله عمّن يخلفه في منصبه يكون مطواعًا له، فهو على هذا ينحو -في رأيهم- منحى الديكتاتورية.

ولعلني أدري لماذا انتقلت بي الذاكرة إلى يوم وقوع اول انقلاب في بلدي عام ١٩٤٩، وما

تداولناه، نحن فتيان أصدقاء في مدينتي حلب، من أنّ ثمة ثلاثة مستويات من الحكّام، من حيث اليُسر والقَسر في ممارسة الحكم: حاكم عادل-عادل، وديكتاتور-عادل، وديكتاتور-ديكتاتور!

فأمّا الأنموذج الأول، فقد ولّى زمنٌ كان فيه عمر بن الخطاب، وأمّا الأنموذج الثالث، الديكتاتور-الديكتاتور، فقد أُتخِمنا نحن العرب منه وفَنِينا.

وطال افتقادنا للأنموذج الأوسط، الديكتاتور-العادل، ما تتمنّاه الجماهير العربية، وتشتاق إليه، وتحنّ، المتمثّل اليوم في أردوغان، الذي استطاع أن ينقل اقتصاد قومه من مُتَدَنّ إلى متقدّم بامتياز، وهو، في الوقت ذاته، يحمي الديمقراطية بيديه ويُظِلّها برموش عينيه، فلا بأس إن اختار مَن يَمضي وإياه في تحقيق بقية الأماني العِذاب.

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٧-٩-٢٠١٤

»وكان الأستاذ يختار كلماته بدقة.. «

ذات يوم، وأنا في الوطن، كتبت في صفحتي خاطرة عن ذلك الرجل الذي كانت ثورة آذار قد خصّت به حلب محافظًا يحكمها، فرأى -في معزل عن العاصمة دمشق- أن يؤمّم أفران المدينة، فأجاع الناس مع توافر الطحين لاضطراب الإدارة، إلى أن استألفتْه العاصمة، فأعاد الأفران إلى أصحابها، وكانت أيامًا في حلب من عام ١٩٦٣ مشهودة.

كتبتُ في ذلك، وإذا قلمٌ من نيويورك، صاحبه واحد من أصدقائي في شبكة التواصل، عارفٌ بأسرار تلك الأيام ومُعانٍ منها، يقول في ذلك، مضيفًا ومؤكّدًا! وفي محادثة مع ابنتي التشكيلية خلود بالقاهرة، أفادتني بأنّ الرجل -وهو من أصدقائها في الشبكة الناشطين في مجال الفنون التشكيلية- بيّن لها مرة أنه كان من تلامذتي في ثانوية المأمون بحلب في سنوات

الخمسينيات.

ثمّ كان تواصل بيني وبين المهندس هشام نجار، الذي إن فاتني تذكّري تلمذتَه عليّ، فإني أخذت أستمتع بقراءة مقالاته حول الراهن الذي يعصف بالوطن، معرّجًا على ذكرياته فيه. وكان آخر ذلك ما كتب في صفحته قبل أيام، عن تأثّره بمن أحبّهم من أساتذته الذين تلقّى عنهم، ذاكرًا أسماءهم:

فاضل ضياء الدين، وبدر الدين علاء الدين، والشيخ عبد الفتاح أبو غدّه، والشاعر سليمان العيسى، ومنير الحكيم، أجمَلَ الحديثَ عنهم واعدا بالاستفاضة، إلّا أنه كان قد بدأ، في اليوم الذي سبق (الأحد ١٤-٩-٢٠١٤)، حديثه عن ذلك الأستاذ، الذي دخل عليهم، يقول في وصفه: «شاب دون الثلاثين، أنيق، يختار كلماته بدقة، وما هي إلّا حِصّتان حتى بدأ يعرّفنا بأسلوب كتابة القصة، ويشجّعنا على المشاركة في الكتابة بمجلة مدرسية هو مَن أسسها، المشاركون فيها من الطلاب«.

ويقول: إنه كان يتوق يومئذ، وهو في سنّ الثالثة عشرة، إلى أن يرى اسمه يذيِّل قصة منشورة، فأخذ -هكذا بكلّ بساطة- قصة من مجلة، ونقلها بخطّ يده على ورق، وقدّمها للأستاذ المشجّع! وما كان ذلك ليمرّ على الأستاذ، الذي استدعاه، وأخذ ينصحه برفق بأنه إن أحبّ النشر فليقدّم ما يكتب هو ممّا يناسب سنّه، فإنّ المجلة هي لِما تخطّه أقلام التلاميذ الغضّة!

وما فات تلميذي القديم، الذَكُور، أن يُعدّد أعمالي الأدبية المنشورة، فذكر منها ثلاثين وغاب عنه قليل.

استرعى انتباهي في مقالة التلميذ -الصديق هشام نجار، هذه التي تلطّف فنشرها في صفحتي أيضًا، سخاؤه في الكتابة، ووفاؤه لمن تلقّى عنهم العلم والأدب، وشجاعتُه في الاعتراف. ذلك كلّه مع امتلاكه المعرفة المعمّقة بأحوال الوطن، ما يلحق به من دمار وما يرجو

له المخلصون من إعمار، وهو الذي درس الهندسة في إيطاليا منذ أوائل الستينيات، وتابعها في جامعة البولي تكنيك بنيويورك، العاصمة الاقتصادية التي يشغل فيها اليوم وظيفة مدير للمشاريع الهندسية في مديرية الصحة، مقيمًا فيها من يومه، مستمتعًا بالدفء العائلي، محوطًا بالأحفاد الغوالي.

وفي ذلك تظلّ عينه على الوطن، مبتدئًا من نشأة المواطن الأولى. يحدّثني هذا الصباح: «الإصلاح الحقيقي لا يكون إلا بالعودة إلى أخلاق التلميذ مع أستاذه، والموظف مع مراجِعه، والتاجر مع زبونه، والأخ مع أخيه، والابن مع أبيه، هذه العلاقات التي عشناها صغارًا وشبابًا فاستقام بها الوطن«.

أقول: إذا كانت الأيام لم تسعف تلميذي هشام نجار بكتابة القصص والروايات، فإني أراه يُعرّج باستمرار على ذكريات عذبة ينسُلها من الماضي، ويترنّم بها، وإنّ هذا لشيءٌ من الأدب السردي الذي تنتمي إليه القصة والرواية.

فلوريدا: ضحى الخميس ١٨-٩-٢٠١٤

هل منكم مَن يعرف حَفْر الكوسى؟

دَعُونا اليوم، أصدقائي، مِن تناول الهمّ الوطني قليلاً، هذا إن استطعنا، ولأحدّثْكم عن أني، في عام بعيد مضى، ونحن طلاب في ثانوية المأمون بحلب، دعانا، في نهاية العام الدراسي، زميلُنا معاوية قدسي، أنا وزميلَنا عدنان أسود (ابن القاضي عبد القادر الأسود، الذي غدا فيما بعد رئيسًا لمحكمة النقض في عهد الجمهورية العربية المتحدة ومقرها القاهرة)، أن نقضي أيامًا في مزرعة تعود لأسرته، تقع في ضيعة اسمها حَزْوان (قريبًا من بلدة الباب شرقيّ حلب)، وقد توجّهنا في ذلك اليوم إلى الباب أولًا، ومنها سيرًا على الأقدام إلى الضيعة لانعدام وسائط النقل.

كان ذلك في يوم من أيام حزيران/ يونيو من صيف ١٩٤٨.

كانت أيامَ شباب حلوة، لن أستفيض في الحديث عنها، مكتفيًا بالإشارة إلى نهفة[١]، ألا وهي أني لاحظت في مضيفنا معرفةً جيدة بالطبخ، وذلك كما بدا لتردّده على هذا المكان متفرّدًا فيه، مُعينًا أباه في إدارته، ومُعانًا من الوكيل أبو حسين (المزارع شريكهم في العمل) وزوجته، اللذين يقدمان له كل ما يلزم من طعام وغيره (ولأبو حسين نهفة أرويها بعد).

يومًا رأيت ثمار باذنجان، متماثلة الحجم سُودًا لامعة، مُهيّأة لأن تُحفر، فالطبخة اليوم محشي بالرزّ واللحم! وما هي إلّا لحظة حتى وُضعت بين أيدينا مَقَاوِر الحفر، أخذ معاوية واحدة، وبدأ -في دهشتي- يحفر، ويخرج اللُبُوب رفيعة ناصعة بلون القطن تُشهّي الأكل، ويقول: «هذا للمُتَبّل!»، وبدّد دهشتي بأن ناولني مِقْوَرَة، وعلّمني الحفر فتعلّمت، ولم يأبه صديقنا عدنان لهذا.

بالأمس، بعد مضيّ ثُلُثَي قرن بالتمام والكمال على ذلك، وأنا في فلوريدا هنا، قلت لابنتي، جادًّا: «إن جئتم بباذنجان، فأنا أقوِّره«.

في اليوم التالي كنت أجلس في الترّاس أمام المسبح، وإلى يميني وعاء فيه ثمار باذنجان وإلى يساري آخر للكوسا، وتتساقط اللُبوب من المِقورة في وعاء ثالث، وما خلطت اللبوب معًا فلكلٍّ وجهُ استعمال: مُتبّل ومُتوّمة، فلا شيء يُرمى من النبات. وعيّرتُ الساعة: حفر الكوساية يستغرق دقيقتين، ويزيد تقوير الباذنجانة على ذلك بثلاثين ثانية.

لما وضعت الحبّات مُقوّرةً تحت نظر ابنتي، أخذت تعاينها واحدة واحدة، ومع أنها أطرتْ عملي في الحفر والتقوير، فلا انبعجت واحدة ولا تشقّق فم أخرى، إلّا أنها جنّبت بعضها مُعمِلة

---

(١) قصة أو حادثة مُستملَحة أو مضحكة.

المقورة فيها ترقيقًا، وهي تقول: «حفرك في المرة القادمة سيكون أفضل! «.

هل بينكم، يا أصدقائي الرجال، من يُجيد حفر الكوسى، المغتربين منكم، والمقيمين هناك، تحت رمي البراميل ووقع الهاون، أيها الأصدقاء في الوطن المعذّب؟!

فلوريدا: فجر الجمعة ١٩-٩-٢٠١٤

أصيل.. ورصيف.. ومطر

في سيري سويعات الأصيل، على هذا الرصيف، يحُفّ به من جانبيه مرجٌ يظلّ مخضوضرًا... هل تأتّى لي أن أعرف كلّ بَلاطاته، المربّعةِ الشكل المديدة الأبعاد، المصبوبةِ من الإسمنت، أتأمّلها مرصوفةً هنا بإحكام، وهناك المَشعورة من وسطها، وتلك التي ألجأها جذرُ شجرة يتغلغل تحتها إلى أن ترتفع عن الأرض قليلا. نعم، وتلك البلاطات المفتقدة ههناك، لأنّ قطعة الأرض التي تحاذيها ما آن لها أن تُبنى؟!

وخطر على بالي يومٌ مرّ بي قبل ثلاثين أو أربعين سنة، ونحن في رحلة داخلية في فرنسا إلى مقاطعة النورماندي شمالا، كنا ننتظر، في تلك السويعة، أن تدعونا الحافلة للصعود لتعود بنا إلى باريس، ورفيقةُ رحلتنا، الشابة الأجنبية مثلنا، التي أبدعت في الرقص في آخر ليالينا، حتى خلناها ساندريلا الرحلة، أراها، الآن، تذرع الرصيف في جيئة وذهاب، «مطرقةً برأسها إلى مواطئ قدميها، فكأنها تحاول أن تطبع في ذاكرتها موطئ كلّ قدم على الرصيف، في هذه المدينة التي لن يُقدّر لها أن تعود إليها»، والتي تُسمى، في الجغرافية الفرنسية، كايو سور مير Cayeaux Sur Mer! (من قصة في الليل تحترق الغابة باريس ١٩٧٨، كتابي الألم على نار هادئة دمشق ط٣ ٢٠٠٢).

قبل اقترابي من البيت، كانت السماء ترسل إنذارها: المطر آت. أسرعت الخطا. وقبل أن

يترامى إلى سمعي تصايح الأحفاد بمجيء الجدّ، كانت رائحة الشواء قد سبقت. لم تكن هذه المرة شرحات وأجنحة، فالرائحة تشي بأنها أقراص كبّة تُشوى!

في عودتي إلى البيت قرأت أنّ الصديقة الجديدة، التي كانت قد غادرت الوطن ملتحقةً بأسرتها هنا، قد خرجت هذا الأصيل في نزهة لتتابع تعرّفها على المكان. وقبل أن تبلغ البحيرة كان الإنذار بالمطر قد جاء، ولكنها استطاعت أن تصوّر الطبيعة الأخّاذة. وهي ذي البحيرة الوادعة في تلقّيها زخّات المطر، قد حرصت على أن تُزيّن بصورتها صفحتي

فلوريدا (مساء الجمعة): فجر السبت ٢٠-٩-٢٠١٤

أهي مجرّد مصادفة

أن يستوي النظام وداعش

في القتل، والإبادة، والتهجير!

فلوريدا: مساء السبت ٢٠-٩-٢٠١٤

«تحدّثْ إلى نفسك بالعربية قبل أن تنام!»

مع مرور عقود من السنين على سماعي، وأنا في حلب، تلك العبارة التي نطقت بها سيدة مقيمة بأمريكا ومتجنّسة، توصي ابنها، المولود في فلوريدا، غداة ذهابه إلى أداء الخدمة العسكرية، تقول وقد ظلّت كلماتها ثاويةً في خاطري نحوًا من ستين سنة: «حتى لا تنسى لغتك، وأنت بين شباب كلّهم أمريكيون، أريدك أن تنعزل عنهم كلّ يوم قبل النوم، وتتحدّث إلى نفسك بالعربية خمس دقائق، يا ولدي«.

أمس، وأنا في البيت الذي سكنه ابني حديثا، وقفتُ على ما سرّني وبثّ الطمأنينة في نفسي. حفيدتي التي نالت شهادة الكفاءة قبل عامين في الوطن بمجموع أقرب إلى التمام، والمتفوّقة في

دراستها هنا حتى إنها تلقّت، في نهاية العام الدراسي المنقضي، رسالة تهنئة من حاكم الولاية على مألوف عادتهم مع المتفوقين، رأيتها تجمع بعض الخواطر التي ينشرها جدّها على جداره في شبكة التواصل، وتطبعها بكبسة زرّ، وتجعلها في إضبارة خاصة، قالت: «حتى لا أنسى الفصحى، يا جدّي«.

أعترف بأني فرحت، وأشفقت أن تحمل صبية هموم الوطن، وأوجاعه وأوزاره -وجلّ ما أنشره أليم- حتى وهي بعيدة عنه آلاف الأميال، هنا... في فلوريدا، أيضًا!

فلوريدا: مساء الأحد ٢١-٩-٢٠١٤

طالبة جامعية.. من التخرّج إلى الاعتقال

كتبت صديقتها الحميمة: قبل أن أنام تصفّحت الرسائل بيني وبين صديقتي مروة، وقرأت آخر ما تبادلناه قبل غيابها في الاعتقال منذ شهرين. كنت سألتها: «طمّنيني عن نتيجة امتحاناتك النهائية؟ » (وأنا الممتنع عليّ أن أقدّم امتحانات السنة الأخيرة لاختلاف المكان)، أجابت والفرح ينوّر كلماتها: «اليوم علمت أني تخرّجت، بس لسّه ما أخدت علاماتي«.

وتقول: بعد قراءتي الرسائل أغمضت عينيّ، فرأيت فيما يرى النائم، أني أتحدّث إلى مروة، أسألها وأُلحِف في السؤال: «أنت طلعتِ من الاعتقال، يا حبيبتي مروة! متى أفرجوا عنك؟ أنت بخير؟ ضربوك، عذّبوك؟ »، ولا أذكر أني تلقّيت منها جوابا.

قرأت، أنا صديقكم السباعي، هذا، ثمّ تتالت، حيث كان النشر، الدعوات الصالحات من الصديقات والأصدقاء: الله يفرّج عنها، تطلع في القريب العاجل إن شاء الله.

إحدى المتعاطفات تسأل: «وهل كان لها نشاط سياسي؟ «

«لا والله العظيم، صار لنا مع بعض ١٥ سنة، بس الله لا يوفّق ولاد الحرام، اللي بيفتُّروا[1] على الناس وبيتقاوُواع البنات. ادعوا، يا بنات، كلّ واحدة منكن تسحب ورد الاستغفار قدّ ما بتقدر، مو ضروري عدد معين، وتدعو الله يفكّ أسرها وأسر كل المعتقلين والمعذّبين«.

أقول: نعم، إنهم أولاد الحرام. واحد أخبَر أنها فاهت بكلمة، أو أنها تحنّنت بقميص أو بشيء على أسرة من المهجّرين الذين أُلقيت عليهم البراميل، قُتل بعضهم والناجون تشرّدوا. وكتبتُ: «أصبح أن تتحدث فتاة جامعية عن اعتقال إحدى زميلاتها أمرًا عاديًا!«.

ادعوا معنا، أيها الأصدقاء، أن يتحرّر الوطن كلّه من القهر والفقر والذلّ والعار، وأن تتحرّر مروة التي لا أعرفها أنا ولا تعرفونها أنتم، لتبدأ حياتها العملية في خدمة المجتمع والوطن.

فلوريدا: فجر الإثنين ٢٢-٩-٢٠١٤

وقد تُنسب الدول إلى حُكّامها!

في دراستي الجامعية، التي قُدِّر لها أن تكون في مصر المحروسة، دخلتُ عام ١٩٥٠ ما كانت تُسمّى جامعة فؤاد الأول، وتخرّجت فيها عام ١٩٥٤ وقد أضحى اسمها جامعة القاهرة. في تعليل ذلك قالوا، تقدّميًّا وثوريّا، بأنّ الجامعات تنسب إلى مدن لا إلى أشخاص. ولله كم طربت لهذا التسويغ، وأنا في مقتبل العمر شديد الإيمان بالقيم والمبادئ!

ولكن ما بالنا نرى مصر، يوم خرج حاكمُها من الحياة، تصدح جماهيرها بهتاف مصر عبد الناصر، متجاوزةً إلى انتماء الدولة بكيانها كلّه إلى رجل. وتبع ذلك سورية الأسد وعراق صدام وليبيا القذافي.

---

(١) الذين يفترون.

والأمر المفارِق أنّ الدول الأخرى لم نَعرف أنها تتسمّى سعودية عبد العزيز، أو الفيصل، ولا أردن الحسين ولا تونس بورقيبة، ولا مغرب محمد، أو ابنه الحسن!

ويكاد يذهب لساني إلى القول بأنّ جارتنا، التي تستضيف مَن تُسمّيهم تلطُّفًا المهاجرين (استدعاءً لذينك المصطلحين من تاريخ الإسلام المبكّر)، جديرٌ بها أن تُسمّى تركيا أردوغان، ولكنّا ما سمعنا نُطْقَ لسان ولا صرير قلم تنبعث منه هذه التسمية.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٣-٩-٢٠١٤

الختيار الشَّغُوب!

كلما زار بيتَ ابنه صباحًا ذكّرهم بأن تكون كأس القهوة الأمريكية التي جرَوا على تقديمها له، حارّة، ولحظة يبدأ بشربها يصدر عنه، في ارتشافه القهوة الساخنة، صوتٌ تنزعج منه الكنّة، فتُعبّر لزوجها عن امتعاضها: «وليش بيطلبها سخنة كتير وبعدين بسمّعنا هالصوت!. «

وفي زيارته لبيت ابنته مساء، يقدّمون له كأس الليمونادة التي يفضّلها صاقعة، فيضطر إلى أن يمتصّ السائل من بين قطع الثلج الطافية على سطح الكأس امتصاصًا، محدثًا في ذلك صوتًا ينزعج منه الصِّهْر، فيُعبّر لزوجته عن امتعاضه: «وليش بيطلب تلج كتير وبعدين بسمّعنا هالصوت«.

ولكنه ساعة يتناول الحساء على المائدة بينهم، فإنه يَحْسُوه من طرف الملعقة حسوًا ناعما، ويتجنّب أن يُميل الصحن ليأخذ آخر ما فيه، مؤكدًا لهم أنه يتقن آداب المائدة!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٤-٩-٢٠١٤

مليحُ أبو حسين.. وقبيحُه!

مليحٌ منك، يا أبو حسين أوباما، أن يؤرّقك وباء إيبولا، الآخذُ في الانتشار في بقعة من

العالم، وقبيحٌ منك أن تشاهِد مئات الآلاف من بني وطني يُقتَلون وينتهكون، ويَترك الملايينُ منهم بيوتهم فرارًا من الموت المؤكد، هائمين بحثًا عن ملاذ.

وأنت، أنت، يا من يرى فيك العالم زعيما له أكبر، لا تهتزّ في جسدك شعرة، ولا تختلج في صدرك نَأمةٌ[1] من ضمير!

فلوريدا: فجر الخميس ٢٥-٩-٢٠١٤

عندما تمتلك المرأة صفات باهرة!

المرأة الذكيّة، والمرأة المُبدعة، والمرأة فائقة الجمال... قلّما تتحقّق لهنّ السعادةُ الزوجيّة.

يليق بهنّ الرجل المتفهّم، الذي لا تستبدّ به الغَيْرة العمياء، ولا يشتطّ به الرضا والخضوع.

وقد تضيق المرأة بزوجها إذا امتلك صفات باهرة، فتكيد له كيدًا.

فلوريدا: مساء الخميس ٢٥-٩-٢٠١٤

حكاية الرجل الذي طقّ من القهر!

تعاون وزوجته، وهما موظفان، في اقتناء هذا البيت الذي يؤويهما مدى العمر قبل أن يؤول إلى ابنتهما الوحيدة. ولما سدّدا آخر الأقساط من ثمنه قام يَفْرغ لزوجته بالنصف الذي يملك، تجنُّبًا لأن يشارك أهلُه في الإرث وليس لهما من ولد ذكر يمنع توريثهم.

كانت زوجته قد دأبت على وصمه بالفظاظة. فلما بلغ سنّ التقاعد لم تعد تجد فيه من فائدة، فخلعتْه بقلب جريء، وما شفعت له عندها توسلاتُ ابنتهما الحنون، وردّته إلى بيت أهليه يدًا من قدّام ويدًا من وراء!

---

(١) صوت ضعيف.

استقبله إخوته ذليلاً. وبقدْر إشفاق أمّه عليه عامله الإخوة بجفاء، فطَقَّ من القهر، ومات!

وما حزنت عليه إلّا الأمومةُ والبنوّة.

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٦-٩-٢٠١٤

الشكوى تحت ظلال الحرية

قرأت في صفحة مَن أكرمني اليوم بأن أصبح صديقًا، أنّ أحد المواطنين السوريين ذهب بشقيقه المصاب بقدمه إلى حيث رئيس الحكومة السورية المؤقتة في تركيا، يطلب العون في معالجة الإصابة، فجاءه الجواب بصريح العبارة: «لا يوجد ميزانية من أجل العملية»، وعندئذ طلب المساعدة في أجور العودة إلى البلد، فأرسلوا إليه مع شخص مبلغ خمسمئة دولار، فكان عَتْبٌ وشكوى.

ذكّرني هذا بما كنت تحدثت به من ذكرياتي وأنا طفل في العهد الأول للرئيس شكري القوتلي، من أنّ مواطنا من الطبقة الشعبية أخذ ابنه من يده إلى القصر الجمهوري بالمهاجرين، وشكا للرئيس شكري بيك أنهم رسّبوا ابنه في الصفّ الرابع الابتدائي بمادة الجغرافيا، هذه التي تعلّم الأولاد أنّ الأرض كرويّة!

ما أحلى هذين الاحتجاجين، وما فيهما من العتب واللوم وكل شيء، يُرسَلان في ظلّ نعمة الحرية!

وكان الأحلى منهما لو أننا توجّهنا بالانتقاد -لا الاحتجاج- يوم فوجئنا بإعلان سقوط القنيطرة قبل أن يدخلها الغزاة (عدا صوتا وحيدا احتجّ صاحبه، وهو وزير الصحة في ذلك اليوم، فناله على ذلك تقريع وما هو أمرّ، حسب ما أشيع)! وأيضًا لو أنّ احتجاجًا واحدًا آخر

صدر، على مدى أربعين عامًا: لم تُطلَق من جانبنا رصاصة واحدة من أجل استرجاع جزء من الوطن المحتلّ؟

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٢٩-٩-٢٠١٤

ومضى على الاغتراب عام!

غادرت بيتي بدمشق عصر الإثنين ٦-١٠-٢٠١٣ متوجّهًا إلى بيروت، وفي منتصف الليل امتطينا متن الريح صوب الدوحة، وضحى الثلاثاء كنت فوق المحيط باتجاه نيويورك، فإلى أورلندو، حاضرة ولاية فلوريدا في الجنوب، ومنها -أنا وابني فراس وحفيدي فاضل الصغير- إلى حيث يقيم أبنائي وأحفادي في بلدتهم الصغيرة.

بمناسبة مضيّ عام على الرحيل، أحببت أن أنقل هنا، إلى أصدقائي، ما قدّمتُه في صفحتي خلال الأيام العشرة الأولى من ذلك الشهر (تشرين الأول/ اكتوبر ٢٠١٣)، وأنا بدمشق، ثمّ في يومَي السفر، وما كتبته بعد أن استقرّ بي المقام في هذه البلدة الغافية على الشاطئ الشرقي من الولاية المطلّ على المحيط الأطلسي، والتي تسمّيها الخارطة الأمريكية بالم باي Palm Bay.

عائلة سورية!

لأني أحبّ العرب والأكراد، والمسلمين والمسيحيين، والقوميين والشيوعيين، وكلّ أبناء وطني، وكذلك كلّ الذين يمشون على أديم الأرض، فقد سألتُ الطالبةَ الجامعية، التي كتبت إليّ الساعةَ تبارك لي بالعيد، عن أوضاعها العائلية، فأجابت:

أنا وبعض أفراد عائلتي باللاذقية نتابع الدراسة،

وأخ في تركيا يدرس،

وآخر في كردستان العراق يعمل،

وأما أمي وأبي فهما لم يغادرا الرقّة، والبال عليهما مشغول!

فلوريدا: ثاني أيام عيد الأضحى ١٤٣٥ضحى الأحد ٥-١٠-٢٠١٤

هل لنا أن نضحك، يا زمن!

أمسِ أولى أمسيات العيد، مضينا، هنا في بلدتنا الصغيرة بولاية فلوريدا الجميلة، أنا وأسرتي كبارًا وصغارًا، إلى مطعم، تحلّقنا فيه حول خمس طاولات مضمومة ممدودة، لنتناول أشهى المآكل.

كانت ترتفع من الرجال والنساء الأصوات في ضحك ومرح. وراح الصغار يلعبون، قبل الطعام وبعده. واتفق أنّ إحدانا كان يوم مولدها، فجاءت إلينا بعض العاملات ليُشاركننا الغناء: Happy birthday to you، ويا قمر ويا قمّورة... ثمّ أكملنا السهرة في بيت حفيد حتى مطلع الفجر.

خلال تلك السويعات، يا أصدقائي، كنت أتساءل بيني وبين نفسي عمّا إذا كان لي، لنا، أن نضحك، ونمرح، ونغنّي، وتنشرح صدورنا، وفي الوطن ناسٌ يموتون تحت القصف، ومشرّدون فقدوا بيوتهم، فهم يتمدّدون على الأرصفة، أو ينامون تحت الخيام وراء الحدود لا أمامها، وجائعون، وخائفون، ومرضى بلا دواء!

فلوريدا: ثاني أيام عيد الأضحى ١٤٣٥ظهيرة الأحد ٥-١٠-٢٠١٤

البحث عن سكن آخر

وتبادلنا التهاني بالعيد الحزين. فلما سألته عن سكنه الذي صار إليه قال:

قد أنذرونا

لأننا من أبناء الغوطة

فنحن نبحث عن سكن آخر.

فلوريدا: صباح الإثنين ٦-١٠-٢٠١٤

إلى محامية بدمشق

ومن عجبٍ أن تظنّ الأستاذة المحامية أنّ الأسرة هنا، إذا ما تناولت، في يوم عيد، عشاءها مجتمعةً في مطعم، فهذا دليلُ بذخٍ وترف. وهي تجهل أنّ الفاتورة التي تُقدّم لا تكاد تزيد على نظيرتها التي تُدفع عندها لصاحب مطعم يجد نفسه مضطرّا إلى اغتصاب دريهمات من زبائنه كي يدفعها إلى مَن كان سهّل له يومًا إنجاز المعاملة!

وترى أيضًا أنّ كبير الأسرة إمّا تذكّر -وهو في هذه الجلسة الحميمة- الوطنَ وعبّر عن الشوق إليه والحنين، فإنّ هذه عواطف كاذبة، وهي هي التي أحرقت روح البلد قبل جسده (وليس البراميل وغاز السارين!)، وترشقه بملء فيها: «الوطن مو بحاجة لعواطفكم المزيَّفة«.

أتساءل: كيف يستقيم لمن تسيطر عليه هذه الرؤية الملتبسة، ويتحكّم فيه هذا القدر من النَّزَق والحُمق، أن يقف أمام العدالة مدافعًا عن الذين سُلبت حقوقهم من قبل المغتصِبين أو من شبّيحة النظام؟!

وشكرا للأصدقاء الذين جادلوها بأحسن ممّا أستطيع.

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ٧-١٠-٢٠١٤

وكنّا، قبل الكهرباء، سعداء

كنت أرى في حارتنا، وأنا طفل صغير، الدّومَري، متسلّقًا سُلّمه الصغير، يجلو اللمبة بخِرقة وعود، عند هذا المصباح المُثبت في جدار الزقاق، ويُعمّره بمقدار من الكاز يكفي حتى

منتصف الليل، ويُشعل، ثمّ يمضي إلى المصباح الذي يليه.

لم يكن زقاق الزهراوي بحلب، قد عرف الكهرباء، في ذلك الحين.

كان يطيب لنا في دارنا أن نُلقي، في الأمسيات الصيفية، الجَبَسة (البطيخة الحمراء(في ماء البِرْكة كي تَبْترد، ثمّ نتفرّج عليها نحن الصغار، وهي تعوم، وندفعها بأيدينا وكأنها قارب في بحر.

ويوم تعمل نساء الأسرة في تنظيف الديك الهندي، ثمّ يقوم أبي يربطه بمَرَسة رفيعة، ويُدلّيه من قرصِ دَرَجِ المربّع، ونتركه يقضي ليلته في الهواء الطلْق فالنمليّة لا تتّسع له... كان يُضحكنا أن نرى قطط الحيّ وقد جذبتها الرائحة، فتسلّلت عبر أسطح الجيران ترقب من بعيد الديك المدلّى، متحسّرةً لأنها لا تستطيع الوصول إليه.

ثمّ دخلت الكهرباء حيًّنا، ومددناها إلى بيتنا، ودخل مع الكهرباء ذلك الصندوق العجيب، الذي جعل بعضَ الأحباب يزوروننا في ليلة الخميس الأول من كلّ شهر، يشاركوننا السهر على صوت أمّ كلثوم تأتينا أغنياتها من هنا القاهرة.

ولمّا نشِبت الحرب العالمية الثانية، أخذنا نستمع إلى الأخبار من هنا برلين، يقدّمها بصوته الجهير المذيعُ العراقي الهارب من حكم الإنكليز، يونس بحري.

أجل. كنّا، في ثلاثينيات القرن الماضي، سعداء، فلم يكن ينزل بنا قتلٌ أو دمار. وأما اليوم، فإنّ حربًا عالمية غير معلنة تُشنّ علينا، تقتلنا وتشرّدنا وتدمّرنا. وقد جعلت من مَرْتع طفولتي، زقاق الزهراوي، خرابًا.

فلوريدا: مساء الأربعاء ٨-١٠-٢٠١٤

«هادا خالي، مو فارقة معه!»

في ظلّ ما بثّه النظام، على مدى خمسين سنة، من الخوف والحذر في نفوس المواطنين، أصبح الناس يتجنّبون الخوض في الأحاديث السياسية، تحسُّبًا لأن يجري على ألسنتهم ما لا يُرضي، وتلمحهم في ذلك عينٌ بصّاصة أو تسمعهم أذنٌ سرّاقة!

من ذلك ما كان بيني وبين واحد من أقاربي، وهو شابّ متخرّج حديثًا في الجامعة، فقد لاحظت أنه يتهرّب من حديثي معه على الهاتف من دمشق إلى حلب، كلما قاربتُ أن أتناول شأنًا سياسيًّا يسود البلد، ويأتيني صوته وهو يتخلّى عن سمّاعة الهاتف: «أمي، تفضّلي احكي مع خالي!. »

وقد سألت شقيقتي في ذلك، فبيّنت لي، في غير الهاتف، أنّ ابنها يخشى أن أسترسل معه في حديث السياسة، فأقول ما لا ينبغي ويكون الخطّ مراقبًا، ويقول لها: «هادا خالي مو فارقة معه، وأما أنا فإني في أول شبابي«.

فلوريدا: ضحى الخميس ٩-١٠-٢٠١٤

الباحث الأستاذ عبد الله حجار

سرّني أن وقفت على مقالتك: قبر سليمان شاه واتفاقية أنقره العام ١٩٢١، وذلك بُعيد ساعة من ظهورها على صفحتك، وقرأتها بإمعان واستفدت منها كثيرا. وأسال لو أنه كان تأتّى لك، يا صديقي العزيز، أن تقدم لنا خريطة موجزة تبيّن فيها موقع الضريح يوم كان قرب قلعة جعبر، قبل أن يُنقل -حين غمرت الموقع مياه سدّ الفرات- إلى مرتفع قرب تلة قرة قوزاق، وتذكر لنا تاريخ النقل.

حريص على أن أشيد بما قدّمت لقارئك من معلومات موثقة، جرى بها قلمك بما تتحلى

به من المعرفة والموضوعية، وأضمّ صوتي إلى صوتك في الدعاء لفكّ أسر صديقنا المطران يوحنا إبراهيم.

فلوريدا: ظهيرة الخميس ٩-١٠-٢٠١٤

رائحة الياسمين.. رائحة الوطن

عندما قرأت ميساء أنّ ابنة بلدها هرَّبت، عند قدومها إلى القارّة، شتلة ياسمين، اعتنت بها حتى بدأت إزهارَها، تذكّرت نفسها وهي تفعل الفعلة ذاتها في عام غير بعيد.

ولما وصلت، في قراءتها الخاطرة، إلى أنّ أزهار تلك الياسمينة تُجنَى كلّ مساء، وتُقدّم في طبق، في أطباق، تخيّلت أنّ هذا الكلام يَعنيها، فقامت تقطف الأزهار من ياسمينتها، خماسيّة البَتَلات ناصعة البياض، وتوزّعها في غرف بيتها، فيملأ عبيرُها الأرجاء.

وتذكّرتْ. تذكّرت مثل كلّ يوم، عريشة الياسمين، البعيدة هنالك، التي كان عطرها يغمر الحديقة، ويسري إلى غرف البيت، وينتشر في الطريق فيستنشقه المارّة ويقولون: «اللهم صلِّ على النبي«.

ويمزّق الانتظار قلبها. وبصمت عميق تبكي.

فلوريدا: مساء الجمعة ١٠-١٠-٢٠١٤

ويظلّ أروع النصوص

هو ذاك الذي لم أكتبه بعد.

ولكن متى؟

فلوريدا: مساء الأحد ١٢-١٠-٢٠١٤

هل من مكذِّب؟

في أول الحراك الشعبي المطالب بالحريات العامة، صرّح رامي مخلوف، المقرّب جدّا، بأنّ أمن سورية من أمن إسرائيل، فأسرع النظام يكذِّب ما رمى إليه

رامي!

أمس يصرِّح نائب وزير الخارجية الإيرانية بأنّ بقاء الأسد يحمي إسرائيل!

هل هي زلّة لسان أخرى؟ هل مِن مكذِّب؟

فلوريدا: فجر الإثنين ١٣-١٠-٢٠١٤

وخرجنا نهتف: «نريد جيشًا للوطن«

عندما رحل الفرنسيون عن بلادنا عام ١٩٤٦، واتُّخِذ يوم السابع عشر من نيسان يوما لجلائهم نحتفل به كل عام.

أذكر أننا، نحن طلاب ثانوية المأمون بحلب (التجهيز الأولى) وطلاب ثانوية سيف الدولة (التجهيز الثانية)، منضمًّا إلينا كثيرٌ من طلاب مدارس حلب، خرجنا في مسيرة طويلة طويلة، انطلقت من ثانوية المأمون بالجميلية، نازلةً إلى شارع إسكندرون، ثمّ منعطفةً يمينًا، وسرنا في تلك الجادّة المستقيمة، ونحن نردّد بأصواتنا الفتيّة: «نريد جيشا للوطن«.

ثمّ إنّ الشعب وطّد العزم على أن يُمِدّ الجيش بالجنود والضباط الأوفياء، وبالعتاد يُنقَد ثمنه ممّا يدفعه المواطنون من عرق الجبين، ومن تبرّعات المتحمّسين (أسبوع التسلّح في عام ١٩٥٥ مثلا)، تعزيزًا لقدرات جيش أردناه مدافعًا عن الوطن حاميًا لحدوده.

ومن عجَبٍ أن نرى الجيش، الذي بنيناه بدمع العين ودم القلب، يرمي، في السنوات الأخيرة، حُمَمَه على المدن والقرى وكلّ البنى التحتية، بالصواريخ والبراميل والغازات الخانقة،

ويقضي بالتعذيب على أبنائنا في السجون والمعتقلات، موليًا ظهره للجبهة مع العدو، هذا الذي صرّح حليفٌ للنظام أمس من طهران، بأن بقاء النظام في سورية يحميه، يحمي العدو!

وجوهٌ لا تَندى جِباهُها، ولا دم يسرى في عروقها!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ١٣-١٠-٢٠١٤

أوراق سجّاد.. للحفيدة جودي

لحظة وصلتُ سيرًا على الأقدام، إلى حيث أقضي أمسيّتي مع الأحفاد، تراءى لي أن أتعرّف على محيط البيت الذي سكنته الأسرة حديثًا، فأخذت أطوف حول الدارة (الفيلاّ)، المبنيّة من خشب أشجار الغابة، أَجوس حديقتَها المترامية الأطراف مثل كلّ البيوت المشيّدة هنا، مرجٌ، وأزهار، وأشجار باسقة، وثمة بحيرة اصطناعية قريبة ما زالت تتجمّع فيها مياه الأمطار الفيّاضة ولا تنضب أبدًا.

توقفت في نهاية المطاف عند جَنْبة (شجيرةٌ لا يبلغ ارتفاعها قامة الإنسان)، تحفِل بأوراق مزخرفة يعجز اللسان عن وصفها، فهي مختلفةٌ ألوانُها لا تشبه واحدةٌ منها الأخرى، منها ما تغلب عليه الصفرةُ في هذا الخريف، أو ما زال لونُه الأخضر يانعًا، وهناك الأحمر القاني، ومن الألوان ما نالت منه القتامة حتى عمّ الورقةَ السواد، فكان من هذه الأوراق بكثافتها في الحوض ما يشبه سجادة يُبهج منظرها النفس ويُمتع النظر. هذا النبات، الذي أعرف نوعا منه صغيرًا، يُربّى في الأُصُص بوصفه من نباتات الزينة، ويسمّى في بلدي بالسجّادة (وهنا كوليوس Coleus)، يختلف في أنّ ورقة السجاد ذات وبر ناعم، وهي هنا ملساء تلمع كأنها قُدّت من شمع.

وتهمّمت أنتقي منها أوراقًا.

واستقبلتني حفيدتي جودي، (في الصفّ الثاني)، المتميّزةُ عن إخوتها بعنايتها بالأزهار، تجمعها وتنسّقها وتوزّعها في غرف البيت، فلاحظت ما بيدي من أوراق نبات، قد قطفتُها من شجرة كانت تمرّ هي بها فلا تسترعي انتباهها، واستأذنتْ في أن تعرض، هذه الأوراق البديعة، على معلمتها في المدرسة غدا.

في آخر الليل دخلتُ غرفتها. لمحت على مقربة أوراقَ السجادة، مطبّقةً واحدة فوق الأخرى بعناية، تحلُم بأن تقدّمها في الغد إلى معلمتها، وهي تقول:

«انظري، آنسة، ما أجمل هذه الأوراق! قطفها جدّي من حديقة بيتنا»، فيرى تلاميذ الصف أوراق السجادة، وتمنحها المعلمة كلمة الاستحسان good، دون أن توعز للتلاميذ بأن يصفقوا لزميلتهم، فالتصفيق -كما يبدو لي- عادةٌ يتلقّاها صغارنا ببراءة، ثمّ تستفحل فتصبح واجبًا يتعيّن على الكبار أداؤه كلما استمعوا إلى خُطب حاكميهم الرنّانة.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٤-١٠-٢٠١٤

عتــاب

كتبت إليّ تقول:

«ما كنت أظنّ، يوم أخبرتك بأني بكيت وأنا أقرأ ياسمين الشام، أنك سوف تسرع فتكتب رائحة الوطن، فتُبكيني مرة أخرى!. «

أقول: ولكن ما أنا الذي أبكاك، يا ميساء! إنه الدهر وما يفعل بوطنك، يا ابنة الشام التي تنتبذ مكانًا قصيًّا!

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ١٤-١٠-٢٠١٤

أيها النظام!

ما زلت تضرب الآمنين الوادعين في بيوتهم، وتقول: إرهابيون

أما اكتفيت؟

أما ارتوَيت؟

أما اشتفَيت؟

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٥-١٠-٢٠١٤

أحمد شوقي الذي استحضر الأندلس من قلب التاريخ

فتح المسلمون الأندلس، وأقاموا فيها حضارة زاهية تَشارَك في بنائها الفاتحون العرب والمغاربة وكذلك أبناء البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام، وغدوا الشريحة الأكبر في نسيج المجتمع الأندلسي، إلى أن آذنت شمسهم، بعد ثمانية قرون، بالمغيب -وللدول أعمار- فرحلوا، وقد خلّفوا وراءهم الصُّروح المجيدة وكنوزا من كتب وأسفار خطّتها أناملهم بماء الذهب.

هل نسي العرب، بعد سقوط غرناطة في العام ١٤٩٢م، الأندلس، فإن هم ذكروها بدَوا كمن يقول: وكان لنا هناك بلد اسمه الأندلس؟ والصروح لم يعرفوها إلا بالسمع، والتراث المخطوط لم يصل إليهم منه إلا النَّزر اليسير.

ثمّ إنه قُدِّر للشاعر أحمد شوقي، أن يقضي هناك أيامَ نفي عاناها، فكان أن تذكّر ما كان من تاريخ، ولم يغرب عن باله الشاعر ابن زيدون:

أضحى التنائي بديلاً عن تلاقينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

فعارضها بقصيدته التي مطلعها:

يا نائح الطلح أشباهٌ أعادينا نَشْجَى لِواديك، أم نأسى لوادينا

وعارض في قصيدة أخرى سينيّة البحتري:

صنت نفسي عمّا يدنّس نفسي وترفّعت عن ندى كل جبس

بسينيته التي مطلعها:

اختلاف النهار والليل يُنسي اذكُرا ليَ الصِّبا وأيامَ أُنْسي

وقد سارت هاتان القصيدتان بين مثقفي عصره. هل نقول: قد ذَكَّر أمير الشعراء، وهو في منفاه (١٩١٤-١٩١٩)، معاصريه بأنّ لهم بلدًا فيه من الصروح والآثار ما يجذب السياح من كلّ أقطار العالم، ويأخذ بمجامع القلوب؟

وأما كنوز المخطوطات فقد التفَتَ إليها الباحثون، وليس أولَهم الأمير شكيب أرسلان في كتابه الحُلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (عام ١٩٣٩)، فقد سبقه مَن استحقّ أن يسمّى رائد الدراسات الأندلسية محمد عبد الله عنان، الذي تأتّى له أن يؤلّف موسوعة كاملة شاملة في هذا التاريخ الذي استهواه، وما وضع القلم من يده إلا حين وفاته في ١٩٨٦.

ثم كرّت السُّبْحة، فتزايد عدد المهتمّين بتاريخ هذا البلد، ومن ذلك أنّ طه حسين، بصفته وزيرًا للمعارف في عام ١٩٥٠، قرر افتتاح ما سمّاه المعهد المصري للدراسات الإسلامية في العاصمة الإسبانية، يوفَد إليه الطلاب ليدرسوا التاريخ الأندلسي عبر مصادره اللاتينية أيضًا. وظهر أكابر الباحثين في مصر والبلاد العربية، وأخصّ المملكة المغربية التي تَعُدّ نفسها الوريثة الأحقّ بهذا التراث للمجاورة وللاحتضان.

أكتب هذا من الذاكرة، وأنا في منفاي الاختياري في فلوريدا الأمريكية، في هذا اليوم الذي يصادف الذكرى الثانية والثمانين لرحيل أمير الشعراء أحمد شوقي.

فلوريدا: صباح الأربعاء ١٥-١٠-٢٠١٤

أيها المحيط الواسع

خَلْفك هناك

وطنٌ لي

ينزِف

يئنّ.

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ١٥-١٠-١٤

المطر في مكان آخر.. والقذائفُ أيضًا

في فلوريدا، غير البعيدة عن خطّ الاستواء، تُمطر السماء في كلّ آن.

وقد أسمع هزيم الرعد وأرى التماع البرق، وأنا أهمّ بالخروج للتريّض سويعة الأصيل، فأقول لنفسي: صوت الرعد بعيد، فالمطر إذن في مكان آخر! فإن أخطأت التقدير، عدت إلى البيت مبلّلاً.

وفي وطني...

يخرجون صباحًا من بيوتهم طلبًا للرزق وتأمينًا للحاجات المنزلية، وقد اعتادوا أن يقولوا: سوف تنزل القذيفة مثل كلّ يوم في مكان آخر! فإن هم أخطؤوا التقدير هذه المرة، لم يعودوا إلى بيوتهم... مبلّلين.

فلوريدا: فجر الخميس ١٦-١٠-٢٠١٤

حديث أرملة

يحكى أنّ أرملة تتوق نفسها إلى الزواج، قالت يومًا لأديب ترمّل حديثًا: «شو رأيك

تتجوّزني، أعتني فيك، وأقدّم لك اللقمة الطيبة، ونشرب عند الصبح فنجان القهوة ونحن نتحدث؟«.

سألها: «نتحدّث في الأدب؟«. قالت: «شو أدب وما أدب! نتحدّث في كل شيء«.

تقول الحكاية: إنّ الأديب، منذ ذلك اليوم، لم يُرِها وجهه!

فلوريدا: ظهيرة الخميس ١٦-١٠-٢٠١٤

مواهب.. تظهر بعد الزواج!

سألها والد صديقتها الحميمة، المعروف بخفّة ظلّه وحبّه للمزاح:

ـ شو حكايته هادا أبوك، الكاتب الأديب، مع النسوان؟ أمّك، وهيّه عنده، صارت تكتب الشعر المنثور! واللي اجت بعدها بدأت بكتابة القصة الحداثيّة، وبنت خالتي، التالتة، نراها تسعى لإلقاء محاضرة عن البيئة!

رجاءً: لا يذهب الخيالُ بالأصدقاء بعيدًا فيسرفوا بالظنون!

فلوريدا: مساء الخميس ١٦-١٠-٢٠١٤

يا سيدي النظام!

أنا، يوم التحقت بالقوات الجوّية، فمن أجل أن أحمي سماء وطني في مواجهة الأعداء.

فما بالك تحملني، اليوم، على أن ألقي البراميل المتفجّرة على أمّي وأبي وكلّ الذين أحبّهم؟

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ١٧-١٠-٢٠١٤

هل على السوريين أن يتوسّعوا في المطالبة بالحرية؟

كتبت إليّ ضحى اليوم إحداهنّ على الخاص، فهي ليست من الأصدقاء، تعتب أنّ بعض

المعارضين، أو المحسوبين على الثورة السورية، أغلبهم نادى بالحرية والكرامة، متناسين حكام دول عربية -ذكرتها- إما لمصالح ذاتية أو خوفًا على مستقبلهم السياسي، تراهم يشتمون بشار وينسون الحكام الطغاة والأمراء أصحاب حانات الميسر والقمار.

وعدّدتْ أسماء كتّاب (ورأيتُني واحدا منهم) وإذاعيين وفنانين أو فنانات، وقالت: يمكن خايفين أو متآمرين وع أساس أنهم مع الثورة. باعوا حمص (كرمال حكام ذكرتهم)، من أجل هذا هم لا يجرؤون أن يكتبوا حرفًا واحدا عنهم، وهذه هي الحقيقة واللي بدو يزعل يزعل، أو يكونوا شجعان ويحكوا حقيقة الحكام العرب والخليج، الذين باعوا فلسطين والأمة العربية من المحيط إلى الخليج. انتهى بإيجاز.

فكتبت لها:

يا عزيزتي، قام الشعب السوري في آذار ٢٠١١ بالمطالبة السلمية بالحرية، والنظام هو الذي عسكر القضية وأدماها لمقاصد.

ولا أراه مقبولا منك أن تطالبي هذا الشعب المقهور بأن يرفع الصوت في الآن ذاته مطالباً بالحريات لكل الشعوب العربية، وكان ممكنا لك أن تضيفي إليها الشعوب الإسلامية، وشعوب العالم الثالث! ذلك ما لا قِبل لنا به.

ولعلمك إني ما أغلظت القول مرة عند ذكر رئيس بلدي أو الطائفة العلوية. جريت على أن أنقد النظام وبموضوعية بكل ما يحمله هذا المصطلح من معان، مترفّعا دائما عن الشتيمة، بل إني أنصح أصدقائي المعلقين بأن يخفّفوا اللعب عندما أراهم يتجاوزون الحدّ.

هوِّني عليك، يا بسمة، يا بنت وطني المتألم.

فلوريدا: ظهيرة السبت ١٨-١٠-٢٠١٤

شعارهم الثلاثي...

«وحدة»... وما حقّقوها مع أيّ من الدول العربية، وعادَوا جميع الحكومات!

«حريّة»... وملؤوا المعتقلات بالأبرياء، وموتٌ تحت التعذيب، وقتلٌ وإبادة!

«اشتراكيّة»... أمّموا، وما أنصفوا، قبل أن يجعلوا البلاد مرتعًا لرأسمالية متوحّشة!

وما زال الناس يرون هذا الشعار مرفوعًا في بوّابات الدخول والخروج.

فلوريدا: ليل السبت ١٨-١٠-٢٠١٤

»ذات رسالة خالدة«

لعلّ كثيرًا من المتتبّعين يجهلون أنّ شعار حزب البعث «أمة عربيّة واحدة ذات رسالة خالدة» منقول بحذافيره من شعار ثورة الشريف حسين، التي أعلنها في عام ١٩١٦ على الحكم التركي الطوراني المتحكّم، وقد كان نصّه هناك «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة هي الإسلام».

وللمتتبّع أن يرجع إن شاء إلى المنشورات التي كانت تصدرها ثورة الشريف حسين تباعًا في ذلك الحين، والتي اطلعت على واحد منها، مستنسخًا من إحدى مؤسسات الأرشيف في برلين، ومنشورًا في كتاب الثورة العربية الكبرى الذي يحمل اسم مؤلفه مصطفى طلاس، وذلك في طبعة الكتاب الأولى الصادرة عن دار طلاس بدمشق في سبعينيات القرن الماضي. وتقتضي الإشارة إلى أني افتقدت هذا المنشور في طبعة تالية من الكتاب.

فلوريدا: فجر الأحد ١٩-١٠-٢٠١٤

معوضين... يا سورية الغالية

كلمات بقلم الكاتب العراقي «أحمد خيري العمري»:

عندما ذهبت إلى سوريا احتضنتني كلمة معوضين، وخففت من الإحساس بالفقدان الذي لا بد أن يكون كل العراقيين الذين غادروا وطنهم وبيوتهم ووظائفهم وكل ما كانوا قد بنوه في حياتهم السابقة قد شعروا به.

معوضين يقولها لك سائق سيارة الأجرة الذي قد لا تراه بعدها أبدا بينما أنت تنقده أجرته الضئيلة، يقولها لك بائع الخبز والحليب وسائق السرفيس.

معوضين في كل مكان. وفي كل مرة تمد بها يدك إلى جيبك مهما كانت الليرات الخارجة ضئيلة.

كنت أحيانا أقول في نفسي: هل هناك حقا ما يعوضنا عن وطننا؟ عن بغداد؟ عن أشياء تركناها وكنا لا نتخيل مجرد إمكانية الحياة بدونها؟

هل هناك حقا ما يعوض أن يكبر ابنك في وطنه؟!

رغم ذلك كانت معوضين مثل دعاء يومي بأن يعوضنا الله، وكان ذلك لوحده نوعا من التعويض، أن تشعر أن هناك من يدعو لك بالعوض.

اليوم أقف لأهمس في أذن سوريا كلها: معوضين.

معوضين... يا غالية، يا وفية، يا أصيلة.

معوضين، يا من وقفت معنا وحدك بعد الله، وتقفين اليوم وحدك إلا منه عز وجل.

معوضين... وأنت تفقدين اليوم خير أبنائك وصباياك، وأنت تقدمين خلاصتهم في خلاصك الحاسم.

معوضين أمام قوافل الشهداء، وقوافل المهجّرين، وقوافل المعذبين والأرامل.

معوضين... يقولها لك العراقي العابر وهو يعرف أن العوض قادم لا محالة، مثلما الفجر قادم لا محالة، ومثلما الجيل الذي سيجلب الفجر قادم لا محالة.

معوضين بغدٍ أفضل، وبسوريا أفضل، وبمستقبل يستحق كل تلك التضحيات.

أعرف فداحة الخسائر التي تصغر أمامها الكلمات.

لذا لا يملك العراقي العابر أمام وجعك النبيل، وشموخك الحزين، إلا أن يقول:

معوضين... معوضين!

فلوريدا: ظهيرة الأحد ١٩-١٠-٢٠١٤

وتسقط سنديانة أخرى

كان زقاق الزهراوي بحلب وما جاوره ملعبَ طفولتنا، أنا وعبد البديع كيالي وعبد الغني السعداوي ومحمد غزال و. و. و..

وشاءت الأقدار أنّ عبد البديع، لمّا شبّ عن الطوق تزوج من إحدى شقيقاتي. أنجب ثلاثة بنين وبنتًا واحدة، درسوا جميعًا، وتفوّق بكرُهم، طبيبًا متخصصًا في ديار الغرب، وأمسى له في عاصمة قطر مركزٌ طبي يجمع كل التخصصات، ناجحٌ مرموق، وآثر -في هذا الزمن الصعب- أن يضمّ إليه في الدوحة والديه وبعض أشقائه. ولكن هل استبدّت بهم الأشواق إلى الوطن، فرأوا أن ينتقلوا إلى حيث إطلالةٌ على البحر من جانب وإطلالة أخرى على الوطن المهجور؟

أسرتي، التي كوّنها أبي أبو السعود (١٩٠٧-١٩٨٤)، القادمُ من حمص طفلاً ابن ثمانية برفقة أبيه الحاج سليم السباعي، قُدّر له أن ينجب بحلب تسعة عشر من البنين والبنات، مقتربًا

عدد الأحفاد اليوم من المئة. أين هم اليوم؟ ينتشرون في الأرض العربية وفي الأصقاع، عابرين تركيا وألمانيا وفرنسا، وصولًا إلى الولايات المتحدة، وبعضهم لأسباب وأسباب بقي في حلب تحت القصف، يلتجئون إلى بيوت تحت الأرض.

أمسِ الأول بلغني أنّ رفيق الطفولة، عبد البديع كيالي (وهو الخال الوحيد للفنان لؤي كيالي)، قد ملّ الغربة، وتكاثفت عليه الأشواق والأحزان، فسقط مثل سنديانة، ووُوري الثرى في أرض... كانت لنا.

لا تُعَزّوني، أيها الأصدقاء، أرجوكم. ليُعَزِّ كل منا نفسه، ولنبكِ وطنًا -ليس كما تبكي النساء- لكن رجالًا يبكون وطنا قد أخطأ في حقّه بعضُ أهليه حين تعطّلت في أيديهم البوصلة، فأخطؤوا الرمي والتسديد.

فلوريدا: صباح الإثنين ٢٠-١٠-٢٠١٤

بدَّكْ حرّيّة؟

وعندما يُلقون القبض على مواطنين قد شاركوا في التظاهرات السلمية المطالبة بالحرية، فإنهم ينهالون عليهم ضربًا وهم يزمجرون في وجوههم: «بدَّكْ حرّيّة؟ أي خود حرّيّة».

ذلك أنّ ثقافتهم الأمنيّة تُملي عليهم القناعة بأنّ الإجابة المناسبة لهذه المطالبة هي هذه الصرخة الوحشية، المصحوبة بالضرب، ورفس الخاصرة، والدوس على الجمجمة، والقفز فوق الظهر والضحيةُ مُكِبٌّ على وجهه... حتى الإفضاء به إلى الموت.

وهم في هذا يعتقدون أنهم الأجدر بأن يحكموا الشام العريقة، التي منها انطلقت جيوشُ الفتح الأُموي، فتح نشر الحضارة في نصف العالم الذي كان معروفًا في ذلك الزمان.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢١-١٠-٢٠١٤

لسان من لهب

رأيت فجر اليوم، فيما يرى نائمٌ قد اجتمعت في صدره كلّ أحزان الدنيا وظلّ فيه متّسع، أني كنت في جهة أمنيّة ما، لا معتقلاً مهانًا ولا زائرًا مكرّما، لست أدري كيف! فظهر أمامي، بين طالبي الزيارة المتجمّعين في يمين المكان، رجلٌ مُتطامن[1]، أبرزَ أوراقا تُمكّنه من أن يُلقي نظرة من بُعد على طفله المحتجز برفقة أمه المعتقلة بتهمة المساعدة في إغاثة المنكوبين.

جاؤوا بالطفل، رفعه حامله بين يديه متيحًا للأب أن يراه، وللجميع. تقدّم منه آخر، وفي يده قدّاحة، قَدَحها فخرج منها لسانٌ من لهب، قرّبه من الطفل، وأخذ يُمرّره على ساقه الصغيرة بمكان قريب من الحَفّوضة، ثمّ رفع القدّاحة إلى ما تحت الأذن، يُلَعِّب اللهب في العنق، والطفل في ذلك، ونحن وأنتم الآن، في حال كما تتصورون. وقال أبو لهب أخيرا كأنه يخاطب الأب: «منيح هيك؟».

الغريب أننا لم نسمع من الأب صوتًا، ولا نأْمة، تمامًا كما يحدث في الأحلام. ولكنّ أذني تلقّطت غمغمة أتتني من جانب المقهورين، تقول: «منيح، الحُرْق بطيب! أحسن ما يدبحوه!».

واستيقظت متجمّد الأطراف.

أتساءل، وأنا أدوّن هذه التفاصيل: لماذا تعتادنا هذه الأحلام البغيضة؟

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ٢١-١٠-٢٠١٤

---

(١) ساكنٌ وقور.

كيـف؟!

هُم...

هجروا الحدود، وكسروا الدفّ وبطّلوا الرقص

وظلّ اسمهم مقاومة وممانعة...

نحن...

مَن جاؤوا إلينا، يقتلوننا ويذبحون أطفالنا بالسكاكين

اسمنا إرهابيون...

كيف!!!

فلوريدا: عصر الأربعاء ٢٢-١٠-٢٠١٤

دماء.. وماء..

بالأمس

ذرّفوا الدموع على المسيحيين الذين قُتلوا في العراق، وبكَينا معهم.

ولكن... لماذا لم يبكوا معنا على أطفالنا الذين مرّت على أعناقهم السكاكين أو خنقهم غاز السارين؟

اليوم

يستنجدون بالعالم خوفًا على عين العرب/ كوباني من أن تسقط بيد تنظيم الدولة

طيّب... لماذا لم تهتزّ فيهم شعرة يوم اجتيحت حمص ودمّرت تدميرا، ويوم... ويوم... ويوم...؟

هل ما يسري في عروقهم دماء، وفي عروقنا ماء؟

ومع ذلك نحن نحزن من أجلهم ونخاف عليهم، لأننا -بكلمة واحدة- ديمقراطيون وإنسانيون رحماء.

فلوريدا: فجر الخميس ٢٣-١٠-٢٠١٤

الشاعر الذي كان يُضحك الناس

وظلّ شاعرنا يأكل من خبز السلطان

ويَغمِز من جانبه في تغريداته

وذاك يضحك من الأعماق

ويُزري بالشعب أيضًا

فيَضحَك الناسُ

وهم لا يعرفون لماذا يضحكون!

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٤-١٠-٢٠١٤

خُلِق الرجل مَلولا

وخُلقت المرأة أقلّ منه مَلالة.

فلوريدا: ظهيرة السبت ٢٥-١٠-٢٠١٤

عَشِيّة يوم العطلة

ما إن نزلت العَتمة حتى كانت كلّ أسرة تحمل طعامها، بالقِدْر بالصحائف، ويمضون به، عشيّةَ العطلة الأسبوعية، إلى بيت أسرة منهم. خمس أسر، شكّلوا ههنا تجمُّعًا سكانيًا صغيرًا،

وقد ازدادوا عددًا مع وصول أسرة جديدة.

جلس الرجال يتحدّثون في السياسة، في الوطنية: هل البلاد مقبلةٌ على تقسيم، يُضمره بعضٌ ويعلنه بعض؟ والنساء شاركنَ، فالأمر يخصّ كلّ واحدة منهنّ، هي وأبناؤها الذين تُربّيهم.

والصغار يلعبون. حتى وهم يأكلون يلعبون.

والأطفال هناك؟!

لقد رأيتُ، بالأمس، بعضهم، يقتعدون الأرض أمام خيمة، ينحنون على كتبهم وأوراقهم التي عفّرتها التربة، ويكتبون.

شعبٌ لا يموت، وإنْ طلب رأسَه الظالمون.

فلوريدا: فجر الأحد ٢٠١٤-١٠-٢٦

أبناء الكتّاب هل يكتبون؟

في ملاحظتي لمن يُنجبهم الكتّاب من الذراري، في الوطن العربي وفي العالم، وجدت أنّ أندر من النادر أن يُخَلِّف الكاتب كاتبا! لكن بدا لي أيضًا أنّ هؤلاء الأبناء المتمرّدين، إنْ لم يُقدّر لهم أن يتّخذوا من الكتابة هوايةً أو حرفة، فإنهم -وهم يعايشون الأب الكاتب في ساعات رضاه عمّا يبدع، وفي سخطه على ما يراه من تناقضات الحياة- يمتلكون جينات الكتابة كامنة، إلى أن تحرّكها الظروف، فيتناولوا القلم ويُعبّروا.

فجر هذا اليوم نشرتُ "عَشِيّة يوم العطلة"، مستوحيًا إياها ممّا مرّ بي ليلة أمس، وما يمرّ في بعض الأمسيات، من اجتماع أفراد الأُسَر الخمس التي أنتمي إليها، تلك التي أكرمني الله بأن تكون من ذرّيتي، في بيتٍ منها، فيكون التلاقي وكأننا على أرض الوطن نحيا، مشيرًا في

ذلك إلى أسرة سادسة حلّت بيننا من قريب.

لـمّا قرأتْ هذه الخاطرةَ ربّةُ الأسرة السادسة مروَة، ابنة شقيقتي ضَحوك -التي خدمت في التربية ثلاثين عامًا تعلّم اللغة الإنكليزية في مدارس حلب- أخذت القلم، مروة، وكتبت في صفحتها ما لم أكن أتوقّع:

نوّرت صفحتي، خالي العزيز. ونوّرتم حياتي بوجودي معكم. شعوري أمس وأنا بينكم لا يوصف. أحسست وكأنني في بلدي. دعمكم لي أكبر حافز لأبدأ حياتي الجديدة معكم. ويوما سيجتمع الشمل في الوطن بإذن الله.

مروَة أمٌّ لثلاثة أطفال، وهي ابنة الشاعر الأديب الصحفي محمد سعيد فخرو، الذي كان يشغل وظيفة رئيس القسم الثقافي بجريدة الجماهير بحلب، وصاحب زاوية "ولله الأمر"، الذي كثيرا ما كان الأمن يستدعيه لشرب فنجان قهوة، ليسألوه عمّا يقصد في كلمته صباح ذلك اليوم! وقد رحل عنّا باكرا إلى دار الخلود. وما ظننت أنّ ابنته الصغرى تكتب، تُعبّر، بهذه العفوية والرتابة. وقد سبقتها إلى مثل ذلك شقيقتاها الصيدلانية هلا والاقتصادية دانية.

قلت: أبناء الكتّاب، وذلك يعني البنين والبنات. ولكن بدا لي أنّ لجنسهنّ اللطيف الحظَّ الأوفى من هذه الموهبة الجميلة، كما الحال عندي في سوزان وسهير وخلود.

فلوريدا: عصر الأحد ٢٦-١٠-٢٠١٤

سفتْ السمسْ ع الزوزة!

أنا حلبيّ من حيّ ورا الجامع، ولدت في زقاق الزهراوي، الذي سكنه في القديم العاملُ على حلب سليمان بن عبد الملك قبل أن يصبح الخليفة الأموي السابع. حلبي قحّ مع أنّ والدي جاء حلب طفلا مع جدّي القادم من حمص عام ١٩١٥.

ثمّ إني أقمت بدمشق منذ خمسين سنة. ويمازحني بعض أصدقائي الدماشقة بأننا في حلب يقول أحدنا لآخر في الدلالة على مكان: «بتمشي سيوي سيوي وبعدين بتنجقم ع يمينك«! (أي تنعطف في رأيهم)، فأدافع عن أننا لا نقول انجقم، ثمّ إنّ كلمة سيوي هي ساوي، سَوِيّ، أي مستقيم فهي من العربي الفصيح، وفي دمشق يقولون: دغري، وهي كلمة تركية بمعني مستقيم!

وأجاريهم في مداعبتهم فأقول: سمعنا في دمشق أناسا يقولون: «سفتْ السمس ع الزوزة! »، يقلبون الشين سينا، والزوزة هي شجرة الجوز، فلا أدعهم يغلبونني!

أمس قرأت في مجموعة حلبية لأحدهم يعدّد مفردات مغرقة في شعبيّتها، فعلّقت بكلمة واحدة: «فضحتونا».

فلوريدا: فجر الإثنين ٢٧-١٠-٢٠١٤

طيورٌ هنا.. وأطفالٌ هنالك..

في مسيري، في الضاحية ساعة الأصيل، اعترضنَ طريقي. توقّفتُ، وتوقفت فتاةٌ تتريّض على دراجتها، وتوقفت سيارة هناك قادمة، وسيارة هنا غادية، حتى مررن، طيورُ الطاووس، وعبرنَ الشارع، من رصيف إلى رصيف، يتبخترنَ، وهنّ آمناتٌ مطمئنّات.

وهنالك، في بلدي... الأطفال...

وعيون العالم، المنافق، تنظر...

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٨-١٠-٢٠١٤

أتمنّى...

لو أنّ مَن حولي

يكونون أكثر إدراكًا لدوري في الحياة،

اليوم!

فلوريدا: مساء الثلاثاء ٢٨-١٠-٢٠١٤

الأيدي الممدودة

كان أبي يسكن في حيّ المحافظة بحلب، وكان غيرَ بعيد منه بيتُ الدكتور صبحي السباعي، الطبيب الطيّب الذي يفيض قلبه مرحًا، فكان كلما التقى به في الحيّ يتلقّى منه سؤاله الظريف: «يعني، ابن العمّ... عندما تجلسون إلى السفرة تكون هناك ١٩ ايد ممدودة؟! »، ويضحك الرجلان، يرحمهما الله، من الأعماق.

وللبيان، إنه لم يتّفق قطّ أن اجتمع الأبناء التسعة عشر حول مائدة واحدة، فهم جِيلان، قد غادر الأول البيت مبكّرًا، وتفرّقوا، وبنَوا أُسَرا فيها بنون وبنات، وانتشر بعضهم في محافظات القطر، وفي أرجاء الوطن العربي، وفي عواصم العالم.

واليوم... ألجأت الحرب الباقين منهم بحلب إلى أن يُمعنوا في المضيّ بعيدا، حتى لم يبقَ فيها إلّا مَن ظنّ أنّ بيته يوفّر له قدرًا من الأمان!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٩-١٠-٢٠١٤

حوار.. ساعة الفجر

بالمصادفة تلاقينا، عبر أثير الشابكة. رحّبتْ ورحّبتُ، فبيننا صداقة، وتبادلنا من الحديث -والفجرُ عندي وعندها منتصف النهار- ما يكون بين السوريين عادة.

- من أين تتحدثين، يا سلمى؟

ـ من تركيا، مدينة غازي عنتاب!

ـ وما الذي حملك إليها؟

وأَعلمُ أنّ زوجها، الأستاذ الجامعي، كان يكتب في الجرائد منتقدًا الفساد بموضوعية قَبِلوها منه في ذلك الحين، فلما اشتعلت الحرب خشيت الأسرة على نفسها، فهجروا البلد... «والنظام أنت أدرى به «!

ـ وهل يعمل زوجك وتعملين؟

ـ ما زلنا منذ عام نبحث عن عمل!

ـ والإنفاق، يا سلمى؟ أنا هنا محتضَنٌ عند أبنائي وبناتي، وأنتم كيف؟

ـ ننفق من المدّخر... إلى أن يفرجها ربنا! لنا ولدان يعملان، في الخليج وفي أوربا.

وبدأت شمس النهار تطلع عندي.

فلوريدا: صباح الأربعاء ٢٩-١٠-٢٠١٤

قليل من الفرح.. وكثير من آلام الأيام

تلقّيت قبل أيام، من طالبات يدرسنَ من جديدِ المقررات الجامعية ما عرفتُ أنّ اسمه مهارة الكتابة والقراءة، أسئلةً تتعلّق بما اختارته أستاذتُهنّ من خواطري التي جريت على نشرها في صفحتي مّما يعتادني من ذكريات الطفولة والوطن.

ومع بالغ سروري باستحداث مثل هذا المقرر، الذي تتولّى تدريسه الأديبة الجامعية الأستاذة أماني العاقل، فقد أجبت عن أسئلة الطالبات بما يلي:

في ميلي، أنا وغير قليل من الكتّاب، إلى تدوين مثل هذه الذكريات، بتفاصيل صغيرة لما وقع لنا في يومنا الراهن أو في الأيام القريبة الماضية، أرى أن ذلك يشكّل فرصةً للعودة إلى

الذات القلقة ونحن في غربتنا القسرية، على نحو لا يحتاج فيه الكاتب إلى التخيّل لاصطياد الصُّور والفِكَر، بل هو الاغتراف من سوانح اللحظة التي لم يفارقنا بعد عَبَقُها أو عَفَنُها! وأما إن بعُد الزمن فإنه يكون للكتابة طعمٌ آخر: استحضار ذكريات من الماضي، نستروح أنفاسها المعتّقة، ونعيد ترتيب مفرداتها المتناثرة.

وليس ما أكتبه مذكّرات ولا هو يوميّات، إنه مجرد التقاط صور ممّا يخطر على البال، وبغير ما نظام، صورٍ تُمليها ظروفٌ يمرّ بها الوطن الحزين، معرّجةً على عهد الطفولة والشباب.

وفي شأن السيرة الذاتية، فإني أرى أنّ أفضل الأوقات لكتابتها هو آخر مراحل العمر. من ناحيتي بدأت في كتابتها، ونشرت فصلا منها أول ضافيا[1] (مجلة المعرفة، العدد ٥٠٤، أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥)، ويؤسفني أني تحت ظروف ما توقفت، وما زالت تؤرّقني الرغبة في الاستئناف.

ولن أَغمِطَ حقّ هذا الاختراع السحري (شبكة التواصل الاجتماعي)، في دوره بتحريضي على الكتابة اليومية، فكأنني أكتب عمودا في دورية، مبيّنًا أنه ما كان ليخطر في بال كاتب، ولو في المنام، أنّ ما ينفُض يده من كتابته في لحظته، أنّ ما يُوْدِعه همسةً في أذن هذه الصفحة المضيئة في الجهاز المتّخذ مكانه فوق طاولة في ركن من البيت، سوف يَعُمّ العالم، ويصل إلى كثير من الأسماع والعيون والعقول والقلوب، ويتوارد الإعجاب -ولأسمِّه المشاهدة- في التوّ واللحظة مثل زخّ المطر، دون المرور على رقيب، في الإعلام المكتوب أو المسموع أو المرئي، ينظر ويُقيّم ويتعسّف في الحكم والتقييم!

وأقول: إنّ خواطري هذه، التي اقترفتُها على مدى سنين ثلاث، إنّ ما كتبتُه من هذه التغريدات في كلّ سنة من هذه السنوات، يشكّل مجلّدا قائمًا بذاته، يؤرّخ سياسيًّا واجتماعيًّا

---

(١) واسعاً مطوَّلا.

وعاطفيًّا، ويفوح منه في ذلك قليلٌ من الفرح وكثيرٌ من آلام الأيام.

فلوريدا: فجر الخميس ٣٠-١٠-٢٠١٤

وكيف نتمنّى طول العمر!

يوم كان أمير إشبيلية الشاعر الفارس المعتمِد بن عَبّاد أسيرًا عند الأمير المرابطي يوسف بن تاشِفين في بلدة أَغْمات بالمغرب محتجزًا حتى الموت، زاره في أسره وزيرُه الذي كان والذي أصبح بعدُ وزيرًا عند المرابطين، الطبيبُ زُهْر بن عبد الملك، بمبادرة شجاعة لمعالجة زوجته الرُّمَيكيّة، تقول الرواية التاريخية: إنّ الطبيب، وكان يرتجل الشعر أيضًا، تمنّى للأمير الأندلسي طول البقاء، فردّ الأمير وكيف يرجو أسيرٌ لنفسه طول البقاء! (أو معنى من هذا القبيل).

أقول: أنا لست الأمير الشاعر ابن عبّاد، وأنت، يا سيدتي، لست الطبيبَ الوزير زُهْر بن عبد الملك الإشبيلي، ولكني مع قولة الأمير، التي أرسلها قبل ألف عام. فكيف نرتجي طول العمر ونحن نشهد بأعيننا الدامعةِ الموتَ يتهاطل على الوطن من كل سماء، ولا نرى أملاً في الخلاص في خضمّ عالَمٍ منافق؟

فلوريدا: مساء الخميس ٣٠-١٠-٢٠١٤

أنفاس أمّي

أذكر، وأنا في الخامسة من العمر أو نحوها، أني مرضت يومًا واشتعلت بي الحُمّى، فلزِمتْني أمّي جالسةً بجواري، تبُلّ قطعة الشاش في الماء، وتجعلها على جبيني تخفيفًا لوطأة الحرارة، ثمّ تنحني عليّ، وتمسح خدّها بوجهي حتى لأشمّ رائحة أنفاسها، وأسمعها تردّد على سمعي كلمة كأنها موّال شجيّ: «يا يوبْ.. يا يوبْ».

ما زلت أذكر الفراش الذي يحتويني ممدودًا على الأرض، وأنا أنظر، في حرارتي المرتفعة،

إلى خشبات السقف، أعدّها ثمّ تغيب عني الخشبات والسقف والجدران، فأحاول العدّ من جديد.

كان على باب الغرفة، التي خصّتنا بها الجدّة، شجرةُ ليمون سامقة من يمين، ومن يسار شُجيرةُ ياسمين ظليلة، كنا نقطف منها أنا وأختي، ونجعل من زُهَيراتها عناقيد تَشْكُلها أمّي في رأسها. وكان في أرض الدار بركةٌ ذات نافورة تستمدّ ماءها من القناة، وعلى حوافّ البركة تنتظم أُصصُ الزّريعة، وثمة كرمة عنب ضخمة تتسلّق جدار غرفتنا لتستلقي على عريشة فوق سطحها... وأشياء جميلة لا حصر لها.

لمّا دخلت المدرسة وأخذت أتعلّم، عرفت أنّ كلمة يا يوبْ الحلبيّة مأخوذة من يا أبي، فكأنّ أمي كانت ترى في صبيّها الأول الابنَ والأب معًا. وكانت يومذاك في ربيعها العشرين.

وعرفت اليوم، وأنا في سنّي هذه، أنّ جنوداً يَتَمَتْرسون فوق أسوار القلعة العالية، ويُمطرون البيت والزقاق والحيّ بأكمله بقذائفهم، فيخرّبون، ويشعلون الحرائق، ويأتون على كل شيء جميل... ولكنهم لم ينزَعوا من صدري أنفاس أمّي، ولا موّالها ذاك الذي يعبَق بالحنّيّة!

فلوريدا: فجر الجمعة ٣١-١٠-٢٠١٤

شبّيحة وأشباح

لحظة خرجت من البيت في ساعة المساء المنقضي وقد عَتَّمت العين، ولمّ يكن شعري قد جفّ من الاغتسال تمامًا، شعرت بلفحةٍ من برد غير متوقّع، ونحن لمّا نزل في فلوريدا نعاني من حرّ صيفها الطويل. ولم أتأكّد من ذلك إلّا بعد أن قطعت مسافة، منتظرًا أن تلحق بي ابنتي سهير بسيارتها لنقضي سهرةً عند بعض أبنائي، في مساء الجمعة الممتدّ إلى ما بعد منتصف الليل. وأعترف بأني لم أستحسن العودة لأتلافى ذلك بما يمنع عني هذا البرد وإن كان هيّنا، فعمدت

إلى أن أنضو عني الكنزة الرقيقة أُدثّر بها رأسي، ولم أشكّ بأنّ هيئتي قد صارت مثار بهجة للناظرين، مع معرفتي بأنّ الناس قابعون الساعة في بيوتهم، فإن التقيت بعضهم فإنهم هنا لا أحد يُحدّق إلى أحد، خلافًا لما نحن عليه، أبناء الشرق، من فضول، على نحو ما وصفَنا الكاتب الفرنسي مونتيسكيو Montesquieu في كتابه رسائل فارسيّة.

طالت عبارتي، ولم آتِ بعد على ما لاحظتُه من الناس، الذين رأيتهم -يا للغرابة! - يملؤون الأرصفة الصغيرة المحفوفة بالمرج الأخضر. وما استرعى انتباهي أيضًا أنّ معظمهم كانوا صغارا، وكانوا يحملقون -على العادة الفارسية أعلاه- بهذا الرجل المُلْتفع بكنزته فلا يكاد يَبين لهم حتى محيّاه!

ثمّ إنه اتّفق أنّ نفرًا من الصغار وأغلبهم من البنات، خرجوا من دارة (فيلا)، فلما وقعت أنظارهم عليّ، وهم يتقدّمونني في المسير، علا صوت بنت منهم بكلمة، فأخذوا يتراكضون أمامي، متلفّتين نحوي، ضاحكين ضاجّين!

حدّثت بذلك ابنتي، فبيّنت لي أنّ اليوم عندهم عيد الهالوين Halloween، فيه يخرج الأطفال يدقّون الأبواب مُستهدين أصحابَ البيوت شيئًا من الحلوى والشوكولا. وفي الاعتقاد الشعبي القديم منذ ما قبل المسيحية، أنّ من لا يعطي تأتيه الأشباح، الأرواح الشريرة، التي كان قد مات أصحابها في ذلك العام وعوقبوا بأن حلّت أرواحهم في أجساد حيوانات، وأنّ إله الموت -حسب المعتقد الوثني الموروث من بلاد إيرلندا البعيدة- قد سمح لهم بأن يتجوّلوا في ذلك اليوم أشباحًا، ويخيفوا الناس

وإذن، فتلك البنت أهابت برفاقها: شبح... اهربوا!

ومن أين لها أن تعلم أننا هناك نعاني من شبّيحة حقيقيين، يخرجون في الليل والنهار وفي كلّ أيام السنة، يخترقون الأرض طولًا وعرضًا، ويحلّقون في الفضاء، يصولون ويجولون،

ناشرين الرعب والموت والدمار، قبل أن يدركهم موتٌ أو أن يُعاقَبوا بالحلول في جلد ضبع أو ضبّ أو تمساح.

فلوريدا: فجر السبت ١-١١-٢٠١٤ (غداة عيد الهالوين(

الأنترفون اختراعٌ مريح

ما كان لأيام اعتقالي القليلة أواخر العام ١٩٨٠، لأسباب أدبية مطعّمة بالسياسة، أن تمرّ دون تداعيات نفسيّة، فقد غادر قلبي الأمانُ والاطمئنان، فما داموا قد سحبوني من وسط الجامعة في أعقاب محاضرة، ورموني في زنزانة منفردة، أقتعد وِطاءً هو في غاية القذارة، ولا غِطاء يقيني برد الشتاء، فإنهم مهيّؤون لأن يعتقلوني وأنا أمشي على رصيف، أو آخذ فنجانا في مقهى، أو أبحث عن كتاب في أرفف مكتبة، أو... أن يطرقوا باب بيتي في ساعة فجر!

قلت: ساعة فجر!

أحدّثكم عن أنه كان يزورني، في تلك الآونة (قبل ثلاثين أو أربعين سنة(، محبٌّ للثقافة والأدب، حلبيٌّ، طويلٌ عريض، يعمل في مجال نشر وتوزيع الكتب في بيروت، اسمه أفتيم، يأتيني في الصباحات غالبا، معبّرًا عن ودّه الصافي، ومقدّمًا لي بعض ما يتولّى توزيعه من كتب.

في باكر ذلك الصباح من صيف ١٩٨١ (الذي تلا ذلك الشتاء الكئيب)، رنّ جرسُ بيتي. وللعلم تتقدّم بيتي حديقةٌ ذات اتّساع، تفصل ما بين غرف البيت وبين الباب المفضي إلى الرصيف، ولم يكن قد دخل بيتي بعدُ ذلك الاختراعُ المريح المسمى الأنترفون.

نهضت، ومن وراء الباب سألت عن الطارق؟ فلم يأتِني ردّ، ففتحت الباب بحذر. في الوهلة الأولى لم أجد على الرصيف أحدا، لكن سرعان ما أقبل عليّ جسدٌ، طويلٌ عريض، مندفعًا نحوي يأخذني بين ذراعيه. ولم أكد أحدّث النفس بأنهم زوّار الفجر قد جاؤوا، حتى

كان الرجل يقول: «شو، نسيتني؟ أنا أفتيم، كيف حالك أستاذ فاضل؟».

بعد ذلك اليوم ركّبت أنترفون: يرنّ أحدهم الجرس وهو على الرصيف، فأخاطبه من الداخل، أتعرّف، أكبس الزرّ، وأتلقّاه في الحديقة.

أجل، اختراع مريح. ولكني غادرت البيت والحديقة، والحارة، والعاصمة، والوطن، فأنا اليوم في مكان آمن، ولكن الأشواق تحرق الكبد.

فلوريدا: فجر الأحد ٢-١١-٢٠١٤

وتزحف إلينا جحافل المقاومة

في نفسي لو أسأل ذلك المقاومَ الممانع:

تُرى

في أيّ زمن؟ في أيّ يوم؟

ارتكبنا اعتداء على المراقد

حتى تترك حدودك مع العدوّ

زاحفًا بجحافلك إلينا

لتدافع عنها وتُمانع

بسكاكين وصلت أعناق الأطفال؟

فلوريدا: فجر الإثنين ٣-١١-٢٠١٤

حال السوريين

طلبوه لخدمة العَلم كي يقاتل في صفوف مَن لا يؤيّدهم، فيقتله الآخرون. دون جواز

سفر اجتاز الحدود. انطلقت بهم سفينةٌ تمخُر البحر نحو المجهول، فأدركهم في الطريق الغرق وشارفوا على الهلاك، أُنقِذوا، وتعهّدت منظمة أطباء بلا حدود بإعادتهم إلى نقطة الانطلاق. هو هناك ينتظر هلاكًا آخر!

بهذا حدّثتني أمٌّ دامعةَ العينين والقلب.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٤-١١-٢٠١٤

بما يُشبه الصمت

طبّقوا قبل مئة سنة

بُنود السايْكس...

فلماذا كلّ هذه الضجّة اليوم

وهم يُطبّقون بقية البُنود،

فلوريدا: فجر الأربعاء ٥-١١-٢٠١٤

صيّاح من خشب الزيتون!

ما زلت أذكر أني عثرت، وأنا في العاشرة من عمري، في مونة الحطب ببيتنا في زقاق الزهراوي، على قطعة من حطب الزيتون، رأيتها بعين الطفولة تصلح لأن تكون صَيّاحا (والصيّاح بلهجة حلب هو الدوّامة، الذي يطلق عليه بدمشق البلبل، يُلفّ حوله خيط يسمّى الإيطانة ويُرمى بحذاقةٍ، فيدور فوق الأرض دورانًا يتناسب وطول الخيط ومهارة الرامي)!

كانت دكان الخرّاط قريبة من بيتنا، في ذلك الدرب الصغير المحاذي للجامع الأموي الكبير، في أول سوق الحدّادين. دكانه أراها في ذهابي إلى ابتدائية العرفان في المَحْمَص جنوبا،

تعلو أرضيتُها إلى ما يوازي كتفي وأنا في تلك السنّ. ناولته قطعة الحطب، فسوّاها أولًا بالقَدُوم، ثمّ ركّبها في المخرطة وبدأ العمل. ويا لها من نشوة اعترتني وأنا أرى قطعة الحطب تتحوّل أمام عيني إلى صيّاح من خشب الزيتون!

وأذكر أننا -نحن التلاميذ الصغار- من لابسي البنطلون، كنّا نمرّ من هذا السوق في طريقنا إلى المدرسة، فنرى أُجَراء الحدّادين، المراهقين، يتفرّجون علينا باعتبارنا لابسي "البَنْطرون"، وهذا معيب في نظرهم في ذلك الزمان، لأنه يُظهر هيئة الجسم، التي يخفونها هم بلبس الشروال الفضفاض تضيع فيه المعالم.

تقع في ذلك السوق المدرسة الحَلَوية الأثرية، التي كانت في الماضي البعيد كنيسة بيزنطية، ويقال: إنّ اسمها تحريف لاسم هيلانه (٢٥٠-٣٢٧م، أمّ الامبراطور الإسكندر الكبير).

ولا بأس بالقول: إنه كان في أول ذلك السوق بيت آل الأبيض، ومنهم كانت الشابة ملكة أبيض التي أُوفدت في زمنها إلى بلجيكا، وعادت بإجازة الفلسفة، واقترنت، عند عودتها إلى الوطن عام ١٩٥٠، بالشاعر اللوائي سليمان العيسى. وكان بيتهم على مقربة دانية من بابَي الجامع المتجاورين، الغربي والشمالي، وتحت المئذنة التي تُعدّ من أعظم وأشهر المآذن في العالم الإسلامي. وقد تراءى للجنود المتمركزين فوق القلعة، في أحداث هذا الزمان، أن يستهدفوها بمدافعهم الثقيلة يوم ٢٤ نيسان/ أبريل ٢٠١٣، فكوّموها أنقاضًا!

تعود حكاية الصيّاح الذي تعهّدتُ خراطته، إلى العام ١٩٤٠.

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ٥-١١-٢١٤

أيها الرفيق، اطلب ما تتمنّى

قالوا له أن يجتمع، وهو في العاصمة هناك، بالمبعوث الأميّ القادم إليها غدا، ويُبلغه

بوجهة النظر كذا وكذا. ثمّ، في اللحظة الأخيرة، عدلوا، ووجّهوه بألّا يجتمع وألّا يُبلغ شيئًا! وليس يدري، هذا الديبلوماسيُّ الحصيف، كيف التبس الأمر عليه، فاجتمع، وأبلغ!

تميّزوا غيظًا. استدعَوه. قرّعوه، ثمّ أودعوه المعتقل، وما شَفَع له أنه ممّن تربَّوا في الأحضان مذ كان فتًى يَخُطّ شارباه.

بعد حينٍ رأوا أن يجتمعوا بالمبعوث، ويبلغوه، وزادوا اليوم في قول ما قالوا.

وأما ديبلوماسِيُّنا فتقول الحكاية: إنهم استدعَوه، وتلطّفوا بالقول: «أيها الرفيق! اطلب ما تتمنّى». ولـمّا كان معنيًّا بالثقافة ونِحريرًا فَحِيحا[1]، فقد طلب أن يموّلوا مجلة له يتولّى أمرها في تلك العاصمة الجميلة، ويُنطقها بلسانهم.

و... قضى بقيّة العمر هناك، وهو يُغرّد من داخل السِّرب بأعذب الألحان.

فلوريدا: فجر الخميس ٦-١١-٢٠١٤

نسخة فاخرة من الكتاب المقدس

هل أطلتُ الشرح، وأنا في مكتبة الكتاب المقدس، في ذلك اليوم، من أنّ المساعِدة، التي كانت تتردّد عليّ لتدبير المنزل، المسلمة من أندونيسيا، قد وهبتُها نسخة فاخرة من القرآن الكريم، يوم غادرت وطننا عائدةً إلى بلادها؟ وأني اليوم أريد نسخة من الكتاب المقدس بعهدَيه القديم والجديد، بالإنكليزية، لأقدّمها إلى المساعدة الأخرى، المسيحية من الفيليبين، عشيّة سفرها إلى بلادها؟

رأيتُ عينَي مديرة المكتبة، في شارع العابد بدمشق، تتألقان، وهي تتابع حديثي: «وأريدها نسخة فاخرة أيضًا، حتى تذكُر وطننا بالخير كلما امتدّت يدها إلى هذا السفر الجليل،

---

(١) الفحيح بالعاميّة بمعنى الذكي الشاطر.

يا آنسة!».

فلوريدا: فجر الجمعة ٧-١١-٢٠١٤

نزيف

إذا كان الأسمر ساكن البيت الأبيض

يَنتظر أن يبلغ نزيفُ البشر والحجر

في بلاد الشام

ما كان في هيروشيما

فليعلم أنه قد بلغ...

إلّا إذا كان يريد المزيد؟

فلوريدا: فجر السبت ٨-١١-٢٠١٤

فتى لا يحبّ المطالعة!

كتبُكَ عندي أقرؤها. قرأتُها كلّها. كلما قدّمتَ لي جديدًا قرأتُه فورًا، مع أنه قد يكون سبق لي أن اطلعت على بعضه منشورًا في الدوريّات الثقافية. ولكنّ ابني الحسن لا يقرأ. جيلٌ لا يهوى المطالعة. إنه التلفزيون، الرياضة، الأغاني، و... الأصدقاء!

مرة، يا صديقي، جعلتُ كتابك الأخير، ذا الغلاف الجميل المجلّد، على الطاولة بحيث يراه. تناوله بعناية، وأنا أراقبه، وأخذ يقلّبه.

قلت: «أتعلم أنّ بعضهم تجنّوا على صديقي، وتهجّموا على الكتاب وعلى صاحبه. «!

سأل: «ولماذا؟ »، أثرتُ فضولَه.

قلت: «بسبب جرأته«.

قال: «الجرأة في ماذا؟ «.

قلت: «إن قرأتَ القصة الأولى عرفت«.

ودخل بالكتاب إلى غرفة نومه. لم أر الضوء يُطفأ. قلت في نفسي: قد تورّط. قرعت الباب بإصبعي، فلاحظت أنّ ما قرأ من الكتاب يتجاوز صفحات القصة الأولى.

قال: «ولكنها، يا أبي، جرأة محبّبة، سياسية! عمّو من أنصار حقوق الإنسان! ». ثمّ غضّ طَرْفه، هل هو انشغالٌ بالقراءة، أم استحياءٌ لتقصيره فيها؟ وانسحبتُ بهدوء.

بعد ذلك اليوم صرت أراه، يا صديقي، يمدّ يده إلى المكتبة، يسحب منها كتابا بعد كتاب.

راق لك حديثي عن ابني؟

قلت لصديقي هيثم كواكبي: «لقد كان ابنك يحدّثني على الهاتف كلما فرغ من قراءة كتاب، ويسألني أن أسمّي له كتابًا بعينه ليبدأ بقراءته يوم غده، فكنت أقترح عليه أن يقرأ أعمالي حسب التسلسل الزمني، كي يتعرّف على المراحل التي مررت بها. «

قال: «فولدي يتكوّن ثقافيًّا من وراء ظهري! ولكن لم لم تعلمني بذلك؟ «.

قلت: «لأنك أنت أيضًا لم تحدّثني بما كان يجري عندك في البيت«.

قال: «أراك، يا صديقي، مثل ابني كتومًا. «

قلت: «والفارق أني سوف أكشف عن المستور بخاطرة«.

و... هي ذي الخاطرة، وإن جاءت متأخّرة.

فلوريدا: مساء السبت ٨-١١-٢٠١٤

أنينُ الوطن

آلام الماضي هناك

وجع الحاضر هنا

أتبدّدُ

لولا أن تُمسك بي الكلمات

فلوريدا: فجر الأحد ٩-١١-٢٠١٤

وتمرّ الأيام...

في نهاية كلّ أسبوع، عندما أجلس، وتحت ناظري الحافظة، أُودِع في جيوبها الحبوب:

هذا فيتامين لساعات الصباح، يُنشّط، وهذا مسكّن آخذه قبيل النوم...

يُراودني شعورٌ بأنّ ما قمت به من هذا الفعل قبل أسبوع

كأني أدّيتُه قبل ساعات.

لماذا؟

فلوريدا: مساء الأحد ٩-١١-٢٠١٤

الرجل الأدنى...

عندما يُزري واحدٌ من الناس بشعبه أمام الملأ، واصفًا إيّاه بالتخلّف والانحطاط، متعاميًا عمّا تمارسه الأنظمة من أفانين القهر والسلب والفساد، فإنه يبدو لنا وكأنه يريد أن يقول متنصّلاً:

انظروا

أنا أُزْري بشعبي

إذن فأنا أفضل منهم وأعلى مقامًا

وتعمى بصيرتُه عن أنه

الأدنى

والأحطّ

والأغبى!

فلوريدا: فجر الإثنين ١٠-١١-٢٠١٤

لا تصدّقوا الفنانة الشريفة يارا صبري

إنّ هذه الفلاحة، التي تقدّم لنا، بيديها السخيّتين، الخبز والجبن والحليب، طوال أيام العام، هي متآمرة كونية!

لا تخدعنّكم دموعها التي تذرفها، وهي بعيدة عن بيتها وأرضها، تنام تحت الخيام وتتعرض لعواصف الغربة وتستنشق غبار القهر والفقر!

كذابة هي... والنظام صادق!

ومع ذلك أرى أن يدها هذه، التي تخفي بها وجهها أو تمسح دموعها، تستحق منّا التقبيل.

فلوريدا: فجر الإثنين ١٠-١١-١٤

المطر وعَتمة الغابة

كأني بالمطر قد صبّ جام غضبه بعد انحباس، وهو يقول للساكنين في تخوم الغابة: «خذوا»، ثمّ كفّ، وتراءت لنا شمس الأصيل، في الأفق الغربيّ، شاحبةَ الوجه معنّاة.

كنت أعي جيدا ما يحدث في أعقاب هذا المطر. ولكنهم، الصغارُ الذين أخذوني في المنتجع إلى حيث أَسمَعهم يقولون لي: «أسرع جدّو»، فأزيد في مَرْجَحتهم بالدفع إلى أمام ووراء، فإذا سألتهم أن نعود أجابوني، الطّاعون، بصوت واحد بالإنكليزية: «No» إلى أن جُنّ الليل.

لم تجذبني رائحة الشواء بقدر النداءات المتوالية. وتحلّقنا حول الموائد جالسين على المقاعد، تلك التي قُدّت كلُّها من أخشاب الغابات الثقيلة. وكانت الهوامّ، التي أنعشتها الأمطار حتى لكأنها فَتّقت بيوضَها الغافية، تطير أمام أعيننا رفوفًا رفوفًا. ولحظة بدأ الاحتفال بيوم ميلاد الصغيرات، كانت الأفواه تُغنّي «سنة حلوة يا جميل» والأيدي تحاول أن تطرد أسراب الهوامّ التي لا ترعوي.

وأدركت لحظتها تمامًا لماذا يحرص أهل فلوريدا على أن يُلحِقوا بكلّ فيلاّ من بيوتهم ما يُشبه قفصا مُنخُلِيّا يُخيّم على المسبح المنزلي، يستظلّون به ساعة يريدون أن يستمتعوا بساعة سمر.

وتذكّرت بيوتًا لنا يحلو الجلوس فيها عند الأصيل، حول البِركة، نستمع إلى إيقاع قطرات الماء المتساقطة من علوّ النافورة، ونحن نتملّى النظر من النارِنْجِ المتدلّي وثمار الكبّاد، ونملأ صدورنا من عطر الياسمين، دون أن ينالنا أذى أيّ أذى

نعم، نعم... ولكنّ السماء، هنالك، باتت تُمطر ما هو أمرّ وأدهى!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١١-١١-٢٠١٤

ويكون السَّمَر في بلاد الشام

وإذا كان الجلوس للتسامر، في ربوع فلوريدا، يُلزِم أن يكون داخل الغُرُفات المكيّفة، أو

تحت الأقفاص المُنخليّة، فإنه يكون، في بلاد الشام، في البساتين الغنّاء تحت ظلال الشجر، وأنت تسمع حفيف الأغصان متناغمًا مع أناشيد العنادل والأطيار، أو في أرض الديار، تتوزّع في جَنباتها أُصُصُ الأزهار الملوّنات، أو في شرفات البيوت، وأنت تأخذ فنجان قهوتك المعطّرة بالهال، وتتلقّى وجنتاك الأنسام العليلة، مستنشقًا عبير الياسمين يأتيك من الزَّرِيعات حولك. تسامر محبّيك ولا ينتهي السمر.

هل تعود تلك الأيام؟

فلوريدا: عصر الثلاثاء ١١-١١-٢٠١٤

«ليسقط الوزير الأعمى!»

في الوزارة، التي شكّلها حزب الوفد في العام ١٩٥٠ بعد فوزه الكاسح في آخر انتخابات نيابية في ظلّ الحياة الديمقراطية بمصر، اختار الحزب -الذي يرأسه مصطفى النحاس باشا- عميدَ الأدب العربي طه حسين وزيرًا للمعارف.

ثمّ بدا أنّ الوزير اتخذ بعد حين -وكنت طالبًا في جامعة فؤاد الأول بالقاهرة- إجراءً قانونيًّا لم تَرضَ عنه فئة من الطلبة، فذهبوا إلى الوزارة يهتفون: «ليسقط الوزير الأعمى!»، فردّ عليهم طه حسين: «أحمَد الله على العمى حتى لا أرى وجوهكم! ». وانتهت المسألة عند هذا الحدّ.

أقول: لو أنّ طلابًا خرجوا في حكم البعث بديارنا يهتفون بما هو أقلّ من هذا الهتاف... لزُجّ بهم في المعتقلات، ولم يَعرف أحدٌ شيئًا عن مصائرهم البائسة، بل إنّ خروج مثل هذه المظاهرة يُعدّ من المستحيلات. والممكن هو ذهاب أبناء النظام يهتفون مؤيّدين الإجراء الحكيم المتّخذ.

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٢-١١-٢٠١٤

عمل يتخطّى الزمن معانقًا الخلود

أنت فنانة ثورة الحرية العربية التي أغرقها التواطؤ والدماء. فخور بك، يا ابنتي سهير، يا ابنة حلب الشهباء!

فلوريدا: صباح الأربعاء ١٢-١١-٢١٤

أديبة.. للغد الآتي

حين كنت أهتف لبيته أريد أن أتحدّث إليه، كانت تطلع لي زوجته عفّت، تجيبني بصوت قد نالت منه السِّنون: «أهلا أبو فراس، أبو محمد مو هون، كيفك؟ شلون الكبّادات عندك في الجنينة؟ اصفرّوا؟ ». كانت الجدّة عفّت هاوية لصنع مربّى الكبّاد، تقدّمه لضيوفها وللأحفاد، يساعدني زوجها في قطفه: أنا أشدّ بالمِقطاف الطويل عنق الكبّادة على الشجرة، وهو يحاول أن يتلقّى! ثمّ... أسألها ما أريد من صديقي، فتجيبني، فهي موضع المعرفة والأسرار.

يوم اشتدّ القصف في البلد، ارتحلت هي وزوجها رياض القادري إلى مدينة الرياض، حيث بعض الذريّة هناك يعملون. ولست أدري كيف أصبحت بينهم ومعهم أميّة، التي كان قد صحبها جدّها إليّ يوما طفلةً وفي يمينها قصة ترنو إلى نشرها في مجلة للأطفال! وقد ظلّ يَعِدها بأن يذهب وإيّاها إلى صديقه الكاتب، وهو ذا اليوم فعل.

الحفيدة أميّة اليوم في الرياض. وفي الرياض كانت رحلة الجدّة عفّت الأخيرة. وأميّة أصبحت، في غيابي وبعيدة عن أنظاري، صاحبة صفحة في التواصل الاجتماعي وصاحبة قلم. أمس كتبت تقول بملء إبداعها الذي بدا لي يُضاهي الشعر:

«حينما تتقارب المسافات بين البسمة والدمعة، في الوقت الذي تشتعل فيه نيران الحنين،

عندما تكون هي محور الشوق، لا يبقى للكبرياء مكان..

من امتلكت تلك الروح الاستثنائية، التي حفرت ابتسامتها في الصدور، نظرتها الحنونة، ضحكتها الرقيقة، بلسم لجروح الكون، ترياق للأرواح.

أأبتسم، أم أبكي لتلك الذكريات؟ أيحقّ لقلبي أن يحتفظ بك؟

يا حبيبتي، لن أقول عودي لأنه مستحيل، ولكنني اشتقت لك بصدق. الله يرحمك، يا عِفّو ويجعل مثواكِ الجنّة. تاني عيد ميلاد لك وأنت مو معنا.

بحبّك«

هل أذكر هنا شيئًا ممّا عندي؟

في روايتي ثمّ أزهر الحزن (كتبتها أواخر ١٩٦١ وأوائل ٦٢)، جعلت الابن يواسي أمّه بفقدان أبيه، وقد عادت الأسرة توًّا من الاحتفال بعيد الأمّ، حيث نُصّبت أمّه الأمّ المُثلى، فأخذت تتذكّر الراحل العزيز، يقول يواسيها:

«أوَتحسبين أنه لم يكن معنا هذا المساء، يا أمّاه؟ لقد كانت روحه ترفرف حولنا، وتُوَشوش في آذاننا، وتبارك التكريم. وما دمنا، أبناءه، حولك فهو لم يرحل عنك. إن روحه فينا. نحن أيّاه، يا أمّاه!» (الرواية، ص ٣٩٨، بيروت ١٩٦٣(.

كتبت عباراتي هذه وأنا في الثلاثين أو فوقها. تكتب أميّة عباراتها وهي في العشرين أو دونها. سوف يتحقق توقعي بأن تكون أميّة أديبة مبدعة، وآمل أن تتفوّق على صديق جدّها، هذه الفتاة التي تحمل الاسم الجميل أميّة حُبّي.

أقول: إنّ الأبناء، إنّ المحبّين، إذا ما عبّروا عن حبّهم للراحلين، فإنّ الراحلين ما رحلوا!

فلوريدا: مساء الأربعاء ١٢-١١-٢٠١٤

ولا تموت الذكريات

فاضل السباعي – مجلة بناة المستقبل، العدد ١٣، تشرين الأول ٢٠١٤ صدر متأخرًا

في بيت، يرتفع عن أرض الدار بثلاث درجات ورابعةٍ عبر العتبة، اكتحلت بالنور عيناه. وكان على باب تلك الغرفة ياسمينةٌ من يمين وشجرة نارنج من يسار. وفي أرض الدار أحواض، أجمل ما فيها شُجيرة العَسَليّة، المتفرّعة بغزارة، تملأ في شهر نيسان الفضاء عطرًا أخّاذا، غُصيناتٌ رفيعات، مثل حبال من حرير، مبسوطةٌ هكذا، تنتظم أزهارًا مرصوفة على جانبَي كلّ غُصين، يتعانق فيها اللون الأبيض مع العسليّ المتدرّج (سُمّيت في حلب العسليّة وفي دمشق الياسمين العَرَاتْلي لشبه زهراتها بالرُّتَيْلاء).

كانت الجدّة، الحجّة خديجة، المولعة بالزهر والنبات، تمارس هوايتها: تتفقّد أولادها عصر كلّ يوم، بادئةً جولتها من حول البِركة (البَحْرة، الفُسقيّة)، التي اصطفّت على حوافّها الأُصُص، يتماوج فيها الأخضر والأحمر والأصفر وكلّ الألوان، تسحب بأصابعها المعروقة ما جفّ وذبُل، نابشةً التربة بقضيب، ثمّ تنادي حفيدها البكر بين الأحفاد، أن يأتي بالماء يَسقي، فيذهب إلى حيث الطُّرُمْبَة، يأخذ ذراعها الطويلة، يضخّ إلى أن يمتلئ سطل التوتياء الثقيل، فيحمله، ويَسقي، ثمّ يتلقّى من الجدّة: «الزرعات تدعو لك! »، فيتراءى له أنّ عرقه قد جفّ وأنّ العناء زال.

في البركة، الممتلئة من ماء القناة الجارية بين البيوت عبر قساطل من فخّار، كانوا، في الصيف وهم ساهرون في الليوان (غرفة وسيعة بثلاثة جدران دون الرابع)، يُلقون بالجَبَسة في مائها كي تبترد (لم يكونوا قد عرفوا البرّاد في ثلاثينيات القرن الماضي)، فيقوم هو يدفع الجبسة بأنملته الصغيرة، فتغرق، ثمّ تطفو وتمخُر في الماء مثل قارب في بحيرة، قبل أن تتناولها أيادي نسوة الدار، بالكسر والتحزيز والتفريم، فيبلّوا بها حلوقهم، ويقولوا: الحمد لله ربّ العالمين!

يخرج يلعب في الحارة مع أترابه، حجارة يرمونها بحذاقة، وكِعابًا من عظم، وقفزًا على الظهور... يتوجّهون إلى الجامع الأموي يصلّون، وبغفلة من حرّاسه يتراكضون.

وليس ينسى الطفل يوم صحبتْه أمّه، صباح يوم، راغبةً في أن تسجّله في مدرسة الحيّ. يقول لها مدير المدرسة: «ابنك صغير لم يكمل الخمس سنوات، يا أختي، نسجله لك في العام القادم»، فتردّ عليه: «ولكن نحن جيران، يا أمين أفندي، دكان أبوك الكَرَسْتَهْ جي في راس الحارة! ». وتسحبه من يده وتخرج به، منقادًا لأمّ مهزومة لكن بدت له شجاعة وهي تناضل من أجله!

ثمّ إنه قُدّر لهم أن يغادروا هذه الدار، وهو لمّا يبلغ سنّ الفتوة، إلى حيّ حديث، لكن ما كان للبيت الذي ولد فيه، للدار التي ركض في أرجائها، لسطل التوتياء الثقيل، للزقاق الذي لعب فيه مع أترابه، أن يخرج من خاطره!

كان يشتاق للزقاق، فيأتيه، يمشي فيه، يدور في منعطفاته، يجوس في أنحائه: هنا بيت الصديق الذي لا أنسى مودّته! هنا بيت من تعاركت معه مرة ثمّ عدنا أكثر ودّا! وهذا بيت الصبيّة رفيقة أختي التي ألجأها أهلها إلى ترك المدرسة منذ حجّبوها! وهناك بيت حضر فيه مع أمّه وأخته حفلة زفاف، رأى فيها العروس بزيّها الأبيض وهي تتعلّق بذراع عريسها، والزغاريد تعلو.

ذكرياتٌ وذكريات، وتلالٌ من أشواق وآكامٌ من حنين.

إلى أن جاء زمن التجارة، فكانت هجمةٌ على الزقاق، وإنه لقريب من الأسواق التجارية. «كم تظنّ بيتك يساوي؟ خذ ضعف ثمنه وارحل».

ويتحوّل الزقاق، في غفلة من الزمن، إلى أسواق: إطلالات البيوت أصبحت محالّ تجارية، وما وراءها مخازنَ ومستودعات. والبِرَك أُزيلت، واجتُثّت أشجار النّارِنْج والياسمين

والعسليّة... وفضاءات العطر الأخّاذ احتلّتها رائحة عفنِ البضائع المتكدّسة.

ولم يعد باقياً إلّا الذكريات.

الذكريات؟!

يوم هبّ الناس يطالبون بالحريات المفتقدة، أصبح يُلقى القبض على أحدهم، وفي التعذيب يُصرخ به: «بدّك حريّة؟ اي خودْ حريّة».

وشاع، مع القتل، الدمار.

وأولئك، الذين يَعْتَلون سطح القلعة، جعلوا يُمطرون العمائر تحت أبصارهم بما في أيديهم من آلة دمار. وضُرب الزهراوي، ولعبت النار في محالّه ومستودعاته، وأصبح المكان، الذي كان يومًا بيوتًا آهلة وأسواقًا تتزاحم فيها المناكب، أثرًا بعد عين.

وجفّت المآقي. ما بقي هو الذكرى... وهل تموت الذكريات؟

- -

فلوريدا: فجر الخميس ١٣-١١-٢٠١٤

هل اسمه على الحدود؟

قبل الانتفاضة، كان الأهل، إذا تقدّم شابّ يطلب بد ابنتهم، جَدّوا في السؤال عن أخلاقه، مؤهّلاته العلمية، عمله؟

اليوم يسألون:

هل هو من الموالاة، أو من المعارضة؟ فإن كان مقيمًا في الخارج، سألوا: هل اسمه على الحدود؟ وأخيرا: هل جواز سفره غير منتهي الصلاحية؟!

فلوريدا: فجر الجمعة ١٤-١١-٢٠١٤

«احذف تعليقك عندي، من فضلك!»

من مفارقات هذا الزمن الفيسبوكي أن يلتمس منك صديقُك المقيم في بلد ما، وأنت في مغترب آخر، أن تحذف تعليقك الذي نزّلتَ في صفحته، لأنه... ينوي أن يزور الوطن!

فلوريدا: صباح الجمعة ١٤-١١-٢٠١٤

مَن يُوَرّث مَن!

عرفتُه، منذ عهد الولدنة (في أربعينيات القرن الماضي)، جارًا لنا في حيّ الجميلية بحلب، تتّخذ أسرته مسكنًا لها ذلك البيت المخصّص لـ قائد فصيل الدّرَك في المحافظة. وكان هو وأخوه تلميذين في ثانوية المأمون (التجهيز الأولى) المجاورة لبيتَينا. وأعرف أنّ الأسرة من الطائفة العلوية، وربما من الأسر التي غادرت لواء الإسكندرون بُعَيدَ إلحاقه بتركيا. ثمّ إنّ الأيام دارت، فأصبح هو قاضيًا مرموقا وتسنّم رئاسة إحدى أكبر المؤسسات القضائية، وغدا شقيقه في عداد ضباط الجيش المرموقين.

غداة اغتيال الزعيم اللبناني رفيق الحريري في بيروت يوم ١٤ شباط ٢٠٠٥، وكنا نحن عددًا من أصدقاء التجهيز بحلب المقيمين بدمشق، قد جرينا -في سنّ الكهولة والشيخوخة- على أن نجتمع في كلّ شهر في نادي الصحافيين بالعفيف بدمشق، حول مائدة نتقاسم فاتورتها، لم يكن بدّ من أن نتحدّث في واقعة الاغتيال هذه، أن تمتدّ يد الغدر لتقتل زعيما في وطنه ثمّ يقول الفاعلون: «مو نحن! هيّه عدوّتنا إسرائيل! »، وما كان لأحد من الأصدقاء أن يتهمّم لمجادلته، وهو يُبرئ ساحة من ينتمي إليهم ويَدين لهم بالمنصب والجاه إلّا خَيّكم، يناقش، ثمّ يتحمّل -ساعة انفضاض السهرة- معاتبة الأصدقاء الخائفين عليه من الزجّ في سجون الاعتقال!

ومرة... في دفاع صديقنا أو في تهجّمه سيّان، أخذ يُندّد بزعماء لبنان، أولئك الذين يورّث كلّ منهم زعامته لابنه من بعده، والكلّ ساكت. ومع صحّة الانتقاد، لم أتمالك نفسي من القول: «ولكن، يا صديقي، ألا ترى أن تنديدك بالتوريث يَدين أولًا مَن تنطق باسمهم؟! »، فرأيناه يسكت، ويلتزم الصمت، وكأنه فطن اللحظة إلى ما لم يكن يدور في خاطره من قبل!

في نهاية السهرة، ألوى عليّ بعضهم: «لَكْ، يا فاضل! كيف بتقول هيك كلام! توريث وما توريث! ما بتخاف على حالك! ».

وأما صديقنا، فقد غاب عن سهراتنا منذ تلك الليلة، وما عاد يحضر أبدا.

فلوريدا: فجر السبت ١٥-١١-٢٠١٤

احمل ماءك وتعال!

في السهرات الحميمة، تلك التي يتخلّلها طعامٌ، تأتي إليها كلُّ أسرة وهي تحمل مآكل متّفقًا على صنفها وكميتها أو متروكا لحاملها الاختيار، فتتشكّل من ذلك مائدةٌ متنوّعة الأصناف والألوان، يتحلّق حولها الطاعمون يُكملون بتناولها سهرتهم الممتعة.

في حلب اليوم... أصبح مطلوبًا في هذه السهرات أن يأتي كلّ قادم وهو يحمل مع الطعام شيئًا من الماء، نعم الماء، ليس للشرب فقط، ولكن أيضًا لغسل الصحون المتخلّفة عن المائدة، بسبب انقطاع المياه عن البيوت أيامًا قد تبلغ الأسبوع أو تزيد!

فلوريدا: فجر الإثنين ١٧-١١-٢٠١٤

شهادة في الوطن، موت وراء الحدود، ذهاب إلى الشتات

أمعقول أن النظام أراد هذا!

* الدكتور عمران رسلان، توفي هو وزوجته وبناته الثلاث

* الدكتور مصطفى الدقاق، توفي هو وزوجته وأولاده الشباب

* الدكتور سامي السيد محمود، توفي هو وزوجته وأطفاله وبقي ولده له

أكاديميو الوطن، هل قتلتهم المؤامرة الكونية؟

من لم تنزف منّا جراحه، فقلبه ينزف ألما.

فلوريدا: صباح الإثنين ١٧-١١-٢٠١٤

البيت، الوطن الأول!

رأوها، على ضوء شمعة، متدثّرةً في سريرها، تشكو أوجاعا في الظهر، والبردُ قارس. وهناك الصحون مطبّقةٌ في المَجلى، فالماء ما زال مقطوعا منذ أيام.

عرضوا عليها أن يصحبوها إلى بيت أحدهم، إحداهنّ، وهمّوا، فأجابتهم: «أريد أن أموت في بيتي».

هذا في حلب اليوم، وفي كل بيت من بيوت الوطن.

فلوريدا: ضحى الإثنين ١٧-١١-٢٠١٤

الجامع الكبير بحلب

عندما شرع الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ببناء الجامع الكبير بدمشق، تهمّم أخوه سليمان بن عبد الملك العامل على حلب، بأن يبني على أرض البستان الواقع أمام كنيسة القديسة هيلانة جامعا موازيا.

في الأحداث الأخيرة دُمّرت جوانب من هذا الجامع وأحرقت جوانب أخرى، وذلك في أوائل العام ٢٠١٣. وأما المئذنة فقد تولاها الجنود المرابطون فوق القلعة المطلة، وتداولوها

بالرمي، يوم الأربعاء ٢٤ من نيسان العام نفسه، حتى جعلوها أنقاضا!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٨-١١-٢٠١٤

«قوموا، أيها الموتى.. خَلَص التصوير!»

يجد المتصفّح أدناه (تحت عنوان: إعلام يملك من الـ...)، فيديو يروي واقعة كانت تُنقل على الهواء عقب تمامها، قام بها إرهابيون لدى اقتحامهم مبنى النفوس بحلب، قَتلوا وقُتل منهم عدد، ونرى الجثث مطروحةً على الأرض ومتدحرجة على الدرج، ونسمع في المقابلة اعترافات يتلقّاها مذيع بدا لنا في الأخير غير فَطِن على نحو ما ينبغي!

فبعد انتهاء المشهد، ظلّ البثّ بالخطأ يعمل، فنسمع المذيع يُهيب بالجثث: «قوموا شباب، خَلَص التصوير!»، فينهض الضحايا وهم يضحكون، ونضحك نحن على ما يجري في الوطن ضحكًا كالبكا.

ذكّرني ما رأيت بما كان رواه لي صديق في أوائل الثمانينيات، من أنهم جاؤوا إليه، وإلى زملائه في ورشة عملهم التجميلية، بثلاثة شبّان، وطلبوا منهم أن يعملوا على تشويه وجوههم إخفاء لمعالمها الأصلية، فكانوا كلما شوّهوا قيل لهم: أكثر وأكثر، إمعانًا في التمويه!

ثمّ كان أن تأتّى لي ولصاحبي ولكلّ المشاهدين، أن نحظى بلقاء تلفزيوني، ظهر فيه هؤلاء الشبان المزيّفون، بصورة مخرّبين كانوا قد أُعِدّوا لتنفيذ مهمّة إجرامية من قبل الناقمين على النظام يومذاك، لولا أنّ ضميرهم صحا، وبدلًا من الذهاب للتنفيذ توجّهوا إلى الأمن. وها هم أولاء يعترفون!

يومئذ سألت صاحبي فأجاب: «أمسيت إذا ما التقيت واحدا من هؤلاء في مكان، يبتسم لي ويضحك، وأجاريه متذكّرا ما جنت يداي».

وأتساءل من ناحيتي: إنهم يقيمون الدورات التدريبية للأمنيّين لانتزاع المعلومات من المعتقلين بكلّ وسيلة، صحيحةً أو مزيّفة. طيّب، أفلا يقيمون دورات يعلّمون فيها الإعلاميّين أيضا أداء الدور!

فلوريدا: عصر الثلاثاء ١٨-١١-٢٠١٤

«احذفْها، عين عمتك، حتى أعرف أنام «!

كان يعرف ما تعانيه عمّته سلمى، في الوطن، من آلام تجرّعتْها أمام الفظاعات والأهوال، حتى ليُخيّل إليه أنّ دعواتها عليهم في صلواتها الصامتة، تبلغ سمعه عبر المسافات البعيدة، ولكنها تتحاشى أن تلفظ كلمةً واحدة في حقّهم، أو أن تقرأ، أو تسمع، من خوف عندها تغلغل حتى الأعماق.

فكيف تراءى له، في تلك الليلة، أن يُعابثها بأن يُنزّل خاطرةً من خواطره الثقيلة في صفحتها، التي بصعوبة تتعامل معها، ما جعلها تنهض إلى الهاتف تترجّاه: «احذفْها، عين عمتك، أنا ما بعرف، امسحْها، امحيها، تقبرني، حتى أعرف أنام».

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ١٩-١١-٢٠١٤

عن الدين والمذهب

في العام الدراسي ١٩٤٤-٤٥، كان بيننا في الصف في ثانوية المأمون بحلب، طالبان في القسم الداخلي من المقيمين في المدرسة، هما من الساحل السوري، ما كنا نعرف إلا أنهما غادرا قريتيهما للدراسة، فهما يتحمّلان مشقة لا نعانيها نحن أبناء حلب، فيزداد تقديرنا لهما، وكانا من المتفوقين في الدراسة.

فيما بعد، التقيت بهما في دمشق واحدا بعد الآخر، فعرفت أنّ أحدهما من أبناء الطائفة

الإسماعيلية، وقد غدا مدرسا للعربية في بلدته مصياف، والآخر مسيحي، وقد غدا أستاذا بكلية الهندسة بجامعة دمشق.

أقول: ما كان يخطر في بالنا أن نسأل عن الدين والمذهب. وحُكمُ البعث، بتمييزه، ألجأنا إلى طرح هذه الأسئلة، ثمّ جاء يتّهمنا بالطائفية، وبأنّ الأكثرية ستفعل كذا وكذا بالأقليّات. يا عيب الشوم!

فلوريدا: عصر الأربعاء ١٩-١١-٢٠١٤

أحبّاؤنا، أبناء اللواء

يوم جاء الشاعر سليمان العيسى إلى حلب، متخرّجا في كلية الآداب بجامعة بغداد، أواخر أربعينيات القرن الماضي، ليدرّس الأدب العربي في ثانوية المأمون، أذكر أننا التففنا حوله -نحن طلاب المدرسة- ومنحناه حبّنا وتقديرنا، لسببين: أولهما أنه الشاعر الشاب، الذي يرسل شعره القومي إبداعًا وإلقاء، وثانيهما أنه ابن لواء الإسكندرون، الذي كان قد فُصل عن سورية قبل ذلك اليوم بعشر سنين. وما كان يخطر في بال أحد منّا أو يعنيه أن يسأل، أو أن يعرف، ما إذا كان من الطائفة العلوية أو لم يكن.

ويجدر بي أن أشير هنا إلى مدى التعاطف الممنوح لأبناء اللواء، الذين تبيّن لنا فيما بعد أنّ النازحين منه إلى الوطن الأمّ كانوا ينتمون جميعا إلى هذه الطائفة تحديدًا، وقد دخلوا في حياتنا فهم جزء لا يتجزّأ من النسيج الاجتماعي، وتزوجوا حلبيات، ومنهم الشاعر سليمان نفسه.

ولعلّ أول هؤلاء، أو أبرزهم، زكي الأرسوزي، أحد مؤسسي حزب البعث (وكان للحزب اسم آخر مقترَح: حركة الإحياء العربي)، وليس آخرهم أدهم مصطفى الذي علّمني الجغرافيا في سنة البكالوريا (أصبح فيما بعد سياسيا مرموقا)، وابن أخيه زهير مصطفى مدرّس

اللغة الإنكليزية الذي عاد من بغداد متأخرا سنوات. أقول: جامعة بغداد، لأن الدولة العراقية الشقيقة كانت قد خصصت عقب ذهاب اللواء منحًا لأبناء اللواء يدرسون هناك على نفقة الحكومة (كما حدثني بذلك زهير مصطفى عام ١٩٥٥، الذي نكون أنا وهو بمنزلة عديلين، فالزوجتان بنات عمّ!).

أقول: وابن زهير، اليوم، هو الدكتور عماد مصطفى سفيرنا في واشنطن بالأمس ثمّ في الصين، وأمّه عائدة كيالي، من أحفاد المفكر الكبير عبد الرحمن الكواكبي.

وإنّ لي ذكريات مع الشاعر سليمان العيسى، آتي عليها لاحقًا.

فلوريدا: فجر الخميس ٢٠-١١-٢٠١٤

أمومة مبكّرة!

وتبكي الطفلة بكاء مرّا

وهي تعانق أخاها الصغير

تحبّه كثيرا

ولا تريده أن يكبَرَ

حتى لا يقتلَه الشبّيحة

أو يُخطَفَ في الطريق

ويؤخذَ إلى الجيش

فيقتلَه الثوّار!

منقول بتصرّف.

فلوريدا: فجر الجمعة ٢١-١١-٢٠١٤

وكان الحاكم ظالما

لسوف يروي التاريخ أنّ ما اقترفته الديكتاتوريات المجيدة، بعد خلع الحاكم الفاسد، يفوق بما لا يقاس، ما زعموه، من أنه كان واحدًا من الظالمين

فلوريدا: صباح الجمعة ٢١-١١-٢٠١٤

ماسة.. وماسة..

بدمع العين ربّت ماسة، مدرّسةُ العربية بدمشق، أبناءها الثلاثة، في غياب الأب الذي قُدِّر له أن يرحل وهو في ريعان الشباب.

ساح ابنها الأكبر في العالم طبيبًا، واستقرّ في العالم الجديد. وتبعه ابنها الثاني، طبيبا، إلى قارّة أقرب، تلك التي تقع فيها عاصمة النور، ولكنّ الثالث، المهندس، لم يغادر البلد حين تزوج، واتخذ بيتا قريبا.

وانتاب ماسة حزنٌ عميق: ما بالهم يتركونني واحدا بعد الآخر! ولكنها عالجت نفسها بإحدى أبجديات الحياة: أنا أخذت رجلا من بين أهله، وهنّ يأخذن مني أولادي، لماذا الزعل؟

درج ابنها على أن يأتي إليها عند انصرافه من عمله كل يوم، يُقبّل اليدين والوجنتين، ويتَرَضّى، ثمّ يتوجّه إلى زوجته الحبيبة. وحرص، هو وزوجته يوم رزقا بالمولودة الأولى، على أن يسمّياها ماسة، فغدا في الأسرة ماستان.

وجاءت الحرب العاصفة، التي جعلت المهندس يَخرج من وطنه، مصحوبًا بالزوجة وبالماستين، إلى الخليج.

وليس يُسعِد ماسة، الكبيرة، أنها تتنقّل بين قارّات ثلاث.

إنّ جلستها، صباحا ومساء، في شرفة بيتها، وفنجان قهوتها في يدها، تعانقها رائحة الياسمين، هي عندها أغلى من القارات الثلاث.

تنتظر العودة، وتتمنّى ألّا يطول الانتظار!

فلوريدا: فجر السبت ٢٢-١١-٢٠١٤

غواية الذاكرة

في الخاطرة، التي نشرتها أمس بعنوان "يوم اقتادوني إلى السجن"، أشرت إلى أنّ الشاب، الذي أقلّني وبعضَ الأستاذة الجامعيين ممن لم يتخلّوا عني، بسيارة إلى فرع الأمن (وكان واحدا من المناوبين تلك الليلة في فرع الحزب بالجامعة)، قد حدّثني، حدّثنا -ونحن في الطريق- بأنّ بيني وبين أبيه (ع. جنيدي) صداقة.

اليوم، محادثة استغرقت نحو ساعة بيني وبين ذلك الابن نضال جنيدي (وهو من الأصدقاء في الشبكة)، يؤكد لي، برهافة حسّه، أنه لا يذكر من ذلك الأمر شيئًا، وأنه لو كان حصل لكان تذكّر، فمثل تلك الحادثة والحديث ليسا مما يُنسى!

ومع المفاجأة التي حلّت بـ نضال (وأظنه تجاوز اليوم الستين من عمره)، وفي الحيرة التي وجدت نفسي فيها، أقول: حسبي الله، وليس غياب ذلك عن ذاكرته ينفي ما أعرف تفاصيله الدقيقة. ولكني أذكر لأبيه، الأديب عبد القادر جنيدي، النازل من حمص إلى حلب قاطنا فيها في أوائل الستينيات، يدا بيضاء: أنه أعدّ ملفّا زاخرا بالمعرفة والإعلام عن أدب حلب وأدبائها، عمل على نشره في عدد خاص من مجلة حمصية هي الخمائل، صدر في بحر عام ١٩٦٥.

وأقول: إنّ تلك الواقعة كانت في مساء الإثنين ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٠، وأضيف غير متعجّب: ألَا ما أبعد اليوم الذي استحضرتْه الذاكرة! وما أبعد الوطن تفصلني

عنه بحارٌ ومحيطات!

ولكنه الألم الثاوي في أعماق النفس! لكنه الوطن، الذي لا يُغادِرنا وإن غادرْناه! وأيضا هي غواية الذاكرة والذكريات!

فلوريدا: عصر السبت ٢٢-١١-٢٠١٤

في ثانوية معاوية، مدرّس العلوم الوسيم!

لاحظت مديرة الثانوية أنّ المدرّس، الذي أرسلته مديرية التربية إلى مدرستها، كانت الطالبات -لحظة يغادر المبنى مجتازًا الباحة للانصراف- يتحلّقنَ حوله، ويطرحنَ عليه من الأسئلة ما يضطرّه إلى التوقّف خطوةً بعد خطوة، حتى إنه لا يبلغ الباب المفضي إلى الرصيف إلّا بشقّ النفس، أو برضاها!

وما كان ليغيب عن المديرة أنّ ما يجعل الطالبات يتمادينَ في أسئلتهنّ المجانية، وسامةٌ في هذا المدرّس وشبابٌ ريّان، فأسرعت تكتب إلى مديرية التربية، فسُحب فورًا واستعيض عنه بآخر لم تأتِني أوصافُه.

المدرسة ثانوية معاوية. الزمن مطلع العام الدراسي ١٩٥٥-٥٦. المدرس الشاب منير حكيم. والمديرة أسّوس زْهير.

وإنّ عندي ما أقوله عن هذه المربية القديرة، التي كان والدها (أو جدّها) تاجر اللؤلؤ، العراقي من البصرة من بني زهير، قد نزل حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وسكن الحارة التي تقع شماليّ الجامع الأموي، وتزوج من إحدى بنات الأسر فيها (هي عمّة الدكتور هشام السباعي، أمدّ الله في عمره). وقد بنى في الحارة وشيّد، حتى سمّيت باسمه محرّفًا زقاق الزهراوي، الذي اكتحلتْ في بيت من بيوته عيناي بالنور، قبل أن يحوّله التجار إلى سوق

الزهراوي. وما أدري حاله اليوم، بعد الخراب والحريق اللذين حلاّ بما يصاقب سوق المدينة الشهير والجامع العظيم الذي تهمّم في بنائه سليمان بن عبد الملك قبل أن يصبح خليفة.

فلوريدا: فجر الأحد ٢٣-١١-٢٠١٤

سَرْسَريّة، وشبّيحة، وإرهابيون

ضجّ الناس من الرِّشوة تُفرض عليهم من قبل أصحاب الامتيازات والفروع، فرأت المقامات أن توفد مسؤولًا إلى كل بلد، تمنحه كامل الصلاحية لقمع الفساد وإيقاف سيل الرِّشا المنهمر.

في ظلّ هذا الإجراء الحكيم، وصل إلى المدينة واحد من هؤلاء، فبادر إلى الإبلاغ والتعميم باثًّا الخوف في نفوس المرتشين بمقدار ما أشاع الاطمئنان في صدور الراشين. ولكن هذا المسؤول ما لبث أن انجرف، واستعذب، وزاد في ابتزاز الناس، مقتسمًا مع السابقين الغلاّت.

أذكر ما كنت قرأت في كتب التاريخ من أنّ السلطان العثماني كان يعيّن أفرادا يسمَّون الشَّلايتيّة (واحدهم شَلّيتي)، يجوبون الأسواق لمراقبة الأسعار فلا يغلو فيها الباعة والتجار، فتبيّن أنهم قد انحدروا، وأقبلوا على الرِّشا لا يتورّعون، فعمد السلطان إلى تعيين مراقبين عليهم، سمّي الواحد منهم سرسري، ومُنح الصلاحيات، ولكنّ السرسرية انحدروا وانغمسوا!

في المقارنة بين النظام العثماني وبين ما استُحدث في زمننا، نرى أنّ الشَّلّيتة والسرسرية كان موكولًا إليهم مراقبة الأسعار فحسب، ولكنّ المُحدَثين فينا تجاوزوا الأسعار إلى الأفكار، والأسرار، والأعمار التي أصبحت في أياديهم.

وإذا كان معنى كلمتَي الشّلّيتة والسرسرية قد انحطّ حتى بتنا نسمع بيننا من يشتم الأوغاد

بقوله: «هدول شويّة سرسريّة»، -وقد اتفق لي، وأنا أستقلّ الترامواي يوما في بيروت قبل ستين عاما، أن سمعت من يشتم بقوله «هـ الأخو الشُّليطَة! » بالطاء، فظننتها، لقصور في معرفتي السوقيّة، أنها تحريف لـ الشرطوطة- أقول: فإننا اليوم صرنا نطلق على معذّبينا الشبّيحة، وهم يسمّوننا إرهابيين!

فلوريدا: صباح الإثنين ٢٤-١١-٢٠١٤

والله، يا عين التّيتة، أعرف كلّ شيء!

كانت كلما عاد الأحفاد من المدرسة، جاءتها هذه المتوسطة بينهم في العمر، فتحدّثها: «تيتة! إنهم يقتلون الأطفال بالبراميل! »، وتنقل إليها أحاديث يتناقلها الأولاد في المدرسة بعيدًا عن أسماع المعلمات والإدارة.

إنها لا تعرف كيف تبرّر فعل النظام، وهي التي تحزّبت في سنّ اليفاع، وتربّت على شعاراته، في القومية، والاشتراكية... والحرية أيضا، وقدّموها مديرةً لمدرسة مرموقة، كانت تنحاز فيها للحزبيّات مستفزّةً مشاعر الأخريات، ثمّ ندبوها ديبلوماسية في سفارة ملحقًا ثقافيا. ويوم عادت إلى الوطن ما بخلوا عليها بالتمديد عامًا بعد عام حتى سنّ السبعين!

تتنهّد، وتردّد في نفسها ما لا تستطيع أن تبوح به للأحفاد، أنّ لكلّ واحد هناك إضبارةً سريّة، تحتوي على تقارير حول السَّقطات التي ارتكبها، حتى إذا ما سوّلت له نفسه أن يقول، فتحوها ولوّحوا.

نحن أسرى، يا حفيدتي، وأنتم لا تعلمون!

ولم تكن الصغيرة حفيدةً لها، بل لشقيقتها التي لم تعمل في الشأن العام. وأما هي فقد نسيت، في انغماسها، أن تتزوج. هي تزوجت الحزب، تزوجت القضية!

نعم، نعم، يا عين التّيتة، والله أنا أعرف كلّ شيء، ولكني لا أستطيع الكلام!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٥-١١-٢٠١٤

مكالمة هاتفية عند الفجر

ولـمّا صحا مؤرَّقًا أخذ الهاتف يقول:

يعني... هذا النظام، الذي ما زلنا ندعمه حتى سوّدَ وجهَنا أمام العالم، لقد مضت ثلاث سنين ودَخلنا في الرابعة، وهو لم يزل يقمع المعارضين، الذين سمّاهم إرهابيين ووافقناه، دون أن يستطيع القضاء عليهم!

وما بال هؤلاء المتشدّدين عنده، يسيطرون ويَقصّون الرقاب!

قل لي، يا لافروف يا وزير خارجيتي.

فلوريدا: عصر الثلاثاء ٢٥-١١-٢١٤

الذين تزوّجوا القضية!

كان هناك طالب، في ثانوية المأمون بحلب (في الصف الحادي عشر، العام ١٩٦٦)، قد رافق يومًا رجال الأمن، متنقّلاً بهم بين الصفوف، يخبرهم عن زملائه الطلاب، فيساقون إلى المجهول، فسمّوه في المدرسة ساخرين: الطالب الذي تزوج الحزب، تزوج القضية! نعم. ومدير الثانوية، الذي لم يعترض بكلمة على انتهاك حرمة المدرسة، ونام ليلته قرير العين مرتاح الوجدان.

تذكّرت، وأنا أقرأ هذا، الليلة الأولى من اعتقالي (٢٢ كانون الأول ١٩٨٠) التي قضيتها في زنزانة معتمة، وقد دخل عليّ فيها طفلان هما من تلاميذ الإعدادي، كانا -كما رويا- قضيا نحو أربعين ساعة في قبو بارد، معصوبَي الأعين، حتى كادا من الضيق والألم أن يبلغا حدّ

الجنون، وسعدا بأن جلسا معي يحدّثاني عن مدير مدرستهما الذي كان يرافق رجال الأمن، ويدلّهم على سبعة من تلاميذه وهم في صفوفهم، فهذا متزوج آخر من القضية! ثمّ دخل بعدهما اثنان من طلاب جامعة حلب، أحدهما من الساحل يدرس الهندسة، والآخر يدرس الأدب الإنكليزي من السلميّة، محافظة حماة!

وتناوبنا، تلك الليلة، النوم على فراش ضئيل من الإسفنج، مشبع بالوساخة!

بعدئذ قلت في إذاعة أجنبية ناطقة بالعربية: «لكأنهم يريدون لسجين الرأي أن يموت من القهر والبرد والجراثيم».

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٦-١١-٢٠١٤

رجل منطقي جدا!

ويقول لي بملء فمه: صحيح أنا حزبي، وحزبي قديم، لكني لا أؤيّد النظام في أفعاله الهمجيّة!

فأقول له: لا تؤيّده، كثّر الله خيرك، وتتولّى الوظائف. وعندما ترغب في العمل خارج البلد يكون لك ما تريد.

وبعد أن تبلغ الستين يمدّدون لك بأريحيّة، ويحرمون مواطنا شابّا من أن يحلّ محلّك.

ويوم تترك الوظيفة، الثابتة، تكون قد أمّنت لنفسك عملا في ظلّهم تستمرّ فيه بجني الأرباح والتمتّع بالنفوذ.

ثمّ تأتيني، في آخر عمرك، لتُسمعني قولَك: صحيح أنا حزبي، وعتيق، لكني لا أؤيّد ولا أرضى.

فعلا أنت رجل منطقي، ومواطن صالح جدا!

ضحى الأربعاء ٢٦-١١-٢٠١٤

إنه الحنين، أيها الأصدقاء

أحدّثكم عمّا فعلت هذا المساء:

في النهار أمطرت السماء سيولًا صحبتْها بروقٌ ورعود. قلت: راحت عليّ السيرانة[١] هذا المساء. ولكنها -كما يحدث غالبًا- صَحَت، والشمس استأنفت إرسال أشعتها الواهنة إلى قمم أشجار الغابة، متسللةً إلى البيوت من نوافذها الضيقة.

لحظة أغلقت الباب، شعرت بلسعة برد، فعدت لأُسمِّك ملبسي، وتناولت اللَفْحة أطوقّ بها عنقي، ومضيت أسير الهوينى في طرقات الضاحية الوادعة.

هل أصف لكم الرصيف الذي أخطو فوقه؟ إنّ الأرصفة هنا ليست كما هي عندنا، تبتعد هنا عن الطريق مسافةً صغيرة، تُصبّ أرضها بلاطاتٍ من الإسمنت في مواضعها بعد تمهيد، العرض متر أو نحو ذلك، والأطوال مختلفات، يحفّها من الجانبين المرج الذي لا تزول خضرته، فهنا مطر وشمس ورطوبة.

لففت رأسي باللفحة اتّقاءً. لا أحد هنا يُحدّق في وجه أحد. ولكن يُخيّل إليّ أنهم باتوا يعرفون هذا الغريب في ضاحيتهم، من هيئته، ملبسه، مشيته الوئيدة، وتوقّفه والتلفُّت!

أطللت على مجرى الماء، المحتفَرِ لاستيعاب سيول الأمطار المنهمرة، أنظر هل الماء يجري أو أنه راكد؟ ليس هذا فضولًا مني، أيها الأصدقاء، كما كتب الفرنسي مونتيسكيو في رسائله الفارسية عن أهل الشرق. لا. إنه استطلاع. أحبّ أن أتعرّف. لا أزعج في ذا أحدا.

هنا، في فِناء هذه الفيلاّ، جسمٌ مستلقٍ على المرج. لعبةٌ كبيرة، هي دُبٌّ قد استَثقل ما حمّلوه

---

(١) النزهة.

من أشكال وألوان فاختلّ، وسقط إلى الوراء ينتظر أن يجيئوا يرفعونه. شجرةٌ هناك، مائلة، قد ضَرب صاحبها في الأرض وتَدَينِ وشدّها إليهما بأمراس، يريد أن يُقيمها.

وتذكّرت، وأنا أتابع جولتي، جارَنا في حارة نوري باشا، الذي طعنتْ به السنّ فالتزم بيته. ذات مساء رأيته، بدا لي كمن تحامل على نفسه، فنزل إلى الشارع. إنه يقف على الناصية، يمعن النظر إلى ما طرأ من تغيّرات: ذلك الباب، تلك النوافذ تغيّر لونها، لافتة جديدة عُلّقت... يُطيل النظر، يتأمّل، فكأنه يودّع الحارة والحياة.

يتراءى لي، اليوم، أني آتي فعله، لكن بعيدًا عن الوطن. كنت، هنالك، أخرج من بيتي ساعة الأصيل. أنحدر في شارع صغير يُفضي إلى ضفّة نهر تورا.

أتابع حتى ساحة أبي العلاء المعرّي. أسير في شارع أبو رمّانة. أدخل حديقة ابن سينا (حديقة المدفع). أجتمع بأصدقائي، الأكبر مني سنًّا: الكاتب سعد صائب، الشاعر عبد المعين الملّوحي، رائد القصة علي خُلُقي، والمعجميّ الموسوعي عمر رضا كحالة. لا يسعنا مقعد ثلاثي، فنتوزّع على اثنين متقاربين. رحلوا كلّهم. كان الأسبق رائد القصة، وآخرهم الشاعر الملوحي. وما زلت.

هذه اللحظة، وأنا أكتب، وصل الشعب. ابنتي سهير ترافق زوجها بشار، يسبقهم فاضل الصغير يجيء الليلة ضيفًا أو صاحب بيت! يُحضّرون العشاء، وجبتنا الرئيسية. يدْعونني. أضع القلم. بعد العشاء سوف أعمل في تنضيد هذا الكلام، وأرسله إليكم عبر الشابكة. أعرف أنه ليس مبهجًا لكم القدرَ الكافي. كنت فيه أُسَرّي عن نفسي.

أشعر، أيها الأصدقاء، بالحنين إلى بيتي الذي منه يبتدئ الوطن.

فلوريدا: مساء الأربعاء ٢٦-١١-٢٠١٤

رحلت صباح.. وبقي لنا فنّها الجميل

حين عَهِدت المنتجة السينمائية اللبنانية بالقاهرة آسيا داغر، في أوائل أربعينيات القرن الماضي، إلى الملحن رياض السنباطي ليدرّب الشابة القادمة من لبنان جانيت فغالي على الغناء، لاقى الملحن المصري صعوبة في تطويع صوتها لأداء ما يناسب السينما المصرية في ذلك الوقت. ثمّ كان أن برعت في أن تقدّم في الأفلام المصرية الأغاني المحبّبة إلى الأسماع، على مدى عَقدين من السنين. وذلك كلّه قبل أن تستجيب الفنانة، التي غدا اسمها صباح، لنداء الوطن، فتعود، ويستردّ صوتُها فسحته وامتداده، ويملأ رؤوسنا طربًا بالمواويل الشجيّة، ما تجاوز حدود بلدها إلى كلّ ديار العرب. وهذا من رسالة الفن الجميل الذي أنجزته.

رحلت أمس الأول (الأربعاء) المطربة الأسطورة صباح، عن عمر بلغ التسعين ناقصًا عاما.

رحلت المبدعة، الجميلةُ الوجه والقلب، بعد أن رافقها القلقُ في كلّ سني حياتها، شأنَ مَن يملكنَ هذا القدر من الإبداع والجمال والطيبة والرهافة.

رحلت، دون أن توفّق بلقاء الرجل الذي يستحقّها، وتستريح في ظلّه زوجةً مدى العمر. وليس لأيّ من المتحذلقين أن يَعتِبَ عليها، أو أن ينتقص من قدرها، وهو يتلبّس الأخلاق الحميدة، لينتقد ما كان منها من تكرار حالات الزواج، فالذي اقترفته لم يتعدَّ نطاق الحياة الزوجية، وفيه دفعت هي الثمن.

رحلت صباح، وقد تركت لنا إرثًا ضخما من أغنيات تُعدّ بالآلاف، قدّمتها في الأفلام والمسرحيات والمهرجانات، أطربت، وأبهجت، وألهبت الأكفّ، وشَجَت النفوس.

رحلت صباح، مخلّفةً من الذرية ابنها الدكتور صباح بن نجيب شماس اللبناني، وهويدة بنت أنور منسي عازف الكمان المصري.

أقول لها: سلام على روحك الزكية، أيتها المبدعة الطيبة، آملا من الله أن يمنحك الراحة الأبدية والنور الدائم.

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ٢٨-١١-٢٠١٤

«فيلّا عرق الجبين!»

وصديقنا، الذي دخل في طفولته مدرسة الأيتام، ثمّ بعصاميته تخرّج مدرّسًا للعربية ناجحا ومعروفا في البلد، بدا حريصًا على أن يحقق حلمه بأن يكون له بيت نظيف، تعيش فيه أسرته القادمة، لا يَنقصه شيء من متطلّبات الحياة اليومية.

فكان يزيد من ساعات عمله الإضافي، بأن يتوجّه في ساعة مبكّرة من صباح كلّ يوم، إلى المعاهد الخاصة التي يؤمّها طلاب يتملّكهم حبّ التعلّم. ثمّ بعد دوامه الرسمي مساءً، يبدأ بطرق أبواب بيوت الأغنياء، يعطي أولادهم الدروس الخصوصية، ولا يأوي إلى بيته إلّا في هزيع من الليل.

يحدّثنا ساخرًا فيقول إنه حين يدقّ بابًا وتفتح له الخادمة، يترامى إلى سمعه صوت السيدة من الداخل: «مين؟ »، فتجيبها الخادمة: «هادا المعلّم، يا ستّي! »، فتقول لها: «دخّليه! »... ويضيف صديقنا بمرارة: «الله وكيلك، كأني عامل الصحية جاء يصلح مجاري الحمّام المصطومة».

وكان البيت الذي بناه فيلاّ، علّق على مدخلها لافتة تقول بالخط العريض: مَغنى عرق الجبين.

ضحى السبت ٢٩-١١-٢٠١٤

المحامي عارف الشعال ذهب ولم يعد

المحامي عارف الشعال رجل من رجال القانون.

المحامي عارف الشعال رجل من المطالبين سلْميًا بالحريات العامة والعدالة.

المحامي عارف الشعال رجل من رجال سورية في هذا الزمن الصعب.

المحامي عارف الشعال هو المدير لمجموعة ملتقى المحامين السوريين.

دعاه فرع نقابة المحامين بدمشق الجديد ليتسلم كتاب تبليغ لمراجعة إحدى الجهات الأمنية، ذهب، صباح يوم ١٥-١١-٢٠١٤، بشجاعة الأحرار، ودون أن يأخذ معه علبة دوائه، وتسلّم كتاب التبليغ، وتوجّه إلى الجهة الأمنية، ولم يرافقه أحد من فرع النقابة الساهرين على رعاية أعضائها.

ذهب عارف الشعال... ولم يعد!

فلوريدا: مساء السبت ٢٩-١١-٢٠١٤

مؤسسات المجتمع المدني في هذا الزمن

جُعل مدير المدرسة معلّمًا وراعيًا لمؤسسته التعليمية، وليس ليدلّ رجلَ الأمن على قاعة الصف والمقعد الذي يجلس عليه التلميذ!

ويتحتّم على رئيس اتحاد الكتّاب، أن يبذل جهدًا للإفراج عن أعضاء الاتحاد إذا ما اعتقلوا سجناءَ رأي، وليس لالتزام الصمت، كما وقع لي في يوم مضى!

ولم يكن متوقّعًا من نقابة المحامين، أن تطلب على الهاتف من أحد أعضائها، أن يأتي إليها ليتسلّم تبليغًا بمراجعة أحد الفروع الأمنية، وتدَعَه يمضي وحده إلى هناك، ثمّ لا يعود إلى بيته، ولا نسمع أنها تبذل جهدًا لاسترداد حريته!

فلوريدا: فجر الإثنين ١-١٢-٢٠١٤

لنستحضر في الأذهان مواويلها

عن قناعة أقول لكم، أيها الأصدقاء: إنّ الوصية الغريبة، التي كتبتها في شأن طقس التشييع الذي أرادته لنفسها، وإنّ زواجها الأخير، الخائب، وهي في ثمانينيّات العمر المتهاوي، ليس لذلك أن ينال من إعجابي بما قدّمت من فنّ أصيل في ربيع عمرها، الزاهر، المتهادي عبر نصف قرن من الزمان الجميل.

لا نحاسبنَّها على زلّات ونزوات ارتكبتها وهي في خريف ألزْهايْمر، ولنستحضر في أذهاننا مواويلها الشجيّة، يتردّد صداها بين روابي بلدها، منداحًا حتى أقاصي المشرقين، باعثًا نشوة الطرب في نفوس الناس.

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ١-١٢-٢٠١٤

أواديس.. فرّان حارتنا

في السويقة، المتاخمة لزقاق الزهراوي حيث ولدت وعشت طفولتي الأولى، كان أهلي يبعثونني إلى فرن أواديس لأقول له: «حدا يجي ياخد العَجْنة»، فقد جرى الناس -في ذلك الزمن- على أن يتموّنوا في الصيف من الحنطة الوردية اللون، يطحنونها، وتعجن منها نسوة البيت مقدارا، ويُقطّع العجين أقراصا، تُصفّ في صَحفة كبيرة من الخشب، تُحمل إلى الفرن.

كان أواديس (ويلفظ اسمه بلغته Avedis ومعناه البشارة) واحدا من أبناء قوافل الأرمن الذين نزحوا إلى حلب والجزيرة في أثناء المحنة التي حلّت بهم في تركيا عام ١٩١٥. كان عدد سكان حلب في حدود المئة ألف نسمة، فجاءها مثل هذا العدد من الأرمن، تمّ استيعابهم، وكان ما يكاد يخرج بعضهم منتشرين في أنحاء العالم حتى تكون قوافل أخرى قد وفدت على

حلب. وأذكر أنّ ما بقي منهم في أواخر الأربعينيات كان يقارب ربع السكان، تشهد على ذلك قوائم المرشحين للانتخابات النيابية.

كانت لغة أواديس العربية مكسّرة، لكن قلبه كان طيبا. كان محبوبا، يأتيه الزبائن بعجينهم من زقاق الزهراوي ومن بَنْدرة الإسلام وبندرة اليهود المجاورتين. كنت أحمل إليه أحيانا سفافيد قد ضُمّت فيها حبّات الباذنجان للشَّيّ إعدادًا لأكلة الباطُرْش[1]. وكنت أرى بائعي الفول المدمّس يودعون عنده جِرار الفول ساعة المساء، تبيت الليل بطوله في بيت النار، وفي الصباح يأخذونها مستوية ولا أشهى.

شكّل الأرمن في حلب جزءًا من النسيج الاجتماعي البديع. كان منهم العمال المَهَرة، صيّاغًا وميكانيكيّي سيارات، وأطباء بارعين. كان طبيب العيون، الذي تردّدت عليه في طفولتي لمرض كان يعتادني سنويّا الرمد الربيعي، يدعى لودر جاميجيان، عيادته في شارع حمام التلّ بالقرب من بيتنا. وفي الخمسينيات كان أول من وُفّق في سورية لإجراء عملية ترقيع القرنية هو صاحب مشفى لطب العيون، النطاسي روبير جِبهْ جْيان. وكانت صديقتنا الأديبة لوسي سُلاحيان تكتب القصة بالأرمنية وتنظم الشعر بالفرنسية، وقد نَقل لها إلى العربية المترجمُ المتعدّد اللغات نزار خليلي مجموعة قصصية، تولّت نشرها -بمقدمة مني- وزارة الثقافة عام ١٩٨٤، عنوانها حبّ وحبّ.

نعم. فتحنا لجيراننا الأرمن الصدور والقلوب وتبادلنا التعارف والتعامل والمحبة. واليوم -بعد مئة عام من العيش المشترك- يرتفع صوت يتّهمنا بأننا نستعدّ لذبح الأقليات!

أسألكم، أيها الأصدقاء: هل في حديثي هذا ما ينمّ على أنني، أننا، نكره الأقَلّيّات، ونشحذ

---

(١) أكلة سورية: باذنجان مقشور مدقوق، يضاف إليه اللبن المثوَّم، ثم يُسكب اللحم المفروم المقلي والجوز وعصير البندورة.

السكاكين لفعل شيء ما؟ أم أنّ الشاحذين لها، الهارّين بها على رقاب أطفالنا، هم أناسٌ آخرون؟

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢-١٢-٢٠١٤

أديب، ولست لغويّا

في نحو العام ١٩٥١، قرأت في مجلة الكتاب الشهرية (التي كانت تصدر عن دار المعارف بمصر) مقالة للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، تقرّظ فيها كتابًا صادرا حديثا لمؤلفه أستاذ الأدب بكلية الآداب بالجامعة السورية الدكتور أمجد الطرابلسي، أشارت في ختامها إلى أخطاء لغوية وقفت عليها في الكتاب.

ومع استغرابي أن يخطئ باللغة أستاذ أدب -وأنا أعِدّ نفسي لأكون كاتبا أديبا، مع أني كنت أدرس الحقوق بالقاهرة- حدّثت في ذلك تلميذه صديق الصبا عبد القدوس أبو صالح، الطالب بكلية الآداب تلك الأيام (وهو اليوم الأمين العام لرابطة الأدب الإسلامي العالمية ومقرّها الرياض)، فكان أن أجابني بأنّ ذلك ممكن، لأنّ الدكتور الطرابلسي أستاذ أدب وليس متخصصا باللغة، مشيدًا في ذلك بالأستاذ محمد سعيد الأفغاني الذي يأخذ اللغة في الجامعة على يديه.

وأذكر أنّا قرأنا في منتصف الخمسينيات رواية اسمها "عصام" تأليف أستاذ العربية في ثانويات حلب عبد الوهاب الصابوني، وقد علمنا أنه يعتزّ باللغة التي صاغ بها روايته قدر اعتزازه بمعانيها.

واتفق أن التقى مؤلف عصام، بموعدٍ في مقهى، مع شاعر صوفي، هو موظف مغمور في البلدية اسمه محمد شعبان، متضلّع في اللغة العربية، قرأ الرواية والتقط ما وجد فيها من

الأخطاء، ونشر في الجلسة قائمة، وجعل يقرأ، بحضور الأصدقاء، يُعدّد ويفنّد، واحتدم الجدال، ولم يتَح للصوفي اللغوي أن يسرد كلّ ما هنالك، لأنّ الصابوني كان قد غادر المكان نَزِقًا. روى لي هذه السالفة في حينه صديقي الأديب علي بدور.

هل أزعم أنّ لغتنا العربية يتعذّر القبض عليها من قبل كاتب أو باحث أو أديب؟

سمعت، في الخمسينيات أيضا، من أستاذ العربية الأشهر في ثانويات حلب، الأستاذ عبد الرحمن الباشا، أنه يتعرّض في كلّ ساعة من يومه لامتحان. كيف؟ إنه يتلقّى من الأصدقاء والمعارف، عبر الهاتف، استفسارات لغوية، وكان يحبّ أن يجيب عنها عفو الخاطر دون أن يعود إلى المراجع والمصادر، ويخشى الوقوع في الخطأ!

إنّ ما حداني إلى كتابة هذه الخاطرة أنّ واحدا من أفراد أسرتي هنا في فلوريدا، قرأ في شبكة التواصل لأحدهم يقول: إنّ السباعي فاضل لا تخلو كتاباته من أخطاء، فكبُر عليه ذلك، فقلت له: «أخطئ، ولم لا؟ فأنا -كما يقولون- أديب، ولست لغويّا! ».

فلوريدا: فجر الأربعاء ٣-١٢-٢٠١٤

أرمن حلب.. ورسائل بالحبر الأحمر!

في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية وخروج موسكو منتصرة على ألمانيا، تطلّع بعض الأرمن في حلب، ربما ممّن كانوا أخفقوا في أن يحققوا نجاحا مرموقا في حياتهم العملية أو كانوا يعتنقون الأفكار الاشتراكية، للرحيل إلى بلاد الاشتراكية السعيدة، الاتحاد السوفياتي. فكنا نرى، نحن الفتية في عام ١٩٤٥، سيارات تَحملهم وبعض المتاع العزيز الذي لم يتخلّوا عنه، وتتجه بهم إلى بيروت، حيث الميناء الوحيد في السواحل الشامية آنذاك، ومنه يركبون البحر ويعبرون مضيق الدردنيل، إلى وطنهم القومي جمهورية أرمينيا السوفياتية.

ولكنّ مخاوف كانت تراودهم من ألّا تطيب لهم الحياة في ظلّ النظام الشيوعي هناك، فكيف يُعلِمون ذويهم الباقين بحلب بهذه الحقيقة، كي يعدلوا عن اللحاق بهم، وإنّ التصريح بذلك يعرّضهم للمخاطر؟ وكان اتفاق -سمعنا به يومئذ- أن يكون الحبر، الذي به يكتبون الرسائل، إن كان الوضع ليس كما كانوا يتصورون، باللون الأحمر!

وقد سمعنا أنّ ما كان يصل منهم إلى حلب من رسائل باللون الأحمر، يفوق ما يكتبون بكلّ الألوان.

وللعلم: إنّ الجمهورية الأرمنية هناك -والتي لم تعد سوفياتية- تولّى رئاستها ما بين ١٩٩١-١٩٩٨، رجلٌ مولود بحلب في ١٩٤٥ (عام الالتحاق)، هو ليفون دير بدروسيان Levon Derpetrosian، مثلما تولّى كارلوس منعم، ذو الأصول السورية (من مدينة يبرود، بريف دمشق، لكن المولود هناك بقرية في مقاطعة لاريوخا)، رئيسا لبلاد الفضة، الأرجنتين، في دورتين رئاسيتين١٩٨٩-١٩٩٩ وقد زار كلّ من الرجلين بلادنا، وطاف في مدينة آبائه وأجداده.

وعسى أن نتحدث عمّن أنجبتهم سورية من حكام وأباطرة في الزمن الروماني.

أقول: نُقدّم للعالم حكاما، ولا نستطيع أن نحقّق لأنفسنا الحكم الأمثل.

فلوريدا: فجر الخميس ٤-١٢-٢٠١٤

سؤال.. وسؤال!

دفعوا باب المدرسة بأقدامهم الغليظة، ودخلوا يتنقّلون بين قاعات الدرس، يرافقهم واحدٌ من التلاميذ يدلّهم على رفاقه واحدًا واحدا. ثمّ ذهبوا بهم إلى حيث لم يعد أيٌّ منهم إلى مدرسته أبدا!

عاتبه بعض أصحابه: «كيف مكّنتهم، وأنت مدير المدرسة وحارسُها الأمين، من أن يسحبوا أولادك التلاميذ من صفوفهم، ودخلت مكتبك تغلق على نفسك الباب بإحكام«.

أسرع يُجيبهم: «وهل فكرتم ماذا يمكن أن ينالني لو أني كنت مانعت؟ «.

فجر الجمعة: ٥-١٢-٢٠١٤

معرفة قديمة

نزل من الجبل إلى العاصمة، وله من العمر ثمانية عشر ربيعا، يطلب عملاً، وجاءني، وأنا في وزارة الشؤون الاجتماعية مسؤولًا عن مكتب التوظيف والتخديم، فوفّرت له عملاً في مصنع، ثمّ جعل يتردّد عليّ في مكتبي اعترافًا منه بالجميل، ولا فضل لي إلّا الوظيفة التي أخدم فيها والمواطَنة التي يتمتّع هو بها.

بعد أربعين سنة ويزيد، التقيت به مصادفةً في حارتي، يتجوّل، وبرفقته من ظننته تابعا له. وفي الحديث العابر بيننا، استشففت أنه رجلٌ قد عُهد إليه بالاهتمام بحارتنا!

فمازحته، على عادتي في مثل هذه الأحوال: «عسى أن تترفّق بأبناء حارتي، فيكون قلمُك السيّال أكثر حنّيّة عليهم». ابتسم برقّة، حين كان مرافقه يرنو إليه بإعجاب كبير.

ومضى كلٌّ إلى غايته.

فلوريدا: فجر السبت: ٦-١٢-٢٠١٤

هل تصدّقون؟

إني أتخيّل نفسي، وأنا أكتب لكم تغريداتي الصباحيّة، أني أُشبِه ذلك الطير الذي كان يرتّل أعذب الألحان وشوكةٌ مغروزة في جنبه تُفضي به إلى الهلاك!

فلوريدا: صباح السبت ٦-١٢-٢٠١٤

خمس دقائق فقط!

وجاء إلى المنظّمة الشعبية التي ينتمي إليها، اثنان يطلبان بقوة عنوانه، وسألا عن هاتفه، فأحالوهما إلى موظفة المقسم، التي سرعان ما أعلمته أنّ الأمن جاء يسأل عنه.

عند المساء تلقّى هاتفًا أنْ تفضّل.

على الرصيف رآهم يتبادلون الأحاديث بلهجةٍ محلّية واحدة، فتساءل: لماذا لا يكون بينهم مَن ينطق بغيرها؟

دون دخول في التفاصيل، أيها الأصدقاء، وجد نفسه يَعتِب على البكباشي، القاعد وراء مكتبه، دخولَهم تلك المنظّمة (اتحاد الكتّاب)، وسؤالَهم عنه بهذه الطريقة: نحن أمن. أعطونا العنوان والرقم. أما كان أقربَ إليهم أن يفتحوا دليل الهاتف ويقرؤوا!

ومن عجبٍ أن يتلقّى طلبهم: يريدون ابنَه، ولخمس دقائق فقط!

قال لهم بملء فيه: «وكيف تتوقّعون من أب أن يسلّمكم ابنه لخمس دقائق، وهو موقن أنه لن يعود إليه بعد تلك الدقائق أبدا!».

لاحظ أنّ في زيارة البكباشي[1] بكباشيًا آخر، جعل ينقّل بصره، متعجّبًا أن يكون بين المواطنين مَن لم تصل إليه بعد إجراءات التطويع!

فلوريدا: فجر الأحد ٧-١٢-٢٠١٤

---

(١) ضابط عسكري.

مخبِر.. حتى الموت!

يوم كان تلميذًا في المدرسة، اكتشف في نفسه متعة أن يَشي بزملاء الصفّ، ويُخبِر عنهم إلى النظام، يراه عملاً وطنيّا، اقتحامَ رجال الأمن المدرسة واقتيادَ التلاميذ إلى حيث لا يعرف أحد، ولا يعرف هو مصيرهم.

واستَشْرَتْ عنده هذه المتعة وهو طالب بالجامعة، فكان يخبر عن الذين ينتقدون النظام، من طلاب وأساتذة، فيأتيهم الضرر وهم لا يعلمون أنّ وراء ذلك زميلهم الذي يجالسهم، أو تلميذهم الذي يستمع إلى ما يُلقون من محاضرات.

لمّا وظّفوه في إحدى دوائر الحكومة، أخذ زملاء الوظيفة -وما كانت أخباره لتخفى عليهم- يتحاشونه. ويوم أصبح رئيسا عليهم غدا خوفهم منه لا يماثله إلّا ازدراؤهم له.

وهو ما كان يوفّر في الإخبار جيران الحارة ومعارفه الطارئين.

وحين عمّ في زمننا الفيسبوك، وقد بلغ السنّ وأحيل على التقاعد، جعل يكمن وراء أجهزته الثابتة والمتنقّلة، يتصيّد أقوال الناقدين والمعارضين، حتى إن كانوا يتستّرون وراء أسماء مستعارة.

ومرة قال لأحد أصدقائه اللدودين، مقسمًا بالله مزحًا، بأنه سوف يتابع الدفاع عن الوطن حتى بعد المهات، فينقل الأخبار عن المتآمرين على القضية وهو وهم في العالم الآخر، وإن كان ذلك لا يعود عليه بالنفع، فالمال لا يصل إلى عالم الموتى!

فلوريدا: فجر الإثنين ٨-١٢-٢٠١٤

مقارَبة للسياسة، نعم

في معالجة السياسة في صفحات المجموعات الثقافية، أرى أنّ الأعضاء في كلّ مجموعة

ينقسمون إلى ثلاثة أَفْرِقة:

• فريق يميل إلى الخوض في الشأن السياسي، وأرى من ناحيتي أنّ ذلك يؤدّي إلى التعصّب والمشاحنة، ما يُفسد أجواء التلاقي.

• وفريق يبتغي مقاربة السياسة مع حرصه على ألّا تعدو المسّ الرفيق.

• والثالث يحرص على الابتعاد عن السياسة كليّا. ويمثّل هؤلاء أناسٌ -كما أتصور- كانوا قد استفادوا، وتورّطوا، وأسهموا في إفساد الحياة العامة.

أقول: إنّ المقاربة أمر تُمليه الرغبة في التعرّف والإصلاح. وإلّا كيف نرى حالة مَن درَس في ثانوية المأمون، وتربّى في أحضانها، في النصف الثاني من الأربعينيات الماضية، ودرّس فيها مدة، فلمّا قُدِّر له أن يمسي كاتبا يمتنع اتحاد الكتّاب في الوطن عن أن ينشر له أي عمل، لأنه يتّبع في كتاباته حرية التفكير في معالجة ملابسات القهر والفقر؟ أو أن يُقصى عن كلّ فعّاليات "حلب عاصمة الثقافة الإسلامية" إقصاءً تامّا، لا لأمر جاء من فوق، ولكن استجابة لعوامل أنانيّة؟

أتريدون أن نضرب بالدُّفّ هنا، نرقص ونغنّي، وعند الجيران عزاء وبكاء!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٨-١٢-٢٠١٤

كيف نبني الوطن!

طيّب...

إذا برّرنا سلوك المرتشي بأنه كان في صغره فقيرا، وغَضَضنا الطَّرف عن الظالم لأنه عانى من الظلم، والذي يغتصب البنات لأنه كان محرومًا من النساء، والفاسد لأنه تعرّض وذاق وعانى، والمعقّد... يحُلّ الآن عُقَده.

طيّب... كيف يمكننا أن نبني الوطن؟

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٩-١٢-٢٠١٤

لكلّ امرئ من دهره ما تعوَّدا!

من اعتاد الظلمة فسوف يبهَرُه النور

ومن اعتاد التصفيق فسوف يزعجه الهتاف للحرية

ومن اعتاد الصمت فسوف يضيق بالحديث المتمادي عن الغد

وليس على الأعمى حرج!

فلوريدا: فجر الخميس ١١-١٢-٢٠١٤

صــورة

ذات يوم انتزعتُ من مجلةٍ صورةً لامست مشاعري الإنسانيّة، كان فيها يزور مدرسة أيتام، وقد التفّت حوله البُنَيّات، يمشي، وتلتصق به إحداهنّ، رافعةً إليه عينين، تنطِقان بمنتهى الحبّ، والاعتزاز، والعرفان بالجميل.

وأعود

بعد الأحداث

إلى الصورة... أتأمّلها.

فلوريدا: ظهيرة الخميس ١١-١٢-٢٠١٤

من يعرف آراتورو بوكاتشي؟

هل تذكرون، يا طلاب المأمون القدامى بحلب، طبيبًا إيطاليّا، كان يعيش بيننا في

أربعينيّات القرن الماضي، يُدعى آراتورو بوكاتشي، عيادته في شارع إسكندرون قريبا من المأمون؟

كان يتردّد عليه أهل الجميليّة، يتلقّون منه المداواة والمواساة، ويمنحونه المودّة والاعتراف بالجميل.

وما كان يخاف أن يذبحه أحد!

فلوريدا: عصر الخميس ١١-١٢-٢٠١٤

أصدقائي الأعزاء:

كان لهذا الطبيب وجودٌ حقيقي في شارع إسكندرون بحلب حتى الخمسينيات، وليس الاسم افتراضيا ولا الحكاية خيالية!

تشابه أسماء.

قالوا: أنت فعلت. قال: لم أفعل.

قالوا: أنت قلت. قال: لم أقل.

كانت عناصر منهم قد ألقت القبض عليه، وهو في سيارته، عند الحاجز الخامس.

تبادلوا فيما بينهم النظرات والبسمات، وأسمعوه: أيكون تشابه أسماء؟

وسألوه: ما عنوان أهلك، أيها الشاب الوسيم؟

وجاء أهله يفكّون أسره. فتّوا العملة، لكبيرهم، ولمن هم تحته. والصغار الذين اقتنصوه جعلوا يقولون: والله رواتبنا ليست تكفي.

واحتفظوا بالسيارة.

وبدأ يبحث عن وطن.

فلوريدا: فجر الجمعة ١٢-١٢-٢٠١٤

الشاعر والجائزة

ظلّ يكتب الأشعار

ويُغنّيها مواويل عِذابًا

في الأمسيات والصباحات المنيرة

ولا يتلقّى إلّا التصفيق، والإعجاب المستطاب

بعد أن تخطّى عتبات السنين

بَسَمَ الدهر له، وضحك، وقهقه عاليا: مُنِح جائزة قيّمة

تقبُر الفقر، وتبني على أنقاضه قصرا

فاشترى بنصف الجائزة عروسا صغيرة

وأنفق النصف الآخر في العيادات

باحثًا عن شبابه الضائع.

وقالوا: مات، ولم يبلغ الأرب!

فلوريدا: صباح السبت ١٣-١٢-٢٠١٤

بأيّة حال تعود!

رأيته، في نزهتي المسائية اليوم، يقتعد عربةً، بلباسه الأحمر المخالَط بالأبيض، قبعة حمراء ولحية مسترسلة، تليها، في فِناء البيت الآخر، عربةٌ أخرى، يجرّها غزال مُطَهَّم، قد ضُفر جسده

من أسلاك بِيض، حُمّلت عربته بهدايا الميلاد الافتراضية، وحبال من أنوار، مدلّاةٌ من الشجر وملتفّة حول جذوعه.

إنه العيد، يُسرع الخُطا.

ولدان صادفتهما، يتقاذفان الكرة من رصيف إلى رصيف، لما اقتربت توقّفا حذرًا، وأولاد يتحاورون بكرة السلة، وقد نصبوا مرمى لها في فناء بيتهم.

صَبيّةٌ، ذكّرتني بحفيدتي ياسمين، تكرج بزحّافتها مسرعةً نحوي، وفي يدها مِقود كلبها الأثير يشاطرها العدْو. فلما آن لهما أن يقتربا مني شدّت الحبل، فانصاع لها كلبها واثبًا إلى الجانب الآخر، ونجوت من شباكها!

أعيادٌ، وهدايا، فرح ومرح وابتهاج.

وأولادنا... في أزقة الخيام وحاراتها يلعبون، ويتعفّرون، غير عارفين ما تُخبّئه لهم الأيام من ظلمات.

بأيّة حال تعود إلينا، أيها العيد!

فلوريدا: مساء السبت ١٣-١٢-٢٠١٤

أَلِيسُ معلمة الدروس الخصوصية

ونحن على مائدة العشاء، تحدّثت مسز أليس أنها لاحظت، في تعاملها مع الأطفال العرب القادمين حديثًا من بلادهم، أنهم أقلّ انضباطًا من نظرائهم الأمريكيين، ولكن عندما يدخل الطرفان في سنّ المراهقة فإنّ الأطفال العرب يَبدون أكثر اتّزانا.

تعرّفت الأسرة، القادمة حديثًا من سورية، على المربّية المتقاعدة أليس سميث Alice Smith عن طريق أسرة عربية صديقة، وأخذت تتردّد عليهم في الأسبوع مرتين، لتقوية

الأطفال باللغة الإنكليزية، ولمتابعة دراستهم المستحدثة بالنسبة إليهم، متهاودةً[1] بالمكافآت، حبًّا بالأطفال الأربعة (أعمارهم ما بين ٦ و١٦ سنة)، ولأنّ هذه الأسرة جاءت من بلادها ناجيةً بنفسها من الحرب. وتهمس في أذن أمّهم الشابة: صدّقيني، إنّ ما يُحبّب إليّ التعامل معكم أنكم عرب، وتضيف ضاحكة: لو أنكم أمريكيون لما كان الأمر كذلك!

كنت قد دُعيت إلى العشاء بصفتي كبير الأسرة هنا في فلوريدا، وهم حدّثوها بأني كاتب، وزادها تقديرًا ما في هامتي من بياض شعرٍ رأتني به أتجاوزها في السنّ. وقد بدا لي زوجها، مايكل Michael، الذي يجلس إلى جوارها، يُحسن الاصغاء بمقدار ما تُحسن هي الحديث. قالت، مسترسلةً في مرحها: إنها يوم استرعت انتباهه وهي في عزّ شبابها -وكان جارا لها في الحيّ- وجذبته حتى أوقعته في حبّها، صارحته بأنها تكبُره بأربع سنوات، فأجابها يومئذ بأنه لا يأبه لفارق السنّ. ثمّ توجّهت إليه بالسؤال: «أليس كذلك، يا مايكل؟ »، أجاب مايكل الصَّمُوت: «فعلاً، لم أكن آبه، ولكني الآن... » وغمز بعينه، فأضحك الجميع.

قبل أن تودّعنا أليس سميث، عبّرت عن رغبتها في أن تقرأ لي بالإنكليزية ولو قصة واحدة. وكان اتفاق على أن تأخذ تلميذتها النجيبة، حفيدتي زين، قصة لي من غوغل، فتُترجَم إلى الإنكليزية وفق برنامج Ping المرتجَل، وتقوم الحبيبة زين التي تعرف النصّ العربي جيدا، بقراءة القصة بالإنكليزية بصورة أكمل.

فلوريدا: ليل الأحد ١٤-١٢-٢٠١٤

رجل سوري في هذا الزمن

لماذا نريد أن يكون في مجتمعنا مؤسسات مجتمع مدني؟ لكي تقوم بحمايتنا والدفاع عنّا تجاه

---

(١) مستميلةً قلوبهم.

عنف السلطة وعَسْفها.

اسمحوا لي أن أتذكّر بأني ساعة هممت، في يوم بَعيد، بمغادرة الجامعة بعد أن قدّمت في إحدى كلياتها أمسية أدبية، اعترضني اثنان من الجَلاوِزة[1] يريدون القبض عليّ. وما شفع لي في فرع الحزب بالجامعة، تدخّل عميد الكلية يحاورهم طوال ساعتين. وعندما ذهب بعض أهلي إلى رئيس اتحاد الكتّاب (ويفترض أنّ الاتحاد من المؤسسات التي عددتُها) للعمل على إطلاق سراحي، وعَدَ، ولم يحرّك ساكنًا. ولعله أخذ "يحفر ويُغمّق"، ويقول في نفسه: الله لا يردّه!

وتتكوّن مؤسسات المجتمع المدني في الأنظمة الديمقراطية، من المنظمات الشعبية، والنقابات المهنية، والجمعيات، والاتحادات... هذه التي تتمتّع باستقلالها عن الحكومة وعدم تلقّيها الأوامر منها، ما يتيح لها أن تمارس مهامّها في الدفاع والحماية والوقاية.

أقول: عندما دعا فرع نقابة المحامين بدمشق المحامي عارف الشعال ليتسلّم منهم كتاب تبليغ يتوجّه بموجبه لمراجعة أحد الفروع الأمنية، مشى إليهم -صباح الخامس عشر من الشهر الماضي تشرين الثاني/ نوفمبر- مشيَ الرجال، حتى علبة الدواء لم يأخذها

فكان استقبال مسؤولي النقابة له بأن سلّموه كتاب التبليغ، ولم يكلّف أحد منهم نفسه مرافقتَه إلى تلك الجهة الأمنية، فكأنهم سلّموه بأيديهم إلى من ينتزع منه حريته الشخصية.

أنا لا أعرف عارف الشعال معرفة شخصية، لكني، ومنذ عامين، عضو في مجموعة في شبكة التواصل الاجتماعي، متميّزة، يديرها باقتدار، ملتقى المحامين السوريين، أكتب، وأناقش، وأتلقّى.

وقد بدا لي عارف الشعال محاميًا قديرا يكتب المطالعات القانونية بفهم وموضوعية،

---

(١) الشرطة الأشدّاء

ومدافعًا عن قضايا الحق والعدل بنزاهة واعتدال (وإن استاء منه بعضهم، وغضب، واتّهم، وشتم!)، يزدان ذلك كلّه بنزعة وطنية وإنسانية مُثلى.

يقولون: إنه سوف يحوّل إلى التحقيق (وهو منذ ثلاثين يوما مرميّ في الزنازين الضيقة). والظنّ أنّ التحقيق سيقوده إلى المحكمة، ومن المحكمة يقاد إلى السجن، لا يلقى في تلك المراحل رحمة، ولا عناية، ولا صوتا يرتفع مطالبًا بالإفراج عنه.

إن قضى عارف الشعال في السجن، مثل كثير ممن سبقوه، فسوف يكون في عداد شهداء الرأي الأبرار، فإن خرج طليقًا فهو من شجعان الرأي الأحرار.

عارف الشعال رجلٌ سوري حقيقي في هذا الزمن الرديء.

فلوريدا: صباح الإثنين ١٥-١٢-٢٠١٤

اقرع الباب قبل الدخول!

كنت، في ذلك اليوم من أيام العام الدراسي ١٩٥٥-١٩٥٦، أعطي الطلاب درسا في المعلومات المدنية للصفّ الثامن في ثانوية المأمون بحلب. فجأة فُتح باب الصفّ دون أن تقرعه يد، ودخل تلميذ أخذ يجول ببصره بين المقاعد، وجد أحدها خاليًا فجلس فيه مطمئنا!

توقّفت عن الكلام، وما أشكّ في أنّ التلاميذ بُهتوا من تصرّف تلميذ جديد يدخل الصفّ دون سلام ولا كلام. سألته، فأجاب إنّ الموجّه أعطاه وريقة باسم الصفّ، فجاء ودخل وجلس. قلت له: «ما هكذا يكون الدخول. الآن تخرج من الصفّ، تغلق الباب وراءك، تقرع، تسمع صوتي يقول: ادخل». فقام، وخرج، وفعل، ورحّبت به. حكاية ممّا يقع للمعلمين، ثمّ يضيع في زحمة الأيام.

بعد نحو ثلاثين عاما، وعلى وجه التحديد عام ١٩٨٤، كنت أشارك في مؤتمر بمدينة الرقّة

في تاريخ العلوم عند العرب (ممّا تتولّاه جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي)، ببحث عن الطبيب عبد الملك بن زُهْر الإشبيلي.

وقف باحث ينتمي إلى القوات المسلحة يتحدث عن السلاح عند العرب (أو شيء من ذلك)، ولسنا ندري كيف عرّج على ذكر الظاهر بيبرس، فأغدق عليه نقدًا صارما لا لشيء سوى لأنه كان واحدا من غير العرب الذين حكموا الأمة في غفلة من التاريخ! فتصدّى له، بمعرفة وبأرقى ما هنالك من أدب الحوار، أحد الحاضرين، وكان من العاملين في حقل التربية بالرقّة، مُشيدًا بهذا القائد الهُمام، الذي قهر جيوش هولاكو في معركة عين جالوت، ثمّ تهمّم لتصفية الجيوب الصليبية في سواحل الشام، وأكد أنه يُعدّ واحدا من أعظم العبقريات العسكرية في التاريخ، وكلام جرى في هذا النطاق. هل أقول: إنّ أكفّ الحاضرين التهبت تصفيقا؟ وقد تراجع الباحث عن قوله كالمعتذر.

في الاستراحة كنت واحدًا من المهنّئين لهذا المتكلم، المدافع عن التاريخ الصحيح، المتحلّي بالمعرفة والموضوعية، وعرفت أنّ اسمه محمد عبد الحميد الحمد، وإذا هو يلتفت إليّ ليقول أمام الجمع: «كنت أستاذي في ثانوية المأمون بحلب، وقد دخلت الصفّ يومًا دون استئذان كما كنا نتصرّف في مدارسنا بالرقة تلك الأيام، فأعطيتني درسا في أدب السلوك».

وتبادلنا العناق.

وقد أصدر الأستاذ الحمد، بُعيد ذلك اليوم، عديدا من الكتب في التاريخ. أحيّيه حيث يكون.

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ١٦-١٢-٢٠١٤

الذين علّموني العربية

بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية

في حديثي عمّن تلقيت منهم العربية في مراحل الدراسة، لن أنسى ثلاثة في المدارس الابتدائية التي قُدّر لي أن أتنقّل بينها:

زاهد تاج الدين، في الصف الثالث في المدرسة الأولية إبراهيم هنانو، وكان محلّها بالعَدَسات، ومديرها تقي الدين المدرّس.

ونديم الفرّا، في الصف الرابع في ابتدائية العرفان بالمَحْمَص، ومديرها نجم الدين الوفائي.

وسامي الرز، في الصفّ الخامس في ابتدائية الملك فيصل بالجميليّة، ومديرها سعيد الخطيب.

وأعتقد أني كنت محظوظا في ثانوية المأمون، فالذين علّموني العربية فيها كانوا، أو كان لهم فيما بعد مستقبل علمي زاهر، وهم:

إحسان النَّصّ، وكان قد تخرّج توّا في جامعة فؤاد الأول بالقاهرة، وقاده طموحه إلى أن ينال الدكتوراه ويغدو أستاذا في كلية الآداب بجامعة دمشق، وعضوا في مجمع الخالدين، مجمع اللغة العربية بدمشق.

وصبري الأشتر، العائد في حينه من القاهرة أيضا، ثمّ دكتوراه، فأول عميد لكلية الآداب بجامعة حلب.

ودرّسنا الأدب في سنة البكالوريا (١٩٤٩-١٩٥٠) الشاعر عمر يحيى، ولا أنسى إنماءه الذائقةَ الأدبية فينا نحن طلاب شعبة الأدبي، قبل أن ينتقل إلى حماة بلده مديرا للمعارف

(التربية).

ومحطة لي في المأمون لا يمكن نسيانها: أني دخلت يوما على المدير الشاعر أقترح -يا للعجب! - أن نُصدر نحن الطلاب مجلة مدرسية تموّلها الإدارة، فوافق وهو ينصحني «يا فاضل! هذا عمل يحتاج إلى جهد وأنت طالب بكالوريا! »، وعَهِد بالإشراف على عملنا إلى معاون المدير صبري الأشتر، الذي ترك المأمون فتحوّل التكليف إلى شاعر شابّ كان قد جاءنا في حينه من بغداد متخرّجًا في كلية الآداب هناك، سليمان العيسى، فأصدرنا من المجلة، التي سمّيناها صوت الطالب، ثلاثة أعداد، كنت في العددين الأولين أمينا للسر، وفي الثالث تولّاها زميلي أحمد رجائي، ومن الأساتذة الذين كتبوا فيها الافتتاحيات أحمد القادري وعبد العزيز عثمان. والأعداد الثلاثة في حوزتي!

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ١٧-١٢-٢٠١٤

وكان أبي يتمتّع بثلاث خصال

قَدِم أبي أبو السعود من حمص إلى حلب طفلاً برفقة أبيه الحاج سليم المفتي السباعي سنة حرب السفر بَرْلك عام ١٩١٥، متلقّيًا الرعاية بحلب من عميد فرع الأسرة الدكتور نافع السباعي (١٨٧٧-١٩٤٧) أول نقيب حلبي لنقابة الأطباء (وابنه اليوم الدكتور هشام السباعي أمدّ الله في عمره).

كان أبي -رحمه الله- يتمتّع بخصال، منها: إتقانه لما يؤدّي من عمل، وذاكرة قوية، ومقدرة على الإنجاب!

فأما الأولى، الإتقان، فأظنّها تتبدّى عندي في فنّ الكتابة.

وفي الذاكرة، ما أستحضره من وقائع الأيام.

وأما الإنجاب فقد منحني الله تعالى أربعة أبناء، ومُنحوا هم ستة عشر من الأبناء والأحفاد. وقُدّر لأبي أن ينجب تسعة عشر من البنين والبنات (١١ و٨) فيهم الطبيب عصام، والصيدلاني حسان، والمهندس ماهر، ورجال الأعمال عادل وطارق وسليم وزهير، ومدرِّسة اللغة الانكليزية ضَحوك، واثنان من الكتّاب فاضل ونادر. وللعلم قارب عدد الأحفاد وأبناؤهم أن يبلغ اليوم المئة.

وُلد أبي بحمص عام ١٩٠٧، وتوفي بمدينته حلب عام ١٩٨٤. رحم الله الآباء والأجداد.

فلوريدا: فجر الخميس ١٨-١٢-٢٠١٤

ليس تشابه أسماء!

هنا، غالبًا لا يتناول المريض بيده الوصفة من الطبيب، هذا الذي يسأل المريض عن الصيدلية التي يتعامل معها فيرسل إليها الوصفة بالإنترنت.

بعد أن خرجتُ من المستوصف وقد سبقتْني الوصفة إلى صيدليتنا المعتادة، سألتْ حفيدتي التي ترافقني، الصيدلانيّةَ عن الدواء ذاكرةً لها اسمي.

فأخذت الموظفة السمراء تردّد الاسم قائلة بأدب جمّ: «فاضل السباعي! لقد جاءني قبل قليل من أخذ له الدواء!».

قالت حفيدتي العزيزة ديمة: «ليس هذا تشابهًا في الأسماء، يا سيدتي! الذي أخذوا له الدواء هو الحفيد، والآن يأتيك الجدّ بوصفة غيرها!».

وابتسمنا معا.

فلوريدا: عصر الجمعة ١٩-١٢-٢٠١٤

القيام للمعلم

في تدريسي التاريخ والمعلومات المدنية (التي سمّيت فيما بعد التربية الوطنية)، وأنا محام متدرّب، وعلى مدى السنوات الدراسية ١٩٥٤-١٩٥٧، وذلك قبل أن أتوظّف في الشؤون الاجتماعية والعمل، كنت أحاول استئلاف الشَّغوبين من الطلاب بطرق شتى.

من ذلك أني، في حرصي على أن يقف الطلاب كالعادة لحظة دخول المعلم قاعة الدرس، كنت أبادلهم احترامهم بأن أقف هنيهة أرنو إليهم بنظرات ودودة... طالبٌ منهم، شَغوب يمتهن التمرّد، ظلّ قاعدا ومتواريا، دنوت منه، فنهض متثاقلاً، فشملته بنظرة باسمة وأنا أرفع يدي أحيّيه.

وأذكر، وأنا أعطي ساعات في مدرسة خاصة، أني، عند خروج الأساتذة من غرفتهم ليتوزّعوا على الصفوف، سمعت مرة أحدهم وهو يتوجّه إلى قاعة طلاب البكالوريا الأدبي - وكثير منهم من الراسبين المدمنين- يقول وكأنه يستنهض همّته: «يا الله، ذاهب لمصارعة الثيران!».

فلوريدا: فجر السبت ٢٠-١٢-٢٠١٤

والحبّ، في السياسة أعمى أيضا!

ما زلت حائرا في تفسير ما يملأ صدر صاحبي من حبّ للحكم الفردي، ومن مقدرته على أن يجمع في قلبه الحنون حبَّ نظامين قضيا كثيرا من سنوات تعاصرهما مختلفين يتبادلان الاتهامات، وأعني: بلده ومصر المحروسة.

والأعجب أني رأيته، يوم غادر القذافي دنيانا الفانية، يُبدي حزنا شديدا على زواله. حتى خُيّل إليّ أنه يوشك أن يبكي!

ولكنّ من خصاله الظريفة المرح، فحين أسأله كيف تأتّى له أن يحبّ كلّ هؤلاء في آن واحد، يجيبني وابتسامة تكشف عن أسنانه البيضاء: «الحبّ أعمى». فنضحك معا.

فلوريدا: فجر الأحد ٢١-١٢-٢٠١٤

خمس سنوات للفنانة سمر كوكش

بعد عام من الاعتقال أصدرت محكمة الإرهاب بدمشق، يوم الأربعاء الماضي ١٧-١٢-٢٠١٤، حسب مواقع إلكترونية مقربة من الحكومة، حُكما بالسجن خمس سنوات على الفنانة الممثلة سمر كوكش بتهمة تمويل الإرهاب.

وسمر هي ابنة المخرج التلفزيوني المعروف علاء الدين كوكش والممثلة الراحلة ملك سكر، من مواليد دمشق ١٩٧٢، خريجة المعهد العالي للفنون المسرحية، لها طفلتان لين وملك.

عن القدس العربي، باريس، صباح الأحد ٢١-١٢-١٤، بقلم راشد عيسى

فلوريدا: فجر الأحد ٢١-١٢-٢٠١٤

وفرّقتنا الأيام

كان يجتمع عندي، في عقد الثمانينيات، من أحفادي: مازن وديمة من أسرة سعود ونبيه وماجد من أسرة الزعيم هنانو.

وكنت أمضي بهم، في بعض الأصائل الصيفية، إلى حديقة ابن سينا (حديقة المدفع). أخرج وإياهم من البيت إلى ضفّة نهر تورا، ثمّ ننزل سالكين شارع أبو رمانة المستقيم، الذي لا يضيع فيه أحد. وكان يطيب لي أن أدخل بهم، في العودة، حيّ الروضة، ذي الشوارع القصيرة، المتوازية المتقاطعة، أقف عند تقاطع، وأتظاهر بأني ضيّعت الطريق، فيُرشدني حفيد منهم: «جدّو، الطريق من هون».

وكنت أغريهم بالتسابق. أسبقهم مرة، وحين أتخلّف عنهم في مرة أخرى، تهتف ديمة: «سبقناك، يا جدّو!». وربّ عابرِ طريق يسمع، فيلتفت بسرعة ليرى كيف يمكن لجدٍّ أن يسابق أحفاده!

ومرت الأيام والسنون. شبّوا عن الطوق، درسوا، عملوا، وأنشؤوا أسرًا، ومنهم من يتوقّع أن يغدو ابنُه، ابنها، طبيبا، هي التي هتفت بي يوما: «سبقناك».

ديمة سعود (بنت بنتي الكبرى سوزان) أصبحت، هنا في فلوريدا هي وزوجها فرناس، صاحبَي مدرسة يُديرانها باقتدار، بدأا بثلاثين طفلا واليوم ثلاثمئة.

مازن أخوها الأكبر، يعاون في إدارة شركة ناجحة في الخُبَر بالسعودية.

نبيه هنانو في دبي، وشقيقه ماجد بالقاهرة، قد ورثا الجينات الفنية من أمهما الفنانة التشكيلية، ابنتي الصغرى خلود السباعي.

وأنا هنا، بعيدٌ عن الوطن، بعيدٌ عن كتبي وأوراقي وأقلامي!

قد فرّقتْنا الأيام، يا أحبّتي، بعثرتنا في ثلاث قارّات، مِن باحث عن عمل، ومن طالب للأمن والأمان.

كم ذا تخسرين، يا سوريّة، بهجرة أبنائك العاملين الأوفياء، أنت، يا زهرة البلاد والأمم، يا المطيّبةُ بعبق التاريخ وأريج الحضارة التليدة!

فلوريدا: فجر الإثنين ٢٢-١٢-٢٠١٤

دموع الضاد

ما إن نالت صديقتي في الأدب والثقافة، مؤهّل الماجستير في الأدب العربي، حتى شرعت في إعداد محاضرة على هامش ما عالجته في أطروحتها من تجلّيات الأدب الحديث. وقد كانت –

كما لا بدّ من أن أُبيّن- غير مقتدرة في قواعد اللغة العربية، مثل بعض الكتّاب والأدباء والزعماء في زمننا. ورأيت أن أشكّل وأضبط الكلمات في النصّ، أواخرها وأواسطها، تجنّبا للوقوع في الخطأ في أثناء القراءة.

قبل موعد المحاضرة التمست السيدة مني أن أتصل بصاحب لي، هو كبير المحررين في إحدى الجرائد الثلاث في العاصمة، لينشر خبرا عن المحاضرة، بعد أن أمكَنَها نشرُ ذلك في الجريدتين الأخريين. فهتفت إليه -ولأسمّه ج- أعرض، فبادر الماكر يعتذر -وهو كاذب- بأنهم لا ينشرون خبرا سبق نشره في دوريات أخرى!

يوم المحاضرة، امتلأت قاعة المركز الثقافي العربي بأبو رمّانة بالحاضرين، وكانت الغالبية من الجنس اللطيف، صديقات لها، قد جئن -كما يحلو لصديق لي خفيف الظلّ أو ثقيلِه، أن يقول- بعضهنّ للتباهي بأنهنّ صديقات للمحاضرة وبعض كي يمارسن الإحساس بالغَيرة، ولكنهنّ جميعا يتحلّين بكامل الأناقة، والشعر المصفّف، تفوح منهنّ أزكى الروائح والعطور.

استرعى انتباهي في ذلك أنه كان بين الحاضرين صاحبي، ذاك الذي رفض نشر الخبر. ثمّ لاحظته، ساعة نزلت المحاضرة عن المنصة، يُنقّل أنظاره بين المهنئات والمهنئين، وكان مبعث التهنئة دُرَر المعاني التي نَثَرتها المحاضرة، والشباب الريّان، والأناقة، والشعر، والروائح الطيّبة التي ملأت أرجاء القاعة ولامست السقف!

بعد يومين، مررت بالدائرة الرسمية التي تعمل فيها صديقتي، ولم أستغرب أن أرى عندها بعض من استمعنَ إلى محاضرتها، وهنّ الآن يُجدّدن التهنئة والفرح. هل أقول: إنهنّ كنّ يُسرفن في القول؟ وهي تستعيد ما تلقّت أذنها من طيّب الكلام، من هذا الأديب الشاب النابه ومن ذاك الأكاديمي المخضرم. بالاختصار: كانت صديقتي وكأنها في يوم عرس.

ثمّ إني فوجئت، في اليوم التالي، بسماعي صوتها على الهاتف وهي تبكي! ما الخبر؟ لقد نشر

ج، في جريدته عدد ذلك الصباح، مقالة نارية ينتقد فيها المحاضَرة، ويُشهّر بالمحاضِرة، فهو لم يرَ إلّا مجتمعا مخمليّا ولم يسمع إلّا لحنا لغويّا. وحمّلتني المسؤولية في ذلك لأني ما استطعت أن أجعله ينشر الخبر، لا ولا منعته من نشر مقالته الجارحة، وألزمتني، باسم الصداقة، ومن خلال دموعها -التي حلا لي أن أسمّيها دموع الضاد- أن أردّ عليه وأن أُفحِمه.

وأعترف بأني تألّمت لحالة صديقتي، أن ينقلب الفرح عندها إلى مَناحة. ووجدتني أكتب، لا ردًّا على ج، فمثل كلامه المفتقِدِ للموضوعية والنزاهة لا يُردّ عليه، ولكن لأنشئ تقريظا بيّنت فيه محاسن ما قدّمت صديقتي في محاضرتها من تجلّيات الأدب الحديث، مشيرا في الختام إلى الأخطاء في القراءة، فهي ممّا يَشيع في أيامنا، في الأقلام التي تكتب وفي الألسن التي تنطق، فإنّ لغة الضاد صعبٌ القبض عليها، أو كلام من هذا القبيل!

أكتب لكم، أيها الأعزاء، فجر اليوم، مستمدًّا من الذاكرة تفاصيل حكاية تعود إلى ما قبل ربع قرن ويزيد، بعيدا عن نصوص المحاضرة والمقالتين. فأما صديقة الأدب والثقافة، فهي منذ أعوام مهاجرة ومتجنّسة، مقيمة عند ابنها الطبيب، في إحدى الولايات غير البعيدة عن الضيعة التي أقيم فيها.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٣-١٢-٢٠١٤

بائع الفول السوداني

واحد من أبناء السودان بائع الفول السوداني، فستق عبيد في شتاء حلب، بُعَيد نهاية الحرب العالمية الثانية.

كنا نراهم يتّخذون أماكنهم على قارعة الطريق، نشتري منهم العبوة بعشرة قروش، فرنكين، يلفّ لنا أحدهم الفستقات في قرطاس يُديره على شكل مخروط، فنتنقّل بأكله ونحن

نمشي الهوينى.

من أدنى المنطقة العربية جنوبًا قريبًا من خطّ الاستواء، يأتون إلى حلب في أقصى الشمال العربي، حيث البرد والثلج والزمهرير.

كنا نراهم طِوالا، نُحَفاء، يتدثّرون بما تيسّر، وكانوا لطفاء.

إنه السعي وراء لقمة الخبز، مقرونًا بشجاعة المبادرة والمغادرة.

فلوريدا: صباح الثلاثاء ٢٣-١٢-٢٠١٤

يوسف ومحي الدين، الصديقان من سبعين عاما

في ثانوية المأمون بحلب، العام الدراسي ١٩٤٤-١٩٤٥، كان في الصفّ بيننا طالبان من المقيمين في القسم الداخلي في المدرسة (فقد كانت المأمون تحتضن أبناء المحافظات الشمالية، اللاذقية وحماة والجزيرة، على حين ترعى ثانوية جودة الهاشمي بدمشق أبناء المحافظات الجنوبية)، وكنا ننظر إلى هذين الطالبين بإعجاب وتقدير، لأنهما من المجدّين، يحوز أحدهما واسمه يوسف وسّوف المرتبة الأولى والآخر محيي الدين محمد المرتبة الثانية، ولم نكن نعرف عنهما إلّا أنهما من الساحل، الذي ما كان أحدٌ منّا قد أتيح له أن يزوره في ذلك الزمان.

وفرّقتنا الأيام.

وفي عام ١٩٨٠ أو ما حوله، زارني بدمشق، وأنا موظف في وزارة التعليم العالي، أستاذٌ بكلية الهندسة بجامعة دمشق، في مراجعة له وأنا مسؤول مكتب الشكاوى والإعلام، ولم يكن هذا الأستاذ الدكتور سوى زميلي القديم يوسف وسّوف، وعرفت خلال الحديث أنه من مسيحيّي الساحل.

وفي عام ٢٠٠٨ أو نحوه، هتف إليّ محي الدين محمد، وهو نزيل بيت آل الخَشّ بدمشق،

ليزورني، وعرفت منه أنه ظلّ يعمل مدرّسا للفلسفة في بلدته مصياف في جبل بالساحل إلى أن تقاعد. وفي الحديث في حديقة بيتي، عرفت أنه من الطائفة الإسماعيلية، وأنّ اسمه الكامل محيي الدين محمد الشيخ علي.

وتحدّثنا في لقائي مع كلّ من زميلَي الدراسة القديمين -والفارق بين اللقاءين ثلاثون عاما- عمّا أنجز كلّ منّا في حياته وما أنجب من ذرّية... وفي التعريج على الأوضاع -وقد بدا لي أنهما يطّلعان على بعض ما أنشر في الدوريات وما أُعبّر عنه من رأي- شاءا أن يحذّراني بعبارات مثل: «انتبهْ على حالك»!

أقول: سقى الله زمانا كنّا فيه نتبادل المودّات ونتهادى التحيّات، دون أن تَعنينا، إلّا عَرَضًا، معرفة الدين والمذهب... إلى أن جاءنا نظامٌ مارس الطائفية ومعها التمييز، فلما هبّ الشعب يرفع صوته مطالبًا بالحرية والمساواة، اتّهمه بالطائفية وبنيّته القضاء على الأقلّيّات، ثمّ قام يرشّه بالغازات الخانقة ويرميه بالبراميل.

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٤-١٢-٢٠١٤

طالبة متفوّقة ثمّ أستاذة قديرة، شهلا العجيلي

سوف أظلّ أذكر تلك الطالبة في آداب حلب، التي هتفت إليّ في أواخر العام١٩٩٧ وأنا بدمشق، وجاءت تلتمس ما تستكمل به حلقة البحث التي تُعدّها، وموضوعها الجريء مقارنة بين قصتي الأشباح (التي كانت سببًا لأن يخطفوني من باب جامعة حلب إلى الاعتقال مساء ٢٢ كانون الأول ١٩٨٠) وبين قصة المعطف للروسي غوغول. ثمّ نَشَرت دراستها في مجلة الموقف الأدبي، وربما هي أول ما نُشر لها من دراسات.

أحيّيك، الدكتورة شهلا العجيلي، ابنة الرقّة وحلب، الطالبة المتفوّقة التي كانت،

والأستاذة القديرة للأدب العربي المعاصر التي أنت اليوم، في عيد ميلادك.

وكل عام وأنت، ووطنك سورية، بخير.

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ٢٤-١٢-٢٠١٤

على قارعة بيروت

خطر لي، أمس، أن أُمعِن السير في جولتي المسائية حتى آخر الضاحية.

لمحت، هناك... هل تتصوّرون الصقور والنسور، تُحلّق، تُحوِّم في السماء، متقاربةً ومتباعدة، متقاطعةً ومتبعثرة؟

كذلك رأيت الأولاد، عن بُعد، في هذا المكان الخلَوي، وهم يتقاذفون الكرة، أو ينزلقون بزحّافاتهم على الأرصفة وفوق إسفلت الطريق.

هو ذا أحدهم يقود دراجة، يرتفع بجسده وهو فوقها حتى يُتيح لإحدى قدميه أن تطأ سَرْجها، منحنيًا على المِقود، وبحركة بَهْلوانية يتابع السير، فكأنه مهرّجٌ في سيرك. وكلّ جمهوره أنا، أنا الهائمُ في تُخوم غابات بعيدة.

أطفال سعداء يمرحون، يتلقَّونَ الحنان في البيت، والرعاية من المجتمع، ويُوفّر النظام لهم الحماية كلّ الحماية، فيكون منهم في الغد الإبداع.

وتصوّرت أطفالًا لنا، قد نزحوا من بيوتهم، وسَرَوا تحت جُنح الليل، عابرين الصحارى والقفار، لينجُوا بأنفسهم من غدر القذائف ولؤم الغازات. إنهم الآن يلعبون في فضاءات الزعتري. وتراءت لي أُسرٌ تقضي أيامها ولياليها على قارعة الطرقات في بيروت، العريقة، التي أضحى قلبها أقسى من الصوّان.

فلوريدا: فجر الخميس ٢٥-١٢-٢٠١٤

غدا تقرؤون لؤي كيالي.. عاشقًا!

تصادف غدا الذكرى الـ٣٤ لرحيل الفنان التشكيلي لؤي كيالي، عن عمر لا يزيد على الأربعة والأربعين عاما، بعد معاناة مع آلام احتراق الجسد استمرّت أشهرا.

تقرؤون ما كتبته عن حبّه الوحيد الذي لم ينته إلى زواج.

فلوريدا: عصر الخميس ٢٥-١٢-٢٠١٤

سؤال أفحمني

كتب إليّ أحدهم قبل أيام يقول:

«سألتك في أول الانتفاضة، عمّا إذا كان متوقّعًا حقًّا أن ننال حريتنا؟ فأجبتني بكلمة واحدة: طبعا!، فسألتك وأنا غير مصدِّق: وكيف؟، قلت لي، وما أزال أذكر كلماتك الثلاث: لأن الشعب أراد!. ولكني أراهم، يا سيدي، منذ أربع سنوات، يُمسكون المتظاهر الذي يهتف بكلمة الحرية، ينهالون عليه بالضرب، وهم يردّدون: بدّك حرية؟ أي خود حرية! حتى يموت».

وما زلت أفكر في الإجابة!

فلوريدا: فجر السبت ٢٧-١٢-٢٠١٤

وجسّ الطبيب لي نبضي!

أمس توجّهت، أنا والحفيدة ديمة، إلى المستوصف، لنطّلع على نتائج الفحوص والتحاليل والتصاوير تمهيدًا للإحالة إلى الأطباء المتخصّصين.

لـمّا جلس الطبيب العام، الأسمر، أمام الشاشة، واستدعى الملفّ الخاص بي، رأيناه يبتسم

وهو يقرأ، ثمّ يهزّ رأسه كالراضي وهو يقلّب الصفحات، قبل أن يلتفت إلى حفيدتي يخاطبها وهو يشير إليّ:

«لم أر في حياتي العملية رجلاً في سنّ جدّك، يحصل على هذه النتائج في الفحوص الطبية، مع اعتدال في الضغط والنبض، وقوة ذاكرة، ممّا لا يكون إلّا عند الشباب الأصحّاء».

بدا الفرح على الحفيدة الحبيبة.

وأمّا أنا فقد أنشأت أقول في ذات نفسي: آه، أيها الطبيب! لو كنت متخصّصًا في طبّ العيون، أو الآذان، أو الأسنان، لما أبديت شيئًا من هذا الانبهار! أنت ظللت في الجذع ولم تصعد إلى الرأس، أيها الطبيب الأسمر الطيّب!

فلوريدا: صباح السبت ٢٧-١٢-٢٠١

امَّحت الأسامي، وبقي الغار

ذات يوم من شتاء بعيد، يعود تاريخه إلى كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٤، وقف المراقب في ثانوية المأمون، عبد الحنان حلوة يخطب فينا، نحن تلاميذ الصفوف الأولية في المبنى الملحق، بأنّ هنا غراسًا من نبات الغار، سنقوم بغرسها على طرفي الدرب المؤدّي إلى المبنى... ووزّعوا علينا الشتلات وقُصاصات كرتونية كي يكتب كلٌّ اسمه عليها ويعلّقها بالغرسة التي زرع.

بفرح زائد أنجزنا.

ثمّ جاءت الأمطار فغسلت الأسامي. ولكنّا كنّا نرى شجيرات الغار، من غرس أيدينا، وهي تنمو يوما بعد يوم.

وأظنّ أنّ ذلك كان من أوائل الاحتفالات بعيد الشجرة في الوطن.

فلوريدا: فجر الأحد ٢٨-١٢-٢٠١٤

خُطبة لعيد الشجرة

لو أنه طَلب من مدير تلك الدائرة الرسمية، أن يكتب له خطبة عيد الشجرة القادم بعد أسبوع لما توانى، ولكنه فضّل -لنقص في الحكمة والإدارة- أن يستبقي هذا الموظف في عمله كي يكتبها له في أوانها، ويَحرمه بذلك غير مبال بحاجته إلى أن يُقضّي أياما مع أسرته في مدينته الشمالية.

كان هذا هو المحافظ في تلك المدينة الجنوبية. وأما كاتب خطبه، مدير الشؤون الاجتماعية، فهو مَن ينسُل كلّ يوم خيوطا من ذكرياته الحلوة والمرّة، ويقدّمها لكم خواطر وأحاسيس. والزمن، يا أصدقائي، كان الأسبوع الأخير من العام ١٩٥٩!

لم أكن أعرف الباعث على رفض المحافظ، ذي البدلة الخاكي، الموافقة على طلبي الإجازة، هذه التي إن لم أتمّع بها في حينه ضاعت عليّ في السنة التالية حسب التعليمات يومئذ.

طرقت بابه: «إنها الأيام الستة، يا سيدي، التي ادّخرتها لأقضّيها مع أسرتي وأطفالي!». هل ضايقته؟ رفع صوته ليكتم صوتي. ولكني تابعت مطالَبةً لم يستطع أن يُلجمها ضعفي. فأوعَزَ بسحبي إلى الحبس، بحجّة أني تهجّمت على مقامه السامي، وما كنت أمامه إلّا كمن يتسوّل حقّه من مستأثر لئيم!

احتُجزت في قسم الشرطة، في غياب الضابط رئيس المخفر وهيب. فلما جاء بدا متعاطفًا، وعمل على ترحيلي إلى قاضي التحقيق قبل أن ينتهي الدوام. وقاضي التحقيق عباس أغدق عليّ عطفًا، بأن أخذ إفادتي وأطلق سراحي فورا.

استُدعي كبير المفتشين في الوزارة، مظفّر بقاعي، الذي بدا لي متعاطفا أيضا، كلهم يتعاطفون لأنّ مواقفهم كانت نابعة من الضمير. وكان اقتراح أن أرافقه، في سيارته الرسمية، إلى العاصمة القريبة، وهو مطلوبي.

في الطريق كنت أتحدث إلى هذا الرجل النبيل وأستفيض في الحديث، وهو يبتسم تارة ويضحك أخرى، أقول: «وا ضيعة الخطب التي ألقمتُه إياها! كان يكلّف مدير المركز الثقافي أن يكتب خطبه، فلما استمع إليّ أُلقي في احتفال يوم الطفل العالمي اتّجه إليّ، هو يُملي عليّ أفكاره المبعثرة، وأنا أستصفيها، وأزوّقها، ثمّ أقدّمها له في نصّ مشكول الكلمات. في نفسي أن أعرف: من ذا الذي كتب له الخطبة التي يلقيها اليوم في عيد الشجرة؟» والمفتش، المنحاز إليّ، يضحك حتى اخضلّت بالدمع عيناه.

كان وزراء البعث السبعة، في تلك الآونة (أواخر العام ١٩٥٩)، قد انسحبوا من حكومة الوحدة، وكُلّف عبد الحميد السرّاج إدارةَ وزارتنا بالنيابة. وقد أخذ باقتراحِ أن أُنقل بوظيفتي إلى مدينتي أو إلى مدينة أقرب. ولم يشأ هذا الديكتاتور الصغير، أن يقدّم إليّ الإحسان إلّا مقرونًا بالإساءة. استدعاني، فدخلت مكتبه برفقة كبير المفتشين، وهناك ساءلني، أني تهجّمت على صاحبه (المحافظ التابع لوزارته، الداخلية)، ووجّه إليّ كلمات تليق بأخلاقه.

وما كان لهذه الواقعة وذيولها أن تبرح خاطري، أيها الأصدقاء، فصنعت منها عام ١٩٨٠ قصة سمّيتها كاتب الخُطب! عندما وضعت نصّها أمام عيني صديقي عبد النبي حجازي، رئيس تحرير الأسبوع الأدبي (عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق)، تحرّج. وكان في زيارته تلك الساعة عضو الاتحاد صفوان قدسي، فسأله رأيه فيها، فحذّره من النشر فإنّ فيها تعرُّضا لمقامات! عندئذ وجّهتها إلى مجلة البيان (عن رابطة الكتّاب الكويتيين)، ونشرت في صيف ١٩٨٢، ثمّ نزلت في كتابي "الألم على نار هادئة" (وزارة الثقافة ١٩٨٥، دار إشبيلية: ١٩٩٠، ٢٠٠٢).

والذي حرّضني، اليوم، على كتابة هذه الخاطرة أننا في يوم عيد الشجرة.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٢٨-١٢-٢٠١٤.

واختصر النظام المحنة بكلمتين!

المحنةَ التي يعاني منها الشعب منذ خمسين سنة، المتمثّلةَ في فقدانه الحريةَ والعدالة والمساواة. أليس غريبًا أن يَعْمد النظام، يوم هبّ الناس مطالبين بالحرية، إلى اختصارها بأنه باق في الحكم حمايةً للأقليّات من أن تقوم الأكثريةُ بذبحها!

ووصم الشعب بالإرهاب، وأمعن في قتله وتعذيبه، وفي التدمير والتهجير!

فلوريدا: فجر الإثنين ٢٩-١٢-٢٠١٤

من بيتِ حبيب.. إلى بيتِ حبيبٍ آخر

لم أجدني مهتمًّا للقيام بجَمْع حوائجي وأوراقي وأقلامي، وقد أزف موعد انتقالي من بيت ابنتي الوسطى سهير إلى بيت الكبرى سوزان (أمّ مازن وديمة ورامي)، هي التي حدثتكم بالأمس أنها جاءت بشتلة الياسمين من الوطن، وتعهّدتها، ثمّ عمّمت أزهارها بين الأهل هنا.

فجأة هلّت عليّ طلعةُ الحفيدين زين السباعي ورامي سعود. وبدأا بالعمل.

لم تكن أوراقي مبعثرةُ كثيرا، فأنا مرتَّب، وإنْ ظنّ من حولي أني أقلّ ترتيبا. ولكنّ زين –طالبة الثانوي المتفوّقة هنا– بدت لي مذهولة مما ترى من رِزَم الأوراق المعدّة لمرافقتي، فعبّرت: جدّو! ما هذه الكميات من الورق المخطوط والمطبوع؟، فتذكّرتُ مثلاً عاميّا في بلدي: "كل جْهازك يا أمّون، قماقم وصحون"، ولم أَبُح به، وداريت بسمتي، فقد كان تغيير المكان يُقلقني.

وأما رامي الذي حضرْنا قبل أيام في الجامعة حفل توزيع للشهادات نال فيه مؤهِّلاً في تكنولوجيا معلومات الكمبيوتر، فقد توجّه إلى حيث الكمبيوتر وشاشته الكبيرة، والطابعة وما يلحق بها، وأخذ يفكّ الارتباط هنا، ليعمل على وصله هناك.

وبتعاون ما بين الحفيدين وابنتي سهير وزوجها بشار، ووداع من غير دموع –فنحن معا

في كل يوم وساعة- وجدت نفسي والسيارة تتهادى بي في طريق تحفّه الغابات، ما بين الضاحية التي غادرتها في الجنوب وبين شارع ملبورن في الشمال، في بلدة بالم باي Palm Bay الوادعة. هل تعلمون كم هي المسافة بين بيتَي الابنتين، في هذه البلدة، التي يحلو لنا أن نطلق عليها وصف الضيعة؟ خمسة عشر كيلو مترًا! فتأمّلوا، أيها الأصدقاء، أية ضيعة هي!

استقبلتنا ابنتي سوزان وزوجها الدكتور عبد الجواد. وما هي إلّا سويعة حتى كان كلّ شيء مرتّبا: عُلّقت الملابس في الخزانة، وأُودعت الأوراق في مواضع مخصوصة. وأما رامي، فقد بادر يصل هنا ما فَصَل هناك. ولمّا همّ بالتشغيل سألني: جدّو، ما هي كلمة السرّ عندك في الفيس؟، أجبته: والله لا أعرف! وضحكنا، فقام يهتف إلى صهري بشار. وحيّا الله الأولاد والأحفاد والأصهار.

كانت فرحتي كبيرة لحظة جلست أمام الشاشة، قصد أن أعرف أنّ كلّ شيء بات على ما يرام. وأرسلت نظرة إلى رفّ قد انتظمت فيه مؤلّفاتي، التي استطعت أن ألمّها استعارةً من بيوت الأبناء هنا. نظرة لو تعلمون كم ذا تَحفِزني على الكتابة!

ودخلنا في هزيع من الليل، يوم أمس الإثنين، وقد بدا -بالمصادفة! - وكأنه هاربٌ من أيام الصيف! وددت، في منتصف الليل، أن أحدّثكم عمّا كان من أمري، لولا أنْ غلبني النعاس، ولكنّ النوم لم يستغرقني طويلا مع تغيير المكان، وهأنَذا أوافيكم بالتفاصيل التي آمل ألّا تكون مملّة.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٣٠-١٢-٢٠١٤

كلام في البصبصة

كان يُطلَق على فئة من رجال الأمن في سورية، ممّن لا يلبسون الخاكي، مصطلح التحرّي.

وأيام الوحدة شاعت بيننا كلمة المباحث، وكان لفظا ملتبسًا ومخيفا. ولكنّ المخابرات العسكرية في أنظمة الحكم الشمولي، منذ خمسينيات القرن الماضي، تجاوزت إلى ما ليس من صميم أهدافها، التي هي ابتداءً التعرّف على الجواسيس من الأجانب، وملاحقة المتخابرين مع العدو من أبناء البلد، فامتدّت يدها إلى المواطنين الذين يجاهرون أو يضمرون أفكارا سياسية مناهضة، وافتنّت في التشهير بهم، فوصمتهم بالخيانة والعمالة، وأخيرا هم إرهابيون.

ولقد قرأت أنه كان يسمّى، في الأندلس، رجل الأمن الذي يلاحق الناس في السرّ: البصّاص. وفي الرجوع إلى المعاجم تقرأ في مادة ب ص ص: بصبص الكلب: حرّك ذيله طمعًا أو مَلَقًا أو خَوْفًا، ممّا قد نعبّر عنه اليوم بالتوتر او الانفعال.

وفي اللهجة المصرية هناك فعل: بصّ يبصّ، بمعنى: نظر. في ديالوغ لعبد الوهاب تقول له المطربة معاتبة لتأخره عن الموعد: بلاش مغالطه تعال بص، دي مش دقيقه دي دقيقه ونص! ولكن يتولّد عندهم من هذا الفعل فعل آخر بَصْبَص، ويسمّى الرجل الذي اعتاد النظر إلى النساء بنيّة التحرّش: البصباص!

ثمّ اكتشفت أنّ لفعل يبصبص معنى أكثر بعدا. أذكر أني، وأنا طالب بالقاهرة أوائل خمسينيات القرن الماضي، كنا رفاقًا نمشي في رحاب الجامعة وبيننا طالبتان ثريا وجانيت، فمرّ بنا ضابط الأمن المكلف بحراسة الجامعة (وكان برتبة يوزباشي، نقيب)، فلما مضى شكت ثريا لزميلتها: شايفة، يا جانيت! الراجل ده ببَصْبَص لي!، فسألتُ وكنت أظنّ أنّ المعنى: يبصّ، ينظر، فأجابت: لا، مش كده وبس، بلعّب لي حواجبه!. ولأنّ هذا المعنى كان جديدا عليّ ولا تأثير له في نفسي، فقد عمدت إلى تحريك الحاجبين وأنا أقول: يعني كده؟، فأدارت وجهها خجلاً، وهي تقول: ما تعملش كده، يا فادل، عيب!

وللمرة الثانية على التوالي، آمل ألّا أكون أمللتُ!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٣١-١٢-٢٠١٤

بين البصبصة وحبّ المشاهدة!

رأيت التعليق يتوالى على الخاطرة التي أطلقتُها فجر اليوم بعنوان كلام في البصبصة، ما بين فاهم معناها مستسيغا لها، وذاهبٍ إلى مغاز أبعد. ولكنّ ما استلفتني، قولٌ في إحدى المجموعات لظريف يختصر المسألة: عمومًا، معظم الرجال بصّاصون ويسأل: ما رأيكم؟

فذكّرني تعميمه بما كنت وقفت عليه في مطالعاتي بعلم النفس، من متعة يشترك فيها الرجال عموما هي ما سُمّي حبّ المشاهدة، تقابلها عند النساء متعةُ حبّ العرض. ولا جدال في أنه يغدو شذوذًا إذا تبادل الرجل والمرأة هاتين المتعتين!

فالرجل يُمتعه أن يشاهد المرأة في أوضاعها، فإن هو أسرف في ذا دخل في حالة مرضيّة. والمرأة يُمتعها أن تعرض نفسها، وجسدها، أمام الرجال، فإن هي تمادت كانت في حالة المرض.

في اللهجة المصرية يسمّى الرجل الذي يتعاطى مشاهدة النساء، ويُدمن في ذا، بصباصا، ولم أجد في لهجة بلاد الشام مصطلحًا يقابله، وربما قيل عنه بطلّع النسوان، فإذا كان يمارس ذلك من مكمن قالوا يتلصّص، أما إذا تجاوز النظر إلى الفعل فهو متحرّش. ويندر أن يكون تحرّشٌ من جانب المرأة، فهي -إن أرادت- توسّلت إلى ذلك بما تملك، العرض المغري.

والله أعلم.

فلوريدا: عصر الأربعاء ٣١-١٢-٢٠١٤

الجزء الرابع

٢٠١٥

خمسة أعوام قبل الرحيل

الطالب ذو "الخط الجميل"

عرفه زملاء المدرسة يكتب فيهم "التقارير"، ويقدّمها إلى حيث يأتي مَن يصحبهم إلى قاعات الدرس مرشدًا.

وسبقتْه سمعتُه إلى الجامعة، فتحاشاه الطلاب هناك، قبل أن يعلموا أنه أضاف إليهم الكتابة في حقّ أساتذته الذين يتلقّى عنهم العلوم والمعارف.

وقُدّر له أن يُبادل زميلةً له الحبّ، فلمّا اختلفا أخذا يتبادلان الكتابة "بالخطّ الجميل"، ولكن لم يستطع أحدهما أن يوقِع بالآخر، لأنهما كانا في مضمارهما متكافئَين.

وفي ذلك جعل زملاء الجامعة يتندّرون بأنه لو اختلف مع أبيه لكتب فيه، لو لا أنّ أباه أسرع في الرحيل.

فلوريدا: فجر الجمعة ٢-١-٢٠١٥

رمية في كرة سلّة

فلوريدا ٣-١-٢٠١٥

كنت أمشي الهوينى، في الطريق الرئيس بالضاحية، تتناثر على جانبيه الفيلات، متراجعةً أمتارًا للفِناء وللزهر والشجر.

لمحت، في فناء ذلك البيت، أولادًا، سُمرًا وبيضَ البشَرة، يلعبون كرة السلّة بسلّة "واحدة"، يتداولون الكرة، ويُحوّمون، باذلين نشاطهم في هذا الأصيل الجميل.

فجأة... برز من بينهم مَن ينادي: «مرحبًا، جدّو!»، وأقبل عليّ. إنه "حمّودة"، ابن حفيدتي "ديمة" و"فرناس"، ويا لها من فرحة صغيرة اعترتني، وأنا أرى حفيدي يلعب مع هؤلاء الأولاد المتبايني الأصول العرقية، يتآلفون في اللعب، مثلما يتشاطرون الحياة، هنا، في هذه

الأرض الجديدة.

عانقته، وكأنني لم ألتق به منذ وقت طويل، مع أننا كنا أمس حول مائدة. عرّفهم بأني جدّه، ثمّ أسرع يصحّح بأني "جدّ أمّه"، فازدادوا تحديقًا بي!

دعَوني للعب، وقدّم لي الكرة فتى منهم أسمر. اعتذرت بأني نسيت اللعب بالكرة منذ أجيال. فطمأنوني بأنهم يسامحونني إن أخطأت الرمي، ويعتبرونها نقطة لي.

تناولت الكرة. أخذت أقدّر في خاطري الأبعاد. تقدّمت، مستفيدًا من امتداد قامتي (١٨٠سم قبل الشيخوخة!)، ورميت، فأصبت الهدف.

صفّقوا. هممت بأن أمضي. طلبوا مني هدفًا آخر. لم أستجب، حريصًا على أن أستمتع بهدفي الذي أحرزت.

ومضيت، وأنا أفكر: أعْراقٌ هنا تتلاقى، تتآلف... وفي وطني، أبناء أمة واحدة، "ذات رسالة خالدة"، يقصف مَن يملك السلاح، الناس حتى وهم نائمون في بيوتهم!

فلوريدا: فجر السبت ٣-١-٢٠١٥

الولدان "يصحّحان" للوالدين

تلقّى الوالدان اللغة الأجنبية في مدارس الوطن تلاميذَ وطلابًا، ثمّ منحتهما الغربة فرصة التحدّث فيها بطلاقة.

ولكنّ الولدين اللذيذين، اللذين أنجبا هنا، ما زال الصبيّ يهمس في أذن أبيه، والصبيّة تهمس في أذن أمّها: «بابا! ماما!... النطق بهذا الشكل غير صحيح... استعمال اللفظ هنا في غير موضعه...»!

والوالدان يتلقّيان "التصحيح"، وهما من الأعماق يضحكان.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٤-١-٢٠١٥

هل تسمحون لي أن أسترسل؟

تسمحون لي، أيها الأصدقاء، أن أتحدّث عن "حمّودة"؟

ذو ميول علمية هو، يطمح لدراسة الطبّ إمّا تيسّرت له الأمور، وهو يمارس فنونًا من الرياضات برع فيها بكرة القدم، التي يشارك بها في منتخبات الفتيان في المنطقة.

أحببت حمّودة منذ تعرّفت عليه يوم قدومي إلى وطنه الثاني هنا. كم وددت لو أجالسه، نتحدّث في الأدب، في الوطن الأمّ، أتبادل وإيّاه الأحاديث الحميمة، لولا أنّ لغة الغربة قد غلبت عليه. وهو يزور المسجد القريب، في يوم من كلّ أسبوع، ليحفظ -وأختُه "ياسمين"- سُوَرًا من القرآن الكريم. هل أزعم أني أحسّ به محرَجًا حين يخاطب جدّ أمّه، وهو يعرفه يجول في اللغة العربية كاتبا؟

وحمّودة يحمل -على عادتنا العربية- اسم جدّه "محمد شاهين طَلَس" (١٩٢٦-١٩٩٧)، الذي كان يعمل زمنَ الوحدة في سفارة الجمهورية العربية المتحدة في العاصمة اليوغسلافية. ثمّ كان أن شغل بعدُ منصبَ أمين "المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية" في الوطن، وفي حبّه لتراث أمّته سمّى ابنه باسم ذلك العالم الأندلسيّ، أول مَن فكّر في الطيران، "عباس بن فرناس".

أتمّ حمّودة، يومَ أمس السبت، الخامسة عشرة من عمره الجميل، فأحبّ والداه، حفيدتي "ديمة سعود" و"فرناس طَلَس" -المربّيان صاحبا أفضل مدرسة لتعليم الصغار في البلد- أن يحتفلا بهذه المناسبة، داعيَين أفراد الأسرة العشرين وعددًا من الأصدقاء، إلى احتفال صغير في إحدى الحدائق العامة.

لـمّا وصلنا تهمَّمَ الكبار في إشعال المواقد لشيّ "الشيش طاووق" الأبيض وأقراص "الكفتة" الحمراء، واستكملت السيدات ما كنّ بدأنَه من قبلُ: إعداد الموائد.

ووقفتُ أتفرّج، ويا لي من فُضوليّ لا يرتوي فيه حبّ الاطّلاع: الصغار يلعبون كرة القدم وفي طليعتهم حمّودة، وبالريشة الطائرة، ما أحلى عبثهم وصراخهم! مرجٌ وأشجار وأزاهير. طاولاتٌ ومقاعد وسقوف قُدّت من خشب الغابات. أناقةٌ حيثما توجّهتَ، ونظافةٌ تملأ بؤبؤ العين فلا ترى في الأرض ما ينبو عنه النظر. يلتزم كلّ مواطن بواجباته، متمتّعًا بحقوقه. لا يعتريهم خوفٌ من سلطان جائر، ولا يخضعون لمُبتزّ غادر. كلٌّ يعمل بعرق الجبين وينال ما يستحقّ.

أجل، كلّ شيء هنا نراه بديعًا، لولا أنّ حكّامهم يعتنون بشعبهم، على حين أنهم يستغلّون شعوب العالم ويَهضمون حقوقها، وأول ما هنالك، أيها الأصدقاء، أنهم زرعوا في قلب وطننا الكبير جسمًا غريبًا ما زالت تنمو فينا خلاياه السرطانية.

فلوريدا: فجر الأحد ٤-١-٢٠١٥

عالم سوري في أمريكا يحنّ إلى بيت الطفولة بحلب

في منشور، قدّمته قبل ثلاثة أعوام بعنوان «المشي في سوق العطارين»، عرض في التعليقات ذكرٌ لأستاذ كنت قد تلقيت على يديه علم الفيزياء وأنا في ثانوية المأمون أواخر أربعينيات القرن الماضي، هو الشاب "منذر مكانسي"، وفي انقطاعه عن التدريس في مدرستنا عرفنا أنه توجّه إلى أمريكا للتخصص، وهناك نبغ وصَعِدَ نجمه، حتى سمعنا -ونحن نتسقّط أخباره- أنه أصبح من كبار العلماء في موطنه الجديد.

أحد أصدقائي في العالم الافتراضي، الذي نرتع فيه بفضل "مارك زوكربرغ"، ظهر لي في

التعليقات أنه من أسرة أستاذنا النابغ وعارف بأحوال ابن عم أبيه، وقد استفسرته، وكانت هذه المعلومات الجديرة بأن يعرفها المواطنون السوريون عن أخ لهم، ذهب يومًا إلى حيث العلم والمعرفة، وتمتّع بحقوق العالِم كاملة. وما كان لذلك أن يُنسيه وطنه، وموطنَه الصغير، والحيَّ الشعبيّ الذي نشأ فيه، والبيتَ الذي تنشّق رائحته وهو طفل وفتى ورجلٌ في ريعان الشباب... اسمعوا.

سألني الصديق، قريبه، عما إذا كنت عرفت في تلك المدرسة الابتدائية (التي كنت آكل ما أشتريه من "الملبّس" من سوق العطارين وأنا في طريقي إليها في دوام ما بعد الظهيرة!)، فقلت: بل كان من أسرتكم أستاذٌ لي علّمني وأنا في ثانوية المأمون.

واستفاض بيننا في الحديث عن "الدكتور منذر مكانسي"، العلامة والمخترع، وهو مقيم في ولاية تينيسي، كان قد غادر الوطن عام ١٩٤٨... وبيّن لي القريب «أنه منذ حوالي ٢٠ عاما نشرت جريدة أمريكية عن حفل تكريم له لكونه رجل الاختراع لذلك العام في الولايات المتحدة». ووعد بأن يبحث عن هذا المنشور يترجمه ويعرضه.

وممّا قال: إنّ الدكتور منذر مكانسي ابن حلب كان يزور الوطن كل مدة، ويحرص على أن يصطحب في كل زيارة «أحد أولاده، "عنتر" و"طارق" و"ياسين" وابنته "دلال"، لتعريفهم بأفراد العائلة في حلب، وأنه كان يصرّ على النزول في بيت والده الذي عاش فيه، دار عربي في حي "دكاكين حجيج"، ليسترجع ذكرياته القديمة عن الطفولة والشباب، على الرغم من وجود كثير من البيوت لأقربائه في المنطقة الغربية الحديثة من حلب»، وأنه تلقى منه، قبل نحو شهر (من ذلك التاريخ)، سؤالًا عن بيت العائلة ما حلّ به في هذه الأحداث.

جرى الحوار يوم ٦ يناير، ٢٠١٥.

أفواه برائحة النعنع

صباح أمس الباكر كنت أنتظر حفيدتي "ديمة" لتُوافيني عند الساعة ٧: ٣٠، فنذهب معا إلى مشفى لمعالجة الأسنان، فتلقّيت منها أنّ حادثة وقعت في الطريق عرقلت السير، فالمرور بطيء. وعند وصولها هتفت وأنا بجانبها في السيارة إلى المشفى تُعْلمهم، فأجازوا لها التأخّر.

دخلنا المكان، فاستقبلتنا ممرضةٌ باسمة الثغر، وقامت بتسجيل معلومات أولية، تلتها مساعدة الطبيب، عاينت وصورت ورجعت في ذلك إلى "الملفّ" الذي اتّخذوه لي في الانترنت. وجاء الطبيب الأسمر، عاين واطّلع وتفاوض معنا، ثمّ قرّر "عملاً" جراحيًا في الفكّ العلوي من جانبيه، وأشاروا علينا أن أذهب إلى البيت، أتناول وجبة الفَطور، ثلاث بيضات متوسطة السلق (برشْتْ)، وأعود إليهم عند الساعة ١٢: ٣٠ لإجراء العمل!

وكان وصولنا إليهم قبيل الموعد بخمس دقائق. لم نر، من وراء الزجاج، أحدا في مكتبه، ولكنا قرأنا في مكان لافت، أنهم الآن في الغداء وسيعودون إلينا في ١٢: ٣٠ وأفواههم معطّرة برائحة النعنع!

ومع نَعْنعهم الذي عادوا وهو يفوح من أفواههم، انفرد بي الثلاثة، الطبيب والمساعدة والممرضة، في غرفة ضيّقة، عيونهم على الشاشة، وفي الأيدي المباضع و"المقالع". والطريف أنهم كانوا يتحادثون، وهم يعملون، بمرح ويضحكون، وأنا؟ أنا لا أعاني وجعًا يُذكر، لكن هل أزعم أني بدوت "حزينًا" أمام نفسي لأني أتخلّى عن أجزاء من جسمي رافقتني منذ نعومة الأظفار؟ «خُلقتُ ألوفًا...»!

ومن عجبٍ أنّ عملهم هذا، الذي لم يستغرق سوى ثلاثين دقيقة، انتهى بأن ركّبوا الجسر الذي كانوا قد بدؤوا بصُنعه لحظة طلبوا مني الذهاب لتناول البيضات الثلاث!

وخرجت أتّكئ على ساعد حفيدتي ديمة، أولى حفيداتي من البنات، وهي وُلدت في مدينة

"ليون" الفرنسية حين كان أبوها يتخصّص بالأشعة هناك، وفي الوطن تخرّجت في "كلية الفنون الجميلة"، وهي اليوم أمّ الفتيَين "حمّودة" و"ياسمين"، وتُدير وزوجها "فرناس" أحسن مدرسة لحضانة الأطفال وتعليمهم في المنطقة.

لم يسمحوا لي أن أتناول الطعام بالصورة الاعتيادية اليوم وغدا. ولكن ليس لهم أن يحجبوا عني الحقّ في أن أروي لكم هذه التفاصيل الصغيرة، في هذه السويعة من الفجر، أيها الأصدقاء الأعزاء.

فلوريدا: فجر الخميس ٨-١-٢٠١٥

مع الناشط الأستاذ هيثم المالح

كتب الناشط السياسي العريق الأستاذ «هيثم المالح»، تعليقا على الـ(C V) الخاص بي، المنشور في صفحتي اليوم الأول من يناير ٢٠١٥:

الأخ الأستاذ فاضل، اليوم وأنا في القاهرة ٩-١-٢٠١٥ أتصفّح كتابتك الرقيقة النابعة من رقّة قلب ورهافة مشاعر، تذكّرتك حين كنت تشرّفني في مكتبي في "الحلبوني" والذي لم يعد مكتبي فقد صادروه، وكنت تُهدي إليّ من وقت لآخر روائعك الأدبية، أعيش الآن متنقّلاً في الفضاء أقصد باب الكريم الذي لا يُردّ طالبه، لأرجوه أن يساعد أهلنا في سورية الحبيبة ويعيدنا إلى حضنها الدافئ.

[القاهرة: الساعة ٩ صباحا]

أخي المناضل في الحرية المحامي هيثم المالح

وهل لي أن أنسى أني كنت ألتقي، في مكتبك، بأهالي المظلومين، يطرقون بابك كالغرقى المتعلّقين بقشّة، آملين خيرًا من "تواصلك" مع كبار الأمنيين في البلد -ومنهم اللواء هشام

بختيار- الذين كانوا يدعونك أو يزورونك: مرة لاستئلافك، ومرة يتوعّدون، ومرة اعتقلوك بما اتّسعت له ضمائرهم من تهمٍ للمطالبين بالحرية.

وأذكر معاناتك في طباعة كتاب لك، ما كان للرقابة أن تُجيز نشره وهو يعرض موضوعات الحرية، فكنتَ تطبعه في السرّ متنقّلاً به من مكان إلى مكان.

وسوف أظلّ أذكر دخولي، في عام ١٩٨٠، "معتقل الشيخ حسن" سيّئ السمعة وزجّي في زنزانة ضيّقة، ومعرفتي بعد أيام أنك واحد من الثلاثة والعشرين من منتسبي النقابات العلمية الذين كانوا أول من رفعوا أصواتهم في عام ١٩٧٩ مطالبين بالحرية، وكنتم تقيمون في قاووش جماعي (زنزانة)، يُسمح لكم بالخروج للتنفّس نصف ساعة ظهيرة كلّ يوم، ويُمنع عني لأني كنت حديث الاعتقال معزولًا في منفردة. لم تَطُل إقامتي، ولبثتم في ظلام السجن -وا ألمي! - سبع سنين.

وأما تنقّلك، في هذه الأيام، «في الفضاء قاصدًا بابه الكريم»، فتلك صفحة تضاف إلى مواقفك في الدفاع عن حرية شعبك، أسيرًا كنت، أم طليقًا، أم منفيًّا.

أنحني لك، يا سيدي هيثم المالح، مناضلاً خالصًا من كلّ شائبة ومؤدّيًا أغلى ما هنالك، يوسع التاريخ لك مكانًا في أزهى صفحاته.

والحرية والأمان لشعبنا السوري الذي لن ينام على الضيم.

فلوريدا: فجر الجمعة ٩-١-٢٠١٥

الحرب والرؤية الحائرة

نُشرت مقالتي هذه في عدد كانون الثاني/ يناير من مجلة "بناة المستقبل":

... ودخلتُ، بعد أن انعقدتْ صداقةٌ أثيريّة بيني وبينها، على صفحتها، فسرّني أن أراهم،

أراهنّ، يُزْجُون إليها التّهاني بصدور رواية نقلَتْها إلى العربية، تولّت نشرَها مؤسسةٌ في إحدى عواصم الغرب، هي من تأليف كاتب أفغاني[١٧] يقيم في الولايات المتحدة الأمريكية، يحمل جنسيتها ويكتب بلغتها، تدور حوادثها حول الحرب المتمادية في بلاده، غولًا يفترس، وهجرةً قسرية، وفقرًا يعُمّ الشعب.

وفي حديث متوقّع، بين اثنين من الكتّاب السوريين في زمن الحرب، رأيتها -يا للعجب! - تندّد بشعبها، وتلوم كذلك نفسها، على ما فرّطت به في سابق أيامها من تصرّف تَبيّن لها فيما بعد مدى الخطأ الذي وقعت فيه... كيف؟

تقول إنها، وهي في بلدتها الساحلية الجميلة، بدت في مطلع شبابها حريصةً على أن تغادرها، تهجرها، باتجاه العاصمة دمشق، أملاً في تحقيق ما كان يتملّكها من طموح في مجال الثقافة والأدب. ثمّ إنها، بعد استفحال الأمور، لم تجد لها -تحت القصف والدمار- ملاذًا إلّا بلدتها الحَنون، المطلة على البحر ملتحفةً بالجبل، فعادت إليها، بأولادها قرّة العين، وبطموحاتها المجرّحة، وقد انتابها شعور بالحزن "لعقوقها" بلدتَها ليست تغفره لنفسها، وتقول: وإني أتحمّل وزر ما اعترى صغاري من الخوف والرعب جرّاء وجودنا تحت القصف في العاصمة هناك!

وأما الشعب، الشعب السوري الذي إليه تنتمي، فإنها تُلوي عليه وتقسو، تقول: «الحرب في بلدي، صنيعة أبنائها، هي "ردّ فعل" طبيعي من "القوى الكونية" على "الكذب" الذي نعيشه! هذا شعب كاذب بأكمله، ولا يعرف لأرضه قيمة، قد توقّف عن فهم معنى الوطن كليّا».

كنت أدرك أنها تقول هذا وهي في ذروة الانفعال والغضب.

---

(١٧) هو الروائي الأفغاني خالد حسيني. وتصدّرت روايته "عدّاء الطائرة الورقية" بعد نشرها، قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في الولايات المتحدة لمدة عامين.

«ولكنك تظلمين شعبك كثيرا، أيتها الكاتبة الشابة».

قالت: «أنا لا أقصد ظلمه، ولكنها الحقيقة المؤلمة كما تتراءى لي. توقّعْنا، وخابت التوقّعات».

قلت: «ألا ترين أنّ النظام خطّط لأن يستألف الضعفاء والمهمّشين منّا، فيجعلهم العصيّ الغليظة والأنياب الحادّة؟ وأن يشكّل طبقة من "الرأسمالية الرثّة" تبتزّ من هنا وتستدير لتعطي هناك؟ وأنه قلّم أظفار الشعب حتى سيّره كالقطيع، فلما تمرّد دفع إليه أولئك البؤساء يقتّلونه، وحاوره بالكيماوي والبراميل، والعالم ساكت لغايات... ما ذنب شعبك في هذه "اللعبة الأممية"؟ ». مؤكّدًا لها أن «ليس هناك شعب سيّئ، هناك حكومات رديئة. ألا انظري إلى جنوب إفريقية وماليزيا وتركيا، من يتولّى الحكم فيهم...».

هل أقول: إنّ الألم بلغ عندي مداه؟

وجاءني منها صوت حنون كأنه يريد أن يُعدّل من وجع القول: «أستاذي! أنت لا تعلم أنّ روايتك "ثمّ أزهر الحزن"، كانت أول رواية طويلة أقرؤها وأنا في السادسة عشرة من عمري طالبة في الثانوية، في بلدتي الجميلة، أقرأ فصولا منها وأنا أستقبل الأنسام تأتيني من البحر الذي هجرته ثمّ عدت إليه، ولتعلم يا سيدي أنّ روايتك هذه شكّلت عندي انطلاقة أقبلتُ بعدها على القراءة بشغف! ».

وما كان لهذا الكلام الرقيق إلّا أن يخفّف قليلاً من الألم الذي اعتصر قلبي، لِما تعانيه هذه المثقفة، التي تبدأ حياتها الأدبية بترجمة رواية عالمية، ولِما تَحْمِله من وجهات نظر حائرة، ذهبت بها بعيدًا جدا عن أرض الواقع... وعن أرض الوطن!

ماذا فعلت الحرب بالحجر، والبشر، وبالعقول النيّرة؟

فلوريدا: فجر الأحد ١١-١-٢٠١٥

ألاحظ أنّ المتصفّحين والمستفسرين

ألاحظ أنّ المتصفّحين والمستفسرين لا يطرقون الباب هنا، بسبب البرد المفرط والثلوج... تاركين المجال لي، أنا المقيم في بلد دافئ، أرنو من بعيد إلى الوطن، وأتعذّب في إشفاقي وحزني!

فلوريدا: مساء الأحد ١١-١-٢٠١٥

إيقاع المطر.. إيقاع الثلج

وآنَ للفنّيّ الشابّ أن يضبط له الأصوات في السمّاعتَين المرهفتَين على شكل جناحَي طائر، ويُثبِّت كلاًّ منهما وراء صِوان الأذن داسًّا العدسة في داخلها... ثمّ خُيِّل إليه أنه يخاطبه: انطلق، يا سيدي، واستمع إلى أصوات الحياة!

وقف على الرصيف، يشهد أرتال السيارات، ويستمع إلى ضوضائها المتواترة.

وبدأت السماء تنهلّ بالمطر، ولمّا وصل إلى البيت تحوّل المطر إلى وابل كثيف، ومن وراء النافذة وقف يُصغي. حدَّثَ نفسه:

إنّ إيقاع المطر هنا لمختلفٌ جدّا عن إيقاع الثلج هناك، حيث تُغطّي الثلوج الموت والدمار... لكن إلى يوم الذوبان.

فلوريدا: ليل الإثنين ١٢-١-٢٠١٥

عرائس وأبكار

كان يَرد في أدبيّاتهم أنّ الإقطاعيّ في الضيعة يطلب "العروس" إليه ليلة زفافها، يَفْتَرِعها، ثمّ يردّها إلى أهلها!

فنتألّم لذلك... إلى حدّ البكاء.

اليوم يختطفون العذارى والأبكار من الطرقات، وقد تُرى الفتاة بعد ذلك في السجن وعلى ذراعها طفلٌ لا تعرف أباه. ونسمع قهقهاتهم: كنتم تفترعون بناتنا!

فنبكي وحدنا.

فلوريدا: مساء الجمعة ١٦-١-٢٠١٥

ابتداع الموت البطيء

العالم يُبدع

في أن يزيد برفاهيّة الإنسان

وفي وطنٍ ما

يُبدعون

في أن يرموه في "مستودعات الموت"

دون غذاء أو كساء

ليموت بعضهم أمام بعض

موتًا بطيئا جدا...

فلوريدا: فجر السبت ١٧-١-٢٠١٥

الأسديّ، وتوثيق ما ينشر في "المأمون"

ورد، هذا اليوم الأحد ١٨-١-٢٠١٥، في مجموعة "التجهيز الأولى ثانوية المأمون ومعاوية بحلب"، بمنشور يتعلق بالموسوعي "خير الدين الأسدي"، ما يلي: «رفضت المكتبة الوطنية توظيفه فأهداها في خريف حياته مكتبة توازي ثروتها».

أرى أنّ في هذه العبارة ما يحتاج إلى توثيق:

فأنا أعرف الأسدي، في شتاء ١٩٤٩-١٩٥٠، موظفًا في دار الكتب الوطنية يقوم بوظيفة "مناول"، يجلس خلف نافذة أو كوّة تطلّ على قاعة المطالعة وإلى ورائه أرفف الكتب، يطلب المطالعُ، فيناوله الكتاب.

وكان الصديق "فريد جحا" قد روى لي -وهذه معلومة تحتاج إلى مزيد من التوثيق- أنّ الأسدي، يوم كان موظفا في البلدية، أملى عليه رئيسُها آنذاك المهندس مجد الدين الجابري، أن يعمل في الحملة الانتخابية لمصلحة سعد الله الجابري، فرفض، فنقله، أو حجب عنه ميزة ما، ذلك في حياة سعد الله الجابري (رئيس الوزراء المتوفى عام ١٩٤٧)، ولعلّ ما يؤكد ذلك أنّ الأسدي في نقمته على "آل الجابري" الكرام، تجنّى عليهم في "موسوعة حلب المقارنة" كلما تأتّى له ذلك، مخالفًا علمَه وموضوعيته، وأذكر أني كنت أرى جاري بدمشق، في عقد التسعينيات، رائد الرواية السورية المعاصرة الدكتور شكيب الجابري، لا يُظهر تقديرا لعلم الأسدي عندما أُثني على موسوعته (التي تبنّى نشرَ أجزائها السبعة معهدُ التراث العلمي العربي - جامعة حلب، خلال سنوات الثمانينيات، بعناية الباحث محمد كمال).

أقول هذا، لأنّ ما يُنشَر في مجموعة المأمون بات يُعدّ من الوثائق التي يُتوقّع أن يرجع إليها الباحثون في المستقبل، وذلك يدعوني إلى أن أتمنّى من الأصدقاء أن يتوخّوا الدقّة المتناهية فيما ينشرون من معلومات ووثائق. هل أقول: إنّ المجموعة أصبحت أشبه برئة يتنفّس فيها تاريخ حلب خاصة في محنتها الحالية؟

وتحيتي للغيورين على حلب وتاريخها، وفي طليعتهم المغترب "ناهد كوسا" الذي يزيده الاغتراب حبًّا لحلب الأصيلة.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ١٨-١-٢٠١٥

لماذا بكت السيدة السورية في المتجر الأمريكي مرتين؟

بعد أن قامت السيدة، جامعةُ التبرّعات النقدية من الطيبين في هذا البلد، بشراء كميّات من الحْرامات والمعاطف والبناطْلين والبلوزات والأحذية، دون أن تنسى الطواقي والقُفّازات، يعاونها فريقٌ من المتطوّعات، وحُمل ذلك كلّه إلى حيث يؤدّى الثمن... علمت عاملة الصندوق، السمراء، أنّ هذه المشتريات سوف ترسَل حالًا إلى ساكني الخيام أمام الحدود السورية في زمهرير هذا الشتاء، فأخذت الهاتف تتّصل، وتحكي، ثمّ تُبلغ السيدة -وهي تنحني لها تعاطفًا واحترامًا- أنّ الإدارة رأت رفع الحسم من ٢٥٪ إلى خمسين، فما كان من السيدة السورية إلّا أن أجهشت في البكاء.

وبعد أن استردّت أنفاسها، اتّجهت وصُويحباتها ثانية لشراء المزيد بما توفّر من مبلغ، وفي أثناء ذلك استحضرت في خاطرها أنّ مَن يقدِّم في الوطن مساعدةً للمهجّرين من بيوتهم، يُعدّ إرهابيًّا يساعد إرهابيّين، ويساق إلى المحكمة فينال حكمًا بالسجن يصل إلى خمس سنوات، فعاودها البكاء مرة ثانية.

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢١-١-٢٠١٥

«مو ألله خَلَقْنْ!»

في عام غير بعيد، كنت أتحاور مع صديق "منهم"، فتراءى لي أن أشكو أنّ كثيرًا من الوظائف والمناصب باتت مقصورة عليهم، فأجابني: «وشو يعني... مو ألله خَلَقنْ!».

وما رأيت جدوى في أن أقول له: طيب والآخرون؟

فلوريدا: مساء الجمعة ٢٣-١-٢٠١٥

ويلات الديكتاتورية

قُبيل شنّ الهجوم الأمريكي على العراق في آذار/ مارس ٢٠٠٣، تهمّمنا، نحن عددًا من كتّاب سورية وفنّانيها، للسفر إلى بغداد نصرةً للشعب العراقي.

وأذكر أننا، ساعة نزلنا من الحافلة العراقية أمام المركز الحدودي، ودخلنا قاعة الانتظار لإجراء معاملة الدخول، وتقدّمنا أنا وأحد رفاق الرحلة إلى صدر القاعة، حيث تمثالٌ نصفيّ للديكتاتور، باللون الذهبي، يختال بمهابته وغطرسته... أذكرُ أني قلت بالصوت الخفيض: وتجلب الديكتاتورية لشعوبها من الويلات ما ليس له حدود!

كان ذلك فجر الخميس الثالث عشر من آذار، وكان الرفيق هو الروائي خيري الذهبي... وما هي إلّا أيام حتى كانت الحرب قد اشتعلت، والتدمير ما زال إلى يوم الناس هذا مستمرًّا.

فلوريدا: عصر الأحد ٢٥-١-٢٠١٥

"شكرًا لله، أنه يوم جمعة! "

مع أنّ عشيّةَ أمس لم تكن "مساءَ جمعة" (بل مساء سبت)، إلّا أنّ المطعم، الذي قصدناه بقيادة حفيدتي "ديمة"، كان يحمل اسمًا ترتاح له نفوس تلاميذ المدارس الصغار، والكبار أيضًا: Thank GOD It is Fridey (ويختصر إلىTGIF)، وترجمته «شكرًا لله، أنه يوم جمعة»!

في البدء جلسنا في غرفة الانتظار إلى حين فرغت موائدُ في هذا المطعم المزدحم بِرُوّاده، وأعدّوا لنا واحدة ذات طول تتّسع "للقبيلة" التي أراني فيها الأكبر عمرا، نصفهم من الصغار، والربع شباب وشابّات، والباقي يعصف في هاماتهم المشيب.

أقبلت النادلة الشابّة تأخذ الطلبات. بعضنا أحبّ أن يأكل القريدس مسلوقًا أو محمّرًا، ولكنّ ثلاث سيدات طلبنَ لحمًا أحمر يتوارى بين طبقات خبز مستدير ممّا اصطلحوا في عصرنا

على أن يسمّوه "همبرغر".

ومع تأكيد ديمة للنادلة الشقراء أن يكون اللحم الأحمر في طيّاتها ناضجًا كفاية، خطر لي أن أحدّثهم -وما ظننت يومًا أني أُثقِل عليهم بأحاديث ذكرياتي! - أني حين كنت في باريس عام ١٩٧٨، كان يتاح لنا -نحن الموفدين الأجانب الذين نتّبع دورة- أن نتناول وجبة الغداء في مطعم المؤسسة التي نعمل فيها ونتدرّب، وكنت أوصيهم -كما الحال الآن- أن يكون اللحم الأحمر من غير دم، مطبوخًا جيدًا (Bien cuite) وأكرّر الكلمة مرتين تأكيدًا.

وجاءت الأطباق. شرعنا في أكل القريدس، نغمّسه بالتوابل ونتنقّل بالبطاطا المقليّة. وأما السيدات الثلاث، حفيدتي والكنّتان، فقد وجدنَ -بعد فتح الهمبرغر- أنّ اللحم فيها ليس ناضجًا على نحو ما طلبن. فاستدعينَ النادلة، التي غابت لتعود وهي تصطحب "مدير المطبخ"، فكان منه اعتذارٌ ووعد بتحقيق الرغبة.

ثمّ آن أن توضع أطباق ثلاثة على المائدة، وبدا فيها، أيضا، نقصٌ في الاستواء، فرأت الشابات الثلاث العدولَ عن اللحم الأحمر إلى غيره...

ثمّ ما رأينا إلّا ومدير المطعم تَهِلّ علينا طلعته، ليس ليُقدّم الاعتذار وحده، بل ليجعلنا نحن العشرين ضيوفًا عليه.

فلوريدا: فجر الأحد ٢٥-١-٢٠١٥

إني لأعجب

إني لأعجب من بعضهم

يشجب الديكتاتورية في مكان

ويستحسن أشكالًا منها في مكان آخر!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٢٦-١-٢٠١٥

التواري حتى الموت!

رأيت فيما يرى النائم، فجر هذا اليوم، أنهم اتّهموني بارتكاب جريمة لا أعرف من أمرها أيّ شيء، وأخذوني إلى القضاء، العادل، الذي أسرع يحكم عليّ بالإعدام.

وكانت الغرابة الأخرى أنّ القضاء فوّض مَن يدّعون أنهم "الضحايا" الذين ارتكبتُ في حقهم الجريمة، المزعومة، أن ينفّذوا فيّ حكم الموت! وهكذا وجدتني بينهم، وهم يمضون بي إلى خارج المدينة.

احتججتُ، بصفتي دارسًا للقانون، بأنه لا يحقّ للمجني عليهم أن يمارسوا بأنفسهم تنفيذ الأحكام بالفاعلين، فإنّ في ذلك تشفّيًا ومن ثَمّ انتهاكًا لمعنى العدالة. ثُمّ... لست أدري، خلال الجدل الذي اشتدّ بيني وبينهم، كيف تخلّصتُ منهم وغدوت طليقا.

ولكني كنت فقدت الأمان. فأنا أسير في الطرقات حَذِرًا مرعوبًا، وأتنقّل في الليالي بين بيوتٍ يخاف أصحابُها عليّ بقدر خوفهم من وجودي بينهم!

وعلى ذلك استيقظت... لأروي لكم هذا الحلم العجيب، لا لتتولّوا تأويله حسب تفسير الأحلام الموروث، ولكن لأخبركم بحال مواطن مضطرّ للتواري عن العيون حتى الموت.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٧-١-٢٠١٥

الحُزْن، بفتحتَين أيضا!

في عام بعيد زرتُ "الشاعر القروي" (رشيد سليم الخوري) في بيته ببلدة "البربارة"، وقدّمت له روايتي "ثمّ أزهرَ الحُزْن"، فرأيته يتأمّل الكتاب بين يديه، ويترنّم بالعنوان: «... ثمَّ أزهرَ الحَزَنْ»، ويلفتَ نظري إلى أنه "شطر" من بيتِ شعر موزون!

كان ذلك في خريف ١٩٦٣، وكنّا نمرّ ببلدته قريبًا من الساحل اللبناني، أنا والشاعر "فؤاد الخشن"، في طريقنا من بيروت إلى حلب.

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ٢٨-١-٢٠١٥

العودة إلى "الملتقى"

توجّه إلى النقابة يتسلّمُ التبليغ، ومن هناك إلى الاعتقال، دون أن يصحبه مؤازر، أو أن تكون في يده علبة دوائه.

لا أكاد أعلم أنّ صوتًا ارتفع مطالبًا بإطلاق سراحه، ما دعاني إلى أن أعتب على المؤسسة المنوطِ بها الدفاعُ عن أصحاب الحقوق المهضومة، وأرى في أهلها التقصير. وإلّا فهو التواطؤ!

بالأمس كتب لي: انتهت المحنة القاسية... أشكر...

كتبت له: بالحرية، التي تعتنقها إيمانًا وممارسة، أنت من رجال الوطن الأوفياء.

قال: شهادة أعتزّ...

قاطعته: على صدرك وسام... مدةٌ -وإن قصُرت- قضيتَها حيث الداخلُ مفقودٌ والخارجُ مولود.

إنه المحامي "عارف الشعّال"، القيّم على "ملتقى المحامين السوريين"... من أعماق القلب أحيّيه.

فلوريدا: صباح الخميس ٢٩-١-٢٠١٥

الأسديّ، أصوله العائلية

لا بأس في أن أتساءل عن أصول الأسدي العائلية. وإنّ للشعب السوري، ولأوسّع

المصطلح: إنّ للشعب الشامي خصوصيّةً يتميّز بها بين الأمم: أنه تألّف وأنه احتضن، عبر تاريخه الطويل، أطيافًا شتّى من الأقوام، إثنيّاتٍ وأعراقًا وأديانًا وطوائف، فاغتنى بذلك وأبدع الحضارات، التي ليس أولها "أبجدية أوغاريت"، ولا آخرها أيامنا الدامية التي نعيشها.

هل من يُدلي برأيه في أصول خير الدين الأسدي، أرسلان، العائلية:

أهي من حلب، أم وافدة إليها؟

عربيّة الأُرومة، أم أنها من عرق آخر؟

فلوريدا: منتصف ليل الجمعة ٣٠-١-٢٠١٥

ويقرأ موسوعة الأسدي الجميع

مع بداية عقد الثمانينيات، بدأت جامعة حلب في إصدار موسوعة الأسدي، تصل إليّ أجزاؤها واحدًا بعد الآخر وأنا بدمشق.

واتفق لي أن زارني في أيام شتاء بدمشق، أحد أقربائي الأقربين قادمًا إليّ من حلب، وكنت حينذاك منهمكًا في إنجاز عمل أدبي يأخذ جلّ وقتي، والقريب يلازمني البيت في أيام البرد، فأحببت أن أُسلّيه بأن قدّمت له جزءًا من هذه الموسوعة، وهو لم تكن عنده هواية المطالعة، فسألني، فأشرت عليه أن يقلّب صفحات هذا الكتاب "الحلبيّ" تقليبًا ليس إلّا.

الذي كان أني رأيت قريبي العزيز، بعد قليل، ينحني على الكتاب قارئا باهتمام، وصرت أسمع صوته يرتفع معلّقًا، وأحيانًا تأتيني ضحكاته حين يمرّ على النوادر والأمثال الشعبية.

أقول: إنّ هذا العمل، الذي سمّاه الأسدي "موسوعة حلب المقارنة"، يلذّ للقارئين بقدر ما ينفع الباحثين والمتابعين، وهو -من قبل ومن بعد- يُخلّد اسم صاحبه على نحو قد يكون أفضل ممّا بين الأبناء وآبائهم!

فلوريدا: مساء الجمعة ٣٠-١-٢٠١٥

١ حوار في جريدة "الوطن" - دمشق

العدد ١٦٨ يوم الاثنين ٢-٧-٢٠٠٧ أجراه: علي حسن (١من٤)

تقديم: إلى جوار أشجار الكبّاد[١٨] والنارنج وتحت ظلالها، وقبالةَ بحرة صغيرة مزدانة الألوان، في منزله الدمشقي، يعيش «فاضل السباعي» وحيدا وقد غازل الثمانين، بقامة فارعة لا تشوبها انحناءةٌ أو تثاقل، متواصلاً متفاعلا مع كلّ ما يجري.

لا يُخفي شوقًا، مغلّفًا بالعتب تارة وبالحنان تارة أخرى، إلى أبناء له وأحفاد يقيمون في بلاد الاغتراب.

كثيرًا ما يجنح إلى "الفانتازيا" في الكتابة طريقًا رحبا للتعبير و"اجتنابًا للمساءلة" وهو القانوني الذي يمارس الأدب كتابةً ونشرا منذ ما يزيد على نصف قرن، يكتب عن الفقر والفساد وعن "المغلوب على أمرهم" بحدّة وجرأة، ويُتّهم بأنه برجوازي.

* أستاذ فاضل السباعي، أنت تغازل الثمانين من عمرك المديد، ومع ذلك نراك في كامل بهائك تبزّ الشباب عطاءً وحيوية ونقدا صارما لما لا يروق لك من الأمور... ما السرّ في ذلك؟

** "إطراؤك" هذا الذي بدأت به حديثك، يجعلني عاجزا عن القول! ومع ذلك أتلمّس ما أعتقد أنه السرّ فيما تقول. إنه الصدق مع الذات. الثقة بالنفس والثبات على الموقف. القراءة المعمّقة لأوراق الزمن الماضي والحاضر والآتي أيضا. وأنت تلاحظ أني لا أدخّن. أحاول أن أمشي كلّ يوم. أكتب ما ينسجم مع مواقفي في الحياة لا مع ما أرتجي منه النفع القريب. أدمن مشاهدة الندوات في الشاشة الصغيرة. أحاور بمنطق يقولون إنه "قانوني" مثلما أحسن

---

(١٨) الأُتْرُجّ.

الإصغاء. ولكني -وهذا ما يُستغرب- أنام وأصحو دون نظام، فقد ألبث وراء الطاولة أو الحاسوب حتى مَوهنٍ من الليل.

* ظلّت أعمالك القصصية والروائية تتناول هموم الفقراء والمرأة والأطفال، ثمّ المثقفين المضطهدين حتى إنّ أحد النقاد سمّاك "أديب المثقفين"، هل استطعت أن تنتصر في أدبك لهؤلاء بالصورة التي تتمنّاها؟

** إن كنت تقصد "بالتناول" الاهتمام بهم والوقوف إلى جانبهم والدفاع عنهم، فإنّ هذا متحقق فيما كتبت طَوال مسيرتي الأدبية، فأنا ناصرت الفقراء والبسطاء والشعبيين منذ بدأت رحلة الكتابة أوائل الخمسينيات، فلما رأيت سماء الحرية تَغيم، وتغيب في ذلك أسباب الحرية، ظهر في أدبي القصصي "نموذج" المثقف المُعاني.

فإن كنت تسألني ما إذا تأتّى لي أن أرفع الظلم عنهم، فإنّ ذلك يخرج عن نطاق الأديب. الكاتب يُعبّر، يُصرِّح، يصرُخ، وأما تحقيق الغاية من الأدب فمرهونٌ بظروف أخرى.

دمشق الشام: تموز/ يوليو ٢٠٠٧

فلوريدا: فجر الأحد ١-٢-٢٠١٥

صديقي الفنان عمر حجّو

عرفت "عمر حجّو" بحلب، ونحن أولاد نلعب معا في الحارة التي سكنّاها صيف ١٩٤٢ في "حيّ الجميلية" بحلب منتقلين من "زقاق الزهراوي" بحيّ "ورا الجامع". وكنّا لفيفًا من الأولاد، منهم ثلاثة من "آل الحسن" (مجيد وفيصل وعادل). وإذا كنت أقودهم في اللعب بصفتي الأكبر بينهم، فإنّ عمر كان يفضُلني في خفّة الدم والإضحاك، ولكني أشهد هنا أنه كان له أخ يكبره بسنتين، في مثل سنّي، اسمه "محمد"، كان أخفّ ظلاً وأبرع في الإتيان بحركات

التهريج وسرعة البديهة في إطلاق النكات، وأعرف أنه قضى في أول شبابه.

وفي الخمسينيات، وقد غدوت في عداد الكتّاب، ظهر عمر ممثّلاً على خشبة المسرح بحلب، يشارك في التمثيليات المحلية التي يقدمها الهاوي الكبير "عبد المنعم اسبير"، وكنت قد جريت على أن أقرّظ هذه الأعمال الفنية بمقالات صحفية أنشرها في أشهر جريدة بسورية: "الأيام" بدمشق، وأشيد فيها بالأدوار التي يؤدّيها صديقي "عمر حجو".

ومع دخول التلفزيون إلى سورية في الستينيات، انتقل عمر إلى دمشق مشاركًا بفنه وخبراته التمثيلية. وأذكر أني التقيت به مصادفة في مبنى البلدية بحلب، هنّأته على دخوله التمثيل التلفزيوني من بابه العريض، وأذكر أنه اقترح عليّ أن أكتب نصوصًا درامية، وممّا قاله لي مشجّعًا: إنّ من يكتب القصص والروايات الطويلة لا يصعب عليه أن يكتب نصوصًا للتلفزيون!

وكان من تميّزه -كما نُمي إليّ- أنه هو مَن أوحى للفنان دريد لحام، وأسهم، في إبداع ذلك النمط المسرحي الذي سمّوه "مسرح الشوك"، "لوحات" تمثيلية انتقادية واخزة، تقدَّم على المسرح، منفصلاً بعضها عن بعض، ويجمعها أنها تلامس في نقدها الجوانب السياسية من حياتنا الاجتماعية.

وكنت أتبيّن، في الأعمال التي يشارك فيها عمر مع دريد، "ملامح" من "المشاغبات" التي كان يجترحها مراهقو "الجميلية"، من ذلك أنهم، في متابعتهم لبنات الحيّ، كانوا يستهدفون صَبيّة، يهودية، اسمها "ليندا ديّان" يسمّونها هم "أمّ حمدو"، فنظموا في حقّها "شِدِّية" مرحة تقول:

مِن بين سبع تمن عشر بساطير

سمعْنا دقّة بسطارك يا أم حمدو!

ذلك في الأربعينيات، فسمعتها في الثمانينيات تطلع محوّرةً في أحد أعمال دريد وعمر!

وللتوضيح: البسطار هو الحذاء العسكري، وتُلفظ البساطير بالإمالة الحلبية المستلطفة "بْسيطير"!

لن تفوتني الإشارة إلى أنّ شقيقة عمر قد نزلت إلى حقل التمثيل التلفزيوني. ولكنّ "إنجازًا" أكبر عائليًا لعمر: أنه أنجب "الليث حجّو" المخرج التلفزيوني المتميّز في عالم الدراما السورية.

والفنان عمر حجّو بيننا في خير.

فلوريدا صباح الأربعاء ٤-٢-٢٠١٥

المنحنيات الحنونة عند فنّيّ سماعة الأذن

من فلوريدا على الكرسي، أمام التقنّي المتخصّص بتقوية السمع، الشابّ "اندرو"، أجلس. هو يُعيِّر "السمّاعة"، وأنا أتابع كتابة خاطرتي.

تراءى لابنتي أن تترجم المضمون له، بفصاحتها. ومن عجبٍ أنه لم يستلفتْه قصفُ البراميل والغاز، فذلك ما بدا خارجًا عن تصوّراته، ولكنه أَنحى باللائمة على حكومة بلاده أنها مقصّرةٌ بحقّ الناس!

ولم يُخفِ استحسانه للخطّ العربي، وهو يراني "أرسم" بقلمي المنحنيات الحنونة، وأبدى إعجابَه بي إنسانًا يمارس "التحدّث"، وعهدُه بالمتردّدين على عيادته أنهم يمارسون الصمت!

فلوريدا: ضحى الخميس ٥-٢-٢٠١٥

وتُطلّ المستعربة الإسبانية من قاسيون على دمشق

واستقبلتُ بدمشق، في خريف العام ١٩٩١، ابنةَ غرناطة المستعربةَ الإسبانية Eloiza

Llavera Ruiz، التي تعمل أستاذةً للتاريخ الأندلسي بجامعة "لاس بالماس"، قادمةً من بلادها لتشارك في مؤتمر لـ"تاريخ العلوم عند العرب" (ممّا تتعهّده جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي)، وقد أكرمتْني بأن نزلت "ضيفةً" عندنا بدمشق، ثمّ سافرت إلى حلب، وصحبتها أسرتي في جولات في المدينتين.

كانت هذه السيدة المعنيّة بالتاريخ، تعبّر عن إعجابها بهذا الذي ترى، بما تملك من مفردات عربية.

وأمّا لحظة أطلّت من قمة قاسيون، في ليلة رقّ نسيمها، على دمشق، الرافلةِ بلألائها وجلالها، فإنّ لسانها نطق بعربيةٍ صافية: «هذا أسعد يوم في حياتي! »، ثمّ انتابتها حالةٌ من الوجد، فكفّت عن التعبير بالعربية، وأخذت تتمتم بلغتها كلامًا لم يفهمه أحدٌ ممّن حولها.

هل تذكّرتْ، هذه الإسبانية، مدينتها غرناطة؟ أم أنها تجلّت لها، في الشام المستلقية تحت بصرها، الأندلسُ، أندلسُها التي غَبَرت، فهزّها وجدٌ وحنين؟!

أقول اليوم: ألف آه تصعد من الأعماق، يا أيتها الإسبانية، العاشقة للتاريخ الأندلسي! لو تدرين ما تعانيه اليوم حاضرةُ الدولة الأموية، التي منها انطلقت جيوش الفتح، فقدّمت حضارة للعالم المعروف في زمانها!

[من تقديمي لكتاب "فضل الأندلس على ثقافة الغرب"، تأليف البروفسّور "خوان بيرنيت" Juan VERNET، نشر "دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع"، دمشق ١٩٩٧]

فلوريدا: فجر الجمعة ٦-٢-٢٠١٥

ولبستُ الطربوش طفلًا، لم أُستَشَر!

لمّا عادت أمي بي إلى البيت، سعيدةً بأنها سجّلتني في الصفّ الأول في ابتدائية الحيّ، أبلغتُ

أبي بالمطالب التي تلقّتها من مدير المدرسة، فأخذني أبي، في اليوم التالي، من يدي إلى "محلاّت النعساني" في آخر خطّ الترامواي في "خان الحرير"، واشترى لي تلك البدلة، الكحليّة اللون، تَزِينها الأزرارُ الصفراء اللامعة.

ولكنّ أمي ادّعت فوق ذلك أنّ مدير المدرسة "أمين أفندي الكرمان"، طلب أن يكون لي طربوش، وما رأيت أبي يشكّ في قولها، لأنه كان سائدًا في ذلك الحين (العام الدراسي ٣٥-١٩٣٦) أن يلبس حتى تلامذة الابتدائي الطرابيش. من ناحيتي فرحت أن يكون لي طربوش وأنا في السادسة من عمري، فتواطأت بصمتي مع أمي!

وهكذا مضى بي أبي إلى "سوق الطرابيشيّة" (أحد أسواق "سوق المدينة" الذي يعمل فيه)، فألبسوني هناك طربوشا على القدّ، أحمر قانيًا، ذا شَرّابة أحرّك رأسي فتهتزّ.

ثمّ إني ضقت بالطربوش، الذي أعرف أنه غير مفروض على تلاميذ الصفّ الأول، فبعضهم يعتمرونه وبعضهم لا، فأهملته، بل ازدريتُه، وسحبت منه الشرّابة. وذات يوم غافلت أهلي فأخذت المقصّ، وسرت به في الطربوش حتى جعلته شريطًا طويلاً، لففت جزءًا منه فأصبح "مسّاحة" ممّا تُزال به الكتابة بالطباشير عن اللوح (السبّورة)، قدّمتُها للمعلم "عبد المجيد أفندي سيريس"، الذي طلب من تلاميذ الصفّ أن يصفّقوا لي على هديتي.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٨-٢-٢٠١٥

رجُلٌ تحت القصف!

في ساعة القيلولة بهذا اليوم، التي هي في ساعات ليل الوطن، رأيت، فيما يرى النائم، أني أتجوّل في أحد شوارع الوطن، وهدير الطائرات العملاقة يملأ الفضاء. ونَجَمَ في عقلي أنّ إنذارا كان قد عُمّم على الشعب بأنّ الطائرات سوف تقصف!

من عجبٍ أني كنت أمشي الهوينى لا يداخلني شعور بالخوف، والشوارع خالية من المارّة ومن السيارات. وكنت أقول في نفسي: لأَمُتْ! وماذا يعني أن أموت؟ أنا لست أفضل من الذين يسقون التراب بدمائهم، ما أنا إلّا رجلٌ يعيش في "الوقت المستقطَع"، أخذت حظّي من الحياة، عاينت، وعانيت، وكتبت في كل ألوان الكتابة!

قريبًا من البيت صادفت رجلا يهرول، فتراءى له أن ينصحني: «أسرع إلى بيتك، واجلس أمام حائط سميك!»، ولم يخطر لي أن أحدّثه عن رأيي في الموت تحت القصف!

عندما دخلت البيت -الذي لم أره بيتي! - لاحظت أنّ جدرانه كلّها سميكة، فاخترت أغلظها، ثمّ تبيّنت صوتًا يصل إليّ، عرفت أنه صوت النظام، يُبَثّ بتَقَنِيّة عالية جدًا، وكان حديثًا عن منجزاته، التي منها تفوّقُه على المعارضة في آخر جولة للمفاوضات، وتفوّقٌ متكرر في مجلس الأمن، ويزعم في ذلك أنه بنى البلاد، ورفع العماد، وأعزّ العباد.

وجلست، ملتفِعًا بِحرام[١٩]، أتابع الإصغاء وأنتظر المصير.

واستيقظت... لأروي لكم هذا.

فلوريدا: مساء الأحد ٨-٢-٢٠١٥

قصر فوق مرتفع يُطلّ على البحر

في حواري بجريدة "الوطن" (دمشق ٢٠٠٧، أدناه)، وَرَد أنّ رئيس تحرير مجلة "المعرفة"، قرأ مخطوطة قصتي "أحلام العاشقين" «ووافق على نشرها بعد تحفُّظ!»، فجاءني صديقٌ يسألني أمس، على الخاص، أن أحدّثه، أحدّثكم، عن موضوع هذه القصة، وأشرح معنى كلمة «تحفّظ»!

(١٩) غطاء

ومع ترحيبي بهذا السؤال، الذي يدلّ على ملاحقة أصدقائي لي في كلّ كلمة أقولها، أبيّن، بعبارتين، أنّ هذه القصة تحكي أشواقَ المواطنين -المثقفين منهم خاصة- إلى الحرية يتنسّمون أنفاسها، وقد أعيتهم ضروب الفساد المستشري وجرّحت أفئدتهم، ومن ذلك أنّ بعض "الفاسدين"، يبادرون -بعد انتهابهم أموال الشعب والوطن- إلى اتّخاذ البيوت، بل القصور، يركَنون إليها مطمئنّين إلى سوء ما يفعلون، وأعترف أنه كان في القصة مرورٌ على واحد من هؤلاء، «بنى قصرا فوق مرتفع يُطلّ على البحر، مؤلّفًا من طابقين، وستّ وستّين حجرة، وسبعة صالونات، مؤثّثة بأفخر الرياش[٢٠]، كما في الأحلام، وفي حديقة القصر مبانٍ للخدم والحشم، ومرائبُ للسيارات، واصطبلات»... وما شاء كاتبٌ قصصيّ، يسكن بيتًا بالأجرة، أن يدع خياله يشطّ ويترك يراعه يخطّ!

كتبت القصة في صيف ٢٠٠١...

وبدا أنّ رئيس التحرير آنذاك، كان يعرف أنّ ما رنّق فيه الخيال كان واقعًا ملموسًا محسوسًا، فقد فعلها "أحدهم" على نحو ما وصفت القصة، لفتني إلى ذلك بعبارات غامضة أولًا، ثمّ في لقاء تالٍ فهمت منه أنه سوّى الأمر، ويبدو أنه حذف من القصة القصر ومنشآته، ولم يبادر إلى تقديمها للنشر في أقرب الأعداد، بل جعلها "في الدور"، وهو يعلم أنه ماض إلى التقاعد عمّا قريب، فلما جاء الخلف وعرف ما سلف، ادّعى لي بأنه عرض القصة على "الوزيرة" (وما أظنّ هذا صحيحًا) فأيدته في استبعادها، ووعدني: «دع الأمر لي، سأعرضها ثانية عليها حين تكون مروّقة»!... فبعثت بالقصة غير معنيّ بالوعدِ إلى مجلة "العربي" الكويتية، التي نشرتها في العدد (٥٣٨) أيلول ٢٠٠٣... ويا لي من كاتب مثير للمتاعب، رغم التحجيم والتهميش!

من منبري المتواضع هنا، أحيّي مجلة "العربي"، طويلة العمر عاطرة الذكر، التي ما أرسلت

---

(٢٠) الأثاث الفاخر.

إليها نصًّا من هذا القبيل إلّا تهمّمت لنشره، وهم يقولون: "مجلة محافظة" ويحتكرون "التقدميّة"! فلوريدا: فجر الأربعاء ١١-٢-٢٠١٥

ذكرى تعود إلى العام ١٩٦٤

تلقيت اليوم الرسالة التالية من الصديق "جميل الحَمُو" بدمشق:

منذ حداثة سني أحببت الشعر والأدب لما كان يُقرأ في بيتنا في مدينة "الباب" (في الريف الشرقي لمدينة حلب)، وعندما أصبحت يافعا منّ الله عليّ بمعرفة اثنين من مبدعي الأدب في وطني، الشاعر مصطفى البدوي الملقب بـ"زوربا العرب" رحمه الله، والكاتب الروائي الكبير فاضل السباعي أطال الله عمره.

وأحبّ أن أذكر الآن أني قرأت في العام ١٩٦٤ في مجلة "الأديب" اللبنانية، أن الأستاذ فاضل السباعي يعاني آلامًا في ظهره نتيجة الإكباب على الكتابة، فخطر لي -وأنا دون العشرين من العمر- أن أكتب له إلى عنوان عمله في مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل بحلب، أسدي إليه "نصائح صحية"! وإذ به يردّ على رسالتي مع نسخة مهداة من روايته الكبيرة "ثم أزهر الحزن".

هل كانت قراءتي للشعر في بيتنا المتواضع، وأني تلقّيت هذه الرواية الرائعة وأنا في تلك السن، دور في نزولي إلى عالم الصحافة؟

وكان أن التقينا بعد ثلاثة عقود وأنا أحرر مجلة أسبوعية بدمشق، وغدونا أصدقاء، وفاجأني بصورة فوتوكوبي لتلك الرسالة القديمة. وقد عرفت أنه يملك أرشيفا من الرسائل لا نظير له بين كتّاب هذا الزمان.

وفي مجلتي نشرت حوارا معه طويلا أفتخر به، وأكرمني بأن كتب مقدمة لأحد كتبي.

أنسام من الذكريات عطّرتني وأنا أقرأ خواطره اليوم، دفعتني لأن أكتب هذه الكلمات

البسيطة، وأضيف أني لا أذكر أني سمعت له صوتاً أو نبرة عالية، وهو يتمتع بتواضع قلّ نظيره، وأشهد أنّ مجتمعنا الثقافي لم يعطه حقه. له كل الاحترام والمودة الصافية. [دمشق: ظهيرة الثلاثاء ١٠-٢-٢٠١٥].

فلوريدا: مساء الثلاثاء ١٠-٢-٢٠١٥

لغتنا العربية، هل يمكن "القبض" عليها!

قلت لها: أهنّئ نفسي بأني أكتشف فيك كاتبةً تتنفّس ألم الوطن شهيقًا وزفيرًا، وتُتقن التعبير بالكلمات الحنونة... ولكنّ هذا لا يمنعني من أن أبدي الرأي في أخطاء تتعلّق باللغة حتى يَنْقى نصُّك من العثرات. ولتعلمي أنّ لغتنا العربية صعبٌ "القبضُ" عليها!

كتبت لي: بصراحة، دخولي "كلية... " أعاق تقدّمي باللغة، لذلك أحسّني دائمًا خائفةً من الكتابة ومن الوقوع في الخطأ. أنت تشجّعني، يا أستاذي الغالي، كاتبةً وتنصحني تلميذة!

قلت: لا حرج. لا زلت أنا حتى هذا العمر، ألجأ إلى أصدقائي الأكاديميين، أحاول أن أُتمم بسؤالي لهم لغتي. إني في الليالي أتّصل بهم هاتفيا: بالدكتور محمود الربداوي (عميد كلية الآداب بجامعة دمشق سابقا) وبالأستاذ محمود فاخوري (أستاذ الآداب بجامعة حلب)، أسألهما بشجاعة!

ولم ينته الحديث...

فلوريدا: عصر الجمعة ١٣-٢-٢٠١٥

القتل والخجل!

ممّا يلاحظ، في جريمة قتل الشاميين الثلاثة (سوريّ وفلسطينيتين)، أنّ المجتمع الأمريكي، في محاولةٍ للتقليل من هول الجريمة المروّعة، يسعى -بخزي وخجل- إلى أن ينفي عنها دافع

الكراهية الدينية والعنصرية، عازيًا إيّاها إلى عصبية في مزاج الجاني.

ولكنّ الحاكمين في بلدٍ ما، ما زالوا يقصفون مواطنيهم بالصواريخ، حتى وهم نيام في بيوتهم، بحجّة أنهم "إرهابيون"، متلقّين في ذلك الدعم المادي والمعنوي واللوجستي من العاصمتين الأجنبيتين موسكو وطهران، في وَضَح النهار، ونرى أحد المهووسين الإيرانيين، ذاك الذي يدير ما يُسمى "مقرّ عمار الاستراتيجي لمكافحة الحرب الناعمة الموجهة ضد الجمهورية الإيرانية"، يرفع صوته مردّدًا بأنّ سورية تشكّل "المحافظة الرقم ٣٥ لإيران"، ولم نعلم أنّ أحدًا ألقَمَ هذا الوقح حجرًا.

فلوريدا: صباح الجمعة ١٣-٢-٢٠١٥

فَطور على مائدة مرتّبة!

لا أدري لماذا أعود بذاكرتي اليوم إلى "لوحة" ما زالت تتراءى في خاطري منذ سبعين سنة ويزيد، يوم كنّا تلاميذ في المدرسة الابتدائية، يدرّسنا مديرُها الرياضيات، وهو المعروف بشدّته، وكذلك بتقريعه المستلطف للتلاميذ المقصّرين.

وقد بدا لنا حريصًا على أن يعطينا دروسًا في الرياضيات، "إضافية" صباحية، طوال الشهر الأخير من العام الدراسي الذي سبق امتحان الشهادة الابتدائية، التي كنا نسمّيها زمنَ الحكم الفرنسي "السرتفيكا"، وكان "الوقت" يساعد، فلم يكن هناك تقديمٌ للساعة وتأخير، فكنّا نحضُر إلى المدرسة عند السابعة والشمس طالعة، ونبتدئ الدراسة النظامية في الساعة الثامنة.

وكان يتفق لبعض التلاميذ أن يحضُروا الدرس متأخّرين، فيستقبلهم أستاذنا المدير بعبارات تقريع منتقاة تشكّل كلّ منها "لوحةً فنية"، وكان يروق لنا خاصة ما يوجّهه إلى زميلنا "مأمون"، الذي ينتمي إلى أسرة حلبية عريقة، ويتحلّى بوسامة وأناقة ولطف معشر، فكان الأستاذ يترك

الشرح جانبا، ويسترسل في التقريع.

يقول (وإني هنا "أُفَصِّح" بعض العبارات): «جيت، يا مأمون، يا ابن الأكابر والذوات! معلوم، لازم تتأخّر، لأنك لا تتناول فطورك إلّا على المائدة، مربّى المشمش، مربّى الكرز والسفرجل، زبدة، جبنة قشقوان، خبز أبيض، و"مامونيّة" من عند "المستّت"، والوالدة تقول لك: "كول يا حبيبي، واتهنّا"! وأما نحن، الفقراء، فإنّ أحدنا يأخذ "الرغيف البيتوتي"، ويتسلّق "الكتبيّة"، يَلُتُّه بصحن الزيت ويغمسه بصحن الزعتر، ويعلكه وهو في الطريق!».

كان يطربنا سماع هذه "المعزوفة"، وكان زميلنا مأمون يبتسم وهو يتلقّى، وتبرق عيناه الزرقاوان مبتهجًا، وللعلم لم يكن مأمون من التلاميذ الكسالى، وقد ترافقنا في "ثانوية المأمون" حتى البكالوريا، ثمّ نال إجازة الحقوق من "الجامعة السورية" بدمشق وغدا محاميًا ناجحًا.

وقد علمت أنه كان يشكو لبعض أصدقائه الحميمين شقاءه في حياته الزوجية، ونُقلت عنه عبارة: «نحن "النوبليسّ" لا نسعد في زواجنا!»، ويؤسفني أني لم ألتقِ به، بعد انتقال عملي إلى العاصمة قبل خمسين سنة، وقد رحل إلى العالم الآخر قبل نحو عشر سنين.

رحم الله مديرنا ذا الضمير اليقظ، وزميلنا الحبيب مأمون، والراحلين من تلامذة ذلك الصفّ الذي أظلّنا سقفُه في العام الدراسي ١٩٤٢-٤٣، في ابتدائية كانت تسمّى "مدرسة الملك فيصل"، القريب موقعُها من "ثانوية المأمون" جنوبيّ "حيّ الجميلية".

فلوريدا: ١٥-٢-٢٠١٥

مدرسة من طابقين

كان مبنى "مدرسة الملك فيصل" الابتدائية (العام الدراسي ١٩٤٢-٤٣، انظر خاطرة أمس)، مؤلفًا من طابقين اثنين، يعلو أحدهما باحة المدرسة بدرجات عشر أو نحوها،

وينخفض الطابق السفلي مثلها.

وكان الترتيب، الذي جرت عليه إدارة المدرسة، أنها جعلت في الطابق العلوي شعبةً من كلّ من الصفوف الخمسة المزدوجة، يلبث تلاميذها حيث هم شهرًا كاملاً، ثمّ بتدبير حكيم من الإدارة، تنتقل هذه الصفوف، في مطلع الشهر التالي، إلى الطابق السفلي، متبادلةً الحجرات مع الشُّعَب المناظرة، وذلك عدلًا من الإدارة في أن يتمتّع التلاميذ كافّةً وبالتناوب بالطابق العلوي، بما يتخلّله من شمس، وهواء، وبُعدٍ عن الرطوبة.

ذلك، أيها الأصدقاء، كان في بلدي المتحضّر، سورية، أيام الحُكم الفرنسي الغاشم.

وأما زمن "البعث" فإنّ التلاميذ "المنتسبين" يتقدّمون الصفوف، ويُحوّم حولهم، ساعات الامتحانات، المعلمون يلقّنونهم. ووقَعت في ذلك أشياء أبعد، ليس أكبرَها أنّ معلمًا نطق في أثناء الدرس بما لم يُرضِ طلابًا في "شبيبة الثورة"، فقاموا يهمّون بضربه، لولا أن فتح باب الصفّ وأخذ يعدو في الباحة باتجاه الباب، ناجيًا بما تبقّى من كرامته، ثمّ لم يعد إلى المدرسة أبدًا.

ويسألون: لماذا قامت الانتفاضة؟

فلوريدا: فجر الإثنين ١٦-٢-٢٠١٥

حتى يطمئنّوا.

بعد أن نهضنا عن مائدة العشاء، وانتقلنا إلى حيث نتناول قهوة المساء، ومنّا مَن نصب أركيلته التي جاء بها من الوطن، وبدأنا أحاديث السَّمَر، لاحظنا أنّ أحدنا اعتراه بغتةً جحوظٌ في العينين غاب فيه عن وعيه لبضع ثوان.

هُرع الشباب يتّصلون بالإسعاف، وما هي إلّا هنيهة حتى كانت تقف بمحاذاة الرصيف سيارةٌ كبيرة ممطوطة، تشكّل مع غيرها وحدةَ الإسعاف الثلاثيّة.

استقبلْنا الرجالَ القادمين.

فأمّا جماعة الإطفاء والشرطة فقد انسحبوا حين تبيّنوا أنْ لا محلّ لهم. وشمّر رجال الإسعاف عن سواعدهم، فقاسوا الضغط، وعاينوا القلب، وجسّوا النبض، وحلّلوا الدم ارتجالا، ثمّ أعلنوا أنْ لا خطر، ولكنهم أشاروا بأنه يجب أن يُحمَل المسعَف إلى المستشفى احتياطًا بحسب التعليمات.

ولأسبابٍ، أبدى بعضنا الرغبة في أن نُقِلّ نحن رجلَنا إلى حيث أشاروا، ثمّ إنّ رجال الإسعاف تلبّثوا أمام البيت حتى إذا رأونا نتوجّه إلى المستشفى اطمأنّوا، وقيّدوا في تقريرهم – على نحو ما نعلم– أنّ المهمة أنجزت على الوجه الأكمل.

ومضوا، ومضينا.

فلوريدا: الثلاثاء ١٧-٢-٢٠١٥

رسالة من كاتبة ناشئة دمشق ٢٨-٩-١٩٩٨

رسالة تلقّيتها من كاتبة ناشئة قبل سبعة عشر عامًا. شابة جامعية في ربيعها الخامس والعشرين. ساءها، يوم وقع في يدها كتابٌ من تأليفي لأول مرة، أنها لم تسمع باسمي من قبل وهي المولعة بالمطالعة والمحبة للأدب.

أنشر رسالتها اليوم طاويًا اسمها، إن شاءت –وإنّ لها اليوم نشاطًا في شبكة التواصل الاجتماعي– علّقت وبيّنت. والرسالة طويلة، منمّقة العبارة، ومكتوبة بالأزرق، وأحيانا بالأخضر والأحمر. أنشرها في حلقات ثلاث:

١- «وتعرّفتُ بالمصادفة على أعمالك» (١من٣)

سيدي الفاضل، الصدفة البحتة تلك التي جمعتني بمؤلفاتك.

كنت أمام صفوف وصفوف من الكتب الأدبية في المكتبة المركزية [بجامعة دمشق]. وللأمانة أقول: كنت أبحث بين عشرات الكتب الروائية والقصصية عن روايات يوسف السباعي، وتركيزي على كلمة "السباعي" جعلتْ نظرتي تتركز حول اسم يحوي الكلمة التي أبحث عنها. ولكن الاسم مختلف... فاضل... يوسف... تركتُ مؤلفاتك -ويا لسوء ما فعلت- وعدت باحثة عن مؤلفات يوسف السباعي. مؤلِّف سمعت به وقرأت له، وأحببت الاستزادة بالاطلاع على مؤلفاته الأخرى، ولم أجد غايتي... ورأيت أن من السخافة العودة بأدراجي دون أن أختار لي من كلّ الروايات والمؤلفات الأدبية التي تصطفّ أمامي ولو رواية واحدة. لذا وقع اختياري على البعض من مؤلفات حضرتك سيدي الفاضل...

قلت في نفسي: لعل كل بيت السباعي مبدعون، مميزون... فلمَ لا أقرأ لـ فاضل السباعي، لعله شقيق يوسف السباعي أو لعله قريبه؟!

وفعلاً اخترت من مؤلفاتك ثلاثة: "الطبل" و"حياة جديدة" و"اعترافات ناس طيبين"، وبعد اختياري ما اخترته لامست يدي صفحة الغلاف الداخلية، وقرأت لمحة عن حياتك سيدي، ففاجأني أنك سوري/ حلبي الأصل/ ولستَ مصريا حال يوسف السباعي. حينها فقط استبعدت كونك قريبه، ولكني لم أستبعد فكرة اختياري لقصصك، وفضولي لقراءتها والاطلاع على مكنوناتها.

وقرأت... قرأت القصص... حقا قرأت وكررت فعل القراءة... ولشدّ ما أذهلني وجود مؤلِّف بهذه الثقافة والأسلوب والإبداع في بلدنا ونحن عنه غافلون ومتراكضون لمؤلف مصري، لا أعتقد ولا يعتقد أي مطالع غيري أنه يتفوّق عليك إبداعا... إنما العكس تمامًا؟!

[(.....) دمشق: ٢٨-٩-١٩٩٨].

فلوريدا: الخميس ١٩-٢-٢٠١٥.

الذي قرأ التاريخ، وبكى!

وأخذ يقرأ، منتشلاً نفسه من واقعه للحظات، عن الحضارة التي أقامها الأجداد في الأندلس، من بناء للفنادق والمطاعم والحمّامات والحوانيت والأسواق، وممّا يحتاج إليه التجار والمسافرون من خدمات على طول مسالك السفر، وقد بلغت من الكثرة في البلاد حتى شاع الخبر في الآفاق بأنّ المسافر حيثما سار يجد الحوانيت في الفلوات والأودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والسمك وغير ذلك.

وضع الكتاب جانبًا.

وخرج من بيته يمشي كالمذهول، فقادته قدماه إلى حيث كانت قد سقطت، ليلة أمس، قذيفةٌ فوق بناية، فرأى الناس ما زالوا ينبشون التراب والخراب، بالمعاول، وبأيديهم وأظافرهم... بحثًا عن ناجين.

ودون أن يشعر... وجد نفسه يبكي!

فلوريدا: الأربعاء ١٨-٢-٢٠١٥

الفنان غسان السباعي، والشفافيّة في أعلى درجاتها

رحل عن عالمنا أمس، بدمشق، الفنان التشكيلي المبدع "غسان السباعي"، الأستاذ بكلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق.

كثيرا ما أتحفني ابنُ العمّ بإبداعه، الذي يتميّز بمستوى عال من الشفافيّة الفنية المطيّبة بالنزعة الإنسانية الرحيمة.

وماذا أذكر من كتبي التي حَنَت عليها ريشتُه البديعة المعطاء؟

"ثمّ أزهر الحزن"، "اعترافات ناس طيبين"، "الألم على نار هادئة"، "الشوق واللقاء"، "حياة

جديدة"، "الطبل"، "بدر الزمان"... ولن أنسى الغلاف وكلّ لوحات القصص في كتابيّ الموجّهين إلى عالم الصغار: "هديل اليمام" و"العصافير تستحمّ بماء البركة"... ذلك كلّه قبل أن تنضمّ إليه في تزويدي بالأغلفة البديعة ابنتاي التشكيليّتان سهير وخلود.

قد خسرت الحياة التشكيلية في وطني برحيل الفنان غسان السباعي كثيرًا. تغمّده الله برحمته.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٢٢-٢-٢٠١٥

تحويل رواية أدبية إلى عمل تلفزيوني

في الأدبيّات أنه لا يُحسن أن يَنشر الكاتب رسائله التي كان وجّهها إلى الآخرين، إلّا في الحالات النادرة، وله أن ينشر رسائل الآخرين إليه إن كانوا من الراحلين، ويستأذنهم في ذلك إن كانوا على قيد الحياة، فقد يكون في نشرها ما يُحرجهم.

رسالة "رانيا بيطار" إليّ، المطوّلة، تلك التي يعود تاريخها إلى العام ١٩٩٨، طلبتها بالأمس من دمشق، ونشرتها مُغْفَلَةَ الاسم فحرّرتها بذلك من تلك المواضعات، وبيّنت أنّ لصاحبتها أن تصرّح باسمها فتزيد الرسالة أَلْقاً... هذا إلى أني رأيت في الرسالة نكهةً، ولها دلالة.

فأما النكهة ففي أنها كُتبت بأنامل كاتبة شابّة واعدة، ثمّ صدقَ الوعدُ فأمست "كاتبة سيناريو" بين من يمارسون هذا الفنّ الجميل في وطني الحبيب.

وأمّا الدلالة، ففي أنّ الرسالة بيّنت لي -وكان قد مضى عليّ كاتبًا نحو خمسين عامًا- أنه ليس يعرفني من المثقفين في وطني إلّا قليل منهم، ويجهلني خريجو الجامعات. وذلك لافتقاد روح الإنصاف والنزاهة في الحالة الثقافية عندنا.

والحقّ أني لم آت بشيء يوم تلقّيت الرسالة، قلت في نفسي: هذه أوهام شابة تجرّب الكتابة،

وحلُمٌ لي غير قابل للتحقيق!

ثمّ كان أن هتفت إليّ صاحبتها، وبعد زيارات وافقتُ على أن تشتغل في إعداد العمل، وقد لاح لي أنّ هذه الكاتبة الطموح، لها من التواصل الثقافي والاجتماعي ما يمكّنها من بلوغ الغاية. طرقت بابهم، فلم يغلقوه في وجهها. فرحتُ لها ربما أكثر من فرحي باجتياز عمل لي العقبات نحو الشاشة الصغيرة.

ولكن آذَني، بعد فراغها من عملها، أمران:

أولهما أنهم أبدَوا حرصهم على تغيير عنوان الرواية، الذي ظللت أراه جميلا «ثمّ أزهر الحزن»، إلى عنوان آخر ليس بشيء: "البيوت أسرار". وقد سألتُ في ذلك بعض أصدقائي العاملين في هذا المضمار، فأفادوني بأنّ هناك من لا يريد "شهرةً" لروايتك ولا لصاحبها!

ثاني الأمرين أنهم، عند تسلّمهم السيناريو، احتاز مسؤولٌ فيهم إلى نفسه ربعَ المكافأة المادية! سألت ثانية فنُصحت بالقبول، وإلّا أوقفوا تنفيذ العمل بحُجج!

ونُفّذ العمل بمدينة حلب، فالرواية "حلبية" بامتياز، فلما شاهدت أوائل الحلقات، عام ٢٠٠١، رأيت وكأنّ العمل فاتر العلاقة بروايتي، ولم أصرّح بذلك في الإعلام، بل إني، في لقاء بتلفزيون حلب جمعَنا أنا ورانيا والصديق المخرج "علاء كوكش"، قلت في العمل قولا جميلا، حتى إنّ معاون وزير الثقافة الصديق "علي القيّم" قال لي بعد ذلك بدمشق، إنه لم يسمع مثل هذا الإطراء من مؤلف رواية أدبية حوّلوها إلى عمل درامي!

نشرت رسالة رانيا أجزاءً ثلاثة، في أيام (١٩) و(٢٠) و(٢١) من الشهر الجاري، وسوف أنشرها معًا فجر الأربعاء القادم (٢٥-٢). وإني أرى فيها بوحًا أنيقًا من كاتبة شابة تعشق المطالعة والأدب، تحلُم، وتمضي في حلُمها حتى التحقيق... ويخيّل إليّ أنّ الرسالة جديرة بأن تُقرأ مرتين.

فلوريدا: الإثنين ٢٣-٢-٢٠١٥

هل يريد النظام

هل يريد النظام، بقصفه البيوت والناس، أن يُخلي سورية من أهلها؟

فلوريدا: الأربعاء ٢٥-٢-٢٠١٥

هل الغُربة

هل الغُربة القَسريّة مِحكٌّ لعواطف الأسرة وأخلاق الناس؟

فلوريدا: س ٤: ٣٠ مساء الخميس ٢٦-٢-٢٠١٥

لأنّ العدد بلغ الحدّ الأقصى

إلى الأصدقاء الذين أكرموني بعقد الصداقة معهم:

لقد بلغ العدد عندي، منذ مطلع هذا العام، الخمسة آلاف، وأصبح متعذّرًا عقد صداقات جديدة، لذا فإني أعمد بين الحين والحين إلى التجوّل بين أسماء الأصدقاء، وأحذف بأسفٍ أسماء من أفتقد متابعتهم كي يحلّ محلّهم أصدقاء جدد. هذا وإنّ المشاهدة عندي متاحةٌ لأصدقاء الأصدقاء وللعموم. عذرًا وشكرًا.

فلوريدا: ظهيرة الخميس ٢٦-٢-٢٠١٥

ويُحطّم الجهلاء ثروة قومية لا تُعوّض!

قبل أربعين سنة أو خمسين، قرأت أنّ واحدًا من أثرياء أمريكا المغرورين، زار إيطاليا، ودخل أحد متاحفها الفنية العظيمة. ولمّا رأى انبهار الزوّار باللوحات الفنية المعروضة فيه،

أنشأ يقول متبجّحًا بأنه يستطيع أن يُنْشِئ في بلده متحفا يضاهي هذا المتحف! فردّ عليه أحد العارفين بقيم الفنّ العظيم، بأنّ ثروته وثروة أمثاله، لا يمكنها أن تقيم متحفا، قد تجمّعت فيه كنوز المعروضات عبر مئات السنين.

أمس رأينا جهَلةً أغبياء يحطّمون بمطارقهم موجودات متحف تاريخي أثري في الموصل، غيرَ مقدّرين هَول الجريمة التي يرتكبون بحقّ ثروة بلادهم القومية، الواصلة إليهم عبر آلاف السنين... ولن أصف ما ملأ قلبي من حزن، وما أحسَّتْ به عيناي من حرارة!

فلوريدا: مساء الجمعة ٢٧-٢-٢٠١٥

في انتظار المصير

رأيت أمس، فيما يرى النائم، أني وبعضَ أصحابي نمشي باتجاه حديقة عامة، وكنت أتوكّأ على بعض الشباب منهم، ليس لوهنٍ في الجسد وحسب بل لضعفٍ في البصر أيضًا.

وفجأةً، وقد اقتربنا من الحديقة، ترامى إلى سمعنا أزيزُ طائرة، ثمّ رأيناها، رأوها، تُسقِط قذائفها حيث تحلّق، فخاف كلّ مَن حولي، وركضوا باتجاه باب الحديقة وكأنهم يرجون الاحتماء بأشجارها الكثيفة.

وأما أنا فقد وجدتُني وحيدًا، أقتعد الأرض وألتحف السماء، منتظرًا مصيري.

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٧-٢-٢٠١٥

أمعقول...

أنّ هذا الدمار كلّه

الذي يحُلّ في بلادنا

مبيدًا البشر

ومحاولًا محوَ الذاكرة الجمَعية

يكون في معزل عن أصابع أمريكا؟!

فلوريدا: ليل الجمعة ٢٧-٢-٢٠١٥

مُظفّر سلطان، ١٩١١-١٩٨٦ أحد روّاد القصة القصيرة في سوريّة

كانت مصادفةً أني دخلت على "غوغل" لأتأكّد من "عُمْر" الراحل مظفّر سلطان، فسرّني أن وقفت، فيما قرأت اسمه "منتديات ستار تايمز"، على ملفٍّ مؤرَّخ في ١٨-١١-٢٠٠٨، يستعرض فيه الأديبُ السوري "دريد يحيى الخواجة" ما كتبه، عن أحد روّاد القصة القصيرة السورية "مُظفّر سلطان"، خمسةٌ من الكتّاب السوريين، هم: الدكتور عمر الدقاق، وفاضل السباعي، ومحمود منقذ الهاشمي، وملاحة الخاني، والدكتور سمر روحي الفيصل.

وأحسب أنّ مقالتي، التي عنوانها "مظفّر سلطان رفقة عمر"، هي تلك المحاضرة التي كنت قدّمتها في "دار الكتب الوطنية بحلب" مطلع العام ١٩٨٦، قبل أن تنزل في ملفّ عن الرائد سلطان في مجلة اتحاد الكتّاب العرب "الموقف الأدبي" في ذلك العام.

ومع مفاجأتي بهذا العرض من الأديب الخواجة، أحببت أن أقدم لكم مناقشته الهادئة لمقالتي مساء هذا اليوم السبت.

وتعريفًا بالرائد مظفّر سلطان (الذي كان يكبرني بنحو عشرين عامًا)، أستحضِر من الذاكرة شيئًا ممّا أعرف عنه: تخرّج في "جامعة فؤاد الأول بالقاهرة"، عمل مدرسا للغة العربية في ثانويات حلب، فمديرًا لثانوية "إبراهيم هنانو" فيها. يتّسم أدبه باللغة العربية الجزلة، وبجنوحه في القصة إلى الإبهار والإدهاش، وأذكر أنه كان في ذلك من المعجبين بالكاتب الأمريكي

"إدغار ألان بو". لم يكن يهتمّ بنتاجه الأدبي المبعثر، فتولّى بعضُ مريديه في أواخر حياته جمع ما تفرّق منه.

له ثلاث مجموعات قصصية: "ضمير الذئب"، "في انتظار المصير"، "رجع الصدى"، ورواية واحدة "المفتاح".

أنجب مظفّر ابنًا وثلاث بنات، إحداهنّ المهندسة "ناديا سلطان"، هي اليوم أديبة وكاتبة إسلامية لها مؤلفات، تقيم في كندا.

فلوريدا: فجر السبت ٢٨-٢-٢٠١٥

أيامَ كان "الدومري" يمرّ بحارتنا

في ثلاثينيّات القرن الماضي، كنّا، نحن صبيان الحارة، نرى "الدومري[٢١]"، قبيل أذان المغرب، حاملاً على كتفه سُلّمه الصغير، ومن يده يتدلّى إبريقُ "الكاز" وعدّةُ الشغل، وهو يمرّ بحارتنا "زقاق الزهراوي" بحلب.

كنا نراه يتوقّف تحت كلّ مصباح مُثْبت في الجدار يقبع داخل قفص من زجاج، يسند على الجدار سلّمه، ويصعد، يأخذ "اللمبة"، ينظّفها من سُخام الليلة الفائتة بخرقة وقضيب، يقصّ رأس الفتيلة المتفحّم، يسكب في زجاجة المصباح قدرًا من الكاز يكفي حتى هزيع من الليل، يُشعِل... ثمّ يمضي.

كنّا، عهدئذ، قانعين بذلك النَّزْر اليسير من الضوء، ترسله مصابيح الزقاق والفوانيس في أرجاء الدار.

---

(٢١) كلمة تركية الأصل وتعني (الفوانيسيّ) أي الرجل الذي يشعل الفوانيس في الأزقة والحارات القديمة قبل الكهرباء.

كانت حياتنا بسيطة وهانئة، وكانت آمنة أيضا، فلا تُنغّصها قذائفُ تنزل علينا من الجوّ، ولا غازٌ يخنقنا، ولا أغرابٌ يقطّعون أيادينا، أو يُمرّرون على رقابنا السكاكين، ويَسْبُون نساءنا ويغتصبونهنّ ويبيعونهنّ إماءً.

فلوريدا: فجر الأحد ١-٣-٢٠١٥

رحيل الفنان «عمر حجّو»

قبل شهر من يوم الناس هذا، انتشر خبرُ رحيل الفنان عمر حجّو عن عالمنا، فكتبت خاطرة عنوانها «صديقي الفنان عمر حجّو»، ثمّ بلغني أنّ الرجل بيننا ما زال يتنفّس الحياة، فما سحبت ما كتبت، وأشرت إلى ما ورد إليّ من تصحيح، تاركًا الخاطرة تستمطر العواطف الصادقة، وأذكر أنّ اللايكات والتعليقات التي وردت في حقّ صديقي عمر كانت وافرة، هل لي أن أذكر تعليقا منها يقول: «إنّ من حظّ عمر حجّو أنّ له صديقًا كاتبًا روائيًا يسجّل هذه اللقطات البديعة من ذكرياته»، أقول: وإن من حظّي أن يكون عمر صديقًا لي.

اليوم أعيد نشر الخاطرة، وقد تغمّد الله برحمته الواسعة فناننا الشعبي المحبوب صباح الأربعاء ٤-٣ وَوُوريَ الثرى بمقبرة باب الصغير بدمشق.

كلمة في الإتقان

كنّا، نحن الإخوة الصغار، معجبين بالدقّة التي يتحلّى بها أبونا الشابّ "أبو السعود السباعي " (كان له من العمر اثنان وعشرون ربيعا يوم أبصرت عيناي النور).

كنا نتحلّق حوله وهو يُقشّر ثمرة الخيار بالموسى، حريصًا على أن تنزل كلّ قشرة منها "متل ورقة السيكارة"، وكنّا نصفّق بعد أن نراه يتناول التفاحة الحمراء، يَمرّ عليها بالموسى، مديرًا إيّاها بين يديه، فلا يدعها إلّا والقشرة طولًا واحدا، لولبيّا، غير منقطع!

كان -رحمه الله- يُتقن أيّ عمل يمارسه، على حين كان أخوه الأكبر "رئيف" يتولّى إدارة العمل.

وكان يصحبني قسرًا أيام الصيف إلى الدكان في "سوق المدينة" بحلب، ليس لمساعدته بقدر ما كان يريد إراحة أهل الدار من شغب هذا الطفل الصغير! وهناك كنت "أكتسب" منه الدقة والأناقة والبراعة، أضِيق بما يُملي عليّ من "طقوسها"، وأستقي منها دون أن أدري. هل أخذت عنه الأناقة في صوغ الكلمات، حين تعلّمت على يديه الصبر والمعاناة وإعمال الفكر للوصول إلى الأجمل والأبدع!

بعد سنين وسنين، قُدْتُ ابني الوحيد "فراس" (الذي جاءني وأنا في الأربعين من العمر)، في "رحلة الإتقان". وكان يضيق بما أملي عليه من تفاصيل العمل، في التنضيد الضوئي والإشراف على طباعة الكتب ونشرها والتوزيع. ثمّ اكتشفت أنه تشرّب من ذلك ما زاد عن الحدّ، حتى صرت أضيق بإتقانه ذرعا!

فلوريدا: فجر السبت ٧-٣-٢٠١٥

"فرن نوري باشا" للخبز المشروح

عام انتقلت بوظيفتي الحكومية (١٩٦٦) من حلب إلى دمشق، قُدّر لي أن أسكن في "حيّ الروضة" في "شارع نوري باشا"، وفي بيت يملكه "آل الخباز" الكرام. وكانت الأسر البرجوازية المسلمة قد بدأت -منذ ثلاثينيات القرن الماضي- تسكنه، وهو في سفح "جبل قاسيون"، منتقلةً إليه من بعض الأحياء الدمشقية القديمة، وأطلق عليه اسم "نوري باشا" وهو اسم أحد الولاة العثمانيين الصالحين، فليس كلّ الولاة الأتراك أشرارا، ولا كلّ الحكام العرب أخيارا.

كان في هذا الشارع العريق، فرنٌ شهير يؤمّه الناس من أماكن بعيدة بدمشق لشراء خبزه "المشروح"، المرقوقةِ عجينتُه بغير خميرة، لا ينتفخ في النار طبقتين، تُرشّ عليه حبّة البركة، المقمّرِ تقميرا، وقد تأكل، يا صديقي، بعضه "قرمشة" قبل وصولك إلى البيت!

ثمّ إنّ الزمن تغيّر. أَزهِدَ الناس بالخبز المشروح، أم أنّ العاملين فيه زهدوا؟ فتحوّل "فرن نوري باشا" الشهير، مع مطالع الثمانينيات، إلى فرن شبه "آليّ" ينتج الخبز "المرقّد"، ثمّ "أسلم الروح" فغدا متجرًا ذا فخامة، لكن لم يمشِ سوقه مع انتقاله من يد إلى يد، فكأنما "لعنة" الخبز المشروح المهجور تلاحقه!

أُفاجأ، أيها الأصدقاء، قبيل ساعات، بابنتي الفنانة التشكيلية "خلود"، العائدة حديثًا من القاهرة بعد غياب سنتين وزيادة، تحمل وابنها التشكيلي "ماجد هنانو" حنينَهما إلى ملعب الطفولة، ولم تنس "فرن نوري باشا"... كتبت على جدارها بلهجتها السورية الحميمة، تقول:

«للأصدقاء اللي بيعرفوا "فرن نوري باشا"، للخبز المشروح والرغيف المرقّد التازة.. لما كنت طفلة كنت أشتري من هالخبزات الطالعين من الفرن واللي ريحتون بتغرّف القلب.. يبرّدن الفران شوي.. وأمشي عالبيت القريب جدا.. ولازم آكل الرغيف الفوقاني، اللي بيكون منفوخ والبخار بيطلع منو لو ثقبتو بإصبعتي اللي كانت صغيرة.. رزق الله عهَديك الأيام.. وينو الفرن.. وينووووو؟».

ومن فلوريدا أجيبها بمثل لهجتها:

لا تندهي، يا بنتي، ما فيه حدا..

راح الفرن، وراحت البلد، ونصف سكان الوطن صاروا برّا...

وأبوك ما عم يعرف كيف بدّو يرجع لبيتو، وكتْبو، وأوراقو، والذكريات.. أمانة، عينك عليهن، يا بنتي، كنت حيًّا أو صعدت إلى السماء!

فلوريدا: فجر الخميس ١٢-٣-٢٠١٥

متل عَنّا!

توقّفت ابنتي بسيارتها عند التقاطع، مع أنّ الإشارة خضراء.

سألتها؟ فأجابت: أترى هناك، يا أبي، أولئك التلاميذ يعبرون، يقودهم واحدٌ من "المتطوِّعين volunteers"؟ إنه متى أشار بيده، توقّف السير وتجمّدت حركة المرور.

وقالت: الطفل هنا هو الأغلى. الأطفال هم المستقبل، يَحكُمون غدًا، ويُديرون، ويُبدعون!

لم أعلّق ساخرًا كما قد يفعل بعضهم: «متل عنّا، فَرْدْ شي! ». لا، أبدًا.

فقط... أحسست بسخونة في العينين.

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٨-٣-٢٠١٥

مَن وراء قذائف جِرار الغاز بحلب

كتبت تعلّق عندي، وقد رأتنا نشكو من ظلم جديد نزل بغاز الكلور على أطفال "سرمين" بريف إدلب، تَلفت انتباهنا، أنا وصديقي، إلى أننا نُغفل النظر إلى جِرار الغاز التي تتساقط على حلب، نحن الذين نقيم خارج الوطن...

ثمّ انمسح "البوست" من أساسه لعلّةٍ ما!

فكتبت على جدارها: إنّ من يرمي جرار الغاز بحلب (وواحدة منها نزلت على بيت من بيوت أهلي)، وإنّ داعش، وإنّ الذين رمَوا دمشق بالهاون... هؤلاء كلّهم ليسوا من المطالبين بالحرية مثلي ومثلك! اسألي عن صانعيهم، الذين أنتجوهم كي تقولي هذا الذي تقولين الآن...

وأمّا صديقي الذي أشرتِ إليه، فقد رافَقهم -يقول- والأمل عنده أن يُنقذ ما يستطيع

إنقاذه. وإنّ إنجازاته وزيرًا للثقافة تشهد، فلما عجَز انضمّ إلى صفوف الحرية.

وليس الذين في الداخل (مع معاناتهم الأليمة) أكثرَ معرفةً بما يجري، ممّن يقيمون في الخارج، فالعالم أمسى "قرية صغيرة"!

فلوريدا: عصر الثلاثاء ١٧-٣-٢٠١٥

وأجابنا المعلم

يوم كنت صغيرًا، أذكر أنّ معلّم المدرسة حدّثنا، ونحن نُصغي إليه بجوارحنا، أنّ السفينة إذا غرقت في عُرض البحر، فإنّ أول مَن يجب إنقاذهم من الركاب هم الشيوخ والأطفال و...

وعرفنا أنّ الشيوخ لعجزهم عن مصارعة الأمواج. وأما الأطفال فلماذا؟ سألناه فرحين، أجابنا معلّم الابتدائي البسيط: لأنّ منهم مَن قد يصبح رجلاً مهمّا في المستقبل، يُقدّم "مخترعات" تنفع الناس في كلّ مكان في العالم!

فازددنا إحساسًا بأنفسنا. ذلك ما ظلّ في ذاكرتي منذ كنت في الصفّ الثاني الابتدائي بحلب عام ١٩٣٦-٣٧، في مدرسة مُحدثة سمّوها "إبراهيم هنانو"، في العَدَسات، أزيلت وموضعها أول "شارع المتنبي".

اليوم... ما حال الأطفال في وطني، والسفينة، والغرق، والمصير؟!

فلوريدا: فجر الخميس ١٩-٣-٢٠١٥

دوران الأرض، والدوران حولها

من نَهَفات الديمقراطية، التي كانت وليدةً عندنا في أربعينيات القرن الماضي، أذكر حكاية ذلك التاجر الدمشقي البسيط الذي أخذ ابنه من يده ومضى به إلى "القصر الجمهوري"، الذي ما زال قائما إلى اليوم قريبًا من نهاية سكّة "المهاجرين"، ليشكو لرئيس الجمهورية "شكري بيك

القوتلي"، أنهم في المدرسة "سقّطوا" ولده في الصفّ الرابع الابتدائي بالجغرافيا التي تقول كفرًا بأنّ الأرض كرويّة!

وإني لأذكر، قبيل ذلك التاريخ وأنا تلميذٌ في الابتدائي قد امتلأ رأسي قناعةً بأنّ الأرض كروية وتدور، واحدًا من أقارب أبي -واسمه "غالب" كان يزور أسرتنا في بعض الأمسيات- عبّر لي، أنا أكبر أولاد الأسرة في الصف الثالث الابتدائي، عن مدى "التضليل" الذي نتلقّاه في مدارسنا عن كروية الأرض، وأراد أن يُثبت لي وهْم "رحلة ماجلاّن" حول الأرض، بأن طلب أن نُحضَر له صحنًا مُسطّحا، وأخذ يشير بإصبعه إلى أنّ دورة ماجلاّن كانت كمن يدور في داخل الصحن لا يخرج منه... ولم يُجبني عن سؤالي حين تكون عندنا ظلمةُ ليل وتكون الشمس ساطعة في الجانب الآخر من الأرض!

وما كان يخطر في بالي في ذلك الحين، أنّ وطني الذي أعيش فيه، سوف يخرج منه الناس بعد عقود من السنين، يدورون في الأرض، ولا يجدون لهم مكانًا آمنًا!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٥-٣-٢٠١٥

في إذاعة "مونت كارلو" مع هيام حموي (١من٢)

في مطالع العام ١٩٧٨ سجّلت لي الإعلامية "هيام حموي"، مع زميلها "مهيار"، حديثا في إذاعة مونت كارلو في باريس، مدته ساعة، وجدتُني فيه أتحدث بطلاقة أكثر ممّا عهدت في نفسي ممّا سجّلت من أحاديث قبلها في حلب ودمشق. وأذكر أنهم طفقوا يعلنون، طوال الأسبوع الذي سبق، عن موعد إذاعة الحديث ما أثلج صدري وأنا خارج الوطن.

واتفق -قبيل مغادرتي باريس صيف ذلك العام- أن كانت هيام غائبة عن عاصمة النور، فسجّل لي مهيار حديثا طال حتى بلغ الساعتين أو نحو ذلك، ثمّ بدا كما لو أنّ هذا التسجيل

غاب عن الأعين هناك... إلى أن تناهى إليّ، بعد مدة وأنا بدمشق، أنّ حديثا لي يذاع على حلقات من إذاعة مونت كارلو مساء كل خميس، وفي استماعي إلى إحداها تبيّنت أنه ذلك الحديث الطويل لكن "مجَزّءًا"، عشر دقائق في كلّ حلقة، وكان "المُحاوِر" هيام! وأنا أردّ في إجاباتي على "محاوِر" رجل، ذلك أنّ هيام هي التي تولّت إعادة تسجيل "الأسئلة" بصوتها. حدّثتها بذلك، حين ضربت إذاعتُها في صيف ١٩٩٠ أو حول ذلك، خيمة في رحاب معرض دمشق الدولي تبثّ منها بثّا مباشرًا، والفارسة في هذه الإذاعة هي الإعلامية هيام... فقالت لي مازحة: «بقى هيك عملت! لم أعد أذكر! ».

تملك هيام حموي صوتًا إذاعيًّا، ملائكيًّا، ندر مثيله بين المذيعات العربيات، تَرفِده ثقافةٌ، وحضورُ بديهة، ومرحٌ أيضًا. من مرحها وظَرفها أنها كانت "تفسّر" لنا، ونحن في دار الإذاعة في باريس، لِمَ تُكثر من تقديمها أغنية "صباح فخري" الطالعة حديثا تلك الأيام: «هيّمتْني، تيّمتْني، عن سواها أشغلتْني»، مشيرةً في ذلك إلى أولى الكلمات في الأغنية!

تنتسب هيام إلى أسرة دمشقية، وقد عاشت مع أهلها بحلب صبيّةً تدرس في "الفرنسيسكان" الحلبية، وهي تزاوج في حبّها لدمشق وحلب، كما أزاوج أنا في حبّي لهاتين المدينتين العريقتين، وقد سكنتُ دمشق منذ خمسين عامًا منتقلاً إليها بحكم الوظيفة.

أعرف أنّ هيام عادت، بعد اغتراب طويل، إلى وطنها. أحيّيها اليوم حيثما كانت، وقد بدأتُ من ناحيتي "رحلة اغتراب" لست أعرف مداها، و"رحلةَ حنين" لبيتي، ومكتبتي، وأرشيف حياتي.

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٧-٣-٢٠١٥

متصفّحة.. لا تقرأ لي. ولا بأس!

كتبت، أمس، متّكئًا على سجع من المأثور الشعبي، خاطرةً ورد فيها أنّ «سكوتنا خمسين سنة سوَّدَ بُخوتنا»، فسألت متصفّحة، تعلن أنها تعمل "في الصحافة الساخرة": «وما الذي حدث من خمسين سنة، وسكوتنا عليه سوّد بخوتنا؟»، ففضّلت أن أختزل الردّ بأن أشير إلى قليل مما نالني أنا، مُعفيًا نفسي من "جردٍ" لا طائل وراءه، قلت: «إذا كنت ما تزالين تجهلين ما حدث ويحدث فعبثًا ما أشرح. ولكني أقول شيئًا واحدا يتعلق بي: حين كان بعض الأدب الذي أكتب منذ الخمسينيات يُترجم وتدار عليه أطروحات في بعض الجامعات الغربية، كنت أنت تجهلينني ولا تسمعين باسمي، بينما أسماء مَن لا يصلون إلى قامتي تملأ سمعك!».

فقالت: «بتعليقك هذا، هل تمدح نفسك أم تتهمني بالجهل؟ وهو ليس ردا على سؤالي!». ولم أُجِبْها بأنّ ما ذكرتُ هو "وقائع" وليس "تقييمًا جماليًّا" يحتمل الجدل... وزعمتُ: «ليس فهمُ ما قلت عسيرًا! إني -وأنا على ما وصفتُ- لم تسمعي باسمي، يعني أنّ الكُتّاب الذين تُلقى الأضواء عليهم هم من أنصار النظام. وفي هذا جنايةٌ على الأدب، وعلى سائر فنون الإبداع ومناحي الحياة، هل فهمت؟... أم أنّ في تساؤلك شيئا من مكر مردود عليك حين تقولين: أنت تمدح نفسك أم تتهمني بالجهل؟ أقول لك: الاثنان».

قالت: «ألم تلاحظ أنك رددت على أسئلة أنا لم أطرحها واتهمتني بالمكر وهو ليس من خصالي، وإن كنت لا تريد شرح أسباب سكوتك خمسين عامًا فهو شأنك، مع أني لم أسمع بك معارضًا أو مضطهدًا أو ملاحقا من النظام. أما بالنسبة إلى اتهامك لي بالجهل فهذه صحيحة فأنا لم أقرأ إلا لكتّاب أمثال... [وعددتْ أسماء كتّاب عرب وأجانب]، أما روايتك "رياح كانون" -تتابع القول- لم تشدني، وهي في مكتبتي منذ زمن. والقراءة حريه شخصية وتذوق. ربما حضرتك معروف في أوساط ثقافية لا تهمني، فعذرا لجهلي بأدبك، وشكرًا لأنك قدّمت نفسك

لي كما ظننتك»!

وأردّ هنا:

يحقّ لي أن أدّعي أني كاتب يناهض الظلم والفساد في غير قليل ممّا أكتب منذ ستينيات القرن الماضي، ما فوّت عليّ أن تتبنّى نشر كتبي أكبرُ مؤسستين في الدولة، فأنا أسوح بها من بيروت إلى القاهرة حتى تونس، وبما تُرجم من بعض أدبي في مدريد وباريس ولندن وبرلين وموسكو... حتى طهران. وأزعم أني مضطهد، نعم، حتى إني تركت وظيفتي مديرا في وزارة التعليم العالي (عام ١٩٨٢) طالبا إحالتي على التقاعد وأنا في الخمسين، ولكني لم أدّعِ أني "مطارَد"، وقد غادرت الوطن أواخر ٢٠١٣ بالمعابر الرسمية إلى حيث أبنائي وأحفادي ومنهم من وُلد هنا، وأنوي العودة إلى حضن الوطن قريبًا.

وعن تنديدي في أدبي بأفانين الظلم والفساد، دعوني أيها الأصدقاء، أَرْوِ لكم أني وقفت يوما (أواخر العام ١٩٨٠) في "مدرّج المتنبي" بمبنى كلية الآداب القديم، أحْيي أمسية أدبية. ومن هناك في ختامها أخذوني إلى الأمن السياسي، فإلى العاصمة موجودًا، فإلى معتقل الشيخ حسن، وذلك ما أوحى لي بقصتي "بدر الزمان"، التي نقلها فيما بعد إلى الإسبانية طالب بجامعة مدريد ونال عليها مؤهّل الدكتوراه، قد تكون المتصفّحة المناقِشة في ذلك الحين طالبة في هذه الكلية أو لم تكن مولودة بعد!

وإني لتنتابني الآن رغبةٌ في أن أجاريها في ولعها بالسُّخْر، فأقول: إنّ حرصها على القول بأنها لم تقرأ روايتي "رياح كانون"، ذكّرني بما أعرف من خبر عميد الأدب العربي طه حسين، حين كان وزيرًا "للمعارف" في آخر حكومة لحزب الوفد بمصر (١٩٥٠-٥٢)، فقد اتفق له أن أصدر قرارا لم يعجب الطلاب، فساروا إليه بمظاهرة، وعلى باب الوزارة هتفوا: «يسقط الوزير الأعمى!»، فخرج إليهم يخطب، وقال: «أحمد الله على العمى حتى لا أرى وجوهكم!».

أعترف أخيرا:

بأني كنت أتمنّى أن أقدّم للسيدة نفسي بصورة أفضل مما كانت تظنّني، ولكن خيبتي في هذا مردّها: إمّا إلى عجزي عن الإفهام، وإما إلى عجزها هي.

وأخرى: إني تمنّيت لو أنها حبّبت إلى نفسها قراءة "رياح كانون"، المركونة في مكتبتها منذ زمن، فأكسب قارئة ذات نظر، ولكن تظلّ خسارتي لذلك ليست بشيء.

فلوريدا: ليل الأربعاء ١-٤-٢٠١٥

نكتة أول نيسان!

يأكلون من خبز السلطان.. ويجعلهم البعض من كبار المعارضين

وقفتُ، يوم أمس الأول من نيسان، على ما كتبه أحدهم في أحد المواقع، فقرأت وصفه لأربعة من الكتّاب السوريين بأنهم من "كبار الأدباء المعارضين"!

فأما أنهم من "الكبار" فتلك مسألة تحتمل الجدل إيجابًا وسلبا، وأما القول بأنهم "معارضون"...

فأولهم (م. م) والأخير (م. ع!) -يرحمهما الله- كانا من "ممتهني المعارضة"، اللسان يتغنّى بالحرية والجسد يَسبح في تيار النظام.

وثانيهم (أ...) ما زال حتى يوم الناس هذا يتجوّل في بلاد الغرب، يتمسّح بالعتبات أملاً في أن يحظى بما حظي به نجيب محفوظ.

وثالثهم (ح...!) يغنّي للمعارضة الافتراضية، وهو يستظلّ كنف مَن كان يعدّ الهال سعيدًا في وزارة الثقافة.

أعود إلى الأول (م. م): كان يشارك بكتابة زاوية في إحدى الجرائد الثلاث في العاصمة، كلّ أسبوعين مرة. ذات يوم أمسك أمنيٌّ كبير بسماعة الهاتف وسأل عمّا يدفعون لهذا "المعتّر" على المقالة الواحدة؟ أجاب رئيس التحرير: «ألفين وخمسمئة»، وكان هذا المبلغ "يحكي"[٢٢] في أوائل هذا القرن. قال: «اضربها بخمسة أمثال، يقبض كل شهر ٢٥ ألف»، ولم يخطر لهذا الأمني أن يضيف: «كَتَب أم لم يكتب»، فجعل الكاتب، الذي بات يُتعتع قلمَه الإدمان على شرب الويسكي، يوَرِّد للجريدة ما كان في الماضي كتب.

ويأتي في آخر الزمان من يصف هؤلاء الأربعة "بكبار الأدباء المعارضين"!

"نكتة" أول نيسان!

فلوريدا: صباح الخميس ٢-٤-٢٠١٥

حوار مع تلميذ صف سابع

مساء أمس الخميس، في الساعة الرابعة والنصف عصرًا (وفي الوطن الحادية عشرة والنصف ليلاً)، جرى بيني وبين أحدهم الحوار التالي:

هو: السلام عليكم.

أنا: وعليكم السلام.

هو: أنت الأستاذ فاضل السباعي؟

أنا: نعم.

هو: يعني أنت تقرأ ما أكتب الآن وتردّ عليّ؟

أنا: نعم. عرّفني بنفسك.

---

(٢٢) أي كان ذا قيمة وأثر.

هو: اسمي "أحمد... "، صف سابع، أخذنا اليوم درس عنك في كتاب "العربية لغتي"! وقرأنا نُبذة عن حياتك، مع صورتك في الكتاب.

أنا: ما عنوان الدرس؟

هو: نسيت. لحظة. طويل فيه كلمة "شمس". تذكّرت "الشمس تشرق من جديد". رجل متقدّم في السنّ، ساءت أحواله، فحملوه إلى دار العجزة. متى كتبت القصة؟

أنا: يمكن... في الخمسينيّات، قبل شي ستين سنة.

هو: هل هذه القصة واقعية؟

أنا: هي خياليّة، لكن عندما تتكرّر حوادث من نوع معين تتحوّل الحادثة إلى قصة من "الأدب الواقعي"!

هو: القصة حلوة كتير كتير ومؤثّرة، ومشان هيك حبّيت أتصل فيك. آنستنا، "الآنسة آلاء"، قالت لنا اليوم إنها "صديقة" لك في "الفيس بوك"، وأنها تحدّثت معك قبل أيام، حكت لنا عنك كلام جواهر[٢٣]، جرّبت أتصل. هل أنت في الشام؟

أنا: هل دخلتَ على صفحتي، يا أحمد، وقرأت شيئًا ممّا أكتب؟

هو: يعني المنشورات قصدك؟ لأ، هلّق[٢٤] اتصلت.

أنا: اقرأ تعرف في أيّ مكان من العالم أنا موجود.

هو: يعني فين؟ [بعد لحظات] قرأت أستاذ، أنت في فلوريدا، أظنّ في أمريكا! يا ألله! أنا أكتب لك من الشام وأنت تجاوبني من أمريكا؟ أتمنى أن أراك. قرأت أنك من حلب، هل لك

---

(٢٣) كلام طيب.

(٢٤) الآن

بيت في الشام؟

أنا: نعم.

هو: أين؟

أنا: (.........)، وأنت، يا أحمد، أين تسكن؟

هو: في "باب مصلّى".

أنا: ومدرستك؟

هو: "حسان بن ثابت"، قريبة من بيتنا، تحت "جسر الميدان".

أنا: أنت من "ريف دمشق"؟

هو: أخ! منين عرفت؟

أنا: دخلت على صفحتك، يا أحمد.

هو: إي صحيح، من "ببّيلا". بس نحن من "حيّ ساروجا"، كنا نسكن في بيت بـ ببّيلا، وبسبب الحوادث تركناه، بيتنا هلّق آجار. بس ما أكون ضايقتك أستاذ!

أنا: لا، يا أحمد، لو كنت متضايق منك كنت قلت لك: اختصر. أنا مسرور من "جرأتك الأدبية"، ومن أنك تستخدم "شبكة التواصل الاجتماعي" لأغراض نافعة. أريدك أن تقرأ، تطالع، ولا تكتفي بكتب المدرسة.

هو: أوعدك، أستاذ. امتى بدّك ترجع للشام؟ لا تقول بعد الحرب!

أنا: تراها مطوّلة!

هو: يوم الأحد بدّي أحكي لزملائي أني كلمت الأستاذ صاحب قصة "الشمس تشرق من جديد".

أنا: سلّم عليهم، وعلى الآنسة.

فلوريدا: صباح الجمعة ٣-٤-٢٠١٥

استكمالًا لحوار قديم

حواري مع الفتى "أحمد"، استدعى في خاطري ما عرفت، منذ قريب، من أنّ أديبة سورية نشيطة، تكتب بلغة أخرى، قامت، خلال السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية، بإعداد حوارات مع عديد من الكتّاب السوريين، مقدِّمةً لكلّ حوار تعريفًا بشخص المحاوَر ورصدًا لأعماله، وقد تضيف نصّا له، قصة أو قصيدة، وتترجم ذلك كلّه إلى لغتها الأمّ، وتنشره في المجلات التي تصدر في أنحاء العالم، قاصدةً التعريف بأدبنا السوري حيثما استطاعت.

ثمّ إنه قُدِّر للكاتبة أن تسافر برفقة زوجها ليقيما بقرب أبنائهما في ذلك القطر البعيد، ولكنّ حبّها للوطن الذي تربّت فيه، زيّن لها أن تعود إليه، فتجمع كلّ تلك الحوارات السخيّة، في كتاب جليل تُخلّد فيه حبّها للوطن وجهدَها الثقافي النبيل، تتولّى تمويله إحدى المؤسسات الثقافية الفاعلة في تلك اللغة.

وأملى عليها إتقانُها العمل أن تعيد النظر في تلك "المقدمات"، تستكمل فيها ما جدّ عند كلّ كاتب، من شؤون حياته وأعماله. وناشدتني المساعدة، فاستجبت بأن قدّمت لها أرقام هواتف من طلبت... ومنهم ذلك الكاتب الذي أفاض عليه النظام الرعاية والعناية حتى جرى اسمه على الألسن.

حدّثَتْني بأنها لدى اتصالها به على الهاتف من بعيد، وما إن بدأت بالقول بأنها أجرت... تُجري... حوارا... حتى قاطعها سائلا بصوت أجشّ: «قدّيش بتدفعي؟ »، ومع استغرابها السؤال التزمت الصمت لحظةً تستجمع أفكارها، فكان أن أغلق الهاتف في وجهها!

سمعت منها ذلك، وما استغربت... وأوجزت لها القول: إنه البطر!

وصدر الكتاب، دون استكمال ما يخصّ هذا الكاتب، الذي رحل عنّا منذ قريب.

فلوريدا: ظهيرة السبت ٤-٤-٢٠١٥

يا بنات المُكَلّا

كتبت إليّ، ليلة أمس، صديقة هي طالبة جامعية في بلدها الواقع على شاطئ من شطآن الجزيرة العربية، تقول إنها -بعد أن قرأت الحوار مع تلميذ الصفّ السابع- باتت ترى أنّ أطفال سورية يَنْضَجون قبل الأوان! وانتهت إلى أن تسألني -وهي شَغوفٌ بالأدب إلى جانب دراستها الطبّ- أن أدلّها على ناشر في بلاد الشام يطبع لها كتابها الأدبي الأول؟

وقد وجدتها سانحة لأن أسألها، وهي من منطقة قد امتدّت إليها ألسنة اللهب، عن "حاضرة" المحافظة أو الإقليم الذي تنتمي إليه، مَن يسيطر عليها من "المتقاتلين"، حسب أخبار اليوم؟

قالت: قوات مختلفة، والله لا نعلم لمين تابعين، للجيش، للقاعدة، للحوثيين، لحلف القبائل! احتلّوا الحرم الجامعي، وطردوا الطلاب من سكناتهم، والمدينة في علمي محاصرة، وأنا غادرت إلى بلدتي في الوادي. لم يعد أي مكان آمنا.

قلت: لو تعلمين، يا بسمة، كم كنت معجبًا بمسيراتكم السلمية، يمشي الناس كتفًا إلى كتف، في الشوارع العريضة، مطالبين بالحرية، آمنين، لا يتعرّضون لقمع أو لقتل، إلى أن اعتدى عليكم "ظالمُكم" بقتل الناس قنصًا. وما كنت أتوقّع أن تصل إليكم عدوى القتل والاقتتال من شمال بلاد الشام، إلى جنوب الجزيرة العربية! على ماذا نبكي؟ على العراق، أم الشام، أم اليمن الذي جرى التاريخ على أن يسمّيه "اليمن السعيد"!

ثمّ شاءت صديقتي بسمة أن تقدّم إليّ "رابطًا"، فتحتُه فإذا هو نشيدٌ يؤدّيه شبابٌ وشابات من بلدها. أصواتٌ شجيّة، تنشد الحرية، وتشكو كمّ الأفواه، قيود وسلاسل، دماء تقطر من سيوف، ولهب يشوي ويحرق الجلود...

قلت متّجهًا بالحديث وجهةً أخرى: هل لك أن تفسّري لي معنى كلمة "المُكَلاّ"، مكلاّ الساحل، التي غادرتِها إلى بلدتك في "الوادي"؟ ثمّ توقّعتُ لها أن تكون الكلمة محرّفةً عن "المَكْلأة"، وهي الأرض كثيرة العشب والكلأ، أم أنّ علينا أن نعود إلى "معجم البلدان" لنقرأ ما كتب ياقوت؟

وأحببت أن أنهي الحديث بما يُفرّج الهمّ قليلا، قلت: أنتنّ، يا بنات المُكلاّ، ماذا فعلتنّ بقلوب الرجال حتى أطلق مطربٌ من بلاد الشام البعيدة عن دياركم، هو "فهد بلاّن"، أغنية يشكو فيها متغزّلًا: «يا بنات المكلاّ ... يا دوا كلّ علّه»، ويردّد ولا يتوقّف عن بثّ أشواقه؟

ولم أنتظر منها جوابا، بل قلت: ما رأيك، يا "بسمة الوادي"، في أن أنشر حوارنا هذا؟

قالت: معقول! تعملها بي متل تلميذ الصف السابع!

قلت: عودي إلى نومك الآن بعد أن أدّيت صلاة الفجر، ودعيني أذهب إلى أوراقي... ثمّ اقرئي في ضحى غدك...

فلوريدا: فجر الأحد ٥-٤-٢٠١٥

العودة إلى الوطن.. العودة إلى البيت

رأيت فيما يرى النائم، أني عدت إلى الوطن ممتلئ القلب سعادة، وأني توجّهت، في أول الشهر، إلى "الصرّاف الآلي"، وقبضت معاشي التقاعدي، ثمّ ذهبت، وبرفقتي ابنتي، لدفع الفواتير المترتّبة:

الكهرباء، التي تنقطع كثيرا، الفيجة، أقلّ، الهاتف، قليلا جدا، النت، ماشي الحال...

كانت ابنتي تلاحظ ما أدفع، فقالت حزينةً: «راح المعاش، يا أبي!».

أجبتها، دون أن يفارقني فرحي: «معليش، بنتي... يكفي أني أستظلّ سماء الوطن، وبعد ذلك كلّ شيء يهون...».

ثمّ أخذت أفكر، وأنا عائد إلى البيت، وفرحتي تتضاءل: يهون؟!

فلوريدا: صباح الإثنين ٦-٤-٢٠١٥

عندما تتجذّر الديكتاتوريّة

وممّا يؤكّد فراغَ قلوب الديكتاتوريين من حبّ الوطن

أنهم حين يقتضي زوالُهم

يعمدون إلى أن يهدموا البلد

حتى لا يُبقوا فيها حجرًا فوق حجر

أو...

يسلّموها إلى من هم أشدّ ظلمًا وكفرًا

وبعد ذلك يلسع كلٌّ منهم نفسه

كالعقرب الغاضب

ويموت بعيدًا...

فلوريدا: فجر الإثنين ٦-٤-٢٠١٥

أبو عبد الله الصغير بكى وحده، ونحن كلّنا اليوم نبكي

يوم سقوط "غرناطة" عام ١٤٩٢م، أخذ الأمير "أبو عبد الله الصغير" يبكي بكاءً مُرًّا على ما ضيّع من مُلك ووطن. وبصرف النظر عمّا وَجّهت إليه أمُّه من تقريع: «ابكِ مثل النساء مُلكًا مضاعًا.. لم تحافظ عليه مثل الرجال»، فإنّ محنته جاءت على أيدي أعداء يقودهم المَلِكان الكاثوليكيان "فرناندو" و"إيزابيلاّ".

اليوم... نحن كلّنا نَذْرف الدموع أنهارًا ونموت على الطرقات، ليس بقهر من الأعداء، لكن على يد حكام ظللنا نصفق لهم عُقوداً من سنين، وكأننا نسمع اليوم من أمهاتنا ما يقرع أسماعنا: ابكوا على ديار ضيّعتموها حين كنتم تبصمون بالعشر على ٩٩، ٩٩[٢٥] وأنتم غافلون!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٧-٤-٢٠١٥

بأي حقّ يُقتل هذا الرجل؟

في تلك اللحظة بدأ القصف، ومع القصف قَنصٌ. كان الرجل -الذي سوف يصبح بعد لحظات شهيدا! - في فِناء البيت، يعاين وأبوه الزرعات وما تفتّح على غُصيناتها في مطالع الربيع من ورود.

لمح، من وراء السياج، نسوة يهرولنَ فزعات، وأطفالا يصرخون، بحثًا عن ملجأ. أسرع يفتح الباب على مصراعه العريض: «ادخلوا، ادخلوا! »... ولحظة كان يردّ الباب وراء أخيرتهنّ، اقتحمت رصاصةُ قنّاص غادر صاجَ الباب الحديدي، مخترقةً صدره، فيتلقّاه صدرُ أبيه مقتولا.

"زياد" في نضْج كهولته. هو ابنٌ بارّ، وزوج وأب، يعمل مهندسا، ويتغنّى بالشعر أيضا.

---

(٢٥) إشارة إلى نسبة نتائج الانتخابات الرئاسية الشكلية التي كان يجريها النظام.

ونحن صديقان في "الشابكة" منذ زمن. انتابني حزن عليه عميق، فأحببت أن أعبّر، وكان عليّ أن "أعرّف" أولا... وإذا "أصدقاؤه الافتراضيون"، المتفرّقون في الأقطار، لا يعرفون عنه إلّا النَّزر اليسير الذي أعرف، ولكنّ ما يذكرونه جيدا أنه كان يتجاوز "النثر" إلى قول الشعر، فيُطربهم بمقطوعاتٍ يُغرّد بها في الوطنية، والإنسانية، والشؤون الحميمة، فيتميّز بينهم ويسعَدون هم بهذا التميُّز.

ويبقى السؤال الأليم:

بأيّ حقّ قُتل، أمس الأول، صديقي "زياد نسب"، الساكنُ كالآمن في "ضاحية الكسوة" جنوبيّ دمشق. كلّ ما جناه أنه قام يفتح بابه، يفتح صدره، ليحمي هاربين من الموت، فيُرديه قنّاصٌ بلا قلب، برصاصة تستقرّ في القلب!

ماذا يقع في بلدي!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٨-٤-٢٠١٥

ثلاث شجرات "أكِدِنْيا".. والرابعة!

اقتنى صهرنا العزيز "فِرْناس"، في بلدتنا الوادعة، بيتًا "ع العضم"، وبخِبرةٍ عنده أخذ يكسوه على مزاجه، مستقدِمًا الورشات ومستكملاً كلّ ما ينبغي.

وبعد أن فرغ من ذلك، وسكن هو وزوجته حفيدتي "ديمة" والفَتَيان "حمّودة" و"ياسمين"، جاءه جاره، ساكن الفيلا المجاورة، ليُعلِمه أنّ في "الحديقة" (وحدائق الفيلات هنا تتواصل دون حاجة لأسْيجةٍ وفواصل حتى لتُشكّل كلاً واحدا) ثلاثَ شجرات "أكِدِنْيا loquat"، كان قد غرسها في جانب من الحديقة، والآن يتبيّن أنّ هذا الجانب يقع في أرض جاره! وسأله ما إذا كان يريده أن يقتلعها ويغرسها ضمن أرضه؟ فتلقّى الجواب بأنّ الأفضل أن تبقى حيث

هي تتابع نموّها وعطاءها... فكان أن منحه الجار الطيب الحقّ في أن يشاركه في الثمر!

ولا بأس في التعريف بأنّ شجرة الأكدنيا تُعدّ من الأشجار دائمة الخضرة لا تتعرّى من ورقها على مدار العام، وهي تختلف في "دورتها" عن كلّ الأشجار، فتلك تزهر في الربيع، والأكدنيا في الخريف لتطرح ثمرها في الربيع، وأزهارها بيضاء اللون زكية الرائحة، ولا تحتاج هذه الشجرة لكبير عناية أو سقاية، وتتمتّع ثمرتها بطِيب المذاق، وهي مغذّية ونافعة بما تحويه من ألياف عالية القيمة.

وموطن الأكدنيا الأصلي الصين، ومنها انتقلت إلى اليابان، ثمّ انتشرت في أصقاع العالم، فكان أن غلب، في الاسم العلمي لها، اسمُ البلد المضيف لها أولا على اسم البلد المنقولة منه، فهي Eriobotya Japonica lind، ولست أدري كيف درج في لهجتنا السورية اسم "أكِدنْيا" التركي، وفي حلب "أنْكِدنْيا" (بإضافة نون)، والأصل التركي: "يِني دنيا yeni dunya"، وتعني "الدنيا الجديدة"!

وأسترسل فأقول: إنّ أكبر الأشجار في حديقة بيتي في "شارع نوري باشا" بدمشق، هي شجرة الأكدنيا، وأذكر أني رأيتها، يوم دخلت البيت ساكنًا قبل خمسين عامًا، وهي في عمر العاشرة أو يزيد، وقد غُرست -كما حدّثني المالك الحاج فؤاد الخباز رحمه الله- في العام الذي تمّ فيه بناء البيت ١٩٥٠.

وعن الشجرة عندي أشير إلى صعوبة القطاف منها كلما علت وسَمَقت، وقد استعملنا "السيبا" (السلّم ذا القائمتين) للصعود المريح، ثمّ لم يعد هذا السلّم يُجدي، والزهر والثمر يزكوان في قمم الشجرة وفي نهايات أغصانها المتهدّلة، وذلك كلّه ما أصبح بعيد المنال، وغدت الثمار اليانعة طُعمة لعصافير الدوري. وذات مرة أذِنت لجاري، ساكن الطابق الفوقيّ، في إطلالة منه على حديقتي، أنّ قطفه لهذه الثمار متاح ومباح، فأشاح متعفّفًا، ثمّ ضبطته يومًا وهو

يشدّ من القمة إليه غصنًا حافلاً، فلما رآني استحيا وأَفْلت!

أعود إلى صهرنا فرناس. حدّثته أمس، وأنا في بيته، عن شجرتي كما حدّثني هو عن شجرات جاره الثلاث، وقد جاؤوا إلينا بطشت فيه ماء مبرّد مثلّج، قد غُرّقت فيه عناقيد الأكدنيا، نتناول الغصن، نجرّده ممّا فيه من حبّات واحدة بعد أخرى، ومنّا من يقشّر بعناية، ومنّا من يَلْقَم الحبة يلوكها ثمّ يَنبِذ البَزْر والقِشر!

كنّا نأكل... يقول لي فرناس إنه يقطف من الشجرات الثلاث من الجانب الذي يليه، ويترك لجاره الجانب الذي من ناحيته... ونضحك!

وقد غَصَصت، وأنا أفكر... ليس في شجرة نوري باشا وما تنقره العصافير من ثمارها قبل أن يدركها اليباس، ولا في اليد التي تمتدّ إلى أغصانها الحافلة في غفلة من العيون... لكن في ساكني الخيام، ما إذا كان متاحا لهم أن يأكلوا الأكدنيا، أو التفاح، أو العنب الحلواني الذي يُتوقّع أن تجود به كروم الغوطة في تموز القادم!

فلوريدا: صباح السبت ١١-٤-٢٠١٥

«بُكرَهْ عيونْ الدهرْ تْشوف»

قبل ثلاثين عامًا ويزيد، أنجزت كتابة قصة سمّيتها «احتفال في الساحة العامة»، يطلِق فيها جندُ النظام، في دولة ما، النيران الكثيفة على جمهور يحضُر مهرجانًا رياضيًا باهرًا... وذلك لأنّ رصاصة أطلقت من مجهول استهدفت راعي الحفل، الذي ما كان إلّا "الفتى الوسيم" حفيد الزعيم الأوحد الغالي على قلبه، يستقبل بالهتاف المعهود:

بالـــــروحْ، بالـــــدمْ نــفـديــك يا حــفـيـــدْ
بــرمـــوشْ الــعـــينْ نحـمـيــك يا مجـيـــدْ

فانهمر الرصاص على الناس، عشوائيًا، تصاحبه الأهازيج المجلجلة:

نحنا لها، نحنا لها روسَ العِدا نذلّها
وانْ كان مانْها تنحني نكسّرها ونحتلّها

وأيضًا:

مؤامرهْ، مؤامرهْ دنيئةٌ مدبّرهْ
وكلُّ مَن وراءها لا يستحقّ المغفرهْ

وهم لم يُغفِلوا اتهام المحاولين بالاغتيال:

قتلهْ، قتلهْ سفّاكينْ الدمّ
راحْ يعوموا بحمّامات الدمْ

ويتباهَون:

دمْ، دمْ، دمْ اضربْ ولا تهتمّ
رصاصْ متلْ المطرْ أشلاءْ ما تلتمّ

ويتوعّدون:

نحنا رجالِكْ يا سلطهْ بالنار نضربْ والبلطهْ
واللي ما نصلْ ليهُمْ م الخوفْ يموتوا بالجلطهْ

وأخيرًا يعلنون الانتصار:

العهدْ البائدْ دمّرناهْ والوطنْ نحنا عمّرناهْ
بكرهْ عيونْ الدهرْ تشوفْ وتشهدْ ع اللي أنجزناهْ

فرغتُ من كتابة القصة يوم ٢٧ من آب/ اغسطس ١٩٨٢، ونُشرت متأخرة ثلاثًا وعشرين سنة في مجلة "الآداب" اللبنانية (العدد الثلاثي أيلول/ ت١/ ت٢ عام ٢٠٠٥)، ونزلت في كتابي

«تقول الحكاية» بإذنٍ مسبق بالطباعة والتوزيع من قبل السلطات الثقافية.

يقولون: كاد "المعلّم" أن يكون رسولًا!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٤-٤-٢٠١٥

تعديل في قسمة "الهلال الخصيب"

في الرسائل التي جرى تبادلها بين وزير الخارجية البريطاني "مارك سايكس" ونظيره الفرنسي "جورج بيكو"، ما بين شهر تشرين الثاني ١٩١٥ وأيّار ١٩١٦، تلك الرسائل التي أسفرت عن "تفاهم" صادقت عليه روسيا القيصرية حينذاك، كان اتفاق على تقسيم "الهلال الخصيب" بعد رحيل الجيوش العثمانية عنه، وتوزيعه بين هاتين الدولتين... حظيت فرنسا بموجبه بالجناح الغربي من هذا "الهلال"، شماليّ بلاد الشام مضافًا إليه منطقة الموصل، وكان لبريطانيا فلسطين وشرقيّها وبغداد والبصرة وما يلي ذلك جنوبا، ومع حدوث تعديل على تلك "القسمة" فإنّ بنود الاتفاقية تم تنفيذها "بسلام ووئام".

ولكن بدا أنّ هذه الاتفاقية، وقد مضى عليها قرنٌ من الزمان، تحتاج اليوم إلى تعديل وترميم.

فهل كان التعديل يقتضي هذا القتل كلّه، والتدمير والتهجير، أم أنّ ذلك هو المقصود ابتداءً!

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ١٥-٤-٢٠١٥

نَعلم أنّ مفتي دولتنا

نَعلم أنّ مفتي دولتنا ظلّ يتحدّث، زمنًا، عن التفاهم بين الأديان، والتصالح، والعيش الجميل...

فما باله اليوم يناشد -باسم الشعب السوري وباسم أهالي مدينته حلب- الدولةَ والجيش وسائر القوى، بأن تضرب مناطق من ريف حلب، إنْ هي أطلقت أو فعلت، متوعدًا بإبادتها

بأجمعها؟!

فلوريدا: فجر الخميس ١٦-٤-٢٠١٥

لكِ أغنّي

لكِ أغنّي

أعزف على نايي

أروي الحكايات

أقول وأقول...

تُصفَق في وجهي الأبواب

توصد عليّ الأبواب

أنطلق إلى عراء الوطن

أغنّي وأغنّي

والعينان في الأفق

أيتها الحرية الجميلة

آمنت بأنّ فيك الترياق

الذي يَشفي من كلّ فاسد وقبيح

ويُعيد إلى الحياة جمالها ورُواءها

افتتاحية كتابي "تقول الحكاية" دار إشبيلية، دمشق ٢٠٠٦

فلوريدا: فجر السبت ١٨-٤-٢٠١٥

البلبل ناغى قرب الياسمينة!

غرسةُ الياسمين التي نفضت ابنتي عنها ترابها في الوطن، وجعلتها في خرقة نديّة، ودخلت بها إلى البلاد خلسة، قد قُدّر لها أن تُمسِك بالتربة الأمريكية هنا، وتنمو، وتنجب كثيرا، وكان توزيع "الأولاد" على بيوت الأهل والخلاّن.

والياسمينة الأمّ، المتّخِذةُ مسكنًا لها الجانبَ الأمامي من الحديقة تزنّر البيت دون سياج، تتبرعم أزاهيرُها مساء كلّ يوم، لتتفتّق ساعة الفجر، أذهب إليها وفي اليد إناء من الكريستال... أقطف، أشرئبّ لأطول ما بَعُد منها، هنا زهرة، اثنتان متجاورتان، ثلاث، أعُدّ ما أجنيه مثل صبيّ صغير... وربما لمحني المُبْكِرون في الذهاب إلى أعمالهم وهم في سياراتهم، ولعلهم يعجبون: لماذا يُعَنّي هذا الرجل الغريب نفسه بأن يقطف تلك الأزهار الصغيرة التي لا تكاد تبصرها العين!

لم أقصد الحديث عن هذا كلّه، في خاطرة اليوم، أيها الأصدقاء، ولكن لأخبركم بأني اكتشفت أنّ على شجرة النخيل، المجاورة لياسميننا المتعرّشة على جدار قد بُني من أضلاع خشبية، يسكنُ بلبل، وإنه يشرع في غنائه حين أبدأ في القطاف، ولا يكفّ إلّا لحظةَ يَئِن موعد ذهابه للبحث عن قوته اليومي... إنه يذكّرني:

البلبل ناغى ع غصن الفلّ   آه يا شقيقَ النعمانِ
قصدي ألاقي محبوبي   بين الياسمين والريحانِ

ذكّرني البلبلُ الغِرّيد هنا بمُطرب العرب، وأيضا بذلك "الشُّحرور" الذي دأب على أن يأتي إليّ من الغوطة، يقضي فصل الصيف في حديقة بيتي في "نوري باشا"، وقد ألهمني قصة "الشحرور القادم من الغابة"، التي نُشرت في أحد أعداد مجلة "العربي الصغير" في الخريف الذي مضى.

الجسم هنا، يا أصدقائي، والعقل هناك.

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٢٠-٤-٢٠١٥

رسالة من أب إلى ابنته

لم أحزن كثيرًا، يا ابنتي، وأنا أقرأ أمس ما أسمّيه "بيانك الاعتذاري" معلّقًا على جدار صفحتك، تعبّرين فيه عن إحساسك بالخيبة تجاه "المعارضة" في بلدك، التي بدأت انتفاضة أهلها سِلميّةً ثمّ -تقولين- «تعسكرت بطريقة لم تُرض الكثير من أفراد الشعب»، وتستغربين كيف أنّ هذه المعارضة لم تستطع أن توحّد فصائلَها على رأيٍ طيلة السنوات الماضية!

لم أحزن كثيرًا، لأنني أعرف مقدار ما عانيت، أنت وابنك الفنان الشاب "ماجد"، في ديار الغربة نحوًا من ثلاثة أعوام طويلة، لئن كانت غنيّةً بالإبداع، إنها مشحونةٌ أيضًا بالعمل الدؤوب للوقوف على الأقدام في عالم لا يرحم. وسوف أظلّ أذكر ما حدّثِتني به يوم وقف، في عتبة بيتك المستأجَر بالقاهرة، مالكُه أو وكيل المالك، يردح لك، ويسبّ أباك الذي يوصف بالكاتب، ويلعن الشعب السوري الذي يهرب من المعركة مُلتجئا إلى دول أخرى دون أن يكون مزوّدًا بالمال. وما الرجل إلا واحد من حثالة "الرأسمالية الرثّة" التي صالت وعاثت في ظلّ الأنظمة الديكتاتورية... نعم، وأذكر كذلك المخاوف التي بعثْتها في نفسك، وفي نفوس أهلك، معرفتُنا بأنّ اسمك قد وُضع في قائمة المطلوبين لفرع الأمن العسكري بدمشق (فرع فلسطين) سيّئ السمعة.

ساعةَ عُدتِ من "المقابلة" الموعودة، أمس، هتفتِ إليّ، وصوتك يضجّ فرحًا، بأنك رأيتهم "لطفاء"، وأنّ اللقاء كان "راقيا"، وأنّ كلّ ما طلبوا منك أن "تكتبي"، أن تُعبّري، في صفحتك عمّا يعنّ لك من أمر الوطن.

كانوا لطفاء، نعم، وكنت في غاية السعادة، يوم وصل إليك، وأنت في الغربة، وعدٌ منهم بأنهم لن يزعجوك لحظة اجتيازك الحدود، وأنه سيكون لك أن تراجعيهم في يوم تركوا لك مسألة تعيينه، فظللت بدمشق على جمرٍ ستين يوما قبل أن تتشجّعي وتذهبي إليهم.

لطفاء... ولماذا لا يكونون كذلك في تعاملهم مع فنانة تشكيلية لا تحمل في يدها خنجرًا، بل هي ريشة تمرّغها بالألوان، لتسجّل بها حالات الموت والقهر والدمار التي تَغْشى بلدها، فضلاً عن تصويرك، يا ابنتي خلود، لحالات إنسانية أخرى، تبدعين، وتقتسمين الرَّيع الذي يتحصّل لك مع نزلاء الخيام، بأن يُشترى لهم قليل من "الحرامات" تَقيهم شرّ البرد والصقيع.

قلت لي أمس على الهاتف إنك سوف تكتبين، فنصحتك بألّا تبالغي في القول، والجماعة تركوا لك الخيار، فلم يحدّدوا لقولك سقفا ولا أرضا. وتحاشيتُ الدفاع عن المعارضة وتشرذُمها، لمعرفتي بأنّ الناس تربَّوا على إعلان ولائهم المطلق لشعارات «الوحدة والحرية والاشتراكية»، ولا ناقشتك في تساؤلك عن فشل المعارضة في العثور على «وسيلة للتفاهم للعيش المشترك في ظلّ أمن ينشر أجنحته على كلّ أطياف مجتمعك الحبيب»، والنظام ما زال يرمي براميله على "حواضن" الفقراء والبؤساء الذين ما بنوا بيوتهم إلّا بكدّ اليمين وعرق الجبين.

لم أحزن كثيرا، يا ابنتي، لأني أعرف ظروف القول، وظروف العمل، وظروف العيش، وظروف الإبداع. وآه، لو تدرين كم أثّرت فيّ عبارتُك الأخيرة: «عدتُ إلى الوطن، وقد أتعبتني الغربة، وأرهقني الحنين والشوق إلى رائحة الألوان تعبق في بيتي أغمس فيها ريشتي وأخضّب أناملي! »، وأنا على يقين من أنّ أعمالك الفنية سوف تبقى في ضمير الشعب، والانتفاضة، والزمن، شاهدةً على انحيازك للمقهورين والضعفاء.

فلوريدا: مساء الثلاثاء ٢١-٤-٢٠١٥

الدولة العثمانية عند سقوط غرناطة ١٤٩٢م - ٣من٣

يهمّني القول بأني إن لم أتعرّض في الخاطرتين (الأخيرتين) لشجب المجزرة أو لتزكيتها، فإني أعرف الدور المتميّز لدولة بني عثمان في حماية الأمة العربية، مِن تغوُّل الغرب في أعقاب سقوط غرناطة (١٤٩٢م)، ووثوب العسكرتاريا الإسبانية إلى العُدوة المغربية (وسبتة ومليلة ما زالتا في الأسْر حتى يومنا)، استعدادًا "لحرب صليبية جديدة" يصلون فيها -عبر الشمال الإفريقي هذه المرة وليس أوروبا- إلى بيت المقدس... فكان للدولة العثمانية، وهي في عزّ قوتها، أن تُجهض ذاك المشروع عند ما يُعرف اليوم بالحدود المغربية - الجزائرية، فيتغيَّر بذلك مسار التاريخ. وهو دور ظلّ عرب المشرق، وأخصّ كتّاب التاريخ من الشاميين، يرفضون الاعتراف به. ولما ضعفت الدولة الحامية -وإنّ للدول أعمارًا- هجمت دول الغرب (إسبانيا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا) على أمتنا مغربًا ومشرقًا، وتوزّعتْنا لقمًا سائغة... ومن ذلك تطبيقهم اتفاقية "السايكس"، التي يبدو أنهم يعملون اليوم على تعديلها!

فلطفًا، أصدقائي، لا يُزاوِدَنْ أحدٌ ههنا، وإني إن كنت أعي دور الدولة العثمانية وأذكره، فهذا لا يعني أن أتجاوز موضوعيتي التاريخية وإنسانيتي، ولنبقَ غير بعيدين عمّا رمت إليه الخاطرتان من قريب المعاني.

وشكرا لمن مَرّوا، وفي مرورهم كفاية.

فلوريدا: فجر السبت ٢٥-٤-٢٠١٥

وقال وزير الدفاع: «حتى يتثقّفوا»!

لا بأس في أن أقول إني اشتغلت طويلاً في إعداد ذلك الكتاب، الذي نقله أحد أصدقائي إلى العربية، من تأليف المستشرق الإسباني "البروفسور خوان فيرنيت"، وتولّيت نشره بعنوان

"فضل الأندلس على ثقافة الغرب" (وكان العنوان بالإسبانية: "الثقافة العربية الإسبانية في الشرق والغرب")، وعكفت على الكتاب منمِّقًا لغته العربية، ومذيِّلاً صفحاته بحواش مستفيضة، صحّحتُ فيها وناقشت، وأضفت غير قليل في الهامش والمتن أيضا، حتى إنّ أحدهم قال: أوشكت الحواشي والإضافات أن تكون تأليفًا يضاف إلى التأليف. وصدَرَ الكتاب في نحو ستمئة صفحة مجلدًا.

أعرف أني أسرفت في الاسترسال، لأقول بعد ذلك إنه زارني ضحى، بُعيدَ صدور الكتاب في خريف ١٩٩٧، صديقُ العمر "العميد الدكتور بسّام سْخيطة" (ابن المربي الجليل بحلب نعمان سْخيطة)، وقد كان يشغل منصب المستشار العلمي لوزير الدفاع يومذاك، فقدّمت له الكتاب صديقًا مثقفا، فالتمَس مني نسخة أخرى للوزير العماد مصطفى طلاس، ثمّ نسخة مع خطابٍ مني للمكتبة العسكرية.

من جميل ما فعل صديقي بسّام، رحمه الله، أنه عاد يطرق بابي سويعة الظهيرة من ذلك اليوم، وفي يده "صورة فوتوكوبي" من خطابي ذاك، وقد ذُيّل بعبارة خطّها الوزير المولع بالثقافة، يقترح، أو هو يُملي، أن تقتني المكتبة العسكرية نسخًا من الكتاب بعدد مكتباتها الثابتة والمتنقلة، ومئة أخرى تكون تحت يده يهديها لزائريه من الضباط، مُنهيًا عبارته بهاتين الكلمتين: «حتى يتثقّفوا»!

أعترف اليوم بمدى الفرح الذي غمرني لأنّ ضباطنا الأشاوس سوف يطّلعون على صفحات مشرقة من تاريخنا المجيد في الأندلس التي انتقلت عبرها العلومُ والمعارف العربية إلى الغرب، فكانت من عوامل نهضتهم في القرن الخامس عشر. وما كان لي أن أقرأ الغيب، فأعلم أنّ فئة من أولئك الضباط سوف يقومون بعد سنين، بما... أعجز الساعة عن وصفه أو الحديث عنه.

فلوريدا: فجر الخميس ٣٠-٤-٢٠١٥

ما زال أصدقاء جُدد يمنحونني مودّاتهم

ما زال أصدقاء جُدد يمنحونني مودّاتهم

وما زلت أتجوّل بين الخمسة آلاف وأمارس قسوة ليست من طبعي!

فلوريدا: الأول من أيار/ مايو ٢٠١٥

عريس الأحزان!

اتصلت بصديقي الشاب، طالب الدراسات العليا[٢٦] الذي وجد بعد الجهد عملاً في البلد الذي التجأ إليه، أهنّئه على أنه عَقَد على فتاة جامعية استطاعت أن تنجو بنفسها مع بعض أهلها إلى حيث يقيم، فأسمعني، في التعريف بها، أنّ أسرتها الكبيرة فقدت في الأحداث سبعة من شبابها، قُتلوا بالرصاص أو ماتوا تحت التعذيب، وأنّ عددا من نسائها والأطفال قضوا تحت الأنقاض، وأنّ أباها معتقلٌ منذ سنتين لا يعرفون عنه شيئا...

فصرخت به: أنت تُبكيني، يا عريس الأحزان!

وكان آخر ما ارتسم أمامي على الشاشة حروفا تَقَرَّيتُها بعينين نديّتين، تقول: «لمثلها تنحني القامات»، عبارة وددت لو أني أنا من سبق إلى قولها.

فلوريدا: فجر السبت ٢-٥-٢٠١٥

بين "الواقع" الميداني و"الحقيقة" الفنيّة

جريت على أن أعرض الخاطرة (التغريدة) التي أستلهمها من حواراتي مع الأصدقاء، على

---

(٢٦) المقصود هنا: د. أحمد عمر، وكان آنئذ على وشك إتمام الدكتوراه.

صاحب الحوار، وظللت أتلقّى منهم الرضا المقرون بالشكر، وليس يخلو الأمر أحيانًا من إبداء ملاحظة تتعلق بتغييرٍ يراه الصديق "اختلافًا" بين الواقع الذي مرّ، وما ترغب الخاطرة في قوله.

خاطرة أمس، "عريس الأحزان"، لدى عرضي إياها على ملهمها طالب الدكتوراه[٢٧] الذي يُدرّس في جامعة قريبا من إسطنبول، أثنَى، ثمّ لاحَظ أنّ عدد الشهداء في الأسرة كان واحدًا وخمسين، رقمًا موثّقا بالأسماء والصفات، وأنه زاد شهيدا -هو ابن عمٍّ آخر للفتاة- صباح اليوم الذي تمّت في مسائه الخِطبة!

فأجبته بأني أسمح لنفسي بأن أتجاوز "الواقع الميداني" -إن صحّ التعبير- إلى تلك الحالة التي أسمّيها "الحقيقة الفنية"، وأوضحت أني إن ذكرت العدد الواقعي (٥٢)، جعلت القارئ يتصوّر أنه بإزاء "معركة" تُنازِل فيها "قبيلةٌ" النظامَ برمّته، وليس يُحقّق لي ذا غرضا. وأعترف بأني "نزّلت" العدد في المسوّدة إلى ستة وعشرين، ثمّ إلى اثني عشر، وما ارتحت إلّا حين جعلته سبعة -وإنّ لهذا الرقم دلالة في التراث الإسلامي- توصّلاً مني إلى ما أسمّيه مرة ثانية "الاستساغة الذهنية".

وللعلم، إنّ صديقي لمّا يُصبحْ عريسا، فالخِطبة في أولها، وقد تمّت على مَبْعدة ألف وخمسمئة كيلو متر من مكان إقامته، وعاد دون الفتاة! وأني أغفلت الإشارة إلى موطن الأسرة "الشهيدة" تمويهًا تقتضيه الظروف! وأني قلت: «أنحني لها ولأفراد أسرتها»، وهو قال: «ذاقت من مرّ الحياة ما يجعلني أنحني لها احتراما وتقديرا»! ولعلني قصّرت حين تجاوزت عبارة حميمة قالها: «لو رأيتَها، يا سيدي، وهي تقف من جديد في هذه الحياة بعد أن يئسَتْ من كلّ شيء، إنها لن تكون غدًا زوجتي فقط، إنها ملهمتي، ومنها سوف أتعلم كثيرًا!».

وإلى الخطيبين أقول: اذهبا إلى العيش الجميل، فإنّ الحياة جديرة بأن تُعاش، رغم كلّ شيء!

---

(٢٧) وهو الدكتور أحمد عمر، المُشار إليه آنفاً، في الخاطرة السابقة.

فلوريدا: عصر السبت ٢-٥-٢٠١٥

ولا يَكُفّ الغرب عن نفاقه!

مليحٌ منهم أن يُفتّحوا عقولهم وهم يبحثون عن حلّ لمشكلة سوريّة، فيؤكّدوا ضرورة حماية "الأقليّات".

وقبيحٌ منهم إلى أبعد الحدود أن يُغمِضوا عيونهم حتى العمى، عمّن يسمّونهم "الأكثرية"، التي ما زالت تُهجَّر وتُباد منذ أربع سنين ودخلنا في الخامسة!

فلوريدا: ضحى الأحد ٣-٥-٢٠١٥

بعضهم يملك من السفاهة قدرًا يفوق ما يدّعيه من الوطنية الملتبسة

فلوريدا: فجر الإثنين ٤-٥-٢٠١٥

وتأتيني رائحتك من بعيد يا حلب!

عندما دخل البستاني "روجر" بعربته الصغيرة ليَجُزّ ما طال من عشب الحديقة، خُيّل إليّ أني أشمّ رائحة العشب المقصوص ممتزجةً برائحة الدم المسفوح، تأتيني من بعيد.. يا حبيبتي يا حلب!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٤-٥-٢٠١٥

يقولون إني طائفي!

عندما ابتدأت، في ستينيّات القرن الماضي، أشجب الظلم والعسف والفساد وأغنّي للحرية، في قصص أكسوها ثوب "الفانتازيا" المهذّبة، كانوا يَصِمونني بالتهمة الرائجة في ذلك الزمان: الرجعيّة!

اليوم... أراهم يتجنّبون اتهامي بما ابتدعوه حديثًا: "الإرهاب"، فهم يعلمون أنّ ما أحمل هو "أداةٌ" صغيرة، قلمٌ تَدْمَع عيونه حين أكتب بلون اللَّيْلك القاني، فاخترعوا وصمة «الطائفيّة»!

أليس عجيبًا أنّ الطائفيّين... يرون فيّ طائفيًا!

فلوريدا: ضحى الإثنين ٤-٥-٢٠١٥

رحلة حرف "الجيم" في العربية واللغات الساميّة وفي مصر والشام

في مصر، في القاهرة خاصةً، يلفظون حرف الجيم العربي على صورة حرف الـ(G) الأجنبي، وفي بلاد الشام يكتبون حرف الـ(G) على صورة غين... لماذا؟

مدير التحرير في مجلة ثقافية، يكتب في مقالته الشهرية، متسائلاً عن ذلك في شيء من استغراب، فحدّثتُه في مقالة، نُشرت في العدد التالي، عن "رحلة" حرف الجيم في بعض اللغات واللهجات.

قلت: يوم كنت أقرأ في الأربعينات وأنا فتى، الدوريات المصرية، وأسمع ما تقوله إذاعة القاهرة، وأشاهد الأفلام، وأستمع إلى الأغاني... كان يثور عندي سؤالٌ بدا لي حائرًا: لماذا يلفظ المصريون حرف الجيم على صورة حرف الـ(g) الأجنبي، ونحن في بلاد الشام نلفظه بصورة أخرى؟

وأمس، وبعد كثير من الأعوام تقضَّت على ذلك السؤال المضمَر، أقرأ في مجلة "دبي الثقافية" السؤال عينه، معلَنًا، بقلم مدير التحرير، المصري، الصديق ناصر عراق، لكنْ مطروحًا بطريقةٍ معاكسة: لماذا يلفظ أهل الشام، أو بالأحرى: لماذا يكتبون أسماء الأعلام الأجنبية، تلك التي تتضمّن حرف الجيم، بطريقةٍ مختلفة؟ ومثّل بأسماء أشهرها اسم الشاعر الفيلسوف الألماني

Goethe: "جوته"، "غوته"!

في البدء أقول: إنه كان للقبائل العربية قديمًا لهجاتٌ مختلفة، سمّاها الأقدمون "لغات العرب"، وكان الاختلاف في مفرداتٍ، وفي استعمالاتٍ لغويّة، وكذلك -وهذا ما يهمّنا الآن- في نطق بعض الحروف على هذه الصورة أو تلك. وقد نزل القرآن الكريم على نبيِّنا محمد بعربية قريش، بخصائصها اللغوية، ومنها أنَّ حرف الجيم ينطق "مُعَطَّشًا"، على نحو ما انتشر بعد ذلك في بلاد الشام وغيرها. فإنّ "جيم" أهل الشام، هي العربية القرشية.

في تساؤلي ذاك، الذي كان حائرًا (لماذا ينطق المصريون الجيم بتلك الطريقة المختلفة؟)، عرفت، في أثناء إقامتي بالقاهرة طالبًا بجامعتها (١٩٥٠-٥٤)، أنّ الناطقين بحرف الجيم "محنَّكًا" (لأُسَمِّ كذلك تلك الطريقة في نطقهم)، لا يتعدّون المدينتين الكُبرَيَيْن القاهرة والإسكندرية ومَن يجاريهم من أبناء الأقاليم النازلين بينهم. ثمَّ إني التقيت، في خريف ١٩٩١ وأنا في ليبيا مشاركًا في الاحتفال بافتتاح "النهر الصناعي العظيم"، ثلاثةً من أدباء اليمن، فرأيتهم – يا للعجب! -ينطقون الجيم بمثل ما ينطقها أبناء العاصمتين المصريتين، وعرفت منهم أنّ أبناء المدن (دون الأرياف) في اليمن السعيد ينطقونها كذلك.

وقد قرأت في الكتب أنّ نطق الجيم محنّكةً كان شائعًا عند بعض القبائل العربية، إلى أن غَلَبت الجيم القرشية. ثمّ وقفتُ في المراجع على أنّ اللغات الساميّةَ (أو "اللغات العروبيةَ" حسب المفكر الليبي علي فهمي خشيم)، تنطِق الجيم كما نطقها أهل العاصمتين المصريتين، ويتبدّى ذلك اليومَ في اللغتين السُّريانية والعِبرية.

أقول: في عصر النهضة العربية، الذي أَهَلَّ في أواخر القرن التاسع عشر، ومع زيادة الاحتكاك بالأجنبي الأوروبي والأخذ بالنقل عن لغاتهم إلى العربية، لم تظهر مشكلةٌ عند النَّقلة والمترجمين في مصر في رسم حرف (g) الأوروبي، فكلمة Goethe رُسمت "جوته". ولكن

المشكلة ظهرت عند أهل الشام لغياب ذلك النطق في لغتهم الفصحى القرشية، وجاء الحلّ، مُؤيِّدًا من قبل المستشرقين المعنيّين بلغتنا، بأن يُرسَم ذلك الحرف بصورة (غين): "غوته"، على أن يقرأ (g).

أقول: حلّها "الشّوام"، ولكن كيف يحُلُّ المصريون مشكلة الكتابة والقراءة لكلمات أجنبية مثل: جونسون وكيسنجر؟ وقد سمعتهم في مصر يلفظون جرجس محنَّكةً، وذلك مخالفٌ لكلّ المعايير.

كنت قد توسَّعت في حديثي هذا، في مسوّدة المقالة في وضعها الأول، فاسترسلتُ متناولاً نطق العرب في أقطارهم لحرف القاف، هذا المتذبذب ما بين القاف -القرشية أيضًا- (قال يقول)، والغين (الحغيغة)، والجيم (جاسم)، وثالثة الأثافي أو رابعتها "تهميز" هذا الحرف -إن صحّ التعبير- كما عند أبناء المدن في الشام وفي مصر (ما آل لي وأُلْت له)، وذلك -زعموا- بتأثيرٍ من أكابر الأتراك أيام العثمانيين، الذين كانوا يتجنّبون نطقه على طريقة القَرويين[٢٨]... توسَّعتُ، لولا أنّ ناصر عراق أوصاني على الهاتف بأن أتقيّد بطولٍ للمقالة لا تزيد فيه الكلمات على ستمئة!

ولكني لن أترك القلم قبل أن أشير إلى حالات نطق الجيم وأحوالها: فهذا الحرف في قرشيّته قد «تقطَّعت به السُّبُل» على ألسنة أبناء الأقطار والأقاليم والمناطق، والأصل نطقُه معطَّشًا (في حلب وحماة وحوران، مثلاً)، وكما نراه من حرص مقرئي القرآن الكريم في الإذاعات والتلفزة

(٢٨) الحق أن الأتراك، الأكابر وغير الأكابر، لم يكن لهم دورٌ في قلب القاف همزة. صحيح أن بعضهم كما أشار الكاتب يرغبون عن نطق القاف الفصيحة المفخّمة كما ينطقها القرويون، لكن يميلون إلى الكاف بتفخيم متوسط، لا إلى قلبِها همزةً، كما يوحي كلام الكاتب، فلا يوجد في لغة الأتراك الآن من الكلمات العربية التي تحتوي حرف القاف، على كثرتِها، كلمة واحدةً قد غُيِّرتْ إلى همزة البتة، رغم كثرة التحريفات الصوتية في الكلمات عن أصلها العربي.

وفي جميع المساجد على مرّ الزمن. ولكنّا رأينا التعطيش "يتغلّظ" عند بعض الناس حتى ليلفظون الجيم على صورة (تش ch الإنكليزية)، ولكنّ التعطيش يتلاشى و"تُرَقَّق" الجيم في دمشق وحمص والساحل الشامي فتُنطَق على صورة (j) الأوروبية. وربما سمعتَ عجوزًا دمشقيّة تشير إلى زوجها قائلة: «زوزي»! وعن شجرة الجوز، الجوزة، تقول: «زوزة»! وسمعتهم في بعض أنحاء المغرب يقول أحدهم: «عندي زوز ولاد»، يعني أنّ عنده ولدين اثنين.

والله أعلم، يا ناصر عراق...

- - - - - - - - - - - - - - - - - - -

وقد قدّم مدير التحرير، ناصر عراق، لمقالتي بكلمة تَوَّجَها بعنوانٍ لطيف: «قبل أن تقرأ»... قال:

فاجأني الكاتب السوري الأستاذ فاضل السباعي بهذا التعليق المهم ردًّا على مقالي في العدد ٤٩ عن اختلاف نطق بعض الأسماء الأجنبية بين المصريين وأهل الشام. وقد بذل الرجل جهدًا محمودًا ليصل إلى لبّ الخلاف في النطق، وإنْ كنت أرى أنّ القاهرة ليست مجرد مدينة أو عاصمة كبيرة فحسب يتحدّث أهلها فقط بالجيم المصرية كما يقول الأستاذ الفاضل بالاشتراك مع الإسكندرية، لا.. القاهرة مدينة بمقام دولة إقليمية كبرى إذا جاز القول، وقد فرضتْ لهجتَها على كافة مدن مصر، كما أنّ أشهر فنّانيها وزعمائها ومبدعيها لا يتحدّثون إلاّ بهذه اللهجة القاهرية، فجمال عبد الناصر وأمّ كلثوم وطه حسين والعقاد ونجيب محفوظ وعبد الوهاب وعبد الحليم وغيرهم وأكثر من ٩٠٪ من إنتاج الأفلام المصرية (بلغ عددها كلها في القرن العشرين نحو ٣٠٠٠ فيلم) ومئات المسلسلات التلفزيونية والإذاعية كلها لا تستخدم إلاّ اللهجة القاهرية التي نطلق عليها مجازًا اللهجة المصرية ذات الجيم الخاصة جدًّا.

على كل حال.. شكرًا للأستاذ الفاضل على مداخلته وتعليقه المهمّ.

مجلة "دبي الثقافية"، العدد (٥٠) يوليو ٢٠٠٨، ومخطوطة كتابي "قمر لا يغيب، فصول في أدب الرحلات"، قيد الطباعة.

فلوريدا: فجر الخميس ٧-٥-٢٠١٥

أمعقول؟!!

أن يفرح بعض المؤيّدين في سورية، لنزول البراميل على أهالينا، أهاليهم، وما ينجم عن ذلك من تدمير وتقتيل!

بمقدار ما نفرح نحن لتراجع قوات الحوثيّين وصالح، المعتدية على الشرعية في اليمن؟

فلوريدا: فجر الجمعة ٨-٥-٢٠١٥

وبكتْ القارئة حزنًا على بطل "رياح كانون"

بعد أن أتمّت طالبة الآداب بجامعة حلب "صباح ك. "، حوارها معي، عبر التراسل بيني وبينها من حلب إلى دمشق طَوال أسابيع من ربيع العام ٢٠٠١، تلقّيت منها هذه الرسالة:

لقد تشوّقت إلى قراءة روايتك "رياح كانون" من خلال حديثك لي عنها، وعبثًا كانت محاولاتي في تأجيل قراءتها إلى شهر "كانون" القادم(!)، فقد كان شوقي إلى قراءتها أقوى من أن أصبر حتى ذلك الحين.

استعرت الرواية من مكتبة الكلية يوم الخميس ٣١-٨ (أكتب لك التواريخ التي انحفرت في نفسي)، وقرأت مساء ذلك اليوم حوالي تسعين صفحة حيث لم يُسعفني الوقت بأكثر من هذا القدْر، وفي اليوم التالي الجمعة الأول من أيلول وبعد السادسة مساء، استأنفت قراءة رياحك الباردة، فما رفعت رأسي عن الرواية إلّا عند الثانية بعد منتصف الليل، وقد أتيت على

صفحاتها الأربعمئة. وأعترف بأنني غرقت -بعد فراغي من قراءتها- بدموعي!

نعم، فقد حزنت لأجل بطل الرواية الناقد الأدبي "رامي حسام الدين" الذي عقد آمالاً كبيرة على الكاتبة الناشئة البرجوازية النبيلة "لبنى آل الأمير"، وقد اشتغل في روايتها الأولى "أحزان إلى الأبد" وعمل على نشرها والترويج لها... إلاّ أنّ حزني سرعان ما خفّت حدّته أمام تصميم البطل رامي -وهو حقًا بطل- في اتخاذه قرارًا حاسمًا، بأن يهجرها ويُبقى منها ذكرى يجعلها مادة لكتابة "رواية" تؤرّخ للحبّ الذي كان.

أهنئك، أستاذ فاضل، على هذه الرواية الجميلة، ولسوف تظلّ "رياح كانون" رغم فشل قصة الحب فيها مبعثًا على الأمل والتجدُّد، ومتابعة طريق الحياة في عزم وتصميم.

(ص. كيالي): حلب، السبت ٢ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١

- - - - - - - - - - -

والحوار، أصدقائي الأعزاء، التي وسمته الأديبة الناشئة بـ"مكتبة عامرة.. وأرشيف متميّز"، لم تكتحل عيناي برؤيته منشورًا، لأنّ الجريدة الخليجية الموعودة رأته أطول مما اعتادت أن تنشر من حوارات، لا ولم ألتق بعد تلك الرسالة بالشابة التي ذهبت تشقّ طريقها في معترك الحياة، ولكنّ الحوار بطوله وهذه الرسالة، أصبحا من المواد التي تضمّنها كتابٌ لي ينتظر النشر بعد عودتي المأمولة إلى الوطن.

من كتاب "قمر لا يغيب، فصول في أدب الرحلات" قيد النشر.

فلوريدا: فجر السبت ٩-٥-٢٠١٥

بين تغريد العنادل وعطر الياسمين

في رياضة المشي التي أمارسها كلّ يوم، إمّا بأن أمشي على الرصيف إلى موضع من هذا

"الطريق السريع" (الأتوستراد) في ظلال أشجار الغابات الوارفة، وأعود أدراجي... وإمّا بأن أطوف، حول "الجزيرة السكنية" ما يقتضي وقتًا أطول، وأنتهي عائدا إلى البيت.

في طوافي هذا، يَطيب لي أن أستمع إلى تغريد البلابل، في مجموعة من أشجار عتيقة متعانقةٍ أغصانُها، أمرّ من تحتها في موضع يبدو لي وكأنه قطعةٌ من الجنّة، أتوقّف، أصغي إلى زقزقة العصافير المرافَقة بترتيل البلابل والعنادل، المتداخلة المتناغمة، ما يزيد السامعَ طربا... ولكني لا أُطيل الوقوف، حتى لا أسترعي انتباه العابرين بسياراتهم، يقولون: ما بال هذا الرجل، الذي يبدو غريبًا، يتوقّف ويشخَص ببصره إلى أعلى، ولا يتابع المسير؟!

وإني لأتذكّر، في كلّ مرة، سالفةً صغيرة حكاها لي قبل عشرين سنة صهري "الدكتور محمد نعمة" بحلب -الذي يبُزّني في ولعه بالمطالعة وإن لم يسعَ لأن يكون كاتبا- بأنه كان يمشي، في عصر يوم، في "حي الشهباء" المشيَّد حديثًا والباذخ بعمرانه، فرأى رجلا، متقدّما في السنّ رقيق الحال، يمشي الهوينى، ثمّ يتوقّف أمام أشجار الياسمين المستلقيةِ أغصانُها من فوق الأسيجة نحو الرصيف، يتملّى النظر من الأزاهير الخماسية الصغيرة، التي تبدو وهي على الأغصان الخُضر وكأنها النجوم في ليلة معتمة، يقترب، يشمّ، ثمّ يمشي، ليتوقّف ثانية أمام شلال ياسمين آخر!

ولأنّ صهري، رحمه الله، يملك من "الفُضول" ما يملك ابنُ حَمِيه، فقد تراءى له أن يسأل الرجل عن حاله؟ فعرف أنه يأتي في بعض الأماسي من حارته البعيدة إلى هذا الحيّ، ليستمتع بالياسمين نظرًا ورائحة.

أقول: ألا يُشبِه وقوفي هنا، وقفاتِ الرجل هناك! مع اختلاف المكان والزمان، لكن مع تلاقي الرغبة في التمتّع بجمالات الطبيعة، من تطريب للأذن ومن تنسُّم عطر الياسمين.

فلوريدا: فجر الأحد ١٠-٥-٢٠١٥

القصف هنا.. القصف هناك

تساءلت:

كيف أنّ الناس يشتكون من القصف ينهال عليهم هنا، ويؤيّدونه في اليمن هناك؟

ولم يَطل تساؤلي. ذلك أنّ الناس يعانون من الفتك يَطال دُعاةَ الحرية هنا، على حين أنه يستهدف هناك الساعين إلى اغتصابها.

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٣-٥-٢٠١٥

آخِر من يقرأ - ١

حدّثني صديق كاتب يُعَدّ من المرموقين، أنه يتلقّى الإعجاب، بما تخطّه أنامله، من الناس، إلّا من زوجته وبنيه، الذين يرونه إنسانًا عاديّا جدا، يأكل ويشرب وينام، ويغضب أحيانًا... ويتحدثون عن أنهم يرونه يقرأ، ويتأمل، ويسهر، يكتب ويمزّق ورقا ويعيد الكتابة بصبر يثير إشفاقهم، وأنه يشكو أحيانًا من صعوبة الكتابة، وأحيانًا يفرح لأنه أفلح مثل فرح الأطفال بالحصول على لعبة!

وقال إنه نادرًا ما رأى كتابا من كتبه بين أيديهم... إلّا إذا اتفق أن سمعوا حديثًا من بعض أصدقائهم فيه ثناء على كتاب، فيدفعهم الفضول إلى أن يقرؤوه. ويعتقد أنّ ابتهاجهم بالقراءة -إن وُجِد- "مستعارٌ" من مشاعر أصدقائهم.

فقلت أخفّف عنه: وإنّ عندي، يا صديقي، بعض ما رويت، فإني، مثلا، منذ دخلت عالم التواصل الاجتماعي أكتب، وأتناول أحيانًا بعض ما يتحلّى به أفراد أسرتي من جميل الخصال والفعال، وأروي نهفاتهم فأُمتع بها القراء، دون أن أتوقع منهم الثناءَ المُستطاب. وما من مرة رأيت أحدهم قرأ، أو أشار إلى ما قرأ.

ومضى صاحبي إلى شأنه، ومضيت.

فلوريدا: مساء الأربعاء ١٣-٥-٢٠١٥

آخر من يقرأ ٢ - كتبٌ عزيزة مفتقدة

وحدّثني صديقي -وقد بدا لي أنّ القلب عنده "مَلْيان"! - أنه يُقدّم إلى أبنائه واحدًا واحدًا، نسخًا من كلّ كتاب جديد يصدر له، ممهورًا بتوقيعه، على نحو ما يُمليه الاعتزاز بالبنوّة والنفس والأدب.

وقد يقع أن يخطر له، وهو في زيارة لأحدهم، أن يطلب كتابا من كتبه هذه قصد الرجوع إليه في مسألة ما، فيضطرب أمرهم في التعرّف على مكان وجوده. وعندما يأتون به إليه يراه معفّرا... «فأين كان يبيت هذا الكتاب، بربكم خبّروني؟!».

وذات يوم -يتابع حديثه صديقي الحبيب- عثر في إحدى المكتبات على نسخ من كتاب له قديم أصبح في حكم النادر، فاشتراها كلّها، ووجّهها إلى المجلِّد، وأوصاه بالإتقان، ثمّ قام يوزعها على أولاده ممهورةً، مع تنويهه لهم بالندرة والنصح بالمحافظة على هذا الكتاب. واتفق له يومًا أن سأل عنه في بيت أحدهم، فما أتوا له به، لا بالغَ الأناقة ولا معفّرا، بل إنهم نسُوا واقعة الإهداء!

وما فاته أن يختتم حديثه: «أعرف أني أضايقهم في هذه الأمور... ولكن أليس عليهم أن يحتفظوا بمؤلفات أبيهم، وأن يعتزّوا بها أيضا؟».

وللحديث صلة، أيها الأصدقاء... ولكنه سيكون عني في المرات القادمة.

فلوريدا: فجر الجمعة ١٥-٥-٢٠١٥

آخِر من يقرأ ٣- لا "مشاهدة" ولا "تعليق"!

منذ حللت في فلوريدا، قبل عام وسبعة أشهر، كتبت ونشرت في صفحتي نحو ألف خاطرة/ تغريدة، كان منها حوالي الخمسين يتعلق بأفراد أسرتي، صغارهم والكبار، أتابع تصرفاتهم الحميمة، وأرصد نهفاتهم النادرة... ولكني ما رأيت "مشاهَدةً" لهم، ولا "تعليقا"، ولا همسة بأنهم قرؤوا!

سوى مرة واحدة حدثتني حفيدتي "ديمة" عن أنها قرأت على ابنها الفتى الوسيم "محمد شاهين"، أو ترجمت له، تغريدةً حول مصادفتي إياه، وأنا في الضاحية أقوم برياضة المشي المسائية، كيف سمعتُ صوته ينادي "جدّو"، وكان يلعب كرة السلة مع رفاقه... وأذكر وصفَها لإصغائه لها، وأنه سُرّ لما يسمع منها مترجَمًا، وضحك له من الأعماق.

أقول مازحًا ومتشفّيا أيضًا: إنه "تقصير" من الأبناء، تغفره لهم المحبة.

فلوريدا: ضحى الجمعة ١٥-٥-٢٠١٥

آخِر من يقرأ ٤ - ولكنهم يعتزّون.

ونحن في العاصمة دمشق، فإنّ ابنتي "خلود" وابني "فراس"، أراهما يهتمّان بنتاجي الأدبي الذي جريت، منذ خمس وعشرين سنة، على نشره في الدار التي أسّستها، ويعتزّان... وقد دأبا على أن يأخذا من كلّ كتاب جديد أُصدره، "كرتونة" ملأى بالنسخ (بالسعر المخفّض!)، يُهديان إلى أصدقائهما اعتزازًا، وإلى موظفي الدولة تيسيرًا للأمور!

حادثة نموذجية أحبّ أن أرويها. لمّا آن لابنتي أن تسكن البيت الذي سهرت على "كسْوتِه"، توجّهت إلى "شركة الكهرباء" لطلب تركيب عدّاد له. ويعرف المواطنون مقدار المعاناة في إنجاز هذا الأمر، تسويفًا وابتزازًا. طرقت باب المدير العام مباشرة، معرِّفةً بنفسها: فنانة

تشكيلية، وأبوها مؤلّف هذه الكتب... وطرحت ما جاءت به أمام الرجل.

تقول إنه أقبل على الكتب، يقلّب صفحاتها، ويتأمّل، ويُبدي استحسانا. لقد رآها مواطنة "مختلفة"! وتقول أيضًا إنها لحظة وصلت إلى بيتها، رأَت أمام الباب سيارةَ الشركة وفريق العمل ينتظرون، وسمعت منهم عتابًا راق لها: «لماذا تأخرت يا ستّ، ونحن من الصبح ننتظر؟».

وعمّ نور الكهرباء أرجاء البيت. وهم قبلوا أن يتناولوا "الإكرامية" باستحياء، فثمة توصية من المدير العام بالامتناع عن تناول أي شيء، فصاحبة البيت فنانة تشكيلية وأبوها أديب!

فلوريدا: ظهيرة: الجمعة ١٥-٥-٢٠١٥

آخِر من يقرأ ٥ - كلمة إهداء حميمة!

وحكاية أخرى...

أنّ ابني، في أخْذِه "كراتين" الكتب مُهديًا إياها اعتزازًا بأدب الأب وتيسيرًا للعمل، كان يطلب مني أحيانًا أن أَمهر بعض الكتب بتوقيعي!

ولكنْ... ما باله يُلحّ عليّ، في تلك الليلة، أن أخطّ بيدي، في الصفحة الأولى من ذلك الكتاب، كلمة إهداء، إلى موظف حكومي مرموق هو ضابط في الجيش برتبة "عميد"، مع أنه يعرف أني لا أحبّ!

وما كان له أن يقبل اعتذاري، وما قدرتُ أن أواصل الامتناع، فخطّت يدي كلمة، أراد لها أن تكون حميمة... ولله درّهم، أبناءَنا، عندما يغلبون إرادة الآباء!

بعد حين، وأنا في ساعة "رَواق"، تلقّيت مكالمة هاتفية من أحدهم، بدا من سلامه أنه صديق لي "حميم"، فسألته من يكون؟ فعرّفني، وكنت قد نسيت ذلك الاسم والكلمة الطيّبة، والرجل، مع ما بدر مني، آثر الانسحاب.

ثمّ جاءني ولدي بعد أيام، لينقل لي أنّ "المُهدى إليه" حدّثه وقال: «طلع أبوك ما بيعرفني! ». ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فلوريدا: فجر السبت ١٦-٥-٢٠١٥

آخِر من يقرأ ٦ – سنّ المطالعة الشّغوفة!

حرصًا على استكمال رسم الصورة...

أذكر أول ما قرأ أولادي من أعمالي الأدبية -وكانوا فيما أسمّيه "سن المطالعة الشغوفة" وأخصّ سهير وخلود- أن كُبراهما كانت في الثالثة عشرة تصغُرها خلود بسنتين، وقد أقبلتا بشغف على قراءة "ثمّ أزهر الحزن"، المكوّنة من نحو مئة ألف كلمة، مسفوحة على أربعمئة صفحة من القطع الكبير.

وأعترف بأنه كان يطيب لي أن أسترق النظر إليهما، وكلٌّ منهما منتحيةٌ ناحيةً في بيتنا الدمشقي، تستغرقها المطالعة، وأراهما "تتبادلان" الرأي فيما يشدّهما من إيقاع الأحداث، من حزن وفرح واستغراب! ثمّ كان أن تجاوزتا ذلك إلى أن أقبلتا على قراءة ما عندي من "روايات الهلال"، وبعد ذلك أخذتا تُعيران الكتب لصديقاتهما، وامتدّت أيديهما إلى رواية "نساء صغيرات"، للأمريكية لويزا ماي ألكوت، نقلتها إلى العربية أمينة السعيد بأربعة أجزاء (عن دار المعارف بمصر)، ثمّ لم يبق عندي منها إلّا جُزءان!

هل انتقلت عدوى المطالعة -أم أنها "السنّ الشغوفة"- إلى أولى الحفيدات، "ديمة" بحلب، ومنها إلى صديقاتها الحبيبات؟ ولأذكرْ أني تلقّيت، قبل أيام من إحداهنّ، التي ما زالت على الودّ القديم، رسالة، تلتها أخرى:

«الأستاذ..... جدّ صديقتي ديمة. لك جزيل الشكر على إضافتي.

روايتك "ثمّ أزهر الحزن"، التي أعارتني إياها ديمة الغالية في الزمن الجميل، ما زالت نكهتها تعبَق في نفسي، وأظنّ أنّ حياتي الخاصة التالية أشبهت، بطريقة ما، الجانب الحزين من هذه الرواية!

غدوت كاتبة أراسل المجلات لكن باستحياء.

أعيش مهاجرةً في عمّان الأردن. آمل أن نجتمع في الوطن قريبا». [(زين...)، عمّان: ١١-٥-٢٠١٥]

فلوريدا: ظهيرة السبت ١٦-٥-٢٠١٥

بعد الأرغفة التسعة الطريّة

إذا قدّم لك أحدهم رغيفَ خبز طريًّا، يُؤْمنُك من جوع، على مدى تسعة أيام متواليات

وفي اليوم العاشر يأتيك يقول: أنت عبدٌ لي!

عندئذ تحسّ أنّ تلك الأرغفة قد استحالت في دمك إلى سمّ

فتقذف بالرغيف العاشر في وجهه

وتمضي جائعًا حرّا...

فلوريدا: فجر الأحد ١٧-٥-٢٠١٥

أصوات الأطفال العذبة

دخلنا بيت الأب الشابّ في سهرة، وعنده أربعة أطفال، زُغْب الحواصل لا أجملَ أشكالًا ولا أعذب ألحانًا.

وبينا نحن في سَمَرنا، ارتفعت أصواتُهم في لعب، فإذا الأب يطلق صرخة انقطعت بعدها

أصواتهم دفعةً.

بعد قليل علا صراخهم كرةً أخرى، فصاح بهم. فمِلتُ عليه أسأله ما يريد منهم؟ فأجاب: «أن يسكتوا، فصراخهم يزعجكم!»

فقلت: «والله ما يزعجني إلّا صرختك هذه التي تُجمّدهم عن الحركة إلى حين! يا أخي، دع صغارك يمرحون، يَشْغَبون، فليس هناك أعذبُ من أصوات الأطفال وهم يلعبون، وليس أوجعُ للقلب من سماعِهم وهم يبكون، ومن رؤيتِهم حزانى!».

وأخذت أُنشِد أبياتا من قصيدة للشاعر عمر بهاء الأميري، في أولاده يوم ابتعدوا عنه في سفر:

أين الضجيجُ العذبُ والشَّغَبُ	أين التدارسُ شابَهُ اللعبُ
أين الطفولةُ في توقّدها	أين الدُّمى في الأرض، والكتبُ
أين التشاكُسُ دونما غرض	أين التشاكي ما له سببُ
أين التباكي والتضاحكُ، في	وقت معًا، والحزنُ والطربُ
إني أراهمْ أينما التفتتْ	نفسي، وقد سكنوا، وقد وثبوا
وأحسّ في خَلْدي تلاعبَهم	في الدار ليس يَنالهم نَصَبُ
وبَريقَ أعينِهم إذا ظَفِروا	ودُموعَ حُرقتِهم إذا غُلِبوا
في كلّ ركن منهمُ أثرٌ	وبكلّ زاوية لهمْ صخبُ
في الصحن فيهِ بعضُ ما أكلوا	في علبة الحلوى التي نَهبوا
في الشطر من تفاحةٍ قضموا	في فَضْلة الماء التي سكبوا
في النافذات زُجاجَها حَطَموا	في الحائط المدهون قد ثقبوا
في الباب قد كَسَروا مزالجَه	وعليه قد رسموا، وقد كتبوا

إني أراهمْ حيثما اتّجهت عيني كأسرابِ القَطا سَرَبوا

وقضينا السهرة على خير!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٠-٥-٢٠١٥

عن جائزة الدولة التقديرية في بلدي

بعد أن أعلنت وزارة الثقافة بدمشق أسماء الفائزين "بجائزة الدولة التقديرية للعام ٢٠١٥"، فنالها في مجال الفنون المخرج السينمائي "عبد اللطيف عبد الحميد"، وفي مجال الآداب الكاتب "عبد الفتاح قلعه جي"، وفي مجال الدراسات "ندرة اليازجي"، وكلّهم أكنّ لهم التقدير، سألني أحد الأصدقاء لماذا لا يكون اسمي بين هؤلاء اليوم، ولا بالأمس كان؟

فأجبته صريحًا وغير مستاء:

«يا أخي! إذا كان اتحاد الكتّاب العرب، ممثّلاً برئيسه "ع.ع.ع"[(٢٩)] مدة ثمانية وعشرين سنة متوالية (١٩٧٧-٢٠٠٥)، لم يرضَ أن يطبع لي كتابًا واحدًا بين منشورات الاتحاد، لا ولا رشّحني يوما لأكون بين الذاهبين إلى المؤتمرات الأدبية، وقد ظلّ يرشح الكبار ويرشح الصغار ممّن لا تصل قاماتهم إلى كتفي، فكيف يَتوقَّع عارفٌ بالأمور أن أنال جائزة دولة تقديرية أو تشجيعية!».

وتذكّرت ما وقع قبل عشر سنين، يوم تهمّم رئيس الاتحاد الجديد مشكورا للاحتفاء بالكتّاب "المتقاعدين" و"المؤسّسين" وإني واحد من هؤلاء منذ العام ١٩٦٩، ثمّ اتفق أن اقترح أحدهم أن ألقي الكلمة باسمهم في الاحتفال الكبير الذي يحضره عدد من الوزراء، وكيف أنّ بعض أعضاء "المكتب التنفيذي" هبّوا يعترضون على ذلك بشدّة، وكأنني قاتل أمّهم أو أبيهم!

---

(٢٩) إشارة إلى علي عقلة عرسان

فلوريدا: فجر الخميس ٢١-٥-٢٠١٥

قلب أمريكا

ما أحنّ قلبَ الإدارة الأمريكية على مواطنيها والنازلين في ديارها!

وما أشدّ ظلمَه وظلامه على بلاد الشام وأهاليها!

فلوريدا: فجر السبت ٢٣-٥-٢٠١٥

الحلبيّة ومربّى الورد

كتب إليّ:

أرى أبناء شعبك يَعْتِلون جِرار الغاز على ظهورهم

ويأتي أطفالُهم إلى البيوت بسطول الماء الثقيلة يملؤونها من آبار الحيّ

وذلك دون أن تفارق البسماتُ وجوهَهم المضيئة

ولا ينسى الحلبيّةُ منهم مؤونة "مربّى الورد" التي اعتادوها كلّ سنة!

فلوريدا: ليل السبت ٢٣-٥-٢٠١٥

العودة إلى الآبار المهجورة

في ثلاثينيّات القرن الماضي كنت وأنا طفلٌ صغير، أذهب وأختي إلى "الحنفيّة العامة" في آخر الزقاق، نملأ الوعاء ماءً عذبا للشرب حين نفاجأ بأنّ مخزون الماء -الذي دلقه سقّاء الحارة في الخابية يوم أمس- قد قارب النفاد، وأما ماء الغسيل والشطف فكان من الجبّ المركّب عليه "الطُّرُمْبة"، نضخّه نحن صغار العيلة باذلين في ذلك أقصى الجهود.

أذكر، وكان لي من العمر خمس سنوات أو ستّ، أنّا كنا نقف أمام الحنفيّة، نصفّ الأباريق

والسطول الفارغة منتظرين الدور، لا خلاف ولا جدال... هل أقول: إننا تلقّينا، عند عتبة تلك الحنفيّة، الدروس الأولى في النظام وفي الصبر معًا، حتى أدخل أهلُنا إلى البيت "ماء الشركة" الممدّد بالأنابيب؟

اليوم، بعد ثمانين من الأعوام حضارةً وتقدّما، أرى الصغار في وطني يَعْتِلون السطول الثقيلة، بعد أن ملؤوها من آبار الحيّ المهجورة ماءً ليس عذبا.

فأحار: هل أشفق عليهم، للجهد الذي تشي به حركاتُ الأجساد؟ أم أشاركهم الفرح الذي ترويه البسماتُ في الوجوه والعيون، لأنهم ظفروا بماء يعودون به إلى أهلهم... أنا، أنا النازل هنا في بيوت أبنائي، يأتينا الماء فاترًا، وساخنا، وعذبا مبرّدا، ويملأ المسبحَ، الذي يغوص فيه الصغار ويعومون... فأزداد حُرقةً وألما؟!

فلوريدا: فجر الإثنين ٢٥-٥-٢٠١٥

أول "قوات حفظ سلام" في التاريخ!

عندما بلغت الحوادث في "جبل لبنان" عام ١٨٦٠ ذِروتها، ووقع العدوان الفادح على الطائفة المارونية هناك، وتحرّك بعدئذ الرَّعاع في دمشق، وبلغ عدد الضحايا، في هذا الهَيج، ما بين ثلاثين إلى أربعين ألفًا من الأبرياء حسب التقديرات الشائعة...

أقول: إنّ حكومة نابليون الثالث في فرنسا أَعمَلت اتفاقيةً قديمة كانت قد وقّعتها في عام ١٥٢٣ الدولتان الفرنسية والعثمانية، تنصّ على أنّ لفرنسا دورًا تاريخيًا في حماية المسيحيين في الامبراطورية العثمانية، وبناء على ذلك دخل بلادَ الشام ستةُ آلاف جندي فرنسي لتحقيق هذه المهمّة. وما نسي المؤرخون أن يسجّلوا أنّ ذلك كان أول "قوات حفظ سلام" في التاريخ.

طيب...

اليوم يقع في بلدنا اعتداءٌ ليس على الأقلية بل على "الأكثرية"، من قِبل النظام نفسه وليس من رَعاع أو شذّاذ آفاق، تجاوز فيه عددُ الضحايا ذلك الرقم أضعافا مضاعفة، والمهجّرون قد فرغت منهم البيوتُ والحارات والحقول...

أسأل: فأين هم أصحاب "القُبّعات الزُّرق"، البدعةِ البديعة التي اخترعتها حضارةُ القرن العشرين وإنسانيتُه السامية، يأتون إلينا من أصقاع الأرض، يحقّقون لنا ما فقدناه من الأمن والسلام، ويخلّصوننا من فظاعة القتل، وألم الجوع، وذلّ التهجير؟

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٦-٥-٢٠١٥

كبّة بالصينيّة لسجين رأي.. أيام زمان

سنة ١٩٣٦ أو ما حولها، ذهب عمّي الأكبر "رئيف السباعي" -المولع بالسياسة- إلى اجتماع في قناق[٣٠] "الزعيم حسن بيك إبراهيم باشا"، ولم يعد إلى البيت، فقد أطبقت السلطات الفرنسية على المجتمعين وساقتهم إلى السجون.

ممّا تعيه ذاكرتي وأنا ابن سبع سنين، أني صحبتُ جدّتي -ولم يصحبنا أبي اتّقاءً- إلى السجن في يومِ زيارة. وكانت الجدّة قد أعدّت لابنها كثيرا من المآكل منها كبّة بالصينيّة، ذهبت أنا إلى فرن "أواديس" بالسويقة أستدعي أجيره الذي أخذ الصينية وعاد بها مشويّة.

على الرصيف المقابل لباب السجن، ذاك الواقع بجوار مبنى البلدية يومذاك، رأت عيني كثيرا من الناس مقتعدين الأرض، وقد أتَوا مثلنا بالمآكل لذويهم سجناء الوطنيّة، وأذكر أنهم كانوا في أكثريتهم الساحقة نسوةً متجلببات بالملاءات السود متلفّعات الرؤوس بالمناديل. ولا

---

(٣٠) القناق: نوع من أنواع القصور العثمانية تكون الطوابق العليا منه خشبية. والزعيم حسن بك المذكور هو الدكتور المجاهد الذي ناضل ضد الفرنسيين وأسس مع إبراهيم هنانو الكتلة الوطنية في حلب، وكان رئيسها بعد استشهاد هنانو، وكان أهل حلب يكنّون له احتراماً، ويناديه بعضهم: أبونا حسن بك.

أذكر أنّا عوملنا بأكثر من أن نلتزم الهدوء فكلٌّ سوف يدخل ويلتقي. وقد شاهدنا عمّي من وراء القضبان، فذرّفت جدّتي الدموع وأعدتْني فبكيت: عمّي، كبير العيلة، في الحبس! ولكني رأيت وجهه صارما وعيناه كعينَي صقر، وهو يهدّئ جدتي، ولا يبالي بدموعي.

لم تطل غيبة عمّي... خرج بعدها وطنيّا. وبدا أنه كان مقدَّرًا له، ولأبي، أن يكونا من كبار تجار "سوق المدينة"، يشاركهما في ذلك رجالٌ من "بيت منصور" يعملون في "خان خيري بيك". وأما الزعيم "الطبيب الدكتور حسن إبراهيم باشا قَطار أغاسي"، فإنّ هتافًا في حقّه لم يزل في سمعي منذ ثمانين عاما: «بدْنا أبونا.. حسن بيك»، فقد كان زعيمًا متفرّدًا، وإنّ له قصة استثنائيّة سوف أرويها لاحقا.

أتساءل: هل يستطيع أهالي سجناء الرأي، اليوم، أن يحملوا إلى ذويهم الكبّة بالصينية... أم أنهم...؟!

فلوريدا: فجر الخميس ٢٨-٥-٢٠١٥

أمهات وآباء في أحضان الغربة!

قبل عامين -وكنت ما أزال في الوطن- حدّثتني صديقةٌ في شبكة التواصل، قد ألجأتها ظروف القتال إلى الاغتراب حيث يقيم ابنها الطبيب في أمريكا، عن أنه وزوجته بدأا يضيقان بوجودها في أسرتهما... فتعجبتُ!

وقبل عام -وأنا في القارة الجديدة- حدّثتني صديقةٌ أخرى عن أنّ ابنها هنا ضاق وزوجتُه بها... إلى حدّ أنهما استأجرا لها غرفة بمنافعها تعيش فيها وحيدة، وهي لا تتكلم الانكليزية ولا تقود سيارة... فازددتُ عجبًا!

قلت في نفسي: إنها المشكلة الأزلية، الكنّة والحماة!

ولكن ما بال هذا الصديق، الرجل، يحدّثني قبل أيام، عن أنّ صوت "صهره" بدأ يعلو: «نحن لسنا ملزمين بك! »، ولم تنبس الابنة، الطبيبة، التي تسمع، ببنت شفة... ولكنّ الصغار بكَوا!

قلت في نفسي: هذا من تداعيات الحرب، وصل الأمر أن يُعبّر الصهر عن رفضه لحميه، وعلى مشهد من الزوجة التي قدّمها أبوها له طبيبةً.

واستدركتُ: ولكنّ الأطفال ما زالوا في عافية!

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٩-٥-٢٠١٥

«أبونا حسن بيك» الذي وأد الفتنة في مهدها!

في ثلاثينيّات القرن الماضي، وفي عام ١٩٣٦ على وجه التحديد، تولّى الزعيم "حسن بيك إبراهيم باشا" مع رفاقه المجاهدين بحلب، تشكيل ما سمّوه "الحرس الوطني" بقصد تنظيم وحماية الأحياء الشعبية أيام الانتداب الفرنسي. وتشكّلت، في الوقت ذاته، فرقة مشابهة من المسيحيين بإيعازٍ من أحد ضباط السلطة للمناوأة وإحداث فتنة، وكان أن وقع من بعض شبابها، في يوم أحد من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ذاته، اعتداءٌ على مسلمين في حيّ "قسطل الحرامي"، فاستُثير أهل الحيّ وخرجوا مستنفرين!

لمّا سمع الزعيم الوطني الغيور "حسن بيك" بالحادثة، أسرع إلى حيث المتجمّعون في الحيّ، وطرح نفسه أرضًا أمام الجميع، قائلاً كلمة بقيت في الأذهان: «لا يمكن مهاجمة إخواننا المسيحيين إلّا على جثّتي! ». فصحا الناس وعادوا إلى صوابهم، وتمّ وأد الفتنة في مهدها. ودُعي رجال الدين من مسلمين ومسيحيين، إلى حفل عشاء في دار "الكتلة الوطنية" -التي كانت تجمع كلّ فئات الشعب- وتعاهدوا على المحبّة والإخاء.

تقول الرواية الوطنية: إنه أُطلق، منذ ذلك اليوم، على زعيم حلب لقب جديد: «أبونا حسن بيك»، عنوانٌ كنت أسمعه بحلب هتافًا وأنا طفل دون العاشرة.

توفي الطبيب الدكتور حسن بيك إبراهيم باشا قَطار أغاسي عام ١٩٥٦ عن عمر ناهز التاسعة والسبعين، رحمه الله زعيمًا جاهد ضد الاستعمار ورفع راية الوئام بين المواطنين.

فلوريدا: فجر السبت ٣٠-٥-٢٠١٥

أصدقائي الأعزاء قرّرت العودة إلى الوطن.

أغادر البلدة الصغيرة Palm Bay ظهيرة الأحد السابع من هذا الشهر، إلى مطار أورلندو القريب، ومنه إلى شاطئ الولايات المتحدة الشرقي، ثمّ إلى عاصمة قطر، فإلي بيروت... ومنها برّا إلى الوطن الحبيب.

أكون قد قضيت في هذه البلاد الجميلة أياما جميلة وغير جميلة، مدتها عشرون شهرًا، ستمئة يوم وعشرةٌ فوقها.

فلوريدا: صباح الإثنين ١-٦-٢٠١٥

إنه الحنين إلى الوطن، وإلى الأدب، أيها الأصدقاء

توضيحًا لخاطرتي صباح أمس الأحد، التي عبّرت فيها عن اعتزامي العودة إلى بلدي في يوم قريب جدًا، بدا أنّ عليّ أن أبيّن لأصدقائي الأسباب، وقد طلب بعضهم مني التوضيح.

ولمن لا يعرفني من أصدقاء الشابكة أقول إني جريت على انتقاد ما بتّ أحسّه من القهر وما أشهده من الفساد في تصرفات النظام، منذ ستينيات القرن الماضي، في اللون الأدبي الذي أحترفه، القصة، متّخذًا غالبًا أسلوب "الفانتازيا" وما كانت الأهداف عندي لتخفى على العيون، فمنعوا نشر قصصي هذه، متفرّقة في دوريّاتهم الأدبية، وكذلك نشرها في كتب تصدر

عن مؤسساتهم، ما جعل المؤسسات الخاصة تحجم أيضًا عن نشرها اتقاءً... أقول: إلا ما تسرّب من قصص نُشرت في أحيان قليلة في مجلة "المعرفة" (وزارة الثقافة) ومجلة "الموقف الأدبي" (اتحاد الكتّاب العرب، الذي كنت أحد أعضائه المؤسسين عام ١٩٦٩)، ومرة واحدة أقدمت وزارة الثقافة على نشر كتاب لي "رجيم" (الألم على نار هادئة)، بوساطة صديق لي في الوزارة متفهّم ("ش. ي") وباحتضان ملحوظ أسبغه عليّ كبير المستشارين فيها "انطون مقدسي" رحمه الله... ذلك كلّه دون أن تفوتني الإشارة إلى أنّ النظام في أعلى مستوياته، ما كان ليبالي بقصة من مثل ذلك تنشر أو بكتاب، وهو الواثق من نفسه، ولكنّ مسؤولي الدرجة الثانية والثالثة والعاشرة في دنيا ثقافتنا بدوا لي "ملكيين أكثر من الملك".

ذلك ما حداني إلى أن أؤسس، في عام ١٩٨٧، دارا للنشر "بيتوتيّة"، عبرها أنشر نتاجي المتواضع، تعذّر الحصول على الموافقة الأمنية أولا، ثمّ تذللت الصعوبة بمساعدة صديق ذي نفوذ ("أ. ح"، أصبح فيما بعد سفيرا)، وقد نشرتُ، تحت عنوان "دار إشبيلية" (وإني لذو هوًى أندلسي)، بضعة عشر كتابًا (وسألني أصدقاء أن ينشروا عندي، فكان).

ولما قامت "الانتفاضة"، اتّخذتُ من الفيس بوك وسيلة للتعبير (شباط/ فبراير ٢٠١٢)، وما كان لي إلّا أن أنسجم وأنا أكتب فيه مع مواقفي المبدئية، أن أعبّر عن رأيي بذلك المستوى من التعبير الذي رسمته لنفسي، يغمره الصدق وتوشّحه الشفافية. خاف عليّ فيه بعض الأصدقاء، وما خفت على نفسي.

فأما مغادرتي دمشق، عصر يوم الأحد ٦-١٠-٢٠١٣، باتجاه أمريكا، فتفسيرها أني -وأنا أقطن بدمشق منذ ١٩٦٦- أنتمي إلى أسرة حلبية أصلها من حمص. ويقتضي القول إنّ ثلاثة من أبنائي وبناتي، مقيمون وذرّيّتهم في غير دمشق، أعني فلوريدا، من سنوات قريبة أو بعيدة ترجع إلى ثلاثين، حتى إنهم شكّلوا قبيلة صغيرة ههنا، وآخر من بقي لي بدمشق ابنتي الفنانة التشكيلية

"خلود"، التي تراءى لها قبل أعوام أن تغادر وابنها التشكيلي "ماجد" إلى القاهرة، أملا في تعزيز فنّها المتميّز (مثلها في ذلك مثل شقيقتها ابنتي "سهير" المتميّزة بفنّها في أمريكا)، فلم يبق لي بدمشق من يعتني بي وأنا عامئذ في الرابعة والثمانين، أقيم وحيدا في بيتي المستأجر في شارع نوري باشا، فسألني أولادي أن آتي إليهم للعناية بي، فقبلت، ثم عدلت، وألحّوا، وغادرت، وكأني غدرت بنفسي وبأدبي.

أقول: بأدبي، نعم!

ذلك أنّ في دروجي وعلى أرفف مكتباتي كثيرا من الأضابير والكلاسورات، تتوزّع فيها دراساتٌ أدبية، وبحوث في التراث الطبي الأندلسي كنت قدمتها في المؤتمرات، وقصص، ومقالات، وذكريات... عليّ أن أقوم بنسلها من مواضعها، وضمّ بعضها إلى بعض، في تحرير وتنضيد حتى أجعلها مشاريع كتب مهيّأة للنشر... و... والله والله، إنْ تركتها بعيدة هكذا لذهبت بها الرياح!

إنّ عودتي إلى الوطن تسوّغها العوامل:

- أني كنت صادقًا وشفافاً في كلّ ما كتبت في ظلّ النظام، وأكتب. وما تعرّضت للقامات العالية.

- أني أعود لدمشق لأتابع المرحلة الأخيرة من حياتي الأدبية، إعداد نتاجي الأدبي والفكري للظهور للنور.

- أنّ ابنتي وابنها قد عادا من القاهرة إلى دمشق، ففي ظلّ رعايتها سأكون.

- مقدّما جزيل شكري وعرفاني بالجميل إلى أبنائي وبناتي وأحفادي وأسباطي، وخاصة حفيدتي الحنون الفنانة التشكيلية "ديمة سعود، أم حمودة وياسمين"، على ما لقيته من عناية من الجميع ومن تمتّعي بمعانقتي الصغار والكبار.

ولأختتمْ كلمتي بنصّ كنت كتبته وأنا فوق السحاب في طريقي إلى أمريكا قبل عشرين شهرًا:

واللهِ

ما فارقتُك، يا وطني

خوفًا من عيونهم المبثوثة

ولا رَهَبًا من سيوفهم المسلولة

ولكن

لأنّ الأسرة التي أنجبتُها

على مدى نصف قرن ويزيد

قد رحل أفرادُها في كلّ اتجاه

ولم يبقَ لي بدمشق

مَن إذا انتابني وجعٌ

يمّد يده إليّ بكأس ماء!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢-٦-٢٠١٥

«أكتب إليك، يا أخي، من "تالين"! »

نعم، أنجب المواطنُ السوري، البسيط، أبي "أبو السعود السباعي" بحلب، تسعة عشر من البنين والبنات (من زوجتين طبعا!)، هؤلاء الذين قاربَ عددُ مَن أنجبوهم هم، حتى الأمس القريب، المئة... أقول: إذا كنّا، نحن أبناءه، لا نغلط في الأسماء حين نتنادى بها، فإنّ أسماء الأحفاد والأسباط ابتدأت تضيع علينا... ولكنّ ما أخذ يضيع أيضا، في هذه الأيام الغبراء،

أسماءُ الأماكن والبلدان التي يَتفرّقون فيها بأصقاع الأرض!

في غمرة التعليقات التي يتلطّف الأصدقاء بإيداعها جدارَ صفحتي متمنّين لي سلامة الوصول للوطن، لمحت اسم إحدى أخواتي، "ضَحُوك السباعي"، مدرّسة اللغة الانكليزية التي اتفق لها أن تقاعدت مع بداية الانتفاضة، وحملتها الرياح إلى حيث يعمل بعض أبنائها في دول الخليج، سنة، سنتين، وأكثر، وتضيق ابنتُها "هَلا" -الصيدلانية التي تركت محلّها في الوطن- بالعيش دون عمل، وكنت قد سمعتُ صوت أختي قبل حين يأتيني من تركيا... وهأنذا أسمعها أمس تخاطبني فتقول: «أكتب إليك، يا أخي، من "تالين"! ».

قلت لها: وأين "تالين" هذه، يا أمّ فريد؟ أين موقعها على خارطة العالم!

قالت: إنها عاصمة "إستونيا"، ألا تعرف، يا أبو فراس؟

قلت: تعنين إحدى دول البلطيق الثلاث!!

هي: نعم، نعم... إستونيا، التي توصف بأنها أقلّ دول الاتحاد الأوروبي نموًّا في السكان، ولكنها الأكثرُ تمتّعًا بحرية الصحافة والحريات السياسية والاقتصادية! عدد سكان العاصمة تالين نصف مليون، وسكان الدولة كلّهم مليون ونصف!

أنا: أيّ ريح حملتك إليها، يا غالية!

هي: الجامعة هنا منحت ابنة أختك فرصةً لدراسة الماجستير في الصيدلة. أُعْلمك، يا أخي، أنّ درجة الحرارة عندنا تنزل إلى العشرين والثلاثين تحت الصفر، وضوء الشمس لا يُرى في الشتاء إلّا نصف ساعة في اليوم. زرت وهلا "فنلندا" المجاورة، سوف ننتقل إليها لعلّ العيش فيها أطيب. بعد قليل سوف "تسطع" شمس نهار جديد... أصبحت أحبّ الشمس... أنتظرُها كلّ يوم!!

آه، أيها السوريون! أين يَحُطّ بكم الزمن!

فلوريدا: مساء الثلاثاء ٢-٦-٢٠١٥

المُثُل التي آمنت بها

أقدّس الحرية والعدالة لأنهما جوهر الكرامة الإنسانية. وأكره الفقر والاستعباد، لأنهما والكرامة الإنسانية على طرفي نقيض.

أؤمن بالإسلام دينًا يجمع على المُثل العليا، ولا يُفرّق بين الإنسان والإنسان.

أؤمن بالعروبة قوميةً إنسانية، بعيدةً عن الغلوّ، تتعايش مع القوميات الأخرى، وتعطف على القوميات التي تنطوي تحت أجنحة أمتي.

أؤمن بالاشتراكية، التي تخدم المجتمع ولا تعلو عليه، وتتنزّه عن أن تكون مجرد شعاراتِ تملّق أو مزاودة أو انتقام.

أؤمن بأنّ الإنسان أخٌ للإنسان في كلّ مكان.

مقتطف من موسوعة "أعلام الأدب العربي المعاصر"

الطبعة العربية، ١٩٩٦ [الكتابة: دمشق ١٩٨٢]

فلوريدا: صباح الأربعاء ٣-٦-٢٠١٥

قلق سوري!

أحزم حقائبي

لست نادمًا لأني جئت

ولست آسفًا لأني سأغادر

فقط ينتابني قلقٌ... سوريّ!

فلوريدا: السبت ٦-٦-٢٠١٥

أمسيتُ في الوطن وحيدًا

أمسيتُ في الوطن وحيدًا

وقد تفرّق مَن حولي في الأمصار

فلما غادرتُ إليهم

أنشُد الرعايةَ والحنان

هزّني الوجدُ والحنين

فعدتُ أمتطي الريح

شوقًا إليك

يا وطني!

فوق المحيط الأطلسي باتجاه الشام

ظهيرة الأحد ٧-٦-٢٠١٥

ساعة دخولي بيتي بدمشق عصر الإثنين ٨-٦-٢٠١٥! عائدًا من فلوريدا.

ويحدّثني القمر

... وأستمع، في عتمة الفجر، إلى حبّات اللؤلؤ وهي تسّاقط على ماء البِرْكة، مردّدةً سؤالها العاتب: «لماذا تركتني؟»، ويُعييني الجواب.

والقمر... يسترق النظر إليّ من بين أغصان الشجر، يحدّثني ضاحكا: «كنت ألاحقك، وأنت تتوارى عني فيما يَشغلك هناك. إني في كلّ مكان، رقيبٌ للعاشقين!».

دمشق الشام: فجر الأربعاء ١٠-٦-٢٠١٥

ياسمين الشام

وتحدّثوا عن أنّ "البستاني" الذي استقدموه لتقليم الشجر، قد جار بالقصّ على أغصان الياسمينة الظليلة، فارتفعت في النموّ ساقُها حتى بلغت شرفة الجيران، وأصبح على أهل الحديقة السقايةُ والرعاية، وليس لهم إلا المتساقط من أزاهيرها!

ولله درّهم!

لقد سَهَوا عن أنّ عطر الياسمين متاحٌ للذين يزرعون ويسقون، ولأبناء الجيران، ولكلّ العابرين في الدروب الشامية.

دمشق الشام: مساء الأربعاء ١٠-٦-٢٠١٥

العودة إلى نبع الطفولة

في الضاحية نشؤوا معًا. احتضنتْهم ابتدائيةُ الحيّ ستّ سنوات غير منقوصة. لعبوا في الحارة الكرة، تصايحوا، أزعجوا المارّة وأقلقوا الجيران. تردّدوا على الأندية الشبابيّة، غنَّوا، وتعلّموا الرقص حديثَه والدَّبْكة. استهوتْهم صبايا الحيّ، فتنافسوا، وتأنّقوا، وتحسّنت ألفاظهم.

كبِروا، وما فرّقهم خلافُ الأصدقاء أو شِقاقُ الأشقّاء. لكن فرّقهم الاقتتالُ الذي فجأةً اندلع في البلد.

جابَهَ بعضُهم بعضا: «أنتم تقتلوننا!»،

وقال آخرون: «أنتم تريدون أن تذبحونا!».

وتفرّقوا...

وما آن للدم المسفوح أن يتوقّف، وكذلك ما كان للذكريات، الهاجعة في الصدور، أن تغيب.

ذات يوم اجتمعوا... وراحوا يستعيدونها، تلك الذكريات، المستعذبة...

قال "حسن" وهو يذوب حنينًا: «تتذكّرون أنّا كنا نلعب بالكرة تحت شباك "ماسة" الحلوة؟

تابع "عمر": «ونزلت الكرة يوما على شرفة بيتها، فاحتجزتها أمّها، وما ردّتها لنا إلا بعد أن وعدناها بالاستجابة بألا نلعب أمام بنايتها في ساعة القيلولة، التي حدّدتها لنا من الساعة ٢-٥، وما درت أننا كنا نستلفت نظر ابنتها!

فضحكوا لهذه الذكرى حتى سالت دموعهم.

ولكنهم أوشكوا أن يحزنوا عندما ذكّرهم "جورج" بما وقع لصديقهم "مصطفى" يوم ضربته سيارةٌ وهم يلعبون، وكيف أسرعوا يحملونه إلى المستشفى وهو يتظاهر بالعطب!

هل التمعتْ دمعةٌ على خدّ أحدهم، وما عرفوا إن كانت من حزن أو من فرح؟

وهل التمعت في العيون دموعٌ أخرى، فتعانق اثنان، وعمّ العناق... حتى شمل الجميع؟

في تلك اللحظة... كانوا يعودون إلى نبع الطفولة الصافي.

دمشق الشام: فجر الخميس ١١-٦-٢٠١٥

حبايب

- لاحَظَها عند الفجر تهمّ بالنافذة فتجعلَها موارَبةً، ثمّ تسحب الستارة عليها حجبًا للضوء الآتي، ملتمسةً السكون لابنها الفتى المستغرق في نومه.

- فاستحضر في خاطره صورة ذلك الابن، الذي يسأل أمَّه عمّا إذا كان اللحم الذي قُدّم لها في طبق غضًّا طريّا؟ والسلَطة، هل تُفضّل لها الخلّ الأمريكي أم الإيطالي؟ ثمّ يرافقها إلى حيث

يقف على بابٍ ينتظر.

- وتذكّر الحفيدة، التي أخذت على عاتقها أن تصحب جدَّها إلى مشافي العيون، والآذان، والأسنان.

كم هي جميلةٌ الحياةُ مع "الحبايب"، من أمهات وأبناء وأحفاد! وكم هي موحشةٌ إذا ما خلت منهم!

دمشق الشام: فجر السبت ١٣-٦-٢٠١٥

عناق في منتصف شارع نوري باشا

في العالم الافتراضي تلاقينا، أنا في فلوريدا وهي في باريس، والتحمنا ذات يوم في خصام، دافعت هي وتصدّى لي من دافع عنها، ثمّ... "صافي يا لبن! ".

اليوم عند الظهيرة، وأنا أمشي في شارع نوري باشا الذي أسكن، رأيت سيدةً تمشي على الرصيف متّجهةً نحوي، وقد طفح وجهها بابتسام عذب، وما إن دنت مني حتى أقبلت عليّ معانقةً، ولم يكن لي إلا أن أستجيب!

سألتها: «من أنت، يا سيدتي؟ ».

أجابت: «التي خاصمتَها من فلوريدا... ثمّ صافي يا لبن! ».

وازددنا، في عاصمة الوطن، تفاهمًا.

لا تظنّوا... إنها في مثل عمري!

دمشق الشام: مساء الخميس ١١-٦-٢٠١٥

"رجل الأمن" لماذا!

بعد أن قرأ، ذلك السياسيُّ المخضرم، ما كانت قدّمت له ابنتي من أعمالي القصصية، اتّفق أن التقت به في احتفال عام، فأنشأ يقول لها بلباقته المعهودة:

«قرأت كتب والدك، وأنا أتذكّر اقتحامَه "قلعة النشر المصرية" قبل خمسين ستين سنة وهو في العشرينيات من عمره، حين نشروا له في "سلسلة اقرأ" الشهيرة كتابه "مواطن أمام القضاء". اليوم أستأنف قراءتي له، فأتأكّد من نزوله بموضوعاته إلى قاع المجتمع وتصويره حياة الفقراء بلغةٍ سلسة ومفردات مأنوسة... بس بدّي أسألك: ليش أبوكي حاطِطْ دابُه ودابْ رجل الأمن؟!».

دمشق الشام: فجر الجمعة ١٢-٦-٢٠١٥

حواكير تين الصبّار

في بدايات الانتفاضة جرى إتلاف كثير من حقول "تين الصبّار" (جنوبيّ دمشق) منعًا من أن يتسلّل عبرها حملة سلاح إلى داخل العاصمة.

ما أذكره أني شعرت يومذاك بالأسف لإبادة تلك الحواكير[٣١]، التي أعرف أنّ محاصيلها من التين الشوكي قد أمست جزءًا من مواسم الصيف الدمشقي، حيث نتمتّع بمشاهدة "مجالس الصبّارة" على أرصفة "شارع أبو رمّانة": خيماتٌ تُنصَب، كراسي وطاولات، وأنوار كهرباء تتلألأ، وأكلُ التين مقشّرًا ومبرّدا... ذلك ما أتيت على وصفه في قصة لي سمّيتها "الكلام المباح" (نُشرت في مجلة "العربي" الكويتية عدد يوليو/ تموز ٢٠٠٤، ثمّ نزلت في كتابي المسيّس "تقول الحكاية" دمشق ٢٠٠٦).

---

(٣١) جمع حاكورة: قطعة أرض مزروعة في قرية، قريبة من سكَن صاحبها وتُسَيَّج غالبا.

فيما بعد...

أدركت مدى سذاجتي في أسفي ذاك، فإنّ ما تلا إبادةَ تلك الحواكير دمارٌ نزل بالحارات والأحياء والمدن، وقضى على غير قليل من المحاصيل التي يجنيها الفلاحون في نهاية مواسمهم الزراعية.

دمشق الشام: فجر الأحد ١٤-٦-٢٠١٥

١-شجرة توت عتيقة على ضفّة نهر "تورا"

[مقالة في حبّ الشجر]

(١من٥)

مقدمة:

ذهبنا اليوم لقضاء أمر في وسط العاصمة، وفي عودتنا مررنا بحيّ "سوق ساروجا"، فاشترينا حاجات من سوق الحيّ، منها "التوت"، وفي البيت غسلناه وأكلنا حبّاته، حُمْرًا، وبيضًا، و"خدّ وخدّ"!

وكان لابدّ من أن أتذكّر ذلك "البحث" الذي اشتغلت عليه قبل سنين، عن التوت، وعن حبّي للشجر، وفيه أطلقتُ بعض ما اختزنته الذاكرة من مشاهد ومعارف، جعلتْه جديرًا بالنشر [وقد نُشر في العام ٢٠١٠]، وسائغا لأن أقدّمه إليكم بعد أكلي توت الموسم، فجزّأته في حلقات خمس أَعُدّ هذه الكلمة أولاها، ثمّ أنشره على جداري كاملاً.

أقول: ذكرت "سوق ساروجا"، فأحببت أن أعرّف بنشأته بكلمتين: «في عهد المماليك، في مصر والشام، تزايد عدد سكان دمشق تزايدًا ملحوظا في ظلّ الأمن والازدهار الاقتصادي، واتّسعت المدينة اتّساعًا منقطع النظير، وظهرت في دمشق ضاحيتان جديدتان: أولاهما

"السويقة"، في الجنوب الغربي من دمشق..... والأخرى في الشمال على طريق الصالحية وبيروت قريبا من الجبل، سمّيت "سويقة ساروجا"، نسبةً إلى الأمير "صارم الدين صاروجا"، وسكانُها غالبا من الضباط والجنود لقربها من القلعة» [يُنظر الاستطلاع المطوّل بقلمي «دمشق عبر التاريخ»، مجلة "الفيصل"، الرياض، العدد ٣٧، رجب ١٤٠٠، أيار/ حزيران ١٩٨٠].

دمشق الشام: الاثنين ١٥-٦-٢٠١٥ [نُشر متأخرا!]

٢-شجرة توت عتيقة على ضفّة نهر تورا

[مقالة في حبّ الشجر]

(٢من٥)

أوائل كلّ صيف، وفي موسم التوت، عندما أنزل من بيتي متّجهًا نحو ضفّة نهر تورا -التي تراءى لهم في عصرنا أن يُسمّوها شارع زهير بن أبي سُلمى- كنت أُحاذر، وأنا أسير على الرصيف المتاخم لجدارٍ عتيق، أن تطأ قدمي حبّات التوت المتساقطة نُضْجًا، على حين يكون قد سبقني مشاةٌ فداسوها، حتى غطّى هريسُها الأرض، وليس يُتاح للرصيف أن يستردّ نقاءه إلاّ بمَطْرةِ الخريف الأولى، هذا إنْ جاءت وابلاً.

فأمّا نهر تورا (والكلمة سُريانيّة، تُشير إلى معنى الارتفاع أو إلى الجَبَل)، فإنّ الناس بدمشق قد عمدوا من قديم الزمان إلى "تَفْريع" نهر بردى، قُبيل دخوله العاصمة عند ما يُسمى "خانق الرَّبْوَة"، إلى "نُهَيرات" أحدها تورا، الذي يتهادى في سفح جبل قاسيون، مارًّا بجوار بيتي، عبر مجرى حرصوا على أن يرصُفوا قاعَه بالحجارة -منعًا لتسرُّب مائه- وكذلك ضفَّتَيه، متابعًا إلى الجسر الأبيض... فإلى جوبَر والغُوطة الشرقية، مشكِّلاً هناك مع سائر الفروع ما يشبه "مِرْوَحةً" تروي الأراضي الزراعية، قبل أن يَغيض ماء النهر.

وأمّا شجرة التوت، التي تُطلّ من فوق ذلك الجدار، فإنها تنبثق من أرضٍ عَرَصَة لم يمتدّ إليها البناء حتى اليوم، وأحسب أنّ الأرض بقيّةٌ من بستان كان يُثَمَّر هنا قبل أن تزحف العمائر فتجعل من البساتين هنا حيًّا، لم يُبالغوا حين أطلقوا عليه اسم "الروضة"! وقد ظللتُ أتخيَّل الشجرة دوحةً عظيمة، تَنِمّ على ذلك الفروعُ المتدلّية، فما حال تلك المحجوبة عنّي خلف الجدار الأصمّ؟ وأين مَن يأتي بقُلُوعٍ، فيمدّها على الرصيف هنا وعلى أرض البستان هناك، ويصعد يَهُزّ ويَدُقّ، فيكون تساقُطٌ ولمٌّ، ويكون تسويقٌ، ويأكل الناس من حبّات التوت هنيئاً؟

كيف أحببت الشجر:

الشجر أحببتُه -ومن لا يُحبُ الشجر؟ - وأحببت سائر أصناف النبات، منذ كنت طفلاً، وأنا أرى جدّتي، في بيتنا في زقاق الزهراوي بحلب، تقعد القُرفُصاء، وتتنقّل بقعدتها هذه حول البِركة، التي تنتظم فوق حافّتها أُصُصُ الزَّرِيعة، في ربيع وفي صيف، تُفَلّيها مستبعدةً اليابس من الأوراق، وتُهيب بي أن أُبادر إلى سقي الزَّرعات، فإنها تكاد «تموت من العطش» -وما هي كذلك! - وبعد أن أستجيب تؤكّد لي جدّتي أنّ الزرعات الآن «تدعو لي بالخير»!

ولم تحمل الأسرة، من هذه الأُصُص، يوم انتقالنا إلى بيت طابقيّ إلاّ أقلّها... فسَكَنَني الحنينُ إلى الزرع، وإلى الزهر، وإلى الاستماع إلى تغريد العصافير والإنصات إلى حفيف الأغصان يُحرّكها الهواء العليل.

فلما قُدِّر لي أن أنتقل شابًّا بأُسرتي الصغيرة إلى العاصمة دمشق، وأسكن بيتاً أرضيًّا ذا حديقة يُظلِّلها الشجر، من نارِنْجٍ وأُتْرُجٍّ (كبّاد) وكرمةٍ وياسمينة وعسليّة، يملأ الفضاءَ عبيرُها، في الربيع والصيف، وجدت أنّ حُبَّ النبات عندي قد استَحكَم، حتى حبَّب إليّ تحصيل "الثقافة النباتية"!

الإبحار في عالم الأشجار!

أجل، في دراستي التي أَمْلَتْها عليّ هوايتي، ورجوعي إلى المصادر الزراعية، عرفت أنّ شجرة التوت، تلك التي أَمُرّ من تحت أغصانها وأُحاذر، تنتمي إلى العائلة النباتية المسمّاة علميّاً Maraceae، وأنّ موطنها الأصلي الهند والصين، وقيل: بل منطقة "القفقاس" (شماليّ الديار الإسلامية)، ومن هناك انتقلت إلى المناطق المجاورة لها، ولم تبعُد كثيراً، وتُزرع في مساحات صغيرة، ذلك أنّ الجدوى الاقتصادية من نتاجها ضئيلة، مع ما في حبّة التوت من منافع غذائية ودوائية.

وشجرة التوت ذات حجم، وقد يصل قطر جِذعها إلى مترين اثنين، ويمتدّ قطر تاجها الظليل إلى ثمانية أمتار والارتفاع إلى عشرة. ولمتانة خشبها وجودته أمكن الاستفادة من جذوعها وفروعها في الصناعات الخشبية.

وأنواع التوت ثلاثة: أبيض وأحمر وأسود.

ويتميّز الأبيض والأحمر، بعد ثمارهما، غالباً بورق الشجر الكبير، الذي يُطعِمونه دودَ الحرير (دود القَزّ).

والأسود هو ما يُسمّى في بلاد الشام التوت الشامي، ويمتاز بثمرته الكبيرة الحجم، السوداء اللون، الكرويّة الشكل، ذات الطعم المُزّ (المائل إلى الحُموضة)، وعصيريّته.

واسم الشجرة العلمي Morus، والأصل –حسب الباحث التونسي إبراهيم بن مراد– من اللغة اليونانية Diâ morân، وحسب عالم النبات الدكتور أنور الخطيب (عضو مجمع اللغة العربية بدمشق)، أنّ الأصل من اللاتينية Morum.

وقد قرأت في كتاب "وصْف إفريقية"، أنه كان في مدينة فاس سوقٌ يُباع فيه خيطُ الكَتّان وتُحلَج أليافه، يقوم هذا السوق في بناء كبير تُحيط به أربعة أروقة، يبتدئ البيع فيه ظهرًا وينتهي عصرًا... وفي النصّ أنه «زُرع في وسط ساحة السوق عددٌ من أشجار التوت لنشر الظلّ،

ويذهب الناس إليه أحيانًا بقصد التسلية»، وما يحسن ذكره أنّ ظِلال شجر التوت تمنح قدراً من الرطوبة.

التوت بالعربية: توث (بثلاث نقاط)!

اختلفت المصادر التاريخية العربية حول مصطلح التوت: في أصله، وفي رسم لفظه.

وقد استبعدوا أن تكون الكلمة عربية، وذهب أكثرهم -ومنهم الأصمعي- إلى أنها فارسية: توت، وبعضهم يرى أنها في الفارسية دخيلٌ من السُّريانية: توتا Tuta. ونَطَقَها العرب بالمثلّثة: توث، وإن جرت على الألسن بالمثنّاة: توت، وكذلك أوردها الفيروزآبادي (القرن الثامن للهجرة/ ق١٤م).

وتذكر المصادر أنهم يسمّونها في الحجاز: البشكل، وفي البصرة: الفِرصاد.

وتوت في اللغة التركية: طوت، وفي العبرية: توت، وفي الإنكليزية: Malberry، وفي الفرنسية: Mûrier.

وفي "معجم البلدان"، أنّ هنالك عدّة أماكن في الديار الإسلامية، يُسمّى كلٌّ منها "توث" بالمثلّثة.

دمشق الشام: الثلاثاء ١٦-٦-٢٠١٥

٣-شجرة توت عتيقة على ضفّة نهر تورا

[مقالة في حبّ الشجر]

(٣من٥)

التوت غذاء ودواء:

وفي ثمرة التوت أنواعٌ من الفيتامينات، في مقدّمها فيتامين(C).

وفي نفعه دواءً، ذكر ابن البَيْطار الأندلسي (وقد رسمها بالمثلّثة)، نقلاً عن الطبيب الإغريقي جالينوس (من أبناء القرن الثاني الميلادي): ثمار التوت «إذا كانت نَضِجةً فهي تُطلِق البطن، وما لم ينضج منها فإنه -إذا جُفِّف- صار دواءً يحبِس البطن حبساً شديداً... وأما عُصارة التوت المُدْرِك (الناضج)، فالأمر فيها أنها نافعةٌ جدًّا لأدواء الفم، وليس في الناس أحدٌ لا يعرفها!».

وفي دمشق خاصّةً يتّخذون من "التوت الشامي" رُبًّا مكثَّفًا، يتناولونه عصيراً ممدَّداً، ويَشيع في حلب بدلاً منه رُبُّ الكَرَز (المُزّ أيضاً)، يتناولون عصيره ممدَّداً.

أقول: وفي جريان كلمة "التوت" على الألسن، تغنَّت بالتوت مطربةٌ عربية شهيرة، فأبدت أسفها لأنها يوم نزلت لتبيع "كُبُوش التوت" ضيَّعتْ قلبَها في بيروت! و"الكَبْش" في شجرة التوت -حسب مَن فسَّر لي في السفارة اللبنانية المُحْدَثة بدمشق- بمنزلة العنقود في دالية العنب، يحمل كلُّ كبش عدداً من حبّات التوت.

التوت في الموروث الشعبي:

لتزايد حلاوة التوت كلما نضِج، فإنهم يقولون بالعامية في بلاد الشام، على التشبيه: «فلان متل التوت كلما كبر بِطيب وبيحلى!».

ومن أمثالهم: «كل شي أول ما يجي غالي، إلاّ التوت».

ومن كناياتهم: «فلان بيقلع توتة!» (يقلع شجرة توت)، يريدون أنه قويّ جدًّا.

وعند اختتام الحكاية يقول الحكواتي: «توته توته، خلصت الحدّوته، مليحه إلاّ مفلوته؟».

وفي الجبّانات (المقابر) تُرى قُرب بعض القبور شجرةُ توت، تؤكل ثمرتها على روح الميّت.

ويذكر العلاّمة الأسدي م. خير الدين (المتوفى بحلب ١٩٧١) في موسوعته، أنه كان داخل مدينة حلب ثلاثُ شجرات توت شهيرة: "توتة باب النيرب" و"توتة ساحة بِزَة" و"توتة بَحَسيتا"، كلّها أُزيلت إلاّ الأخيرة (على زمنه)!

التوت البرّي: الفريز، الفراولة:

ولابدّ من القول إنّ هناك صنفًا من التوت لا تَحمِل به الأشجارُ، بل شُجَيراتٌ عُشبيّة زاحفة، يُسمّى ثمره في بلاد الشام: فْريز، وفي مصر: فَراوْلة، والاسم العلمي Fragaria، تقول المراجع الزراعية أنّ موطنه الأصلي أمريكا الجنوبية، "الشيلي" خاصةً، وانتشر في مناطق كثيرة من العالم، باردةً ومعتدلة، لقدرته على التأقلُم مع الشروط البيئية.

ويُرجِّح الباحثون المعاصرون أنّ أجدادنا العرب لم يعرفوا هذا الصنف من التوت. وأميل إلى الاعتقاد بأنهم عرفوه، فقد وصفوا ما هو شديد الشبه به، وتوقّفوا طويلاً عند منافعه الطبية، ثمرًا وغُصَينات، وسمَّوه: توت الأرض، والتوت البرّي أو الوحشي. وتتبُّعُ ذلك يقتضي بحثًا، أُعِدّه.

النخيل، والرمّان:

إنّ حبّي للنبات دفعني إلى أن أكتب فيها بحوثًا تقدّمتُ بها إلى مؤتمرات وندوات عربية ودولية، منها بحثٌ عن شجرة النخيل -صديقة الإنسان العربي في حلّه وترحاله- وعن تلك التي ترعرعت في رُصافة قرطبة، فرجَّح المستعرب الكندي العالم بتاريخ النبات "آندريو واطسون"، أن تكون تلك الشجرة هي النخلة الأولى التي زُرعت في الأندلس على يد العرب، في القرن الثامن الميلادي (الثاني للهجرة).

وممّا كتبت بحثٌ عن الرُّمّان، بدأته بتلك الرمّانة التي بعثتْ بها الأميرة "أمّ الأَصْبَغ" من رُصافة الشام إلى أخيها عبد الرحمن الداخل، الذي تربّع على سرير المُلك في الأندلس، فلما تلقّاها، وزّع أجزاءها على جلسائه -كما في "نفح الطيب"- فعمد أحدهم إلى أن يستزرع نوى ما أصابه من الرمّانة، في جَنَّته (حديقته)، فأَثمرت، وجاء إلى الأمير بثمارها!

دمشق الشام: الأربعاء ١٧-٦-٢٠١٥

رسالة من طالب سوري في ألمانيا

مرحبا أستاذ فاضل

يوم أمس ونحن نتلقى درس اللغة الألمانية (في مدينة دورتموند Dortmund)، وكنا حوالي عشرة أشخاص كلنا سوريون متخرجون من الجامعات باختصاصات مختلفة، فاجأَنا المدرس الألماني بسؤاله عن "الكاتب السوري فاضل السباعي"، ومن المؤسف أن أحداً منا لم يسمع باسمك، وعجبت أن شهرتك وصلت إلى ألمانيا ونحن الطلاب السوريون العشرة ما حدا سامع باسمك!

مضى علي الآن ثلاث ساعات وأنا أقرأ عنك في النت وفي صفحتك على الفيس، فعرفت عنك ما يغني.

أرسلت لك طلب صداقة وأرجو أن تقبلني صديقاً.

دورتموند - ألمانيا، فجر الجمعة ١٥-٤-٢٠١٥

[دمشق- الشام: الأربعاء ٢٤ -٦- ٢٠١٥]

بس لا تقولوا لحدا.

هل تعلمون أنّ الفنانة القديرة "منى واصف" هي من أبناء الساحل (وأظنّ من مدينة جبلة)؟

وأنها من الطائفة الشيعية؟

وأنّ أسرتها كانت قد جاءت من العراق؟

أسرّ لي بذلك يوما الكاتب الدمشقي الراحل "صميم الشريف"، المتخصص بتاريخ فن الموسيقى، وأضاف: «بس لا تقول لحدا، لأنّ منى لا تريد أن يُشاع عنها هذا!»..

ولكنكم تعلمون أنها المتربّعة بجدارة على عرش فنّ الدراما السورية، وأنّ قلبها يخفق بحبّ الفنّ ودمشق والشعب.

دمشق الشام: الخميس ٢٥-٦-٢٠١٥

- - - - - - - - - - - - - - -

إضافة بعد خمس ساعات:

ما بالنا أصبحنا نتهيّب الإشارة إلى الأصول والأعراق، وشعبُنا مزيج من الأقليات الدينية والعرقية والإثنيّة، ليس في عصرنا وحسب بل عبر آلاف السنين!

لنعلم أنّ كثيرا من أبناء بلاد الشام هم من أصول "سُريانية"، كانوا بعد الاستعراب "يتأسلمون" تدريجيّا (كالحال في مصر بشأن الأقباط)، وأنه انضمّ إليهم -في ظلّ الحكم الإسلامي، كثيرٌ وكثيرٌ جدًا من التركمان والأكراد والشركس، والأتراك في العهد العثماني. ولنعلم أنّ بيننا اليوم ملايين من سلالة التركمان الذين كان أجدادهم قد جاؤوا بلادنا مستنفَرين لحرب الفرنجة المحتلّين، وأعدادهم اليوم تبلع ثلاثة ملايين.

هل الحديث عن ذلك عيبٌ وعار!

بالنسبة لأسرتي "آل السباعي"، ما زال الحديث بينهم في حمص يتواتر عن أنّ جدودنا جاؤوا من بلاد المغرب، وإنّ هناك أسرة، أو قبيلة، كبيرة منهم. بالنسبة لي شخصيًا فإني أسمع أنّ أسرة والدتي من أصول تركية، وأنّ جدتي لأبي من أصول كردية (مراد آغا بحماه) وأن أمّها شركسية، وأنّ جدة جدي السباعي بحمص مسيحية مخطوفة بحبّ من حلب، هذا إلى أنّ زوجة عمي الأكبر -التي عايشناها في بيتنا بحلب- كانت من بنات الأرمن الذين نزحوا لبلادنا عام ١٩١٥.

وأحسب أنّ ما بتنا نعانيه من التهيّب عند الإشارة إلى الأعراق والأديان والطوائف، قد فشا

فينا في الآونة الأخيرة.

تصحيح أخطاء السفيرين

... وكان خبثًا من السفيرين، مارك سايكس وفرانسوا جورج بيكو، وهما يتبادلان الرسائل ويتفاهمان على تقسيم تركة "الرجل المريض"، أن تركا الشعب الكردي من غير كيان منتشرًا في أربع مناطق، كي تكون له "قضية" تبقى جرحًا مفتوحا يؤرّق الكيانات التي يستظلّون سماءها!

ما كان أهونَنا يوم تلقّينا ذلك!

وما أضعفَنا اليوم ونحن في دوّامة "الفوضى الخلاقة"، التي يريد الغرب بها أن "يصحّح" أخطاء السفيرين، معدّلا ما كانا رسما من حدود!

دمشق الشام: فجر السبت ٢٧-٦-٢٠١٥

لا للطائفية. لكن كيف؟

ليست الطائفية في أن أجيبك بأني مسلم وأني من أهل السُّنة، ولا أن تجيبني بأنك علوي، أو درزي، أو إسماعيلي، أو مسيحي كاثوليك أو سريان أرثوذكس، أو آشوري، كلداني، أو أنك تنتمي في أصولك العائلية إلى الأكراد، أو التركمان، أو الجركس، أو أنك من أصول "أوروبيّة" كان قد انحدر أجدادك من رجال البعثات القنصلية الذين عملوا في حلب المزدهرة اقتصاديّا زمن العثمانيين ويوم انتهت المهامّ آثروا العيش بيننا حبًّا وكرامة.

إنّ تعريفي بنفسي على هذا النحو ليس لأحد أن يُعيّرني فيه بأني أتكلم طائفيًّا! إنه حديثٌ على غرار ذكري لك اسمي، وتعريفي بأسرتي، وبانتمائي إلى هذه المدينة أو تلك القرية، أو إلى الحيّ الذي أتنسّم رائحة أزقّته ودروبه.

ولكنّ الطائفية تتبدّى في أن تمارس فئةٌ، قد تملّكت وتمكّنت، السلطةَ على المجتمع، هذا

المؤلفِ من فسيفساء بديعة من الطوائف والأعراق، فتنحاز بالتقريب والتبعيد، وبالتمييز والتهميش... ثمّ -بعد ذلك- تمنعك من أن يجري على لسانك ما يدلّ على انتمائك، وتتّهمك إن فعلت بأنك طائفيٌّ بغيض، على حين أنها تمارس الطائفية وتدّعي مناهضتها.

وأعذر نفرًا منّا يرفعون الصوت، اليوم، مندّدين بمن يذكر انتماءاته، غاضّين الطرْف، انسيافًا، عمّن يمارس الطائفية على أرض الواقع الأليم.

دمشق الشام: ضحى الأحد ٢٨-٦-٢٠١٥

حديث عن أكلة "اللحمة بالكرز"

تسلّمت، أمس الأول، من على باب بيتي، عبوةً من كرز "جبل الأربعين"، تَقْدمةً من صديق لم تره عيناي لكن عرفه خاطري على جدران الشابكة. ولم تكن حبّة الكرز بالكبيرة من ذاك الحلو الذي يتراوح لونه بين الورديّ والأحمر القاني، إنه من النوع الذي يستوطن "جبل الأربعين"، "جبل الزاوية"، أو "جبل السُّمّاق" حسب ياقوت الحموي في معجمه.

ولهذا الكرز حكايةٌ في حلب، أرويها لكم شعبيًّا وعلميًّا!

أقول: الكرز فاكهة انتشرت زراعتها في بلاد الشام، وربما حُملت إليها من مواطنها الأصلية في أواسط آسيا، ذكرتْها كتبُ "المفردات الطبية" العربية باسم "المَحْلب" ("مفردات" ابن البَيْطار)، هذا الذي يسمّى في جبل السماق بـ"الوَشْنة"، وهو الكرز الصغيرُ حبُّه، المُزّ (الحامض)، الذي لا يغادره لونُه الأحمر القاني. وقد عمد زارعو الكرز، في جبل السماق وفي غيره من مزارع الوطن، إلى تطعيم الوشنة فتصبح كرزًا حلوًا مرغوبًا هو الشائع.

والكرز شجر من الفصيلة الوردية، اسمه العلمي Cerasus mahaleb. وكلمة "الكرز" مستمدّة من الفرنسية Cerise. وسمعتُهم في مصر يسمّونه "الكَريز". وتُشَبَّه بالكرز،

لونًا ومنظرًا، شفاه العذارى!

ويطيب لي أن أضيف أني زرعت في حديقة بيتي بدمشق، قبل نحو عشرين سنة، غرسة كرز، قال مقدّمّها إليّ إنها من محافظة إدلب. ثمّ إني لاحظت أنّ هذه الشجرة تُزهر في منتصف آذار/ مارس ثمّ لا يَعقد زهرها أبدًا، مردّ ذلك -كما بيّنوا- إلى أنّ في هذا الشجر مشكلةً تسمّى زراعيًّا "العُقم الذاتي"، تعاني منه شجرة الكرز إذا كانت وحيدة بعيدة عن مثيلاتها. وأضيف أني رأيت في الأخبار أنّ اليابانيين يحتفلون في أواخر هذا الشهر، بإزهار شجر الكرز، يتابعون خلال أسبوع عقد زهره المرافَق بتساقط بَتَلاته [يُنظر كتابي "في جبل السُّمّاق، من أدب النُّزهات" (وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١٢).

قلت: "لحمة بالكرز"، أكلة أهل حلب المحبوبة في موسم الكرز. أعدّتها أمس وطبختها ابنتي خلود. قطّعنا أرغفة الخبز "مثلّثات"، نَظَمناها في قاع جاطٍ كبير، وسكبنا عليه مَرَق الكرز المحلّى بالسكر، المدعوم بكُرات من اللحم في داخل كلّ منها حبّات صنوبر، ورششنا على ذلك كله شيئًا من نثار القرفة، فوقه البقدونس المفروم، وإلى جوار هذا الفليفلة خضراء وحمراء، ولن أنسى الماء المبرّد!

وقد رأيتهم في دمشق لا يستسيغون أكل اللحم المطبوخ بالسكر! أقول لهم: لو تأكلون "اللحمة بالكرز" مرة تستطيبوها!

وشكرنا، بعد الإفطار، اليدين الكريمتين، وقد كان الدافع إلى الإهداء أنّ صاحبهما قرأ قبل أيام مناداتي: «آه، يا مشمش الغوطتين! ويا كرز جبل الأربعين! »، فكأنه أحبّ أن يواسيني فبعث إليّ ليس بالكرز وحده بل أيضا بغير قليل من مشمش الغوطتين، مِن جَنَى بستانه الملحق ببيته في "الصبّورة". له مني أجمل التحايا.

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢٩-٦-٢٠١٥

لا سير على الأرصفة

ساعة الضحى خرجت من بيتي. ولم أمشِ على رصيف "شارع نوري باشا"، وأنا في طريقي إلى "الصراف الآلي" لأقبض معاشي التقاعدي من الوظيفة الحكومية التي خدمت فيها خمسا وعشرين سنة، فأرصفة الشارع إمّا مشغولةٌ بالسيارات المتجاوِزة، وإمّا هي غير صالحة لأن يمشي عليها مَن هم في مثل سنّي، لاختلال بلاطها وعدم استواء أرضها.

لم أنزل إلى "شارع زهير بن أبي سُلمى" المحاذي لنهر "تورا" عبر أول منعطف يسارا، بل من الثاني الذي جمّلوه حين حمّلوه اسم "جادّة لسان الدين بن الخطيب"، واحدٍ من أشهر كتّاب الأندلس وسياسيّيها في "إمارة غرناطة"، وقد منحوه هذه الجادة القصيرة وهو الذي منح التاريخ والأدب أعمالًا طِوالًا من أهمّها "الإحاطة في أخبار غرناطة" (أربعة مجلدات).

في نزولي إلى ضفّة النهر رأيت أناسا متجمّعين على الرصيف أمام الصراف الآلي، قال لي واحد منهم إن "الشبكة مقطوعة"!

فتابعت السير على الضفّة إلى "ساحة أبي العلاء المعري"، وهناك نزلت "شارع أبو رمانة"، إلى حيث مكتب الهاتف لوصل ما كنت قطعته من هاتفي الجوّال. وأبلغتني الموظفة اللطيفة - دون أن تُعنى بأن تنظر في وجهي، لا أدري لمه! - أنّ الخطّ سيكون "مفعّلا" خلال اثنتي عشرة ساعة.

في عودتي لمحت من بعيد المتجمّعين أمام الصراف وقد زاد عددهم، فأدركت أنّ الشبكة ما زالت مقطوعة!

جئت الصراف عند المساء، فرأيت بعضهم يُقْبل ثمّ ينصرف متجهّمًا، فجعبة الصراف فرغت، فعدت إلى البيت دون أن أقبض معاشي، الذي بات اليوم يعادل الستين دولارًا، وعمّال العالم ما زالوا يحتفلون بعيدهم المجيد في الأول من شهر أيار/ مايو من كل عام.

دمشق الشام: الأربعاء ١-٧-٢٠١٥

انتظارًا لبدر منير

من العجائب التي تتجلّى في حياة السوريين اليوم، أنهم يتحرّكون في مساكنهم وفي حاراتهم، ويتجوّلون في الأسواق عاملين ومتسوّقين، و... فجأة تسقط عليهم قذيفة، تقتل وتدمّر وتُبيد، فيُهرعون إلى رفع الأنقاض، وانتشال الجثث، وإنقاذ الذين ما زالوا على قيد الحياة، ثم يمهّدون بين الحطام دربًا للسير فيها، ويغسلون الأرض والأيدي من الدماء، و... يعودون سيرتهم الأولى!

آمنت بأنّ شعبي هو الأشجع بين الشعوب، والأكثرُ صبرًا على تحمّل المكاره، انتظارًا لغدٍ لا تسقط فيه قذائف، وليس فيه انتشالٌ لجثث من تحت الأنقاض، ولا غسلٌ لدماء مسفوحة... ليومٍ تكون شمسُه أكثرَ اعتدالاً، وقمرُه بدرًا يَفيض بالنور.

دمشق الشام: مساء الإثنين ٦-٧-٢٠١٥

الشحرور القادم من الغابة

قصة للصغار والكبار

(القصة تامّةً)

تأليف: فاضل السباعي، رسوم حسام التهامي

١ – مقدمة:

في قصة جعلت فيها الحيوان يعي ويفكر: الشحرور، البديع التكوين والتغريد، الذي يملؤه مع ذلك الاعتداد والغرور، والقطّ القويّ المسيطر على قطط الحارة والمتحكّم فيها.

أحبّت صبيّة الأسرة "هناء" الشحرور الذي يزور حديقة بيتهم، وأطلقت عليه اسم "غندور"، تخاطبه وهو على الشجر كما لو أنه يفهم لغتها، وتناغيه، وتحذّره من غدر القط الذي دأب على افتراس اليمام الوديع! على حين سَمّى القطُّ المتغطرس نفسه "عنتر"، وهو يمنع قطط الحارة من أن تصعد إلى "الحاوية" بحثًا عن قوتها إلا بعد أن يغادرها هو شبعانَ متخمًا!

كتبت القصة في صيف ٢٠٠٣ وأنا في حديقة بيتي ما أزال أصغي إلى تغريد ذلك الشحرور، الذي اعتاد أن يُقضّي الأصياف عندي قادمًا من الغوطتين. وقد تماهلت في تقديمها للنشر، إلى أن وجّهتها -وأنا في مقامي في "فلوريدا"- إلى مجلة "العربي الصغير"، فظهرت في العدد ٢٦٥ (اكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٤)، مرافَقةً بأربع لوحات بارعات للفنان "حسام التهامي"، الذي أطلق لخياله تصوّرا متميّزًا لشكلِ كلّ من الشحرور غندور والقط عنتر وسائر المرئيات المُصاحِبة، فضلا عن لوحة حافلة بالتميّز نُشرت على غلاف العدد.

ثمّ أفاجأ أخيرًا، بعد عودتي إلى الوطن، بمدى اهتمام هذا الفنان بالقصة، عندما وقف حفيدي الفنان التشكيلي ماجد هنانو، المولع بالرسم لمجلات الأطفال، في موقع للفنان التهامي، على مزيد من لوحات خاصة بقصة "الشحرور القادم من الغابة"، وعدّتها ثمانية وعشرون لوحة!

سوف أقدّم القصة على جداري في حلقات تزينها رسومٌ من الفنان التهامي، مبتدئا بنشر لوحة غلاف مجلة "العربي الصغير"، التي تقدّم القط عنتر بتعبير مكتمل عن شخصيته، منتفخ الأوداج مكتنزًا لحمًا وشحمًا، وهو الذي حاول افتراس الشحرور غندور... ولكنّ الله سلّم.

٢- [حديث الشحارير على قمة شجرة في الغابة: مشمش، وخوخ، وتعرُّف على سكان المدينة]

ذات مساء التأم شمل أسرة الشحارير بجوار عشّها على قمة شجرة.

قال شحرور:

ـــــ غداً عند الفجر، سأرحل إلى حقول المشمش، أنقر المشمشة وأتركها حتى تتخمّر، ثمّ أعود إليها لأمتصّ رحيقها.

قال الشحرور الثاني:

ـ وأنا سأرحل إلى حقول الخوخ والدُّرّاق.

وقال الشحرور الثالث:

ـ وأمّا أنا، فسأدخل المدينة متعرّفًا على أهلها!

فسخر منه أخواه:

ـ أيها الساذّج! ليس في المدينة أشجار فاكهةٍ تتغذّى بها.

كان الوالدان يُصغيان إلى الحوار يتبادله أبناؤهما الثلاثة، قالت الأم بغريزتها:

ـ إنّ الغذاء موجودٌ في كلّ مكانٍ لمن يبحث عنه، يا صغاري!

وقال الأب:

ـ وإنّ التجوُّل في المدينة يزيدنا معرفةً بالإنسان وبالأسلوب الذي يتّبعه في حياته اليومية.

قال الشحرور الأول:

ـ ولكنّ الإنسان يعمل على اقتناصنا.

فضحك الشحرور الثالث وقال واثقاً بنفسه:

ـــــ يقتنصنا؟ أنا لا أدعُ إنسانًا، ولا حيوانًا، يقترب مني. إني أطير، أقفز، أثب، أنطّ، بلمح البصر.

قال الأب ناصحًا:

خفِّف من غرورك، يا بنيّ! مهما ظننتَ أنك سريع الحركة والطيران، فإنّ ذكاء الإنسان فوق ذلك، تذكَّر أنه اخترع البندقية، التي يأتينا بها ليتصيّد العصافير! تَحَلَّ بالحذر الشديد، وأنت داخلٌ إلى المدينة، يا بنيّ... (ثّمّ قال دامعَ العينَين) ولكن لا تنسوا زيارتنا، يا أولاد، صلةً بالرَّحِم وبرّاً بالوالدَين، كما يقول بنو البشر!

قال الشحرور الصغير في ذات نفسه: حقّا، وكيف نسيت؟ نعم، هناك بندقية الصيد!

وظلّ طوالَ الليل يفكّر، لكن لماذا يقتلوننا؟ أمن أجل لحمنا؟ إنّ كلاً منّا لا يزيد على لقمتَين من لُقم الإنسان! وهم بعد ذلك يفتقدون أغانينا، لسوف أُغرِّد تغريد الشحارير كثيراً، في كلّ مكان في المدينة أحطّ فيه، في كل ساعة، وأتفنّن فيه، كي أصرفهم عن اصطيادي!

وعند الفجر غادر مودِّعًا.

حلّق في الفضاء عاليًا، عاليًا جدًّا، في اتجاه المدينة... ودخلها من جانبها الغربيّ.

رأى أول ما رأى بيوتًا جميلةً، ذات أسقفٍ ملوّنة، تفصل بعضَها عن بعض حدائق، وقد سقطت عليها شمسُ الصباح، وكان كلّما توغّل في المدينة وجد كثافةً في الأبنية وندرةً في الأشجار، فتساءلَ: كيف يعيش البشر دون شجر؟!

ووقع اختياره على حيٍّ، وجد فيه شجرًا يتخلّل البيوت، ورأى في شوارعه ودروبه أناسًا يتحرّكون، يروحون ويجيئون، فأحبّ أن يقيم بينهم، يشاركهم حياتهم ويُطربهم بأغانيه؟

واختار شجرةً، شجرة سَرْوٍ باسقة، تنتصب في ناصية شارع، فحطّ على قمّتها وقد أنهكه التعب، وبعد استراحةٍ قصيرةٍ ابتدأ في سرد أغانيه!

ويا للعجب!

إنه ما كاد يرسل أول تغريدةٍ من حنجرته، حتى لاحظ أنّ الناس تحت الشجرة، يرفعون رؤوسهم ناظرين نحوه!

ولكنّ منهم من يتوقّف عن المسـير يُصـغي، يتأمّل، منقِّلاً بصره من غصـنٍ إلى غصـن... حتى إذا لمحه وهو في قمّة الشجرة يُغرِّد، ابتسم راضيًا، وتابع المسير؟

وهنا أدرك الشحرور الصغير ما في غنائه من سحر، ومدى حبّ البشر لفنّه الجميل، فنوى أن يُبادلهم الحبّ، وزايلتْه المخاوفُ من البندقية.

٣- [وسمّى القطّ الكمّونيّ نفسَه "عنتر"!]

اسـتطاع القطّ الكمّونيّ اللون، أن يفرض سـيطرته على قِطَط الحارة، كلّما اجتمعوا حول "الحاوية" ليلاً على ناصـية الشـارع، فما من قطٍّ يجرؤ على أن يعتليها ما دام هو فوقها، يُعمِل مخالبه في تمزيق الأكياس السُّـود التي تُرمى فيها، يأكل منها ما يشـاء، وعيونُ القطط اللامعة تتطلّع إليه... حتى إذا هبط على أرض الشـارع ممتلئًا، أسرعوا يتواثبون إلى الحاوية ليأكلوا من "فضلاته"، ولا يُغادرونها إلا لحظة يسمعون هدير السيارة قادمةً لتفريغ محتوياتها.

كان القطّ الكمّونيّ يسـير متبخترًا بين القطط، وهو يعلم جيّدًا أنّ قطا منها لا يمكنه أن يكون قويًّا مثله. وهو، من شدّة خُيلائِه، يُسمّي نفسه "عنتر"! فقد رأى مرةً فتى يحمل قطًّا على ذراعه، يمسّد وبره، ويدلّله مخاطبًا إياه بـ"عنتر"! فتسمّى بهذا الاسم، وفرض على القطط أن ينادوه به، سـواء أكان وإيّاهم يتجوّلون في الحارة، أو يتحلّقون حول الحاوية، أو إذا ما لمحوه يسير في الشوارع الفرعية متنزّهًا.

ثمّ تراءى له أن يزعُم أمام القطط، أنه سـوف يأتيه يوم يغيب فيه عن أعينهم، ليعود إليهم في هيئة "نَمِر"، له قوة تلك الفصيلة من الحيوانات وإن كان حجمه لن يصل إلى حجمها!

ـ وهل تعرفون ما سوف أفعله بكم!

قال قطّة وديعة:

ـ تحمينا من الأولاد الأشرار الذين يقذفوننا بالحجارة!

أجاب بسخرية:

ـ ما حزرتم، أيها البائسون!

قال قطٌّ ماكر:

ـ هل تنوي أن تجعلنا من "وجباتك"، يا عنتر؟

أجاب:

ـ القطّ لا يأكل قطّاً، أيّها البُلَهاء!

سألته قطّة مولودة في الربيع الفائت:

ـ إذن ما تنوي أن تفعل بنا إذا ما عدت إلينا نَمِرًا؟!

قال:

ـ أزدادُ خُيَلاء أمامكم، أيّتها القطط الوضيعة!

فضحكوا من هذه "النُّكتة" اللطيفة، على حين تابع هو يقول:

ـ هذا إن عدت إلى عالمكم! فإنّي قد أُفضّل أن أقيم في الغابة بين النُّمور، أيها الحقراء!

على أنّ أكثر ما كان يضايق القطّ الكمُّونيّ، أنّ تلك الأسرة، التي اعتاد أن يتسلل إلى حديقتهم، يكافحونه كلّما وقعت عينُ أحدهم عليه، بما يزعجه جدّاً، إنّهم يُطلقون عليه الماء، من خرطومٍ قد مدّوه في أرض الحديقة، يكون في متناول يد كلٍّ منهم متى أحسّوا بوجوده بين أغصان الشجر!

لقد اعتاد أن يتسلّل إلى هذه الحديقة عبر "مَنْفَذٍ" ضيّق تكتنفه أغصانٌ كثيفة، بعضُها شائك من أشجار الكبّاد العتيقة، وقد برع في أن يتفادى الأشواك، عند دخوله المُخالِس، ولكنّ الصعوبة التي تواجهه تكون لحظة هروبه المباغتِ تحت سياط المياه التي تنهمر عليه من فم

الخرطوم. أحيانًا تتخلّى عنه براعتهُ فتناله جراح، ولكنّ ذلك يهون أمام عودته وقد امتلأ بصيدٍ دَسِم من لحم "اليمام"، هذا الذي يتكاثر آمنًا في هذه الحديقة المغلقة، فيلتهم اليمامة في ركنٍ من أركانها، تاركًا لهم البقايا الدامية، من ريشٍ ورأسٍ ومخالب! وأحيانًا يحمل الفريسة بين فكّيه عائداً بها من حيث أتى، ليتلذّذ بأكلها أمام قطط الحارة، وعيونهم تبرق من الغَيرة والاشتهاء. وهم لم يستدلّوا حتى اليوم على موضع المنفذ، وإذا ما اكتشفوه يومًا، فالويل لهم إنْ عبره أحدهم، ذاتَ نهار، ذات مساء، ذات ليل بهيم!

ولكن ما بالُ هذا الطير الذي سكن في قمّة شجرة السَّرْو فوق الحاوية، يرسل تغريدا، ما يظنّ أنّ مثله تردّد في فضاء الحارة! حجمه -كما عاينه بنظره- متوسّطٌ بين اليمامة والعصفور، ولونه أسود حالك، وأمّا منقاره فبرتقاليّ اللون... تُرى ما مذاق لحمه! هل هو ألذّ من لحم اليمام، ومن عصافير الدُّوري التي يعزّ عليه صيدها؟

٤- [هاني ينادي بفرح: أمّاه! في حديقتنا شحرور!]

في الحديقة، كان "هاني" يسقي الأحواض. التقط سمعُه تغريدا شجيّا ترامى إليه من بعيد. أصغى بحواسّه كلها، إنه التغريد الذي كانت الأسرة قد أَلِفتْ سماعه، عندما سَكن شحرورٌ حديقةَ بيتهم في صيفٍ بعيد مضى.

عاد إليه التغريدُ أكثر وضوحا. نقَّل الخرطوم من حوضٍ إلى حوض. التغريد يقترب. يبدو له الشحرورُ قد حطّ على غصنٍ قريب.

غادر الفتى الحديقة مسرعًا ليُبلغ أمَّه بفرح:

- أمّاه! في حديقتنا شحرور!

ما إنْ سمعت أختُه "هناء" ذلك حتى سألت:

- وأين هو الشحرور، الذي كثيراً ما تحدّثنا عنه؟

وخرجت إلى الحديقة، تتبع أمّها وأخاها، وأخذوا يُصغون.

قالت هناء:

ـ تغريدُه يختلف عن زقزقة العصافير. هل يسكن حديقتنا، في هذا الصيف، يا أمي؟

وراقت الحديقة للشحرور. وجد أشجارها المتكاثفة قد جعلتها تشبه الخيمة تظلّل ما دونها. وتحت "الخيمة" رأى بِركةً ينبثق من وسطها الماء، خُيوطًا ترتفع قبل أن تنفرط، مُتساقطةً على سطح البركة قطراتٍ كحبّات المطر.

تابع تغريده متواريًا والأسرة تُصغي إليه.

قالت الأمّ:

ـ لندخل البيت، يا أولاد، لعلّنا نمنحه إحساسًا بالأمان.

سُرّ الشحرور بما سمع، إنّه يفهم لغتَهم، ويعرف أنهم لا يفهمون من لغات الأطيار إلا تغريدها.

في مغادرتهم الحديقة أحسّ بالجوع، أخذ يلتقط ما يراه على الأغصان من هوامّ. نزل إلى الأحواض، يتغذّى بما يجد من حبوب. أكل، شبع، أحسّ بالعطش اقترب من البركة، ارتشف من مائها حتى الارتواء، وتحت القطرات المتساقطة اغتسل مرفرفًا بجناحيه. طار معتليًا أحدَ الأغصان، رفع رأسه شاكراً ربَّه في تغريدةٍ مديدة.

كانت الأسرة قد توزّعت وراء النوافذ تراقب صنيع الشحرور. هناء الصغيرة، ترى الآن الشحرور لأول مرة في حياتها، راقبت جيّداً رشاقته في الاستحمام.

ـ سأُسمّي هذا الشحرور "غندور"!

علّق هاني:

ـ ما أشطركِ في تسمية الأشياء بأسماء "على القافية"!

خرجت الأسرة من مكمنها. الشحرور يُغرّد متواريًا خلف أوراق الشجر.

ألحّت هناء في سؤالها:

ـ هاني! أين "غندور"، يا هاني؟ أسمعه ولا أراه.

تراءى لـ "غندور" أن يداعب الصغيرة. التزم الصمت، وتسلّل إلى ركنٍ آخر بين الأغصان الكثيفة.

في هذه اللحظة حدث شيءٌ غريب، غريبٌ جدا، هناء تصرُخ بأعلى صوتها:

ـ هاني! القطّ الكمّوني بين الأغصان!

لم يفهم الشحرور ما يجري حوله، ولكنه رأى هاني يقفز إلى حيث أعمَل يده في شيءٍ ما، فاندفع في الحال الماءُ شديدًا من "حبلٍ" طويل أحمر اللون، أصْلَتَهُ على جهةٍ ما من الشجر.

قالت الأمّ:

ـ قد هرب القطّ، كفّ عن إغداق الماء، يا هاني.

ولكن الذي هرب أيضا الشحرورُ غندور. طار مرتفعًا بلمح البصر إلى فضاء الحديقة، ومن هناك رأى جسمًا ينسرب من جانب الحديقة وينقذف بخفّة إلى الشارع... إنه القط الكمّونيّ اللون!

وأما هو، الشحرور غندور، فدون أن يشعر بأي خوف، توجّه إلى شجرة السَّرْو في ناصية الشارع، التي اختارها سكناً له، وأخذ يسرد أناشيده البديعة.

٥- [هناء تحادث الشحرور، وتُناجيه، وتُحذّره من القطّ الكمّوني]

اعتاد الشحرور أن يزور الحديقة مراتٍ لا حصر لها في كلّ يومٍ، وأن يتنقّل، في غير ذلك

من الأوقات، بين شوارع الحيّ وطرقاته، وما يصادفه من حدائق صغيرةٍ ملحقة بالبيوت.

وهو قد تعرّف، من فوق شـجرة السَّرْو، على القطّ الكمونيّ، في اعتلائه سطح الحاوية وحيدًا، وفي إملائه سيطرته على القطط الأخرى أن تبقى بعيدةً عنه منتظرةً نزوله، رآها سيطرةً لم يجد لها مثيلاً في عالم الشحارير والطيور التي تربّى على العيش معها في المزارع والبساتين.

أحبّ الشـحرور الطفلة هناء، وراق له الاسـم الذي اسـتحدثتْه له وما برحت تناديه به: "غندور! "، فيقترب منها، بحذر، أخذ يتضـاءل يومًا بعد يوم، فيتناول من كفّها فُتات الخبز المرشوش بالسُّكر.

قالت له مرّةً:

ـ كم انتظرنا مجيئك إلينا، يا غندور! هل تعِدُنا بأن تقضي أيام الصيف في جُنينتنا؟

فيُجيبها بتغريدةٍ صغيرةٍ أنْ نعم.

ـ وتعود إلينا ثانيةً، في الصيف الآتي؟

وبتغريدةٍ أخرى أطول، أجاب:

ـ لا أعرف، حسب الظروف!

ـــ كنت سألت أبي مساء أمس، أن يشتري لي قفصا جميلاً لأربّي فيه شحرورًا خاصًّا بي نشتريه من "سوق العصافير"، أستمع إلى غنائه طول يومي وأنا أقرأ القصص... أتعرف بماذا أجابني أبي؟

غرّد:

ـ وبماذا أجابك أبوك؟

ـ أنّ الشحارير تُغرِّد ما دامت طليقةً، فإذا فقد الشحرور حريته كفَّ عن الغناء، وامتنع عن

الطعام أيضاً، حتى... حتى... قال أبي كلمةً لا أستطيع أن ألفظها أمامك، يا غندور!

غرّد:

ـ هذا ما لا أعرفه، لأنني لم أجرّبه، يا هناء!

ـ انتظر، أيها الشحرور، سآتيك بالبطاطا والشيكولا.

كانت هناء تقضي سويعاتٍ مع غندور، أحلاها عندما تفتح له نافورة البِركة، فيجري الماء مقداراً ما، فيستحمّ مُبلّلاً جسمه بقطرات من الماء المتساقطة، قبل أن ينفضها عنه برفرفاتٍ من جناحيه، وكانت حريصةً على ألا يشرب من ماء البركة، بل من فم النافورة ماءً زُلالاً.

ـ أُحذِّرك من القطّ الكمّوني، يا غندور!

ضحك غندور مغرّدا:

ـ من هذه الناحية اطمئني!

ـــــ لقد بذل أبي جهده في إحكام المنافذ إلى جنينتنا، سدّها كلّها، ومع ذلك نرى القطّ الكمّوني في جانب شجرةِ الكبّاد العالية.

ـ أنا لا أخاف القطط!

ـ إنّ الكمّوني قطٌّ غدّار، إن وقعت بين براثنه... فإنه...

وأشفقت أن تُكمل.

قال:

ـ اطمئنّي، يا هناء، أنا طير يحسن الطيران!

ـ يوم أمس سمعنا أبي يرفع صوته وهو في آخر الجُنينة: «ما هذا! هل تسود جنينتَنا "شريعةُ الغاب"!». لقد وجد ريش يمامة مسكينةٍ، افترسها القطّ الكمُّوني، يا غندور... إنّه لا يشبع!

ـــ ولكنّي لست مثل اليمام الأبله، الذي يمشي في جنينتكم متبخترًا، معرّضا نفسه لخطر أن ينقضّ عليه القطّ الكمّوني والزيتوني، والأشــقر، والأســود، ها ها ها، والقططُ بمختلف ألوانها!

كانت هناء تُحاور غندور تُناجيه، تسـكب في أذنيه الصــغيرتين عبارات المحبة مقترنة بالخوف عليه، ولكن لم يكن بإمكانها أن تفهم المعاني التي ينطوي عليها تغريده الجميل... وهي لو فهمتُها لأدركت أنه شــحرور يُغرّد بأعذب الألحان، ولكنه طيرٌ مغرور، لا يأبه بقولٍ ولا يصغي إلى نصيحة.

٦- [أيها القطّ، أنت لا تستطيع أن تنالني! أنا الشـحرور، الذي سـمّوني "غندور"، سريع الحركات والقفزات!]

في أصــيل يومٍ والأسرة متحلّقةً حول البِركة تســتمتع بتغريد الشــحرور، رأوه، على غير عادته يُغرّد ويؤدي في الوقت ذلك رقصا أو ما خُيّل إليهم أنه رقص! كان ذلك قريبًا من ذلك الركن في شـجرة الكبّاد العتيقة، الذي تكاثفت فيه الأغصـان، وإنه لينتقل يمنةً ويسرـةً، بخفّةٍ ورشـاقة، مسـتغرقًا في التغريد. والحقّ أنهم أُعجبوا بما يرون من الشـحرور غندور، وإن كانوا قد عجِبوا من هذا الرقص الغريب!

ولكن ما لم يتبيّنوه إلا متأخْرين، أنّ غندور كان "يُداعب" القطّ الكمّونيّ، الذي رآه لاطئًا بين الأغصان الكثيفة! فكان يستثيره، بأن يقترب منه ثمّ يبتعد عنه، وكأنه يقول له:

ـ إيه، أيها القط الذي يغدر باليمام المسكين! أنت لا تستطيع أن تنالني! أنا الشحرور، الذي سـمَّوني "غندور"، سريع الحركات، سريع القفزات، سريع الطيران! هيّا حاولْ أن تمسّ ريشـةً من جناحي، إنْ كنت تقدر، يا قطّ الحاويات والبراميل!

أجل، كان الشحرور يلاعب القطّ لعبةَ الموت!

فجأة، حدث ما لم يكن الشحرور المغرور يتوقّعه: اشْرأَبَّ القطّ الكمّوني، واختطف الشحرور بإحدى قائمتِيه، فكفّ الشحرور عن الرقص والغناء، لأنّه كان قد وقع بين فكّي القطّ.

ودون أن يطلب أحد من هاني شيئًا، أسرع إلى الخرطوم، فاتحًا الماء على القطّ، والأب صفّق بيديه بقوة وهو يخبط برجله الأرض، وزعق[٣٢]، والأمّ وَلوَلت، وهناء أَعْوَلَت... ذلك كلّه حدث في ثانيةٍ واحدة.

وجد القطّ الكمّوني نفسه محاصرًا: الماء المنهمر، ومضايقات، والمنفذ الضيّق ينتظر!

وكانت مفاجأة أخرى، أنّ الشحرور أُفْلِتَ من بين فكّي القطّ، وطار منقلبًا في الفضاء، دائخًا، معضوضًا، مجروحا، لا أحد يعرف مقدار ما حلّ به من الأذى!

والقطّ انسرب في منفذه، وغاب.

ولبثت الأسرة، منذ ذلك اليوم، تنتظر.

كانوا كلّما طلعت شمسٌ، والشحرور في غيابه لم يزل، ازدادوا يقينًا بأنّه قضى جريحا.

ولكنهم سمعوا، في أصيل يوم، تغريد شحرور يترامى إليهم من بعيد: أهو غندور أم شحرور آخر؟

وعاد التغريد في ظهيرة يومٍ آخر... عاد بعيدًا شجيًّا فكأنه قادمٌ من عالم الغيب! أتُراهم يحلُمون؟

وذات صباح، بدا لهم التغريد أكثر قربًا هذه المرة... أيكون غندور سليمًا معافى؟ وإذن لِمَ لا يطرق جنينتنا، وفضاؤها مفتوحٌ له كما كان؟

---

(٣٢) صاح

قالت هناء:

- قد يكون غندور ندمان خجلان ممّا فعل أمام أعيننا!

قال أخوها هاني:

- هذا إن كان على قيد الحياة؟

قالت:

- قد تكون أنقذتَه أنت بالمياه التي قذفتها نحو القطّ؟

ولكنّ تغريد غندور، سُمِع مساء يوم، كان تغريدا صادحًا أقوى من كلّ مرة.

لم تصدّق الأسرة آذانَها، ولا عيونَها، وهم يرونه يعتلي أحد أغصان شجرة الكَبّاد!

- عدتُ إليكم، أيّها الأحبّة!

سألته هناء:

- لِمَ تأخرتَ علينا، يا غندور؟

- كنت عند أهلي، أُداوي جراحي النازفة، وأُداري خجلي منكم، أيها الأحباب!

- ظللتُ أحلُم بعودتك يا غندور.

- إني أعتذر.

- قد أعددتُ لك كثيراً من المآكل الشهيّة والأحاديث الشائقة.

غاب القط الكمونيّ عن الحارة، فسمحت القطط لنفسها بأن تعتلي الحاوية.

وعندما طال غيابه، زعمت إحدى القطط أنها لمحته يوما، وهو يمشي ـ متعبا، ماضـيًا في اتّجاه بعيد!

- إذن ذهب إلى الغابة، وسوف يعود إلينا نَمِرًا.

ـ وهل تُصدّقون، أيها البلهاء، أنّ القطّ يمكن أن يتحوّل إلى نمر؟

ثمّ حدَّثت في يوم آخر قطّة جوّالة، أنها مرت بحاويةٍ في شـارعٍ ما، فرأت بين القطط حولها قطًّا كمّونيَّ اللون، هزيلاً... وعندما اقتربت منه عرفت أنه عنتر!!

سألته:

ـ هذا أنت، يا عنتر؟!

وقبل أن يُشيح بوجهه عنها، كانت قد تبيّنت أنه لا يملك إلا... عينًا واحدة!

إنّ ما لم تعرفه قططُ الحارة الكارهة لعنتر، ولا الأسرة المحبّة لغندور، أنّ القطّ الكمّوني اللون، المسـمّي نفسـه "عنتر"، في انسـرابه من ذلك المنفذ الضـيِّق الشـائك، قد فقد إحدى "كريمتَيه"!

وذهبت إليه قططُ الحارة، فمنهم من شَـمِتَ، ومنهم من أشـفق عليه، فإنّ في قلوب القطط أيضا موضعًا للرحمة والشفقة.

كتبت في صيف ٢٠٠٣

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٧-٧-٢٠١٥

وتكسّرت النصال...

كنّا نحوَ ثلاثين من طلاب "ثانوية المأمون" (التجهيز الأولى) بحلب، في أربعينيات القرن الماضي، لا يُفرِّق بيننا في الأعمار إلا سـنواتٌ قليلات، اتفق وجودنا بدمشـق، منّا مَن شـغل منصب وزير (مصطفى، و"ع. و. ش")، ومنّا ضباطٌ مسرّحون، وأكاديميون، وإعلاميون، ولا أخفي أنّ بيننا مّن شَغَب في كتاباته فناله من النظام سخطٌ ولعله كاتبُ هذه السطور!

وقد جرينا على أن نجتمع في الشـهر مرة في مطعم، اخترناه في "رابطة المحاربين القدماء"،

ذي الإطلالة على حديقة "السِّبكي"، فلما تقدّم بنا العمر وصعُب على بعضنا صعود الدرج (قبل أن يركّبوا للمبنى مصعدا خارجيّا)، تحوّلنا إلى مطعم "نادي الصحفيين" في طلعة العفيف، بعنايةٍ من صديقنا الإعلامي "مظفّر". نتناول العشاء، صيفًا وشتاء، ثمّ دونما حرج نقتسم "الفاتورة"، إلا إذا تبرّع أحد الأغنياء منّا بتسديدها. وغنيّ عن البيان أنّ الثلاثين صديقا لم يجتمعوا مرة معًا، النصف أو أقلّ وحسب، وإذا ما قلّ العدد صفا الجوّ، وطاب السمر باستذكار أيام الفتوّة الحميمة.

يتناقص عددنا، أجل. يرحل منّا واحد في كلّ حين، وكان أول الراحلين هو الذي شغل منصب وزير (م.)، وبعده بزمن ذاك الذي ظنّه "باتريك سيل" في كتابه الشهير علويّا من "اللواء" على حين أنه شركسي- من شرقيّ محافظة حلب (عثمان ك.). وحين غادرتُ الوطن أواخر ٢٠١٣، كان قد تعجّل الرحيل في تلك السنة ثلاثة أصدقاء (إياد وبشير وطارق).

ضحى أمس قمت أتّصل: هل أسأل عن الصحة، وهي متراجعة وبعضهم دخل "الزهايمر"؟ أم أستفسر عن الوجود في البلد أو عن البقاء على قيد الحياة؟

واحد، اثنان، ثلاثة، بدا لي الهاتف أصمّ أبكم. وجاءني في الاتصال الرابع صوتٌ أجشّ، يبدو أني أيقظته من نومه في ضحوة هذا اليوم الرمضاني: «مين؟ »، ثمّ «أنا ابنه، توفّي الوالد مطلع العام الماضي! ». والمعنيّ هو الصديق الإعلامي (م. ش) الذي دأب على الاهتمام بنا في نادي الصحفيين.

صدّقوني، أيها الأصدقاء، إن قلت لكم إني لم أشعر بكبير حزن... وهل يفيض بنا الحزن إن مات -في هذه الأيام- أحدنا وهو على سرير في بيته، يحيط به الأبناء والأحفاد والأسباط... وقد تكسّرت النصال على النصال!

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٨-٧-٢٠١٥

في دهاليز البنك!

في محبّتها للناس، ودأبها على تقديم المساعدة لمن يحتاجها من معوزين ومظلومين، مستعينةً بذوي النفوس الطيبة من أبناء المجتمع وبمن تعرف من ذوي النفوذ في السلطة، ذهبت يومًا إلى البنك لتسحب مبلغًا كانت قد أودعته باسمها لصالح أخيها الذي لا يتعامل مع البنوك...

رأتهم يضطربون وهم يُنهون إليها أنْ لا وديعة لها عندهم، وأنّ رصيدها مسحوبٌ من قِبلها، وأطلعوها على توقيعها الذي "زوّروه" والتاريخ الذي "زيّفوه"!

قالت: «ولكنّ دفتر الادخار الذي في يدي يثبت أني لم أسحب المليون الذي أودعته في حسابي قبل سنتين ولا اجتزت عتبة مقرّكم!».

قالوا وهم يُدارون حرجهم بالابتسامات الكاذبة: «الدفاتر بطلت من زمان!».

ولم يَجُل في خاطرها أن تطلب فتح تحقيق، وهي التي جرت على أن تدفع الأذى عن الناس... فكيف تسوق إلى محاكمة مخزية موظفين تربطها بهم معرفة وإن كانوا من السارقين؟

دمشق الشام: فجر الخميس ٩-٧-٢٠١٥

أحزانُ العرب الآتية!

لو أنّ ما كُتب عن نزوح الفلسطينيين، ولجوئهم، وتشرّدهم في الآفاق، وما عانوه من تخاذل العرب وتواطؤ العالم، من يوم النكبة، وما قبلها، حتى الأمس القريب...

لو أنها جُمعت الأوراقُ والأسفار تلك التي دُوّنت فيها الأيام السُود، والدواوينُ وما بلّلها من دموع ورثاء وغناء... لما تعدّى المدادُ المسفوح فيها غَرفةً من بحرٍ ما يُعانيه اليوم السوريون، الذين تآمرت عليهم أممُ الأرض، البعيدُ منها، والأقلّ بعدًا، والأكثر قربًا، والأقرب من القريب...

وما أوجعَ أن تدور الأيام دورة، فيذوقَ كلّ واحد من شعوب الأمة ما ذقنا، أداءً لفصل جديد من فصول "لعبة الأمم" الكريهة!

دمشق الشام: السبت ١١-٧-٢٠١٥

هكذا تكلم هذا الرجل!

قبل أيام كتبت أسأل الأصدقاء مَن يدلّني على طريقة تمكّنني من أن أحذف بسهولة الألف الأخيرة من قائمة الأصدقاء غير الفعّالين لأُحِلّ محلهم أصدقاء جددًا.

فانبرى صاحب قلم غامض، كنت تعرّفت عليه في أوائل السبعينيات من القرن الماضي يتخفّى اليوم وراء اسم فضفاض (يبتدئ بكلمة "بداهة" ملحقًا بها وصفا يفيد سريانها بين الناس!)، يشير عليّ بفظاظة مستغربة: «احذف نفسك لتريح وتستريح»، ويصفني «بالانفصال»! و«الطائفية»! وبأني «أتباكى على راعش» (هكذا بالراء)!

فتراءى لي أن أصف بداهتَه «بالمتجمّدة» لا السارية بين الناس، ووصمته باضطراب «الرؤية والرؤيا».

فعاد يكتب متحسّرًا: «كان لك في القلب والعقل أكثر من الاحترام» (ولا أراه في هذا صادقًا)، وبيّن أسباب "تراجعه" عن رأيه: «لكونك تبرهن لي كم هذه الأمة عقيمة وفاقدة لمعايير البداهة الكونية... نراك تخون منطقك الحيوي وأنت تبارك سفك الدماء وتتحسّر على قتلى أنت مَن حرّضهم»!

وكان هذا الرجل قد دخل بيتي، في ذلك اليوم البعيد، ضيفًا طارئًا مرحّبًا به، وهو يرتدي البدلة الخاكي، وسبب ترحيبي أني كنت سمعت بأنّ له اجتهادا في الكتابة، ثمّ لم ألتق به بعد ذلك اليوم، إلا في صفحتي، لا يُبدي رأيًا لكن ينزّل في التعليقات رابطا يكرّره عن "البداهة"

التي يُروّج لها، ما وجدت في نفسي يومًا دافعًا لأن أفتح الرابط فأطلّ على بداهته البائسة.

أقدّم إليكم، أصدقائي، هذا "النموذج"... لتتأمّلوا وتتعجّبوا!

دمشق الشام: فجر الإثنين ١٢-٧-٢٠١٥

من اللحمة بالكرز.. إلى الحديث عن الهمّ الوطني

ها قد مضى أسبوعان على نشر الخاطرة، عن أكلة اللحمة بالكرز، وما زالت التعليقات تترى، من الحلبيّة وممّن ذاق هذه الأكلة التي لا تُنسى!

أعترف ثانية بأن الذي قدّم لي عبوة كرز "الوَشْنة" (المزّ) عند عودتي إلى الوطن، هو -كما ذكرتُ- مَن لم تكتحل عيناي بمرآه بعد، صديقٌ على الشابكة، حلبيّ، أصيلٌ بالتذوّق وبالأرْيَحية معًا، مقيمٌ بدمشق، قد أحاط منزله ببستان جلب إليه شُتول الكرز من جبل الأربعين (الذي تتربّع فوقه مدينة أريحا، في محافظة إدلب) وشتولَ المشمش من الغوطة التي تزنّر عاصمتنا الجميلة. صدّقيني، يا سيدتي، أنا لا أمون عليه بأن يرسل إليك وأنت في الرياض، لا عبوة كرز ولا حبّة منه (هذه للمداعبة!).

وأما حماتك، الحلبيّة، التي تتقن إعداد أكلة اللحمة بالكرز، إعدادًا "يمصمص" الآكلُ -كما وصفتِ- أصابعه وهو على المائدة، أقول: رحمها الله، ونحن نذكر أناملها ويديها ونحيّي ذوقها الرفيع... ومن هنا صدح، يا "دكتورة هدى" يا بنت دير الزور، صباح فخري يوما بصوته البديع: «بدّي وحدة حلبيّة»، وأنت أخذت واحد حلبي ابن حلبية، فهنيئا لك وله.

هناك أمر آخر ورد في كلمتك النابضة بالذكريات السورية، أجدني حريصا على الإشارة إليه: الخبر عن ذلك "المطعم الأرمني" في الرياض الذي يقدّم "الكَبَاب بالكرز"، هو يقينًا أرمني من حلب، فيها عاش واكتسب موهبة طبخ الكرز مع موهبته الأرمنية الأصيلة في صنع

الكَبَاب، ثمّ تأتّى له أن يحمل مواهبه إلى الرياض، يمارسها ويتيح فرص التذوّق للمتذوّقين... أقول: أرأيت إلى شعبنا، المتذوّق للقمة الطيبة، المرحّب بالنازلين فيه من أبناء الأديان والإثنيّات الأخرى، لا أقول: النازلين ضيوفًا بيننا، بل الذين سرعان ما يصبحون جزءًا من نسيجه الاجتماعي الذي لا أروع... ثمّ يأتي، في آخر الزمان، مَن يتحدث عن أنّ شعبنا الشامي، الحضاري، يريد أن يذبح الأقليّات!!!

ابتدأنا باللحمة بالكرز، ثمّ لم يكن بدّ من أن أنتهي إلى الحديث عن الهمّ الوطني، الذي يجثم على الصدور والرقاب.

ثم كوني، وأنت في الرياض، بألف خير.

- - - - - - - - - - - - - - - -

كتبت الخاطرة أعلاه، ردّا على هذا التعليق:

الأستاذ فاضل السباعي

مقالك [عن اللحمة بالكرز، ٢٩-٦-٢٠١٥] رائع... ولكنه حرّك عندي الرغبة في تناول مثل هذا الطبق... لقد كانت أم زوجي -رحمها الله- من حلب... تطبخها وتتقنها أي إتقان... تمصّ يديك بعد كلّ لقمة...

وبقيت فترة لا أحظى بها... إلى أن أخبرتني صديقة أن فندق (فور سيزن) [بدمشق] يقدمها في إفطار رمضان ويقدم أيضا "كبة بالسفرجليّة"... وفي اليوم التالي كنت أتناولها مع بعض الصديقات... وهذا قبل عامين... وهنا في الرياض مطعم أرمني يقدم كَبَاب بالكرز... فكلما خطرت هذه الأكلة على بالي توجهت إلى هذا المطعم...

ولكنني لا أخفي عنك أني تمنيت لو أنّ صديقك، صاحب كرز جبل الأربعين، يهدي إليّ كم حبّة... تبلّ شوقي إلى حبيبتي... سوريتي..

سلمت أناملك... وجزاك الله خيرا...

١٢ يوليو، الساعة ٠٧: ٠٥ مساءً

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

أجل، أيها الأحباب.

نحن نأكل اللحمة بالكرز، نطبخه بما قدّمته لنا يدا أريحيّ، أو نتناوله في فندق "فور سيزن"، أو في مطعم الأرمني الحلبي بالرياض...

ولكن ما ذا يأكل أهلونا، نزلاء خيام الزعتري، والنائمون على الأرصفة في شوارع بيروت وكل لبنان القاسي، وأولئك الذين تُجهض أحلامهم فيتحوّلون بغمضة عين إلى وجبات لأسماك البحر المتوسط!!!

وابكي، يا عيون السوريين، بدموع لا تَرقأ!

دمشق الشام: ضحى الثلاثاء ١٤-٧-٢٠١٥

حلب العطشى

كلما هممتُ بسقاية حديقتي

بماء الفيجة

تراءت لي حلب العطشى

فأشفقت أن أبذل الماء

ووددت لو أسقي أزهاري

بدموع العينين

دمشق الشام: فجر السبت ١٨-٧-٢٠١٥

بهذا القدر كانت أحلامي وأنا طفل صغير.

اليوم، وقد تجاوزتُ الثمانين، كبِرت أحلامي لتتّسع وطنًا أريده بلا جوع، بلا عطش، بلا تشرّد...

ماذا فعلنا بهذا الوطن؟

أتمنى أن أعود طفلاً!

دمشق الشام: الجمعة أول شوال ١٤٣٦، ١٧-٧-٢٠١٥

وزرت، قبل خمسين عامًا، جامعة حلب لأتعرّف..

تعليقًا على خاطرتي «حلب العطشى»، كتب في مجموعة «التجهيز الأولى ثانوية المأمون ومعاوية بحلب»، أحد أصدقاء الشابكة، مستمدًّا من ذكرى تعود إلى عقود من سنين، الكلمة التالية:

[كلمة للتاريخ مهداة إلى..... الأستاذ فاضل السباعي]

ذات يوم، وبينما كنت أستمع باهتمام إلى محاضرة في الحقوق المدنية على مدرج كلية الحقوق بجامعة حلب للأستاذ الدكتور انطوان قسيس، لاحت مني التفاتة فرأيت بالقرب مني رجلا مهيب الطلعة..... لا يبدو عليه أنه طالب في الكلية، وكان يكتب في كراس أشياء يبدو أنها لا تتعلق بالمحاضرة، حيث كان يجول ببصره في أنحاء القاعة بهدوء ثم يسجّل ملاحظاته.

وفي فترة الاستراحة، التفت نحوي، وأخذ يطرح عليّ بعض الاسئلة: عن الأستاذ المحاضر، والمنهاج، والجو العلمي الذي يسود المحاضرات من نقاشات ومشاركات.

الحقيقة أنني تعجبت من أسئلته وأردت أن أعرف سببها، ولكن طرحه المستمرّ لها لم يكن ليعطيني الفرصة لمعرفة ذلك، وكأنه يغتنم كل لحظة في الاستراحة لمعرفة المزيد، وقبل أن تبلغ

الشكوك مبلغها عرّفني بنفسه: فاضل السباعي.

وصعقت كيف أني لم أتعرف عليه، فلطالما قرأت قصصاً لهذا الأديب الكبير وشاهدت صوره تتصدر كتبه ومقالاته في الصحف والمجلات، فكيف فاتني التعرف عليه. فقد كان جيلنا يقدر الأدباء والعلماء ويحفظ لهم في قلبه أجمل الصور. وقدمت اعتذاري مبررا ذلك بالمفاجأة غير المتوقعة.

قبل الوداع أخبرني بأنه يعتزم كتابة قصة عن الدراسة في الجامعة والأجواء العلمية والثقافية السائدة فيها، وقد حضر ليستمدّ مادة القصة من الواقع العملي. ففهمت بعدها سر النجاح الذي وصل إليه أديبنا الكبير.

لقد مر على هذه القصة أكثر من خمسة وثلاثين عامًا ولا زالت حيّة في ذاكرتي وكأنها تحدث اليوم، ذلك لأنها اقترنت برجل..... أكنُّ له كل احترام وتقدير.

محمد غسان علبي

حلب: فجر السبت ١٨-٧-٢٠١٥

فكتبتُ:

يؤسفني أني، مع اعتدادي بذاكرتي، أفتقد تذكّر هذه الحادثة، التي تقول إنها وقعت قبل ٣٥ عامًا، أي في العام الدراسي ١٩٨٠-٨١... هل طغت عليها عندي حادثةٌ أخرى؟

أني في الساعة ٣-٥ من مساء يوم الإثنين ٢٢-١٢-١٩٨٠، وقفت على منبر "مدرج المتنبي" بكلية الآداب بجامعة حلب في لقاء مع الطلاب يسألون فيه وأجيب، انتهى بإلقائي قصتي -التي باتت مشهورة- "الأشباح"، وفيها يُجْهز "الجلادون" في المعتقل على مثقف، فتصعد روحه إلى السماء ويعود إليهم شبحًا يعذّبهم، تشاركه في ذلك أرواح مَن سبقوه إلى عالم الحق... ثمّ، وأنا خارج من باب الجامعة، ألقوا القبض عليّ أنا كاتب هذه القصة!

لا تُراعوا، أصدقائي، فالقصة نزلت في كتابي "آه، يا وطني! " (دار إشبيلية، دمشق ١٩٩٦!). وفي أواخر ١٩٩٧ أعدّت طالبةٌ في الكلية، متفوّقة، حلقة بحث عن هذه القصة عينها، وغدت هذه الطالبة فيما بعد أستاذة للأدب المعاصر بجامعة حلب، إنها "الدكتورة شهلا العجيلي"!

وأما الطالب الواشي، الذي نقل مضمون القصة توّا إلى فرع الحزب بالجامعة، ثمّ قاد السيارة التي أقلّتني إلى المعتقل، فقد كان مع الأسف ابنًا لأحد أصدقائي، لم يتورّع ونحن في السيارة عن أن يعرّفني بنفسه: اسمي "نضال بن... "، وهو يعيش اليوم عزلة مخزية!

دمشق الشام: فجر السبت ١٨-٧-٢٠١٥

- - - - - - - - - - - - - - -

لقد صحّح الصديق التاريخ، فقال إنه يعود إلى ما قبل خمسين سنة... وأذكر أني زرت جامعة حلب في يوم من أيام ذلك العام الدراسي ١٩٦٥-٦٦، للغرض الذي بيّن. أحيّي ذاكرته النشطة، وأسلوبه الفصيح، ووفاءه للواقع.

دمشق الشام: ظهيرة السبت ١٨-٧-٢٠١٥

ما أنجزناه ليلة أمس!

لبثنا في البيت.

كتبتُ نصًّا سرديّا في أدب الأسفار، رصدتُ فيه تفاصيل رحلة العودة من فلوريدا الخضراء إلى دمشق الفيحاء، ليظهر مطلع الشهر القادم آب/ أغسطس في إحدى المجلات الشهرية، وأنجزت ابنتي خلود رسم لوحة بالأكْرِيلك بقياس ٥٠ﷺ٧٠، تضجّ باللون الأحمر ويفوح منها عبير الورد الشامي، تنوي أن تقدّمها إلى صديقة حميمة، وأما ابنها حفيدي

"ماجد هنانو"، فقد فرغ بعد الجهد من رســم كلّ ما ترتّب عليه لمجلة الأطفال التي يتعامل معها عبر البريد الإلكتروني، وسمح لنفسه أن يأخذ "إجازة" يَقضيها بين أصدقاء الطفولة في "ضاحية دمّر"، يومًا بليلِه ونهاره، ويعود إلينا ونحن في اشتياق...

دمشق الشام: فجر الأحد ١٩-٧-٢٠١٥

من فلوريدا الخضراء إلى دمشق الفيحاء

استجابة لطلب بعض الأصدقاء، أدرج أدناه الصفحة الأولى من النص السرديّ (من أدب الأسفار) الذي كتبته عشية أمس الأول، وهو يعادل ربع المكتوب.

دمشق الشام: مساء الأحد ٢٠-٧-٢٠١٥

عند الســاعة الثانية والنصــف من فجر يوم الأحد (الثامن من حزيران/ يونيو ٢٠١٥)، كنت أهمّ بالخروج من بيتٍ، ما أظنّ أني عائدٌ إليه بعد يومي هذا أبدًا، تُرافقني ابنتي "ســهير" وحفيدي "رامي"، في الطريق إلى "مطار اورلَنْدو". وما فاتني، وأنا أمام باب الدارة (الفيلا)، أن أمدّ يدي فأقطف ما تطوله من زهرات الياســمين، تلك الشــجيرة، التي كانت ابنتي "سوزان" قد جاءت بشَتْلتها في آخر رحلة لها ما بين الوطن وموطنها الجديد، قبل أن يعمّ شرُّ الاقتتال وشرارُه فتتعذّر الزيارة، وهي ذي "الياسمينة" وقد نمت جذوعًا وأغصانًا، مستريحةً على عريشــة خلفها، تزكو تحت شــمس فلوريدا الدافئة وأمطارها الصــيفية، وتعطي أزهارًا ترشــح عطرًا شــاميًّا يملأ الصــدور ويُذكّر بالوطن البعيد... وعن ذلك كتبت غير مرة في الخواطر التي أرسلها عبر الشبكة العنكبوتية.

في الطريق إلى أورلندو، مســافرًا من بلدة Palm Bay، هذا الطريق الذي نعبره بســتين دقيقة، لم يكن يُراودني شــعور بالأســف لمغادرة هذه البلدة الخضــاء الجميلة، التي أظلّتْني

عشرين شهرًا كاملة، مقيمًا بين أفراد ذرّيّتي، من بنين وبنات، وأحفاد وأسباط، وكنائن وأصهار، ولكنّ ما كان يقلقني هو الخشية من مشقّة هذا السفر بطوله الزائد على ثلاثين ساعة، أترك فيه مطارا وأدخل آخر، تحلّق بي الطائرات وتحطّ، وأنا رجل، يا أصحابي، يدلف إلى التسعين غير متعثّر، لولا أنّ أبنائي الذين حجزوا لي للسفر، طلبوا خدمة "الكرسي المُدَوْلب" (Wheel chair)!

لحظة دخلنا مطار اورلندو، وعربة قد علتها حقائبي الثلاث يتولّى أمرها حفيدي، رأينا واحدًا من تلك الكراسي المُدَولبة، يدفعه خاليًا رجل أسمر البشرة، فاستوقفناه، ووجدتُني أجلس فيه مرتاحا، والرجل يدفع! وعند المضيفة الأرضية توقفنا، ونُقلت الحقيبتان، زنة كلّ واحدة خمسون باوند (٢٣ كيلو غرام لا تزيد دانقًا)، إلى الميزان، ولم تزد الصغيرة -التي ستبقى في يدي طوال الرحلة- على خمسة عشر. انتظرنا قليلاً، إلى أن آن لي أن أتحرّك، وأُذِن لابنتي بمرافقتي إلى الداخل، فقد غدوت ابتداءً من هذه اللحظة من "ذوي الاحتياجات الخاصة"، ولدى المضيفة كنا أودعنا الحقيبتين، وودّعني حفيدي الحبيب رامي، ودفع الرجل الأسمر العربة وقد نفحته ابنتي "ما فيه النصيب"، ومضينا.

هل أقول إنّ الزحام كان ينفتح أمامي بين الراجلين، فاجتاز التفتيش في مراحله الأولى، والتالية أيضًا، فكأنّ مسؤولي الأمن هنا يقولون: وماذا في وُسع هذا الرجل الجالس على هذا الكرسي أن يفعل! وتركني الأسمر لشأني، ودخلت المكان راجلاً أحمل حقيبتي الصغيرة بحنان............

«اِجِتْ الكهربا»

كلمتان...

صرت أحسّ لها وقعًا وأنا بدمشق، لم أكن أعرفه وأنا في فلوريدا.

دمشق الشام: الأربعاء ٢٢-٧-٢٠١٥

والله والله

كلما فتحت الماء لأسقي أزهار حديقتيِ

في شهر تمّوز اللاهب

تصوّرت أهالي حلب

وهم يلوبون بحثًا عن قطرة ماء

يبلّون بها عطشهم

فأهمّ بأن أمنع الماء عن أزهاري

وأنا أتخيّل مَلَكًا يهبط عليّ من السماء

فيحمل ما عندي من ماء الفيجة

يسقي به بعض الأفواه هناك

دمشق الشام: مساء الأربعاء ٢٢-٧-٢٠١٥

ثقافة الفراق.. ثقافة الموت!

ليلة السادس من حزيران/ يونيو الشهر الماضي، وأنا أستعدّ لمفارقة فلوريدا الجميلة التي قضيت في ربوعها عشرين شهرًا، حضرت أمسية وداع في أحد البيوت الخمسة التي يسكنها أبنائي في بلدة Palm Bay. وبعد تناول العشاء قمت أضمّ إلى صدري أحفادي، أعانق وأقبّل، وتراءى لي في ذلك أن أَلْفتَهم إلى أنّ لقاء الليلة هذا قد يكون آخر ما يجمعني وإياهم،

فلا هم يستطيعون زيارة الوطن والقتالُ فيه دائر، ولا أنا أملك الهمّة للعودة إليهم في هذا البلد البعيد، وقد أفارق الحياة هناك فلا يكون لقاء بعد ليلتنا هذه! الذي وقع أنّ الصـغار ذهبوا توًّا إلى أهلهم يحدثونهم عن الانطباعات التي تولّدت عندهم بعد الذي سـمعوا مني، فهُرع إليّ كبارٌ منهم يسـائلونني كيف أني تحدّثت عن ذلك أمام الصـغار فأحدثتُ في نفوسـهم الهلع، وليس في "ثقافتهم اليومية" حديث عن الموت! فقلت أخالفهم الرأي: «ولماذا نتجنّب الحديث عن الفراق واللوعة والموت، وفي الوطن كلّ يوم، وكلّ ساعة، فراقٌ وتشريد ودمار وسفكُ دم؟!». صباح هذا اليوم، الجمعة، بعثت إليّ كبرى الأحفاد، زين السباعي، بصورة تجسّد "فاضل الصغير" و"جودي" وهما في الأحضان، وإلى الخلف الصبيّتان "زين" و"نايا"، إحدى الصـور التي التُقطت قبيل مغادرتي فلوريدا بسُـويعات... صـورة تُجمّد "اللحظة الزمنية" فتبقى ماثلة أمام العيون لزمن آت.

دمشق الشام: مساء الجمعة ٢٤-٧-٢٠١٥

من فلوريدا إلى دمشق على "كرسي مُدَولب"!

في فجر يوم الأحد (الثامن من حزيران/ يونيو ٢٠١٥)، كنت أهمّ بالخروج من بيتٍ ما ظننتُ أني عائدٌ إليه بعد يومي هذا أبدا، تُرافقني ابنتي "سـهير" وحفيدي "رامي"، في الطريق إلى "مطار اورلَنْدو". وما فاتني، وأنا أمام باب الدارة (الفيلا)، أن أملأ كفّيّ من زهرات الياسمين، تلك الشجيرة التي كانت ابنتي "سوزان" قد جاءت بشَتْلتها في آخر رحلة لها ما بين الوطن وموطنها الجديد، قبل أن يعمّ شرُّ الاقتتال وشرارُه فتتعذّر الزيارة، وهي ذي "الياسـمينة" وقد نمت جذوعًا وأغصـانًا، مستريحةً على عريشة خلفها، تزكو تحت شـمس فلوريدا الدافئة وأمطارها الصيِّبة، وتعطي أزهارًا ترشح عطرًا شـاميًّا يملأ الصـدور ويُذكّر بالوطن البعيد... وعن ذلك كتبت غير مرة في الخواطر التي أرسلها عبر الشبكة العنكبوتية.

في الطريق إلى اورلندو، مســافرًا من بلدة Palm Bay، هذا الطريق الذي نعبره بســتين دقيقة، لم يكن يُراودني شــعورٌ بالأســف لمغادرة هذه البلدة الخضــراء الوديعة، التي أظلّتْني عشرــين شــهرا كاملة، مقيمًا بين أفراد ذُرّيّتي، من بنين وبنات، وأحفاد وأســباط، وكنائن وأصــهار، ولكنّ ما كان يقلقني هو الخشــية من مشــقّة هذا الســفر بطوله الزائد على ثلاثين ساعة، أترك فيه مطارًا وأدخل آخر، تحلّق بي الطائرات وتحطّ، وأنا رجل -يا أصحابي- يدلف إلى التســعين غير متعثّر، لولا أنّ أبنائي الذين حجزوا لي للســفر، طلبوا خدمة "الكرسي المُدَوْلب" (Wheel chair)!

لحظة دخلنا مطار اورلندو، وعربة قد علتها حقائبي الثلاث يتولّى أمرها حفيدي، رأينا واحدًا من تلك الكراسي، يدفعه خاليًا رجلٌ أسمر البشرة، فاستوقفناه، ووجدتُني أجلس فيه مرتاحًا، والرجل يدفع! وعند المضــيفة الأرضــية توقّفنا، ونُقلت الحقيبتان، زنة كلّ واحدة خمســون باوند (٢٣ كيلو غراما لا تزيد دانقا)، إلى الميزان، ولم تزد الصــغيرة -التي ســتبقى في يدي طَوال الرحلة- على خمســة عشرــ. انتظرنا قليلاً، إلى أن آن لي أن أتحرّك، وأُذِن لابنتي بمرافقتي إلى الداخل، فقد غدوت -ابتداءً من هذه اللحظة- من "ذوي الاحتياجات الخاصة"، ولدى المضيفة كنا أودعنا الحقيبتين، وودّعني حفيدي الحبيب رامي، وأخذ الرجل الأسمر يدفع بي العربة، بعد أن نفحته ابنتي "ما فيه النصيب"، ومضينا.

هل أقول إنّ الزحام كان ينفســح أمامي بين الراجلين، فاجتاز التفتيش في مراحله الأولى، والتالية أيضًا، فكأنّ مسؤولي الأمن هنا يقولون: وماذا في وُسع هذا الرجل الجالس على كرسي مدولب أن يفعل! وتركني الأســمر لشــأني، ودخلت المكان راجلاً أحمل حقيبتي الصــغيرة بحنان.

والتقيت بابنتي، التي فارقتني لحظات، في الصــالة حيث ينتشرـ على مقاعدها المســافرون،

وخطر لها أن تملأ كفي بقدر من الدولارات الورقية، لأوزّعها -إكرامًا- على الذين يدفعون بي الكرسي في كلّ مراحل الانتقال. وتبادلنا من الحديث الوجاهي ما اعتقدت أنه آخر ما هنالك، فما أظنّ أننا سوف نلتقي، في مقبلات الأيام، في هذا الموطن المستعار أو في الوطن الأمّ، فالحرب تزداد استعارًا... إلى أن نودي علينا أن هَلُمّوا! فودّعت بآخر القبلات، وغبت في جوف الطائرة، وغُصت في مقعدي، أفكر فيما مرّ بي من أيامي ههنا، التي بلغت ستمئة وعشرة، ما لي فيها وما عليّ، متصوّرًا أيامي الآتيات، وأنا أتنفّس أنسام الوطن، مستظلاًّ البيت، تعانق عيناي هناك أوراقي وأقلامي، عالمي ذاك الذي ينفتح على الدنيا ويرود بي كل مكان!

لم يطل لبثي في هذا المطار إلا سويعات، ومثلَها استغرق الطيران حتى الهبوط في "مطار فيلادلفيا" العظيم، وقد ولّى الليل فنحن في وضَح النهار، وعند مغادرتي الطائرة، كان كرسيّ مدولب آخر لكن مطويّ، في انتظاري، أسرع صاحبه ينشره متيحًا لي الجلوس، وخرج بي من المسلك "الأوكورديونيّ" إلى ردهة فسيحة، وتوقف عند "عربة كهربائية" تقوم عليها امرأة، يُنبي شكلها عن أنها من قارّتي الأسيوية -الهند خاصة- أسلمني لها ومضى.

لبثت دقائق في هذه العربة، التي تتّسع لغير واحد من الراكبين، وعينا المرأة تجولان وكأنهما تبحثان عن ركاب آخرين، وأنا أُجيل الطرف في الأرجاء، فأرى محلات تقدّم معروضاتها في لألاء من الأناقة والترف، والناس ماضون إلى أحوالهم مستعجلين، فلما افتقدتْ مَن ظننتُها "هندية" ركابًا يشاركونني اعتلاء عربتها، أعملت يديها، فسارت بي العربة، تتهادى فوق بلاط مرمري لامع، لا صوت، لا جلبة، إلا ما خيّل إليّ أنه حفيف أجنحة اليمام، تجتاز ردهة تُفضي بنا إلى أخرى، حتى توقفت عند "بساط متحرّك"، فتناولتْ حقيبتي اليدوية تحملها، ووطئنا البساط يسير بنا، ومنه انتقلنا إلى بساط آخر حيث ودّعتني، وصافحتْها يدي بالذي

فيها، ثمّ سرت -غير هائم- إلى مكتب استعلامات، تتولاه شابة سوداء جميلة وأنيقة، أوعزت، بعد أن اطّلعت على بطاقة السفر، إلى رجل بجانبها، فنشر عربته، وأقلّني إلى مكتب الخطوط الجوية القطرية... وعلى المقاعد ههنا، صافح سمعي كلامٌ بالعربية، فاستأنست.

وما هي إلا هنيهة حتى تقدّمت مني مَن توسّمتُ فيها شخصية مديرة المحطة القطرية، شابةٌ ذات حجاب أنيق، بزيّها الرسمي، تطلب مني البطاقة وجواز السفر، لتعود إليّ وقد أنجزت كلّ شيء وأنا لم أغادر مقعدي... إلى أن أهابوا بنا أن نتوجّه إلى حيث الطائرة تنتظر، وأقلّني في هذا المطار الرائع كرسيٌّ مدولب رابع!

وبدأت الآن المرحلة الأطول من رحلتي، طائرةٌ تفارق قارّة، تمخر بنا الفضاء، مجتازةً بحارًا ومحيطات، محلقةً فوق قارّة أخرى، وصولًا إلى قارّتي الأسيوية.

أعترف بأني لم أعانِ مشقّةً كبيرة في احتمال الساعات الثلاث عشرة، المتواصلة، قبل أن تحين لحظة الهبوط. كنت أترك مقعدي، بين الفينة والأخرى، لأمشي في الممرات المتاحة، كسرًا للرتابة وتحريكًا للجسد. وكم أفرحني أني نزلت أخيرًا في أرض عربية اسمها "الدوحة"، وإن كان كثير ممّن يتحرّكون فيها يرطنون بالعربية وبغيرها!

وما بال هذ الذي يودّع الركاب في باب طائرته، يلمح في يدي البطاقة فيوعز إلى منتظرٍ، فيفتح هذا عربته، ويعبر بي متّسَعًا من المكان، وينزل بي مِصعدا، ثمّ يمضي يقطع المسافات، والناس أراهم يتحرّكون في استعجال، وألمح "قطارًا" لا صوت له ولا حسّ ولا خبر، يكرج على سكّته هناك فوقَ مرتفع، يحمل أناسا ويعود بآخرين، وأنا أتعجّب مثل بدويّ ينزل المدينة لأول مرة... وركنت أخيرا، حيث ينتظر المغادرون إلى بيروت ساعة السفر.

لم يكن من عادتي أن أبادر بالوقوف في ممرات الطائرة، ساعة تحطّ على الأرض، أزاحم الركاب المستعجلين في النزول. أظلّ جالسًا مسترخيًا، ولم الاستعجال؟ الآن، والطائرة

الصــغيرة، الصــغيرة جدا، تتوقّف في مطار بيروت، تلبّثت، حتى بلغ الزحام نهايته، فقمت أطلب حقيبتي اليدوية من الخزائن العلوية، ســحبتها بقوة، فهي تزن ســبعة كيلو، فتراءى لي أنها... أنها تغيّرت! هذه تُشــبه حقيبتي، حجمًا ولونا، لكنها تفتقد "اليد" المخفيّة فيها التي إن سحبتها تمكّنت من جرّها. فتحت السحّاب، فبانت لي فيها أشياء "نسوية"، حذاء، جزمة ذات ساق مزركشة: لقد أخذت صاحبتها حقيبتي بالغلط... لم تنتهِ الرحلة على خير!

هُرعت، والمكان أوشــك أن يكون خلويّا، إلى أحد المضــيفين على باب الطائرة. تجاوب الرجل، بأن أخذ مني الحقيبة الملتبسة، وأعجلنا الخطا، لا كرسيًّا مدولبًا أرتاح فيه، ولا أسمر أو أسيويّا يدفع!

في الصـــالة، حيث وقف الناس أمام الكُوى المختلفة، هذه للســوريين وتلك لغيرهم، وخلف كلّ واحدة يقبع موظفُ أمن، يتناول جواز السـفر، ويضرـب على الحاسـوب، ويختم، فهذا عابرٌ آمنٌ وأمين! درت أنا والمضـيف القطري، بين المنتظمين صـفوفًا: لا أثر لحقيبة تشبه هذه التي بين أيدينا! وتركني المضيف معتذرًا ومضى. هُرعت إلى رجل أمن يتجوّل. اجتهدت في أن أشرح مشكلتي:

أحدهم، إحداهنّ، أخذت بالغلط حقيبتي لحظة نزولها من الطائرة. قد تكون أنجزت الآن أمرها عند الأمن وخرجت إلى الصالة هناك لتأخذ حقائبها الكبيرة من البساط الدائر! اسمح لي بالذهاب، أرجوك!

تأمّلني الرجل قليلا... ثمّ طلب مني جواز سفري "رهنًا" وهو يقول: تفضّل!

زاغت عيناي هناك. بساط يستقبل حقائب من هذه الطائرة أو تلك، وهذا بساط لحقائب القادمين من الدوحة. ليس بين المنتظرين، المنتظرات، من تحمل "حقيبتي"! عدت -وحقيبتها في يدي- مخيّب الرجاء، أستردّ جواز سفري.

سوريٌّ من الواقفين، بدا أنه لاحظ ما يتبدّى عليّ من قلق، يتقدّم مني وقد آلى على نفسه أن يساعدني، ما أطيب السوريين! جدّدت البحث في صالة الأمن، وهو إلى جواري، يقول لي: «هذه؟ »، فأجيبه: «لا! »... إلى أن وقفنا إزاء عربة تعلوها حقيبة مشابهة! قلت للرجل: «لو تقرأ الاسم على البطاقة! »، تلك التي كانت ابنتي قد كتبتها بالإنكليزية ونحن في مطار اورلندو وعلّقتها، فأتاني منه صوت رخيم: «Fadel Sibai... هل هذا اسمك؟ ». قلت للمرأة بقليل من الكياسة: «كيف تأخذين حقيبتي، وتَدَعين لي حقيبتك! »، وتركتها لحيرتها ومباغتتها وهي تتأمل ما ألقيت في عربتها، وعدت أشكر الصديق الذي أعانني.

وتذكّرت، بعد هذه المعاناة، الكرسيّ المدولب. سألت أحد العاملين، فتنصّل قبل أن يُحيلني إلى تلك الموظفة، المتصدّرة هناك، تُغيّب عينيها وراء نظارة سوداء، أجابت: «الأمر يحتاج إلى "طلب"، أنت تأخرت في تقديمه! »، ولما أخذت أشرح، تشاغلتْ فألجأتني إلى الذهاب.

وقفت، أخيرا، أمام كوّة شاغرة، بدا لي رجلُ الأمن وراءها "مُروّق" يتأمل. سألته في أمري، فأحالني إلى الكوّة التي ما زال يصطفّ أمامها "السوريون"، فبيّنت له مشكلتي وما عانيت من رَهق بحثًا عما افتقدت، فأشفق، وأخذ يضرب في الحاسوب استدعاءً لاسمي، ما إذا كنت "مطلوبا" أم أني أتمتّع بالبراءة! وفجأة رفع صوته بنَزَقٍ لبنانيّ نعرفه: «ما شفت أغرب من اسمك، أضرب فتطلع لي أشياء عجيبة! »، فتبسّمت له أحاسنُه القول: «كيف؟ اسمي ظريف. فاضل السباعي. ويقولون إني معدود بين الكتّاب. نشرتُ بعض كتبي في بلدك، موطن الأرز، لبنان! »، فأخذ يتأمّلني صامتًا، ثمّ "طَجّ[٣٣]" الختم على جواز السفر.

لم يطُل انتظاري عند البساط الدائر، فالتقطت حقيبتيّ الاثنتين، غير مستبدَلتين، وجعلتها

---

(٣٣) ضرَبَ

على ظهر عربة، ومضيت أدفعها -ولا أحد يدفع بي الكرسي المدولب! - نحو باب الخروج.

وكان في انتظاري أمام باب المطار صديقٌ لابني، "أسامة"، سوريّ يعمل في لبنان، وبجواره سائق سيارة سوريّ يعمل "على الخط" اسمه "أبو عمر". تعارفٌ، وسؤال عن متاعب السفر. ودّعت، واتجه بي السائق نحو حدود الوطن.

في مدينة "شتورة" اللبنانية استأذن الرجل بالوقوف لحظةً أمام "سوبر ماركت"، ذهب وعاد مهرولاً. تراءى لي أن أسأله: «ماذا اشتريت، يا أبو عمر؟»، قال: «بعضهم يفضّل المالبورو الأحمر، والبعض علب المتّة!»، فكنّا كلما مررنا بـ"حاجز" يلقي التحية على العسكريَّ فيه بقوله: «مرحبا، يا كبير!»، ثمّ يناوله "المعلوم".

وعلى أبواب دمشق، في مطالع "اوتوستراد المزّة"، كان ابني "فراس" ينتظرني، فليس لسيارات السفر أن تتجوّل في شوارع المدينة وصولا بي إلى بيتي. وآن لي أن أودّع آخر "رفاق الرحلة"، أبو عمر، الذي عرفت أنه "يتموّن" من المالبورو الأحمر وعلب المتّة قبل أن يدخل الحدود.

وهناك، كانت تنتظرني ابنتي خلود وابنُها الفنان التشكيلي "ماجد هنانو"، العائدان منذ قريبٍ من القاهرة، واللذان لولا وجودهما في بيتي لما عزمت على العودة إلى الوطن، وقد كنت كتبت وأنا فوق الأطلسي ذاهبًا إلى المغترب، يوم السابع من تشرين الأول ٢٠١٣:

والله،

ما فارقتك، يا وطني، خوفًا من عيونهم المبثوثة

ولا رَهَبًا من سيوفهم المسلولة

ولكن

لأنّ الأسرة التي أنجبتها على مدى نصف قرن ويزيد

قد تفرّق أفرادُها في كلّ اتجاه

ولم يبقَ لي بدمشق من إذا انتابني وجعٌ يمدّ إليّ يده بكأس ماء.

والتُقِطت صور لي لحظة دخولي حديقة بيتي.

وأما حفنة الياســمين، التي كنت قطفتها هنالك، فقد نثرت أزهارها الذابلات فوق تربة الياسمينة – الأم، في أرض الوطن.

ودخلتُ، تعانق عيناي أنفاس "وطني الأول"، بيتي الحميم.

دمشق الشام: صباح الجمعة ١-٨-٢٠١٥

أرخص الأرواح

أصبح مؤكدًا

أنّ أرواح السوريين، اليوم، هي الأرخص في العالم

يذهبون إلى الموت بطَرفة عين

ثمّ ينفرد أهلُهم بالبكاء عليهم ومعاناة الأحزان

دمشق الشام: الإثنين ٣-٨-٢٠١٥

نومة أهل الكهف

مثلما يصعب على المرء أن يجلس في العتمة ساعات، تبينتُ أنه يصعب عليه كذلك أن يجلس في وَضَح النهار دون كهرباء، فلا جهازَ يخفّف عنه الحرّ ولا فيسبوك يتيح له التواصل مع العالم.

وفي ذلك تلقيت من صديقة مرحة تساؤلَها: «بس بدّي أفهم ليش تركت أمريكا وجيت للبلد! »، فكتبت لها، جادّا ومجاريًا لها في المزاح: «شوقًا للوطن، ولمكتبتي، وإلى... بعضهم!

».

ثمّ كان أن تعايشت مع هذا الوضع. فكلما قطع وزير الكهرباء التيار عن حارتي، توجّهت إلى غرفتي تُراود عيناي النوم، وأنهض لحظة تصافح وجهي أنسامُ المروحة، ولا يطول ذلك، فإني محظوظ بأنّ بيتي قريب من مكاتب القصر.

ولكن... هل على أهل حلب، الذين تنقطع عنهم الكهرباء أيامًا وأسابيع. أن يناموا نومة "أهل الكهف"؟

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٤-٨-٢٠١٥

مروحة كرتونيّة في سقف المكان

في ثلاثينيّات القرن الماضي، وكنّا نسكن في "زقاق الزهراوي" في "حيّ وراء الجامع" بحلب، كان أهلنا يبعثوننا إلى حلاق الحارة، القريبِ محلُّه من الباب الشمالي للجامع الأموي الكبير، مجاورًا لصيدلية الكيالي الشهيرة في زمننا.

واتفق أن توجّهت يوما، وأنا في نحو العاشرة، إلى محلّ هذا الحلاق، وبرفقتي أخي الأصغر "عادل"، حيث تولى "المعلم" قصّ شعري وترك أمر أخي لأجيره المتدرّب.

وبينا أنا أتملّى النظر في المرآة أمامي من هيئتي، مغطّى الكتفين والصدر بتلك الفوطة البيضاء، رأيت المعلم -الذي كان يُلعّب المقصّ قريبًا من أذني- يتوقف فجأة، ملتفتًا إلى أجيره، الذي بدا مرتبكًا ومنهمكًا، وقد أتى، في تلعيبه مقصّه، على جانب من أذن أخي ابن السادسة، فهو الآن يأخذ القطن ويمسح قطرات الدم. فما كان من المعلم إلا أن جعل يسبّه: «يا حيوان! قصّيت إدن الولد! »، ثمّ يترك ما في يديه من أدوات، وينهال عليه بالضرب، مختلسًا في ذلك النظر إليّ وكأنه يقول: «هأنذا أعاقبه، يمشي الحال! »، وأخي الصغير يقول مشفقًا: «معليش،

معليش، ما وجعتني ادني! »، ذلك أنّ ما كان لا يعدو جرحًا طفيفًا.

إنّ ما استدعى هذه الحادثة إلى ذهني، وقد مضى عليها خمسة وسبعون عامًا ويزيد، أنه كان في محلّ هذا الحلاق وعند نظرائه من الحلاقين في البلد، "مروحة" كرتونية، هي لوح من المقوّى كبير، يُعلّق بالسقف، وقد رُبط أدناه بخيط، يمسك بنهايته تحت أجيرٌ يشدّ ويُرخي، فتتحرّك الكرتونة جيئة وذهابا، مثيرةً الهواء في المكان، مخففةً من حرّ الصيف.

في انقطاع الكهرباء في بلدي، اليوم... هل أركّب "مراوح كرتونية" في سقوف بيتي؟ ولكن من ذا الذي يحرّكها يمنة ويسرة، مثيرًا هواءً يخفّف من معاناتنا من حرّ شهر آب اللهّاب؟!

دمشق الشام: فجر الخميس ٦-٨-٢٠١٥

مصوّر المقهورين في "مونمارتر"!

هل كان من حُسن حظّ الفتى، الذي يُضمِر موهبةَ فنان تشكيلي، أن يكون أحبَّ الأصدقاء إلى مَن يشغَل أبوه منصبًا أمنيًّا مرموقًا!

أم أنّ من سوء حظّه أنه رافق الابنَ يومًا، في نزهة بالسيارة التي أخذها من وراء ظهر أبيه، فوقعت لهما حادثة، لم يُصبهما فيها أذًى، ولكنّ الأب -الذي كان شديدًا على الناس يزجّهم في المعتقلات- أمر بحجز ابنه "المخالف" في زنزانة، شاء ألا ينفرد بها وحده، فاستضاف معه صديقَه الحميم الذي كان يجلس إلى يمينه في أثناء وقوع الحادثة المشؤومة!

وقد تجرّع الفتى، المرهف، الأمَرَّين، في تلك الليلة الليلاء، من ذلّ المهانة والانكسار ومن إحساسه بفقدان المنطق والعدل والأمان، ما بقي ثاويًا في نفسه لا تمحوه الأيام، وكان الصديق، الصدوق، في إشفاقه عليه وهما في الزنزانة، ينضو عن نفسه بعض ما يرتدي ويضعه عليه وقايةً له من البرد القارس، مرددًا على مسمعه كلّ عبارات الأسف والاعتذار.

من ذلك اليوم كره الفتى العسكر، وبذلاتهم، وبَذْلَهم الموعود للوطن، وزهد بالعيش على الأرض التي اكتحلت فيها عيناه بالنور! فلمّا أنهى تحصيله، وقد توافق ذلك مع بداية الأحداث في البلد، حمل مكوّنات فنّه، ورحل بعيدًا عن الوطن، وهو اليوم من أولئك المتسكّعين في "ساحة مونمارتر" يرسم، يُصوّر المقهورين، والسيّاح القادمين من كلّ أصقاع الأرض.

وأمّا صديقه الحميم ذاك، فقد اختار أبوه -الذي تقاعد- لنفسه ولأسرته العيش في أجمل عواصم الدنيا، يصادف أن يلتقي به في "الشانزليزيه" ولا يكلم أحدُهما الآخر، فقد أصبحا بعد أحداث الوطن مختلفين رأيًا.

دمشق الشام: فجر الأحد ٩-٨-٢٠١٥

بريد زمن الحرب

تلقّيت منذ قريب من صديق في دولة عربية، رسالة يسألني فيها أن أسمّي عملا أدبيّا لي ليقترحه نصّا روائيّا يُدرّس للطلاب في مدارس الحكومة التي يعمل فيها أستاذا للعربية وأنه عضو في اللجنة التي تنظر في هذه المقترحات.

نزلت أمس، ساعة الضحى، من بيتي إلى مركز المدينة، وكان هذا أول مرة منذ عودتي للوطن، مشتاقًا لأن أشاهد، ولو في هذا الحرّ اللاهب، حركة الحياة اليومية في عاصمة بلادي، وأتيح لي أن أشمّ رائحة النبات وعبير الأزهار، تلك التي تطلّ عليّ وأنا أسير على الرصيف تحت سور مباني رئاسة الجامعة، وفي يدي رزمة صغيرة أريد إيداعها البريدَ المركزي، لم أُحكِم إغلاقها تمكينًا لرقيب المطبوعات من أن يطّلع عليها ويختم بالإذن بالإرسال.

على باب مبنى البريد يسألني رجل الأمن، فأجيب، فيعْلمني بأنّ موظف الإعلام "علي" قد ذهب، ويوجّهني إلى حيث رئيسُه في الطابق العلوي. وهناك أعلمتني موظفتان بأنّ "علي" هنا

-رئيس علي التحتاني- قد أنجز ما عليه من رقابة المطبوعات الواردة اليوم وانصرف، فأعلنت احتجاجي، كيف يغادر موظفان مقرّهما عند الثانية عشرة ويعطّلان أعمال المواطنين! فأشفقت عليّ إحداهما، وأخذت الهاتف، توصي بي موظف الإعلام، الثالث، الذي في "الطرود البريدية" تحت، وكان اسمه بالمصادفة "علي"! ومع سروري بالوساطة الخيّرة أحببت أن أمازحهما، وإني أعرف أنّ جنسهنّ يحبّ المزاح، فجعلت أقول: «واسمه أيضا "علي"؟ وأنت اسمك "عليّة"؟ وأنت "علياء"، وأنا... سوف أتسمّى "عليّ" منذ ضحى غد! ».

ظننت أنّ "علي الطرود"، ينتظرني، ولكنه فاجأني بأنّ شغلتي عند علي الأول أو الثاني، وأنّ عليّ أن آتي غدا! فوجدتني وقد ارتفع صوتي، أحتجّ وأندّد... بأن ينصرف اثنان من الموظفين قبل ساعة الانصراف، وتقول لي أنت: تعال غدا! بيتي بعيد... وفي هذا الحرّ... لا تراعي عمري... لم أعد أذكر ما قلت! وكان "علي" هذا ينظر إليّ مفترّ الثغر وكأنه مسرور بأن أثار انفعال مواطن في مثل حالي! ثمّ... رأيته يُخرج "العُدّة"، يملأ لصيقة، ويُثبتها على الرزمة، دون أن يفتحها، ويختم!

استقبلتني "موظفة المسجَّلات" من وراء الكوّة بابتسامة ودودة، فأنا زبون عندها قديم، وكان من بالغ لطفها أن استأذنت مَن يتقدّمونني، فلم يعترضوا على أن تتجاوز بي "الدور"، وترتّب عليّ أن أدفع الرسم عشرة أمثال ما كان، وآخر ما سمعت منها أنّ البعيثة سوف يتسلّمها المرسل إليه في غضون عشرين يومًا.

أعترف بأنّ لطف هذه الموظفة، وقبل ذلك عونَ الموظفتَين الأُوليَين، وتسامحَ المصطفّين بالدور، قد أنستْني هذه كلُّها حرَّ آب (أغسطس)، وانصرافَ العلَيّين قبل نهاية الدوام، وقولةَ علي الأخير أن آتي غدًا، وارتفاع رسوم البريد، وتباطؤَ وصول البعيثة!

دمشق الشام: فجر الإثنين ١٠-٨-٢٠١٥

لأنه الوطن

لا كهرباء عندي، ولا نِت

وأفاجأ، عند الصباح، بماء الفيجة مقطوعًا

ولكنهم رأفوا بحالي

إذ تركوا لي خطّ الهاتف موصولًا

لا أشعر بكثير من الاكتئاب

بل ببعض الراحة

لأنّ حالي أصبحت تقترب من أحوال أهلي في الوطن

ولست بنادم على أني تركت هنالك

الليلَ المنوَّر

والماءَ المبرّد

واللقمةَ المتاحة

والفراشَ الوثير

والأمن والأمان

فإنّ الوطن

على ظلمه وظلامه

وجوعه والعطش

هو الأحبّ

لأنه... الوطن

دمشق الشام: عصر الجمعة ١٤-٨-٢٠١٥

وتلقّى الغَرْبُ الفلسفة اليونانية من العَرَب!

لم "يُصدّر" العربُ الفلسفة اليونانية إلى الغرب، ولكنّ الغرب تلقّاها من العرب، يوم صحا على فكر الأندلسي ابن رشد المفسّر الكبير لفلسفة أرسطو.

ومع صحوة الكتّاب الغربيين، التي جاءت متأخرة قرونًا، تهمّموا وطلبوا الأصول لكتب هذه الفلسفة، فافتقدوها بلغتها الأصلية، لأنّ المسيحية في القرن الرابع الميلادي كانت قد وأدت مصنفاتها في الأديرة النائية. وعندما أشار المترجمون السريان على الخليفة العباسي أن يجعل في تبادل الأسرى مع دولة الروم كتبَ الفلسفة، تلك المدفونة في أقبية الأديرة، تردّد الروم البيزنطيون بادئ الأمر في الاستجابة، قبل أن ينتهوا إلى الموافقة ظنًّا منهم أنها تفسد الدين، فوصلت إلى "بيت الحكمة" ببغداد أحمالٌ من هذه الكتب على ظهور الجمال.

لقد سلكتَ، يا إلياس هيمو، في ملامستك المسألة طريقا تنقصه المعرفة والنزعة العلمية، وكانت فظّةً تلك العبارة «اسمعوا يا عربان، ليس لديكم أي فضل في تقدم الحضارات الأخرى». لك أو لغيرك، فكشفتْ عن "عنصرية" فيها تمّ إطلاق النار على الموضوعية العلمية!

وليتك تطلع على ذاك الكتاب الذي تولّيتُ نشره (بدمشق عام ١٩٩٧) وعنوانه "فضل الأندلس على ثقافة الغرب" تأليف عميد المستعربين الإسبان في أيامه البروفسور خوان بيرنيت[٣٤]، وقد غمرتُه بتعليقاتي في الحواشي وفي المتن أيضًا!

---

(٣٤) المؤرخ الكبير. توفي في برشلونة سنة ٢٠١١م.

دمشق الشام: مساء السبت ١٥-٨-٢٠١٥

يا أشرار العالم!

يا أشرار العالم!

ارفعوا أيديكم عن سورية...

دمشق الشام: صباح الأربعاء ١٩-٨-٢٠١٥

«الماعون» باللهجة الحمصيّة!

كنت أول الأحفاد لجدّي "سليم المفتي السباعي"، القادم من حمص أيام "السفر بَرْلِك[٣٥]" عام ١٩١٥ إلى حلب مقيمًا فيها.

وممّا كنت أحظى به من محبّته أنه كان يناديني في بعض الصباحات، ولي من العمر أربع أو خمس سنوات، طالبًا مني أن ألحق به إلى باب الدار وفي يدي "الماعون"!

وكنت أقول له كالمعاتب وأنا الذي أتربّى على اللهجة الحلبية: «جدّو! ليش بتقول "ماعون"؟!».

فكان الجدّ الحمصي يضمّ إلى صدره حفيده الحلبي الصغير، وهو يردّد قولته التي سأظلّ أذكرها إلى يوم الممات: «أبوس حجر عينك!»، فممّا كان يزيد في محبّته لي أني أشبه -كما يقول- أباه!

وأما الماعون باللهجة الحمصية، فهو الإناء ذو السعة والعمق، يملؤه لنا الحلاب على الباب

---

(٣٥) وتعني بالتركية النفير العام والتأهب للحرب، وهو فرمان أصدره السلطان العثماني محمد رشاد عام **١٩١٤**م، يعتبر كل شخص من مواليد ما بين (**١٨٦٩ . ١٨٨٢**) في أراضي الدولة العثمانية من المسلمين وغير المسلمين، مطلوباً للخدمة العسكرية.

حليبًا من ضروع الأمْعُز اللواتي يسرح بهنّ في أزقة الحارة.

دمشق الشام: فجر الجمعة ٢١-٨-٢٠١٥

وتمرّ الصواريخ من فوق رؤوسنا

كنا جالسين منتصف الليل في الحديقة ننعم بالأنسام الرقيقة.

فجأة سمعنا أصوات قذائف تُطلق من بعيد. أرهف أحدنا سمعه، ثمّ قال: «المقاتلون يُطلِقون من "ضاحية جوبر"!».

ولم نفاجأ بعدها بإطلاق صواريخ أقوى فهي أقرب إلينا. قال عارفٌ بالأمور آخر: «هذه تُطلق من ورائنا من قمّة "جبل قاسيون"، على جوبر!». وتراءى لنا أنها تمرّ من فوق رؤوسنا!

ومن المؤلم أننا استأنفنا الحديث الذي كان.

في اليوم التالي عرفنا أنّ الحصيلة: عشرة قتلى في دمشق بفعل قذائف جوبر، وخمسة وثلاثون في جوبر بفعل قذائف قاسيون.

هل هو قَدَر أمّتنا، أم أنه قَذَر العالم!

دمشق الشام: مساء الأحد ٢٣-٨-٢٠١٥

اغمسْ قلمَك بالحبر واكتب

قرأت في الرسائل فجر اليوم:

كيف يتوقّعون مني الرضا بأن يحكمني مَن حصدوا الملايين وأودعوها بنوكَ العالم، وتركوني -أنا مَن يسمّونه الكاتبَ أو الفنان المبدع- على قارعة الوطن، أعاني العيش خارج حدود الأمان؟!

فكتبت له:

اغمسْ قلمَك بالحبر، وريشتَك بالألوان... ولسوف يكون صوتك أقوى، أيها المبدع النبيل!

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢٤-٨-٢٠١٥

من ميشيل وجوزفين ربّاط إلى فاضل السباعي

أستاذنا وكاتبنا العظيم، مرحبًا بك.

أنت الأديب الذي وجب أن تكون أخبارك على كلّ لسان من وقت طويل، من يوم خطّت أناملك رواية «ثم أزهر الحزن»، تلك الرواية كانت كافية لتجعلك في مرتبةٍ واحدة مع نجيب محفوظ، علمًا أنها أقوى من نصف مؤلفات نجيب محفوظ.

لقد كنا نتوقع منذ ستينات القرن الماضي، بعد قراءة «ثم أزهر الحزن»، أنّ الصحافة والدور الأدبية ستعطيك الاهتمام الذي تستحقّه، ولكن يبدو أنّ ما حصل معك هو نفس الشيء الذي حصل مع الشاعر أحمد رامي، الذي أضاع عمره موظفًا في دار الكتب المصرية مجهولًا، حتى جاءت شهرته على يدَي أم كلثوم وبعدها الصحافة الفنية وليست الصحافة الأدبية.

ندعو لك بالصحة وطول العمر يا أديبنا الكبير.........

(زيوريخ): الأربعاء ٢٦-٨-٢٠١٥ س ٦: ٠٠ مساءً

- -

شكرًا للصديقين الجميلين اللذين أسعد بالتعرّف عليهما.

وأرجو أن يعلما أنّ عودتي من الاغتراب القصير إلى الوطن الأمّ كان- بعد الشوق- العملَ على تجميع فصولِ كتب لي مغيّبة في الأدراج وإعدادِها للطباعة، وفي مقدمها الطبعة الرابعة

لرواية "ثمّ أزهر الحزن"، ادعوَا لي بالتوفيق في هذه الظروف القاهرة.

شكرًا جزيلاً للزوجين السعيدين على حُسن الرأي والمبادرة إلى التعبير.

دمشق الشام: مساء الخميس ٢٧-٨-٢٠١٥

وممّا يجعل الناس في وطني

وممّا يجعل الناس في وطني

يتحرّكون في حياتهم اليومية

غير عابئين بخطر الموت

ولا متّخذين كثيرًا من أسباب الحيطة والحذر

أنّ القذائف والصواريخ

تأتيهم هائمةً على وجهها

غير مستهدِفةٍ فئةً معيّنة

ولا مكانًا محدّدًا...

دمشق الشام: فجر الجمعة ٢٨-٨-٢٠١٥

أفكار مؤجّلة!

حَلَمت بأني كنت أتحدّث إلى صديق من كتّاب السيناريو عن أفكار تراودني أنوي أن أجعل منها مسلسلاً تلفزيونيًّا، وطنيًّا سياسيًّا... وفجأة، وجدتُني أكفّ عن الحديث، خشيةَ أن يسرق مني الفكرة!

عند الاستيقاظ جعلت أحاور نفسي: طيّب، ماذا لو أنه أخذ الفكرة وصنع منها مسلسلاً

يحمل اسمه، ما دامت الفكرة ستصل إلى الجمهور الذي أسعى لمخاطبته! ثمّ كم من السنين يُقَدَّر لي أن أعيش؟ وما النور الذي بقي في العينين؟

وعزمت على أن أهدي إليه كلّ أفكاري المؤجّلة.

ولكنه... كان... قد رحل!

دمشق الشام: فجر السبت ٢٩-٨-٢٠١٥

إلى الذين انتابهم الفرح

إلى الذين انتابهم الفرح لأنّ الاتحاد الأوروبي وسّع من مجال لمّ شمل المهاجرين السوريين إلى بلاد أوروبا...

إنّ ذلك سوف يؤدّي إلى أن يزداد فراغ سورية من سكانها!

دمشق الشام: مساء الأحد ٣٠-٨-٢٠١٥

إلى أصدقائي في الشبكة العنكبوتية

أحبّ أن أبيّن أني ما زلت، منذ بداية الانتفاضة، أكتب الخواطر حول الأوضاع وأنشرها في صفحتي، مثلما كنت بدأت -في ستينيات القرن الماضي- بكتابة القصص والروايات التي تتّسم في نقدها بالشفافيّة غالبًا، وأنشرها في الدوريات العربية وأحيانًا في المجلات المحلية، قبل أن أودِعها كتبًا تضمّ نتاجي الأدبي وأنشرها في الوطن على نفقتي.

وإنما أريد أن أذكّر الأصدقاء الكرام بأني أستظلّ سماء الوطن وإنْ أمطرتني، وأمشي على أرضه وإنْ تزلزلت تحت الأقدام، فلا يعنُفوا في تعليقاتهم عندي، وأن يتلطّفوا فيقتصدوا في القول والرأي والحميّة.

دمشق الشام: صباح الإثنين ٣١-٨-٢٠١٥

بطاقة (C V)

فاضل السباعي

• وُلد بحلب (عام ١٩٢٩) في حيّ وراء الجامع الأموي الكبير، وهو الابن الأول لـ"أبو السعود السباعي" الذي أنجب تسعة عشر من البنين والبنات.

• درس الحقوق بجامعة القاهرة.

• عمل محاميًا، فموظّفًا في وزارات الدولة، قبل أن يطلب إحالته على التقاعد (١٩٨٢) وهو مدير في وزارة التعليم العالي، ليتفرّغ للكتابة.

• أسّس بدمشق (١٩٨٧) دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، ولها جناح في المعرض الدولي للكتاب بالقاهرة.

• عضو مؤسّس في اتحاد الكتّاب العرب بدمشق (١٩٦٩)، ومقرّر جمعية القصة والرواية في الاتحاد لستّ دورات.

• له بضعة وثلاثون كتابًا، طُبع بعضها غير مرة.

• أصدر سلسلة "شهرزاد الـ٢١" قصصًا للصغار والكبار. ويُصدر سلسلة "الكتاب الأندلسي"، التي استهلّها بكتاب من تأليف شيخ المستشرقين الإسبان البروفسّور "خوان فيرنيت" بعنوان: "فضل الأندلس على ثقافة الغرب"، والكتاب الثاني "الأندلس في عصر بني عبّاد، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة والاقتصاد" تأليف الباحث المغربي د. أحمد الطاهري.

•تُرجمت بعض قصصه إلى عشر لغات، منها: الفرنسية والإنكليزية والألمانية والروسية والفارسية وغيرها.

• صدر كتابه "بدر الزمان" مترجمًا إلى الإسبانية (١٩٩٩)، وكتابه "حزن حتى الموت" مترجمًا إلى الفرنسية (٢٠٠٢) في باريس.

• أعدّت المستعربة البولونية "بياتا سكوروبا" أطروحة عن روايته "ثم أزهر الحزن" ونالت عليها درجة الماجستير من جامعة كْراكوف. وأعدّ المستعرب السويدي "فيليب سايار" أطروحة عن أدبه عنوانها "رسالة في فنّ الفانتازيا في قصص فاضل السباعي" نوقشت بجامعة استوكهولم.

• تحوّلت روايته "ثم أزهر الحزن" إلى مسلسل تلفزيوني تحت اسم "البيوت أسرار".

• يَعُد نفسه من أنصار حقوق الإنسان ومن المطالبين بعودة مؤسّسات المجتمع المدني، وهو واحد من المثقفين السوريين الألف الذين وقّعوا عريضة ما سُمّي "ربيع دمشق ٢٠٠١".

• اعتُقل في عام ١٩٨٠ إثر لقاء مع طلاب كلية الآداب بجامعة حلب، قرأ فيه قصته "الأشباح" (ضمّتْها فيما بعد مجموعته: "آه يا وطني! ").

•أنجب ثلاث بنات (سوزان، والفنانتين التشكيليتين سهير وخلود) وابنًا (فراس)، وهو جدّ لعشرة من الأحفاد والأسباط، أنجبوا ستة أبناء.

• غادر البلاد في تشرين الأول/ اكتوبر ٢٠١٣ إلى حيث معظم أفراد اسرته في فلوريدا/ الولايات المتحدة الأمريكية متجنّسين ومقيمين، متابعًا نشاطه في شبكة التواصل الاجتماعي، وعاد إلى حضن الوطن عصر الإثنين الثامن من حزيران/ يونيو ٢٠١٥.

دمشق الشام: الثلاثاء ١-٩-٢٠١٥

القذائف فوق رؤوسهم، وهم يتابعون أكل الصبّارة

قبل أيام كتبت قصة بعنوان "النوم تحت ظلال الياسمين" ورد فيها أنّ صاحب البيت،

المضيف، تفقّد ضيفه الذي تأخر في العودة... تقول القصة على لسان راويها:

- - - - - - - - - - - - - - - - -

الذي وقع أني بدأت أسمع، بُعيد ذهابه، أصوات القذائف تترى في سماء العاصمة، فانتابني قلقٌ عليه، مع أنّ الخطر يتربّص بنا في الحدائق والشوارع والبيوت المحصّنة على حدّ سواء. فقمت أهتف إليه أستدعيه، ولكنّ الجوّال يجيبني بأنّ الخطّ خارج التغطية! فأين ذهب الرجل؟ وهل حملوه من روضة الشاعر أبي العلاء المعرّي، التي ذهب يتريّض فيها، إلى حيث ابنُه الموقوف أمنيًّا؟

فتوجّهت إلى روضة أبي العلاء (وهي مجاورة لبيتي)، فرأيت الناس فيها يحرسون بأنظارهم أطفالهم الذين يلعبون أمام أعينهم. وعلى الأرصفة هناك كراسي وطاولات، و"تين الصبّار" مقشّرًا منتظمًا صفوفًا فوق ألواح الثلج الأبيض... والناس لا يتوقفون عن أكل التين، وأنظارهم مرفوعة إلى السماء وكأنهم يشكرون الله لأنّ هذه القذيفة، أو تلك، لم تنزل فوق رؤوسهم!

الأربعاء ٩-٩-٢٠١٥

لم أُنزّل القصة في صفحتي بعد، انتظارًا لأن تُنشر أولا في تلك المجلة التي تصدر كل شهر بانتظام.

دمشق الشام: ليل الأحد ١٣-٩-٢٠١٥

أيها الغرب!

أيها الغرب!

هل أنت "غبيّ" إلى هذا الحدّ؟

أم أنك خبيث ماكر يتغابى؟

*برز الثعلب يوما = في ثياب الواعظينا

ومشى في الأرض يَهدي = ويسبّ الماكرينا!*

ولكنك... لا تسبّهم!

دمشق الشام: صباح الإثنين ١٤-٩-٢٠١٥

أنا لم أهجرك، يا شام!

أنا لم أهجرك، يا شام!

أنا سافرت حقًّا...

لكنْ إلى حيث يقيم أبنائي قبل الحوادث والأحداث...

وما انبسطت...

فعدت إليكِ

يُغرقني الحنين وتملأ صدري الأحلام...

أعدك بألا أفارق ثراك أبدًا...

دمشق الشام: عصر الثلاثاء ١٥-٩-٢٠١٥

هم يعرفون!

وظلّ رئيس اتحادنا حريصًا على استبعادي من المشاركة في أيّ من المؤتمرات الأدبية التي تقام داخل القطر وخارجه، طوال الثماني والعشرين سنة التي تتابع فيها حكمه للاتحاد، على حين كانت العطايا والهدايا توزّع على كتّاب لا تصل قامات كثير منهم إلى كتفي!

وعندما رفعنا الصوت، الصوت السلميّ، نطالب بالعدل ونبذ التحيّز والتهميش، سارعوا إلى اتّهامنا: «نعرفكم، أيها المتآمرون كونيًّا، يا من تنوون قهر الأقليّات في الوطن! ».

دمشق الشام: عصر الأربعاء ١٦-٩-٢٠١٥

الشمس والحرية

بعد أن طالت معاناته من غياب الشمس، وهو مرميّ قريبًا من القطب، فإنْ ظهرت بدت شاحبةً لا تُدفئ جسدًا ولا تروق لعين،

ولحظة قُدّر له أن يجتمع بأهله، تحت الشمس في مدينة "مرسين" التركية، في "لمِّ شملٍ" عابر، أخذ يردّد وهو يعانقهم فردًا فردًا، بصوت عال وكأنه يخطب: «الشمس هي الحياة! »،

ناسيًا، إلى حين، قضيّة الحرية.

دمشق الشام: فجر الإثنين ٢١-٩-٢٠١٥

مهندسة وأديبة في حلب... تعانق أناملها القلم... فتكتب في أدب الحرب، أدب الألم الدامي!

دمشق الشام: فجر الثلاثاء ٢٢-٩-٢٠١٥

في بيت الكَنّة.. في بيت الصِّهْر

بعد أن قرأ، أمس، خاطرتي "الختيار الشغوب"، قام يهتف إليّ من مهجره البعيد، ليُحدّثني عن أنه حين غادر الوطن إلى حيث يقيم ابناه الاثنان، وقد ظنّ هو وزوجته أنّ العيش يطيب لهما، مدةً في بيت ابنه "عماد" مع الكنّة والأحفاد، ومدة بعدها في بيت ابنته "وداد" مع الصهر والأسباط...

يقول، و"المفردات" له: إنه رأى من "العَنْطزة" في بيت ابنه تحريضًا من الكنّة لزوجها عليهما، ومن "الغطرسة" في بيت ابنته ضِيقًا من الصهر بهما، ما جعله يبادر إلى شراء منزل في هذه المدينة التي كان قضى فيها أيام تخصصه العالي وتجنّس، مستعينًا في ذلك بقرض من بنك يسدّد قسطه الشهري بما لا يتجاوز أجرة بيت... وأخذ يستقبل فيه الجميع، ضامًّا إلى صدره الأحفاد والأسباط، وقد بات يراهم أغلى ما في المهجر والوطن وكلّ ما في الدنيا.

وذكّرني بما يقال من وصف شعبيّ طريف للكنّة: "فسفسة[٣٦] المخدّة"، مبتدعًا من عنديّاته وصفًا للصهر "فسفوس الفراش"!

وتعالت قهقهاتنا تتردّد ما بين أمريكا والوطن، ساهين عن هدير القذائف... لكن إلى لحظات.

دمشق الشام: مساء الجمعة ٢٥-٩-٢٠١٥

حوار على إيقاع "كيس التفريك"!

بعد أن خرج من الخَلوة مغسولًا، وتناولت أمّه إخوته الصغار واحدًا بعد آخر، ثمّ أكلوا أرغفة الزيت والزعتر في "الوسطاني"، كان عليه أن يتلقّى عملية "التفريك" الصعبة في "الجوّاني"، ولم يكن بدّ من هذا الحوار تُجريه أمّه وهي تمرّ بالكيس الأسود اللعين على أعضائه كلها...

تقول وهي تنظر إلى كفّه:

ـ ما أوسخ يدك!

فيردّ معاندًا:

(٣٦) كناية عما توسوس به الكنة لزوجها، ويترك كلامها أثراً فيه.

- ما لها يدي؟

- عليها قنطار وسخ!

- بدأنا، يامو!

- "المعلمة" ع الباب، أَلله لا يعطيها العافية، قالت إنك كبرت ولازم تستحمّ مع الرجال! مَن يكيّسك[٣٧] متلي؟

- أبي.

- فو! ليش الرجال بيعرفوا يتحمّموا! تبلّ أَلْيَتَيك وتأتيني بوسخك!

- أنت لا تعجبك نظافة أحد إلا نفسك! (يتوجّع) آخ، يا مو! دعي يدي، خذي يدي الأخرى!

- هاتها، يا أوسخ ولد. الله أعلم، إن ظللتَ على كرهك للنظافة فلن تجد بنت تاخدك!

- لن أتزوج!

- أدر ظهرك.

- آخ، يا مو، هرأتِ لحمي!

- انظر إلى فتايل الوسخ تنزل منك!

- أمي، هادي مو فتايل وسخ، هادا لحمي، يامو!

- - - - - - - - - - - -

فقرة مختصرة من قصة "حمّام النسوان" (صيف ١٩٦٣)

وكتابي "حياة جديدة" (ط٣، دمشق ١٩٩٢)

---

(٣٧) ينظفك بكيس الحمام المعروف.

- - - - - - - - - - - -

دمشق الشام: فجر الأربعاء ٣٠-٩-٢٠١٥

- - - - - - - - - - - -

إضافة:

أصدقائي الذين يتذوقون الأدب ويحنّون إلى الأيام الجميلة.

كتبت هذه القصة وقدّمتها بصوتي من إذاعة حلب عام ١٩٥٦. وقد تأتّى لي أن أعرف مدى إعجاب المستمعين بها فعلتُ، حتى إن سيدة متقدمة في السن قالت لمن حولها بعيد الاستماع إنه لابد من أن يكون الكاتب "امرأة"! ونزّلتُ القصة في كتابي الأول "الشوق واللقاء" (ط١، حلب ١٩٥٨) بعنوان مختلف "الجزاء"! وفي صيف ١٩٦٣ كانت قد توافرت عندي مادة للتوسع، فأعدت كتابتها أضعاف أضعاف صورتها الأولى، ونزّلتها في الطبعة الثانية من كتابي "حياة جديدة" (بيروت ١٩٦٤) وفي الثالثة (دمشق ١٩٩٢) بعنوان "الحمّام".

همّت أديبة سورية تعيش في كندا بترجمتها إلى الفرنسية... ولكنها شكَت من افتقادها المقابل لبعض المصطلحات الشعبية الواردة في القصة، قالت: «دلّني، من أين آتي بالمقابل الفرنسي لـ"كيس التفريك"!»، وضحكنا في شبكة التواصل في صمت، وما تُرجمت القصة، التي يُقدّر أن تلقى من الابتهاج عند القراء الأجانب مثل ما تلقاه عند الأصدقاء الذين يحنّون إلى أيام "حمّام السوق": البقجة، اللكن وفيه البيلون[٣٨] المنقوع... والخناقة وراء باب الحمام أن الولد كبر «اي روحي هاتي أبوه!»...

---

(٣٨) البيلون -أو ما يطلق عليه الترابة الحلبية- هو عبارة عن صخور ذات لون أحمر ورمادي تشتهر بها محافظة حلب، وكانت قديما تستخدم إلى جانب الصابون الغار في الاستحمام من أجل صحة الشعر وجماله، إضافة إلى فوائدها في تنظيف البشرة.

وآه، يا زمن!

الساعة ١٢: ٠٠ ظ الأربعاء ٣٠

مثلما تألف الزوجةُ مزايا زوجها

مثلما تألف الزوجةُ مزايا زوجها حتى تكاد لا تراها، ويألف الزوجُ مزايا زوجته فلا يبصرها...

كذلك يألف الأبناء ما يتمتّع به أبوهم من مزايا الفكر والإبداع فيَكُفّون عن أن يرَوا، ولكنهم لا ينسَون أن يتباهَوا بما جناه من سمعة وشهرة! ولعلّ أحسن المعجبين به هم البعيدون عنه مكانًا وزمانا.

دمشق الشام: مساء الخميس ١-١٠-٢٠١٥

أتكون منابع النفط الغنيّة

أتكون منابع النفط الغنيّة

عند الدول الفقيرة

وبالاً عليها؟!

دمشق الشام: صباح الجمعة ٢-١٠-٢٠١٥

عندما يُضطهَد المواطن في وطنه الحبيب

عندما يُضطهَد المواطن في وطنه الحبيب

يكفّ الوطن عن أن يكون حبيبًا

يصبح بلدًا من البلدان ليس إلّا!

قصة "البحث عن وطن"

مجلة "العربي" الكويت، يوليو/ تموز ١٩٩٦

كتابي "آه، يا وطني! "، دمشق ١٩٩٦

دمشق الشام: فجر الإثنين ٥-١٠-٢٠١٥

عندما كنت أنتقد أمي!

في طفولتي الأولى كنت معجبًا بكلّ ما تقوله أمي.

لمّا كبِرتُ قليلاً بدأت أتحفّظ تجاه بعض أقوالها.

فلما مضيت في الدراسة، صرت أكتشف في كلامها أحيانًا منافاةً لما أتعلّم، فما تردّدت في تصحيح كلماتها، وأحيانًا أضيق بما تعبّر عنه من أفكار!

العجيب أني كنت أرى ابتسامات الرضا تُشرق في محيّاها الجميل، وأنا أنقدها، وأُفنِّد أقوالها، وأبيّن وجه الصواب... وتراءى لي أن أفسِّر هذا بفرحها لأنّ ابنها أصبح يفوقها معرفةً، فهي سعيدة بهذا "المثقف" الصغير الذي ينمو في ظلّ رعايتها.

دمشق الشام: ظهيرة الثلاثاء ٦-١٠-٢٠١٥

الجزء الرابع

٢٠١٥

خمسة أعوام قبل الرحيل

الطالب ذو "الخط الجميل"

عرفه زملاء المدرسة يكتب فيهم "التقارير"، ويقدّمها إلى حيث يأتي مَن يصحبهم إلى قاعات الدرس مرشدًا.

وسبقتْه سمعتُه إلى الجامعة، فتحاشاه الطلاب هناك، قبل أن يعلموا أنه أضاف إليهم الكتابة في حقّ أساتذته الذين يتلقّى عنهم العلوم والمعارف.

وقُدّر له أن يُبادل زميلةً له الحبّ، فلمّا اختلفا أخذا يتبادلان الكتابة "بالخطّ الجميل"، ولكن لم يستطع أحدهما أن يوقِع بالآخر، لأنهما كانا في مضمارهما متكافئَين.

وفي ذلك جعل زملاء الجامعة يتندّرون بأنه لو اختلف مع أبيه لكتب فيه، لولا أنّ أباه أسرع في الرحيل.

فلوريدا: فجر الجمعة ٢-١-٢٠١٥

رمية في كرة سلّة

فلوريدا ٣-١-٢٠١٥

كنت أمشي الهوينى، في الطريق الرئيس بالضاحية، تتناثر على جانبيه الفيلات، متراجعةً أمتارًا للفِناء وللزهر والشجر.

لمحت، في فناء ذلك البيت، أولادًا، سُمرًا وبيضَ البشَرة، يلعبون كرة السلّة بسلّة "واحدة"، يتداولون الكرة، ويُحوّمون، باذلين نشاطهم في هذا الأصيل الجميل.

فجأة... برز من بينهم مَن ينادي: «مرحبًا، جدّو!»، وأقبل عليّ. إنه "حمّودة"، ابن حفيدتي "ديمة" و"فرناس"، ويا لها من فرحة صغيرة اعترتني، وأنا أرى حفيدي يلعب مع هؤلاء

الأولاد المتبايني الأصول العرقية، يتآلفون في اللعب، مثلما يتشاطرون الحياة، هنا، في هذه الأرض الجديدة.

عانقته، وكأنني لم ألتق به منذ وقت طويل، مع أننا كنا أمس حول مائدة. عرّفهم بأني جدّه، ثمّ أسرع يصحّح بأني "جدّ أمّه"، فازدادوا تحديقًا بي!

دعَوني للعب، وقدّم لي الكرة فتى منهم أسمر. اعتذرت بأني نسيت اللعب بالكرة منذ أجيال. فطمأنوني بأنهم يسامحونني إن أخطأت الرمي، ويعتبرونها نقطة لي.

تناولت الكرة. أخذت أقدّر في خاطري الأبعاد. تقدّمت، مستفيدًا من امتداد قامتي (١٨٠سم قبل الشيخوخة!)، ورميت، فأصبت الهدف.

صفّقوا. هممت بأن أمضي. طلبوا مني هدفًا آخر. لم أستجب، حريصًا على أن أستمتع بهدفي الذي أحرزت.

ومضيت، وأنا أفكر: أعْراقٌ هنا تتلاقى، تتآلف... وفي وطني، أبناء أمة واحدة، "ذات رسالة خالدة"، يقصف مَن يملك السلاح، الناس حتى وهم نائمون في بيوتهم!

فلوريدا: فجر السبت ٣-١-٢٠١٥

الولدان "يصحّحان" للوالدين

تلقّى الوالدان اللغة الأجنبية في مدارس الوطن تلاميذَ وطلابًا، ثمّ منحتهما الغربة فرصة التحدّث فيها بطلاقة.

ولكنّ الولدين اللذيذين، اللذين أنجبا هنا، ما زال الصبيّ يهمس في أذن أبيه، والصبيّة تهمس في أذن أمّها: «بابا! ماما!... النطق بهذا الشكل غير صحيح... استعمال اللفظ هنا في غير موضعه...»!

والوالدان يتلقّيان "التصحيح"، وهما من الأعماق يضحكان.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٤-١-٢٠١٥

هل تسمحون لي أن أسترسل؟

تسمحون لي، أيها الأصدقاء، أن أتحدّث عن "حمّودة"؟

ذو ميول علمية هو، يطمح لدراسة الطبّ إمّا تيسّرت له الأمور، وهو يمارس فنونًا من الرياضات برع فيها بكرة القدم، التي يشارك بها في منتخبات الفتيان في المنطقة.

أحببت حمّودة منذ تعرّفت عليه يوم قدومي إلى وطنه الثاني هنا. كم وددت لو أجالسه، نتحدّث في الأدب، في الوطن الأمّ، أتبادل وإيّاه الأحاديث الحميمة، لولا أنّ لغة الغربة قد غلبت عليه. وهو يزور المسجد القريب، في يوم من كلّ أسبوع، ليحفظ -وأختُه "ياسمين"- سُوَرًا من القرآن الكريم. هل أزعم أني أحسّ به محرَجًا حين يخاطب جدّ أمّه، وهو يعرفه يجول في اللغة العربية كاتبا؟

وحمّودة يحمل -على عادتنا العربية- اسم جدّه "محمد شاهين طَلَس" (١٩٢٦-١٩٩٧)، الذي كان يعمل زمنَ الوحدة في سفارة الجمهورية العربية المتحدة في العاصمة اليوغسلافية. ثمّ كان أن شغل بعدُ منصبَ أمين "المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية" في الوطن، وفي حبّه لتراث أمّته سمّى ابنه باسم ذلك العالم الأندلسيّ، أول مَن فكّر في الطيران، "عباس بن فرناس".

أتمّ حمّودة، يومَ أمس السبت، الخامسة عشرة من عمره الجميل، فأحبّ والداه، حفيدتي "ديمة سعود" و"فرناس طَلَس" -المربّيان صاحبا أفضل مدرسة لتعليم الصغار في البلد- أن يحتفلا بهذه المناسبة، داعيَين أفراد الأسرة العشرين وعددًا من الأصدقاء، إلى احتفال صغير في

إحدى الحدائق العامة.

لمّا وصلنا تهمَّمَ الكبار في إشعال المواقد لشيّ "الشيش طاووق" الأبيض وأقراص "الكفتة" الحمراء، واستكملت السيدات ما كنّ بدأنَه من قبلُ: إعداد الموائد.

ووقفتُ أتفرّج، ويا لي من فُضوليّ لا يرتوي فيه حبّ الاطّلاع: الصغار يلعبون كرة القدم وفي طليعتهم حمّودة، وبالريشة الطائرة، ما أحلى عبثهم وصراخهم! مرجٌ وأشجار وأزاهير. طاولاتٌ ومقاعد وسقوف قُدّت من خشب الغابات. أناقةٌ حيثما توجّهتَ، ونظافةٌ تملأ بؤبؤ العين فلا ترى في الأرض ما ينبو عنه النظر. يلتزم كلّ مواطن بواجباته، متمتّعًا بحقوقه. لا يعتريهم خوفٌ من سلطان جائر، ولا يخضعون لمُبتزّ غادر. كلٌّ يعمل بعرق الجبين وينال ما يستحقّ.

أجل، كلّ شيء هنا نراه بديعًا، لولا أنّ حكّامهم يعتنون بشعبهم، على حين أنهم يستغلّون شعوب العالم ويَهضمون حقوقها، وأول ما هنالك، أيها الأصدقاء، أنهم زرعوا في قلب وطننا الكبير جسمًا غريبًا ما زالت تنمو فينا خلاياه السرطانية.

فلوريدا: فجر الأحد ٤-١-٢٠١٥

عالم سوري في أمريكا يحنّ إلى بيت الطفولة بحلب

في منشور، قدّمته قبل ثلاثة أعوام بعنوان «المشي في سوق العطارين»، عرض في التعليقات ذكرٌ لأستاذ كنت قد تلقيت على يديه علم الفيزياء وأنا في ثانوية المأمون أواخر أربعينيات القرن الماضي، هو الشاب "منذر مكانسي"، وفي انقطاعه عن التدريس في مدرستنا عرفنا أنه توجّه إلى أمريكا للتخصص، وهناك نبغ وصَعِدَ نجمه، حتى سمعنا -ونحن نتسقّط أخباره- أنه أصبح من كبار العلماء في موطنه الجديد.

أحد أصدقائي في العالم الافتراضي، الذي نرتع فيه بفضل "مارك زوكربرغ"، ظهر لي في التعليقات أنه من أسرة أستاذنا النابغ وعارف بأحوال ابن عم أبيه، وقد استفسرته، وكانت هذه المعلومات الجديرة بأن يعرفها المواطنون السوريون عن أخ لهم، ذهب يومًا إلى حيث العلم والمعرفة، وتمتّع بحقوق العالِم كاملة. وما كان لذلك أن يُنسيه وطنه، وموطنَه الصغير، والحيَّ الشعبيّ الذي نشأ فيه، والبيتَ الذي تنشّق رائحته وهو طفل وفتى ورجلٌ في ريعان الشباب... اسمعوا.

سألني الصديق، قريبه، عما إذا كنت عرفت في تلك المدرسة الابتدائية (التي كنت آكل ما أشتريه من "الملبّس" من سوق العطارين وأنا في طريقي إليها في دوام ما بعد الظهيرة!)، فقلت: بل كان من أسرتكم أستاذٌ لي علّمني وأنا في ثانوية المأمون.

واستفاض بيننا في الحديث عن "الدكتور منذر مكانسي"، العلامة والمخترع، وهو مقيم في ولاية تينيسي، كان قد غادر الوطن عام ١٩٤٨... وبيّن لي القريب «أنه منذ حوالي ٢٠ عاما نشرت جريدة أمريكية عن حفل تكريم له لكونه رجل الاختراع لذلك العام في الولايات المتحدة». ووعد بأن يبحث عن هذا المنشور يترجمه ويعرضه.

وممّا قال: إنّ الدكتور منذر مكانسي ابن حلب كان يزور الوطن كل مدة، ويحرص على أن يصطحب في كل زيارة «أحد أولاده، "عنتر" و"طارق" و"ياسين" وابنته "دلال"، لتعريفهم بأفراد العائلة في حلب، وأنه كان يصرّ على النزول في بيت والده الذي عاش فيه، دار عربي في حي "دكاكين حجيج"، ليسترجع ذكرياته القديمة عن الطفولة والشباب، على الرغم من وجود كثير من البيوت لأقربائه في المنطقة الغربية الحديثة من حلب»، وأنه تلقى منه، قبل نحو شهر (من ذلك التاريخ)، سؤالًا عن بيت العائلة ما حلّ به في هذه الأحداث.

جرى الحوار يوم ٦ يناير، ٢٠١٥.

أفواه برائحة النعنع

صباح أمس الباكر كنت أنتظر حفيدتي "ديمة" لتُوافيني عند الساعة ٧: ٣٠، فنذهب معا إلى مشفى لمعالجة الأسنان، فتلقّيت منها أنّ حادثة وقعت في الطريق عرقلت السير، فالمرور بطيء. وعند وصولها هتفت وأنا بجانبها في السيارة إلى المشفى تُعْلمهم، فأجازوا لها التأخّر.

دخلنا المكان، فاستقبلتنا ممرضةٌ باسمة الثغر، وقامت بتسجيل معلومات أولية، تلتها مساعدة الطبيب، عاينت وصورت ورجعت في ذلك إلى "الملفّ" الذي اتّخذوه لي في الانترنت. وجاء الطبيب الأسمر، عاين واطّلع وتفاوض معنا، ثمّ قرّر "عملاً" جراحيًا في الفكّ العلوي من جانبيه، وأشاروا علينا أن أذهب إلى البيت، أتناول وجبة الفَطور، ثلاث بيضات متوسطة السلق (برشْتْ)، وأعود إليهم عند الساعة ١٢: ٣٠ لإجراء العمل!

وكان وصولنا إليهم قبيل الموعد بخمس دقائق. لم نر، من وراء الزجاج، أحدا في مكتبه، ولكنا قرأنا في مكان لافت، أنهم الآن في الغداء وسيعودون إلينا في ١٢: ٣٠ وأفواههم معطّرة برائحة النعنع!

ومع نَعْنعهم الذي عادوا وهو يفوح من أفواههم، انفرد بي الثلاثة، الطبيب والمساعدة والممرضة، في غرفة ضيّقة، عيونهم على الشاشة، وفي الأيدي المباضع و"المقالع". والطريف أنهم كانوا يتحادثون، وهم يعملون، بمرح ويضحكون، وأنا؟ أنا لا أعاني وجعًا يُذكر، لكن هل أزعم أني بدوت "حزينًا" أمام نفسي لأني أتخلّى عن أجزاء من جسمي رافقتني منذ نعومة الأظفار؟ «خُلقتُ ألوفًا...»!

ومن عجبٍ أنّ عملهم هذا، الذي لم يستغرق سوى ثلاثين دقيقة، انتهى بأن ركّبوا الجسر الذي كانوا قد بدؤوا بصُنعه لحظة طلبوا مني الذهاب لتناول البيضات الثلاث!

وخرجت أتّكئ على ساعد حفيدتي ديمة، أولى حفيداتي من البنات، وهي وُلدت في مدينة

"ليون" الفرنسية حين كان أبوها يتخصّص بالأشعة هناك، وفي الوطن تخرّجت في "كلية الفنون الجميلة"، وهي اليوم أمّ الفتيَين "حمّودة" و"ياسمين"، وتُدير وزوجها "فرناس" أحسن مدرسة لحضانة الأطفال وتعليمهم في المنطقة.

لم يسمحوا لي أن أتناول الطعام بالصورة الاعتيادية اليوم وغدا. ولكن ليس لهم أن يحجبوا عني الحقّ في أن أروي لكم هذه التفاصيل الصغيرة، في هذه السويعة من الفجر، أيها الأصدقاء الأعزاء.

فلوريدا: فجر الخميس ٨-١-٢٠١٥

مع الناشط الأستاذ هيثم المالح

كتب الناشط السياسي العريق الأستاذ «هيثم المالح»، تعليقا على الـ(C V) الخاص بي، المنشور في صفحتي اليوم الأول من يناير ٢٠١٥:

الأخ الأستاذ فاضل، اليوم وأنا في القاهرة ٩-١-٢٠١٥ أتصفّح كتابتك الرقيقة النابعة من رقّة قلب ورهافة مشاعر، تذكّرتك حين كنت تشرّفني في مكتبي في "الحلبوني" والذي لم يعد مكتبي فقد صادروه، وكنت تُهدي إليّ من وقت لآخر روائعك الأدبية، أعيش الآن متنقّلاً في الفضاء أقصد باب الكريم الذي لا يُردّ طالبه، لأرجوه أن يساعد أهلنا في سورية الحبيبة ويعيدنا إلى حضنها الدافئ.

[القاهرة: الساعة ٩ صباحا]

أخي المناضل في الحرية المحامي هيثم المالح

وهل لي أن أنسى أني كنت ألتقي، في مكتبك، بأهالي المظلومين، يطرقون بابك كالغرقى المتعلّقين بقشّة، آملين خيرًا من "تواصلك" مع كبار الأمنيين في البلد -ومنهم اللواء هشام

بختيار- الذين كانوا يدعونك أو يزورونك: مرة لاستئلافك، ومرة يتوعّدون، ومرة اعتقلوك بما اتّسعت له ضمائرهم من تهمٍ للمطالبين بالحرية.

وأذكر معاناتك في طباعة كتاب لك، ما كان للرقابة أن تُجيز نشره وهو يعرض موضوعات الحرية، فكنتَ تطبعه في السرّ متنقّلاً به من مكان إلى مكان.

وسوف أظلّ أذكر دخولي، في عام ١٩٨٠، "معتقل الشيخ حسن" سيّئ السمعة وزجّي في زنزانة ضيّقة، ومعرفتي بعد أيام أنك واحد من الثلاثة والعشرين من منتسبي النقابات العلمية الذين كانوا أول من رفعوا أصواتهم في عام ١٩٧٩ مطالبين بالحرية، وكنتم تقيمون في قاووش جماعي (زنزانة)، يُسمح لكم بالخروج للتنفّس نصف ساعة ظهيرة كلّ يوم، ويُمنع عني لأني كنت حديث الاعتقال معزولًا في منفردة. لم تَطُل إقامتي، ولبثتم في ظلام السجن -وا ألمي! - سبع سنين.

وأما تنقّلك، في هذه الأيام، «في الفضاء قاصدًا بابه الكريم»، فتلك صفحة تضاف إلى مواقفك في الدفاع عن حرية شعبك، أسيرًا كنت، أم طليقًا، أم منفيًّا.

أنحني لك، يا سيدي هيثم المالح، مناضلاً خالصًا من كلّ شائبة ومؤدّيًا أغلى ما هنالك، يوسع التاريخ لك مكانًا في أزهى صفحاته.

والحرية والأمان لشعبنا السوري الذي لن ينام على الضيم.

فلوريدا: فجر الجمعة ٩-١-٢٠١٥

الحرب والرؤية الحائرة

نُشرت مقالتي هذه في عدد كانون الثاني/ يناير من مجلة "بناة المستقبل":

... ودخلتُ، بعد أن انعقدتْ صداقةٌ أثيريّة بيني وبينها، على صفحتها، فسرّني أن أراهم،

أراهنّ، يُزْجُون إليها التّهاني بصدور رواية نقلَتْها إلى العربية، تولّت نشرَها مؤسسةٌ في إحدى عواصم الغرب، هي من تأليف كاتب أفغاني[١] يقيم في الولايات المتحدة الأمريكية، يحمل جنسيتها ويكتب بلغتها، تدور حوادثها حول الحرب المتمادية في بلاده، غولًا يفترس، وهجرةً قسرية، وفقرًا يعُمّ الشعب.

وفي حديث متوقّع، بين اثنين من الكتّاب السوريين في زمن الحرب، رأيتها -يا للعجب! - تندّد بشعبها، وتلوم كذلك نفسها، على ما فرّطت به في سابق أيامها من تصرّف تَبيّن لها فيما بعد مدى الخطأ الذي وقعت فيه... كيف؟

تقول إنها، وهي في بلدتها الساحلية الجميلة، بدت في مطلع شبابها حريصةً على أن تغادرها، تهجرها، باتجاه العاصمة دمشق، أملاً في تحقيق ما كان يتملّكها من طموح في مجال الثقافة والأدب. ثمّ إنها، بعد استفحال الأمور، لم تجد لها -تحت القصف والدمار- ملاذًا إلّا بلدتها الحَنون، المطلة على البحر ملتحفةً بالجبل، فعادت إليها، بأولادها قرّة العين، وبطموحاتها المجرّحة، وقد انتابها شعور بالحزن "لعقوقها" بلدتَها ليست تغفره لنفسها، وتقول: وإني أتحمّل وزر ما اعترى صغاري من الخوف والرعب جرّاء وجودنا تحت القصف في العاصمة هناك!

وأما الشعب، الشعب السوري الذي إليه تنتمي، فإنها تُلوي عليه وتقسو، تقول: «الحرب في بلدي، صنيعة أبنائها، هي "ردّ فعل" طبيعي من "القوى الكونية" على "الكذب" الذي نعيشه! هذا شعب كاذب بأكمله، ولا يعرف لأرضه قيمة، قد توقّف عن فهم معنى الوطن كليّا».

كنت أدرك أنها تقول هذا وهي في ذروة الانفعال والغضب.

---

(١) هو الروائي الأفغاني خالد حسيني. وتصدّرت روايته "عدّاء الطائرة الورقية" بعد نشرها، قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في الولايات المتحدة لمدة عامين.

«ولكنك تظلمين شعبك كثيرا، أيتها الكاتبة الشابة».

قالت: «أنا لا أقصد ظلمه، ولكنها الحقيقة المؤلمة كما تتراءى لي. توقّعْنا، وخابت التوقّعات».

قلت: «ألا ترين أنّ النظام خطّط لأن يستألف الضعفاء والمهمّشين منّا، فيجعلهم العصيّ الغليظة والأنياب الحادّة؟ وأن يشكّل طبقة من "الرأسمالية الرثّة" تبتزّ من هنا وتستدير لتعطي هناك؟ وأنه قلّم أظفار الشعب حتى سيّره كالقطيع، فلما تمرّد دفع إليه أولئك البؤساء يقتّلونه، وحاوره بالكيماوي والبراميل، والعالم ساكت لغايات... ما ذنب شعبك في هذه "اللعبة الأممية"؟ ». مؤكّدًا لها أن «ليس هناك شعب سيّئ، هناك حكومات رديئة. ألا انظري إلى جنوب إفريقية وماليزيا وتركيا، من يتولّى الحكم فيهم...».

هل أقول: إنّ الألم بلغ عندي مداه؟

وجاءني منها صوت حنون كأنه يريد أن يُعدّل من وجع القول: «أستاذي! أنت لا تعلم أنّ روايتك "ثمّ أزهر الحزن"، كانت أول رواية طويلة أقرؤها وأنا في السادسة عشرة من عمري طالبة في الثانوية، في بلدتي الجميلة، أقرأ فصولا منها وأنا أستقبل الأنسام تأتيني من البحر الذي هجرته ثمّ عدت إليه، ولتعلم يا سيدي أنّ روايتك هذه شكّلت عندي انطلاقة أقبلتُ بعدها على القراءة بشغف! ».

وما كان لهذا الكلام الرقيق إلّا أن يخفّف قليلاً من الألم الذي اعتصر قلبي، لِما تعانيه هذه المثقفة، التي تبدأ حياتها الأدبية بترجمة رواية عالمية، ولِما تَحْمِله من وجهات نظر حائرة، ذهبت بها بعيدًا جدا عن أرض الواقع... وعن أرض الوطن!

ماذا فعلت الحرب بالحجر، والبشر، وبالعقول النيّرة؟

فلوريدا: فجر الأحد ١١-١-٢٠١٥

ألاحظ أنّ المتصفّحين والمستفسرين

ألاحظ أنّ المتصفّحين والمستفسرين لا يطرقون الباب هنا، بسبب البرد المفرط والثلوج... تاركين المجال لي، أنا المقيم في بلد دافئ، أرنو من بعيد إلى الوطن، وأتعذّب في إشفاقي وحزني!

فلوريدا: مساء الأحد ١١-١-٢٠١٥

إيقاع المطر.. إيقاع الثلج

وآنَ للفنّيّ الشابّ أن يضبط له الأصوات في السمّاعتَين المرهفتَين على شكل جناحَي طائر، ويُثَبّت كلاًّ منهما وراء صِوان الأذن داسًّا العدسة في داخلها... ثمّ خُيِّل إليه أنه يخاطبه: انطلق، يا سيدي، واستمع إلى أصوات الحياة!

وقف على الرصيف، يشهد أرتال السيارات، ويستمع إلى ضوضائها المتواترة.

وبدأت السماء تنهلّ بالمطر، ولمّا وصل إلى البيت تحوّل المطر إلى وابل كثيف، ومن وراء النافذة وقف يُصغي. حدَّثَ نفسه:

إنّ إيقاع المطر هنا لمختلفٌ جدّا عن إيقاع الثلج هناك، حيث تُغطّي الثلوج الموت والدمار... لكن إلى يوم الذوبان.

فلوريدا: ليل الإثنين ١٢-١-٢٠١٥

عرائس وأبكار

كان يَرد في أدبيّاتهم أنّ الإقطاعيّ في الضيعة يطلب "العروس" إليه ليلة زفافها، يَفْتَرِعها، ثمّ يردّها إلى أهلها!

فتتألّم لذلك... إلى حدّ البكاء.

اليوم يختطفون العذارى والأبكار من الطرقات، وقد تُرى الفتاة بعد ذلك في السجن وعلى ذراعها طفلٌ لا تعرف أباه. ونسمع قهقهاتهم: كنتم تفترعون بناتنا!

فنبكي وحدنا.

فلوريدا: مساء الجمعة ١٦-١-٢٠١٥

ابتداع الموت البطيء

العالم يُبدع

في أن يزيد برفاهيّة الإنسان

وفي وطنٍ ما

يُبدعون

في أن يرموه في "مستودعات الموت"

دون غذاء أو كساء

ليموت بعضهم أمام بعض

موتًا بطيئا جدا...

فلوريدا: فجر السبت ١٧-١-٢٠١٥

الأسديّ، وتوثيق ما ينشر في "المأمون"

ورد، هذا اليوم الأحد ١٨-١-٢٠١٥، في مجموعة "التجهيز الأولى ثانوية المأمون ومعاوية بحلب"، بمنشور يتعلق بالموسوعي "خير الدين الأسدي"، ما يلي: «رفضت المكتبة الوطنية توظيفه فأهداها في خريف حياته مكتبة توازي ثروتها».

أرى أنّ في هذه العبارة ما يحتاج إلى توثيق:

فأنا أعرف الأسدي، في شتاء ١٩٤٩-١٩٥٠، موظفًا في دار الكتب الوطنية يقوم بوظيفة "مناول"، يجلس خلف نافذة أو كوّة تطلّ على قاعة المطالعة وإلى ورائه أرفف الكتب، يطلب المطالعُ، فيناوله الكتاب.

وكان الصديق "فريد جحا" قد روى لي -وهذه معلومة تحتاج إلى مزيد من التوثيق- أنّ الأسدي، يوم كان موظفا في البلدية، أملى عليه رئيسُها آنذاك المهندس مجد الدين الجابري، أن يعمل في الحملة الانتخابية لمصلحة سعد الله الجابري، فرفض، فنقله، أو حجب عنه ميزة ما، ذلك في حياة سعد الله الجابري (رئيس الوزراء المتوفى عام ١٩٤٧)، ولعلّ ما يؤكد ذلك أنّ الأسدي في نقمته على "آل الجابري" الكرام، تجنّى عليهم في "موسوعة حلب المقارنة" كلما تأتّى له ذلك، مخالفًا علمَه وموضوعيته، وأذكر أني كنت أرى جاري بدمشق، في عقد التسعينيات، رائد الرواية السورية المعاصرة الدكتور شكيب الجابري، لا يُظهر تقديرا لعلم الأسدي عندما أُثني على موسوعته (التي تبنّى نشرَ أجزائها السبعة معهدُ التراث العلمي العربي - جامعة حلب، خلال سنوات الثمانينيات، بعناية الباحث محمد كمال).

أقول هذا، لأنّ ما يُنشَر في مجموعة المأمون بات يُعدّ من الوثائق التي يُتوقّع أن يرجع إليها الباحثون في المستقبل، وذلك يدعوني إلى أن أتمنّى من الأصدقاء أن يتوخّوا الدقّة المتناهية فيما ينشرون من معلومات ووثائق. هل أقول: إنّ المجموعة أصبحت أشبه برئة يتنفّس فيها تاريخ حلب خاصة في محنتها الحالية؟

وتحيتي للغيورين على حلب وتاريخها، وفي طليعتهم المغترب "ناهد كوسا" الذي يزيده الاغتراب حبًّا لحلب الأصيلة.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ١٨-١-٢٠١٥

لماذا بكت السيدة السورية في المتجر الأمريكي مرتين؟

بعد أن قامت السيدة، جامعةُ التبرّعات النقدية من الطيبين في هذا البلد، بشراء كميّات من الحْرامات والمعاطف والبناطْلين والبلوزات والأحذية، دون أن تنسى الطواقي والقُفّازات، يعاونها فريقٌ من المتطوّعات، وحُمل ذلك كلّه إلى حيث يؤدّى الثمن... علمت عاملة الصندوق، السمراء، أنّ هذه المشتريات سوف ترسَل حالًا إلى ساكني الخيام أمام الحدود السورية في زمهرير هذا الشتاء، فأخذت الهاتف تتّصل، وتحكي، ثمّ تُبلغ السيدة -وهي تنحني لها تعاطفًا واحترامًا- أنّ الإدارة رأت رفع الحسم من ٢٥٪ إلى خمسين، فما كان من السيدة السورية إلّا أن أجهشت في البكاء.

وبعد أن استردّت أنفاسها، اتّجهت وصُويحباتها ثانية لشراء المزيد بما توفّر من مبلغ، وفي أثناء ذلك استحضرت في خاطرها أنّ مَن يقدِّم في الوطن مساعدةً للمهجّرين من بيوتهم، يُعدّ إرهابيًّا يساعد إرهابيّين، ويساق إلى المحكمة فينال حكمًا بالسجن يصل إلى خمس سنوات، فعاودها البكاء مرة ثانية.

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢١-١-٢٠١٥

«مو ألله خَلَقُنْ!»

في عام غير بعيد، كنت أتحاور مع صديق "منهم"، فتراءى لي أن أشكو أنّ كثيرًا من الوظائف والمناصب باتت مقصورة عليهم، فأجابني: «وشو يعني... مو ألله خَلَقنْ!».

وما رأيت جدوى في أن أقول له: طيب والآخرون؟

فلوريدا: مساء الجمعة ٢٣-١-٢٠١٥

ويلات الديكتاتورية

قُبيل شنّ الهجوم الأمريكي على العراق في آذار/ مارس ٢٠٠٣، تهمّمنا، نحن عددًا من كتّاب سورية وفنّانيها، للسفر إلى بغداد نصرةً للشعب العراقي.

وأذكر أننا، ساعة نزلنا من الحافلة العراقية أمام المركز الحدودي، ودخلنا قاعة الانتظار لإجراء معاملة الدخول، وتقدّمنا أنا وأحد رفاق الرحلة إلى صدر القاعة، حيث تمثالٌ نصفيّ للديكتاتور، باللون الذهبي، يختال بمهابته وغطرسته... أذكرُ أني قلت بالصوت الخفيض: وتجلب الديكتاتورية لشعوبها من الويلات ما ليس له حدود!

كان ذلك فجر الخميس الثالث عشر من آذار، وكان الرفيق هو الروائي خيري الذهبي... وما هي إلّا أيام حتى كانت الحرب قد اشتعلت، والتدمير ما زال إلى يوم الناس هذا مستمرًّا.

فلوريدا: عصر الأحد ٢٥-١-٢٠١٥

"شكرًا لله، أنه يوم جمعة!"

مع أنّ عشيّةَ أمس لم تكن "مساءَ جمعة" (بل مساء سبت)، إلّا أنّ المطعم، الذي قصدناه بقيادة حفيدتي "ديمة"، كان يحمل اسمًا ترتاح له نفوس تلاميذ المدارس الصغار، والكبار أيضًا: Thank GOD It is Fridey (ويختصر إلىTGIF)، وترجمته «شكرًا لله، أنه يوم جمعة»!

في البدء جلسنا في غرفة الانتظار إلى حين فرغت موائدُ في هذا المطعم المزدحم بِرُوّاده، وأعدّوا لنا واحدة ذات طول تتّسع "للقبيلة" التي أراني فيها الأكبر عمرا، نصفهم من الصغار، والربع شباب وشابّات، والباقي يعصف في هاماتهم المشيب.

أقبلت النادلة الشابّة تأخذ الطلبات. بعضنا أحبّ أن يأكل القريدس مسلوقًا أو محمّرًا،

ولكنّ ثلاث سيدات طلبنَ لحمًا أحمر يتوارى بين طبقات خبز مستدير ممّا اصطلحوا في عصرنا على أن يسمّوه "همبرغر".

ومع تأكيد ديمة للنادلة الشقراء أن يكون اللحم الأحمر في طيّاتها ناضجًا كفاية، خطر لي أن أحدّثهم -وما ظننت يومًا أني أُثقِل عليهم بأحاديث ذكرياتي! - أني حين كنت في باريس عام ١٩٧٨، كان يتاح لنا -نحن الموفدين الأجانب الذين نتّبع دورة- أن نتناول وجبة الغداء في مطعم المؤسسة التي نعمل فيها ونتدرّب، وكنت أوصيهم -كما الحال الآن- أن يكون اللحم الأحمر من غير دم، مطبوخًا جيدًا (Bien cuite) وأكرّر الكلمة مرتين تأكيدًا.

وجاءت الأطباق. شرعنا في أكل القريدس، نغمّسه بالتوابل ونتنقّل بالبطاطا المقليّة. وأما السيدات الثلاث، حفيدتي والكنّتان، فقد وجدنَ -بعد فتح الهمبرغر- أنّ اللحم فيها ليس ناضجًا على نحو ما طلبن. فاستدعينَ النادلة، التي غابت لتعود وهي تصطحب "مدير المطبخ"، فكان منه اعتذارٌ ووعد بتحقيق الرغبة.

ثمّ آن أن توضع أطباق ثلاثة على المائدة، وبدا فيها، أيضا، نقصٌ في الاستواء، فرأت الشابات الثلاث العدولَ عن اللحم الأحمر إلى غيره...

ثمّ ما رأينا إلّا ومدير المطعم تَهِلّ علينا طلعته، ليس ليُقدّم الاعتذار وحده، بل ليجعلنا نحن العشرين ضيوفًا عليه.

فلوريدا: فجر الأحد ٢٥-١-٢٠١٥

إني لأعجب

إني لأعجب من بعضهم

يشجب الديكتاتورية في مكان

ويستحسن أشكالًا منها في مكان آخر!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٢٦-١-٢٠١٥

التواري حتى الموت!

رأيت فيما يرى النائم، فجر هذا اليوم، أنهم اتّهموني بارتكاب جريمة لا أعرف من أمرها أيّ شيء، وأخذوني إلى القضاء، العادل، الذي أسرع يحكم عليّ بالإعدام.

وكانت الغرابة الأخرى أنّ القضاء فوّض مَن يدّعون أنهم "الضحايا" الذين ارتكبتُ في حقهم الجريمة، المزعومة، أن ينفّذوا فيّ حكم الموت! وهكذا وجدتني بينهم، وهم يمضون بي إلى خارج المدينة.

احتججتُ، بصفتي دارسًا للقانون، بأنه لا يحقّ للمجني عليهم أن يمارسوا بأنفسهم تنفيذ الأحكام بالفاعلين، فإنّ في ذلك تشفّيًا ومن ثَمّ انتهاكًا لمعنى العدالة. ثُمّ... لست أدري، خلال الجدل الذي اشتدّ بيني وبينهم، كيف تخلّصتُ منهم وغدوت طليقا.

ولكني كنت فقدت الأمان. فأنا أسير في الطرقات حَذِرًا مرعوبًا، وأتنقّل في الليالي بين بيوتٍ يخاف أصحابُها عليّ بقدر خوفهم من وجودي بينهم!

وعلى ذلك استيقظت... لأروي لكم هذا الحلم العجيب، لا لتتولّوا تأويله حسب تفسير الأحلام الموروث، ولكن لأخبركم بحال مواطن مضطرّ للتواري عن العيون حتى الموت.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٧-١-٢٠١٥

الحُزْن، بفتحتَين أيضا!

في عام بعيد زرتُ "الشاعر القروي" (رشيد سليم الخوري) في بيته ببلدة "البربارة"،

وقدّمت له روايتي "ثمّ أزهرَ الحُزْن"، فرأيته يتأمّل الكتاب بين يديه، ويترنّم بالعنوان: «... ثمَّ أزهرَ الحَزَنْ»، ويلفتَ نظري إلى أنه "شطر" من بيتِ شعر موزون!

كان ذلك في خريف ١٩٦٣، وكنّا نمرّ ببلدته قريبًا من الساحل اللبناني، أنا والشاعر "فؤاد الخشن"، في طريقنا من بيروت إلى حلب.

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ٢٨-١-٢٠١٥

العودة إلى "الملتقى"

توجّه إلى النقابة يتسلّمُ التبليغ، ومن هناك إلى الاعتقال، دون أن يصحبه مؤازر، أو أن تكون في يده علبة دوائه.

لا أكاد أعلم أنّ صوتًا ارتفع مطالبًا بإطلاق سراحه، ما دعاني إلى أن أعتب على المؤسسة المنوطِ بها الدفاعُ عن أصحاب الحقوق المهضومة، وأرى في أهلها التقصير. وإلّا فهو التواطؤ!

بالأمس كتب لي: انتهت المحنة القاسية... أشكر...

كتبت له: بالحرية، التي تعتنقها إيمانًا وممارسة، أنت من رجال الوطن الأوفياء.

قال: شهادة أعتزّ...

قاطعته: على صدرك وسام... مدةٌ -وإن قصُرت- قضيتَها حيث الداخلُ مفقودٌ والخارجُ مولود.

إنه المحامي "عارف الشعّال"، القيّم على "ملتقى المحامين السوريين"... من أعماق القلب أحيّيه.

فلوريدا: صباح الخميس ٢٩-١-٢٠١٥

الأسديّ، أصوله العائلية

لا بأس في أن أتساءل عن أصول الأسدي العائلية. وإنّ للشعب السوري، ولأوسّع المصطلح: إنّ للشعب الشامي خصوصيّةً يتميّز بها بين الأمم: أنه تألّف وأنه احتضن، عبر تاريخه الطويل، أطيافًا شتّى من الأقوام، إثنيّاتٍ وأعراقًا وأديانًا وطوائف، فاغتنى بذلك وأبدع الحضارات، التي ليس أولها "أبجدية أوغاريت"، ولا آخرها أيامنا الدامية التي نعيشها.

هل من يُدلي برأيه في أصول خير الدين الأسدي، أرسلان، العائلية:

أهي من حلب، أم وافدة إليها؟

عربيّة الأُرومة، أم أنها من عرق آخر؟

فلوريدا: منتصف ليل الجمعة ٣٠-١-٢٠١٥

ويقرأ موسوعة الأسدي الجميع

مع بداية عقد الثمانينيات، بدأت جامعة حلب في إصدار موسوعة الأسدي، تصل إليّ أجزاؤها واحدًا بعد الآخر وأنا بدمشق.

واتفق لي أن زارني في أيام شتاء بدمشق، أحد أقربائي الأقربين قادمًا إليّ من حلب، وكنت حينذاك منهمكًا في إنجاز عمل أدبي يأخذ جلّ وقتي، والقريب يلازمني البيت في أيام البرد، فأحببت أن أُسلّيه بأن قدّمت له جزءًا من هذه الموسوعة، وهو لم تكن عنده هواية المطالعة، فسألني، فأشرت عليه أن يقلّب صفحات هذا الكتاب "الحلبيّ" تقليبًا ليس إلّا.

الذي كان أني رأيت قريبي العزيز، بعد قليل، ينحني على الكتاب قارئا باهتمام، وصرت أسمع صوته يرتفع معلّقًا، وأحيانًا تأتيني ضحكاته حين يمرّ على النوادر والأمثال الشعبية.

أقول: إنّ هذا العمل، الذي سمّاه الأسدي "موسوعة حلب المقارنة"، يلذّ للقارئين بقدر ما ينفع الباحثين والمتابعين، وهو -من قبل ومن بعد- يُخلّد اسم صاحبه على نحو قد يكون أفضل ممّا بين الأبناء وآبائهم!

فلوريدا: مساء الجمعة ٣٠-١-٢٠١٥

١ حوار في جريدة "الوطن" - دمشق

العدد ١٦٨ يوم الاثنين ٢-٧-٢٠٠٧ أجراه: علي حسن (١من٤)

تقديم: إلى جوار أشجار الكبّاد[1] والنارنج وتحت ظلالها، وقبالةَ بحرة صغيرة مزدانة الألوان، في منزله الدمشقي، يعيش «فاضل السباعي» وحيدا وقد غازل الثمانين، بقامة فارعة لا تشوبها انحناءةٌ أو تثاقل، متواصلاً متفاعلا مع كلّ ما يجري.

لا يُخفي شوقًا، مغلّفًا بالعتب تارة وبالحنان تارة أخرى، إلى أبناء له وأحفاد يقيمون في بلاد الاغتراب.

كثيرًا ما يجنح إلى "الفانتازيا" في الكتابة طريقًا رحبا للتعبير و"اجتنابًا للمساءلة" وهو القانوني الذي يمارس الأدب كتابةً ونشرا منذ ما يزيد على نصف قرن، يكتب عن الفقر والفساد وعن "المغلوب على أمرهم" بحدّة وجرأة، ويُتّهم بأنه برجوازي.

* أستاذ فاضل السباعي، أنت تغازل الثمانين من عمرك المديد، ومع ذلك نراك في كامل بهائك تبزّ الشباب عطاءً وحيوية ونقدا صارما لما لا يروق لك من الأمور... ما السرّ في ذلك؟

** "إطراؤك" هذا الذي بدأت به حديثك، يجعلني عاجزا عن القول! ومع ذلك أتلمّس ما أعتقد أنه السرّ فيما تقول. إنه الصدق مع الذات. الثقة بالنفس والثبات على الموقف. القراءة

---

(١) الأُتْرُجّ.

المعمّقة لأوراق الزمن الماضي والحاضر والآتي أيضا. وأنت تلاحظ أني لا أدخّن. أحاول أن أمشي كلّ يوم. أكتب ما ينسجم مع مواقفي في الحياة لا مع ما أرتجي منه النفع القريب. أدمن مشاهدة الندوات في الشاشة الصغيرة. أحاور بمنطق يقولون إنه "قانوني" مثلما أحسن الإصغاء. ولكني -وهذا ما يُستغرب- أنام وأصحو دون نظام، فقد ألبث وراء الطاولة أو الحاسوب حتى مَوهنٍ من الليل.

* ظلّت أعمالك القصصية والروائية تتناول هموم الفقراء والمرأة والأطفال، ثمّ المثقفين المضطهدين حتى إنّ أحد النقاد سمّاك "أديب المثقفين"، هل استطعت أن تنتصر في أدبك لهؤلاء بالصورة التي تتمنّاها؟

** إن كنت تقصد "بالتناول" الاهتمام بهم والوقوف إلى جانبهم والدفاع عنهم، فإنّ هذا متحقق فيما كتبت طَوال مسيرتي الأدبية، فأنا ناصرت الفقراء والبسطاء والشعبيين منذ بدأت رحلة الكتابة أوائل الخمسينيات، فلما رأيت سماء الحرية تَغيم، وتغيب في ذلك أسباب الحرية، ظهر في أدبي القصصي "نموذج" المثقف المُعاني.

فإن كنت تسألني ما إذا تأتّى لي أن أرفع الظلم عنهم، فإنّ ذلك يخرج عن نطاق الأديب. الكاتب يُعبّر، يُصرِّح، يصرُخ، وأما تحقيق الغاية من الأدب فمرهونٌ بظروف أخرى.

دمشق الشام: تموز/ يوليو ٢٠٠٧

فلوريدا: فجر الأحد ١-٢-٢٠١٥

صديقي الفنان عمر حجّو

عرفت "عمر حجّو" بحلب، ونحن أولاد نلعب معا في الحارة التي سكنّاها صيف ١٩٤٢ في "حيّ الجميلية" بحلب منتقلين من "زقاق الزهراوي" بحيّ "ورا الجامع". وكنّا لفيفًا من

الأولاد، منهم ثلاثة من "آل الحسن" (مجيد وفيصل وعادل). وإذا كنت أقودهم في اللعب بصفتي الأكبر بينهم، فإنّ عمر كان يفضُلني في خفّة الدم والإضحاك، ولكني أشهد هنا أنه كان له أخ يكبره بسنتين، في مثل سنّي، اسمه "محمد"، كان أخفّ ظلاً وأبرع في الإتيان بحركات التهريج وسرعة البديهة في إطلاق النكات، وأعرف أنه قضى في أول شبابه.

وفي الخمسينيات، وقد غدوت في عداد الكتّاب، ظهر عمر ممثّلاً على خشبة المسرح بحلب، يشارك في التمثيليات المحلية التي يقدمها الهاوي الكبير "عبد المنعم اسبير"، وكنت قد جريت على أن أقرّظ هذه الأعمال الفنية بمقالات صحفية أنشرها في أشهر جريدة بسورية: "الأيام" بدمشق، وأشيد فيها بالأدوار التي يؤدّيها صديقي "عمر حجو".

ومع دخول التلفزيون إلى سورية في الستينيات، انتقل عمر إلى دمشق مشاركًا بفنه وخبراته التمثيلية. وأذكر أني التقيت به مصادفة في مبنى البلدية بحلب، هنّأته على دخوله التمثيل التلفزيوني من بابه العريض، وأذكر أنه اقترح عليّ أن أكتب نصوصًا درامية، وممّا قاله لي مشجّعًا: إنّ من يكتب القصص والروايات الطويلة لا يصعب عليه أن يكتب نصوصًا للتلفزيون!

وكان من تميّزه -كما نُمي إليّ- أنه هو مَن أوحى للفنان دريد لحام، وأسهم، في إبداع ذلك النمط المسرحي الذي سمّوه "مسرح الشوك"، "لوحات" تمثيلية انتقادية واخزة، تقدَّم على المسرح، منفصلاً بعضها عن بعض، ويجمعها أنها تلامس في نقدها الجوانب السياسية من حياتنا الاجتماعية.

وكنت أتبيّن، في الأعمال التي يشارك فيها عمر مع دريد، "ملامح" من "المشاغبات" التي كان يجترحها مراهقو "الجميلية"، من ذلك أنهم، في متابعتهم لبنات الحيّ، كانوا يستهدفون صَبيّة، يهودية، اسمها "ليندا ديّان" يسمّونها هم "أمّ حمدو"، فنظموا في حقّها "شِدِّية" مرحة

تقول:

مِن بين سبع تمن عشر بساطير

سمعْنا دقّة بسطارك يا أم حمدو!

ذلك في الأربعينيات، فسمعتها في الثمانينيات تطلع محوّرةً في أحد أعمال دريد وعمر!

وللتوضيح: البسطار هو الحذاء العسكري، وتُلفظ البساطير بالإمالة الحلبية المستلطفة "بْسيطير"!

لن تفوتني الإشارة إلى أنّ شقيقة عمر قد نزلت إلى حقل التمثيل التلفزيوني. ولكنّ "إنجازًا" أكبر عائليًا لعمر: أنه أنجب "الليث حجّو" المخرج التلفزيوني المتميّز في عالم الدراما السورية.

والفنان عمر حجّو بيننا في خير.

فلوريدا صباح الأربعاء ٤-٢-٢٠١٥

المنحنيات الحنونة عند فنّيّ سماعة الأذن

من فلوريدا على الكرسي، أمام التقنّي المتخصّص بتقوية السمع، الشابّ "اندرو"، أجلس. هو يُعيِّر "السمّاعة"، وأنا أتابع كتابة خاطرتي.

تراءى لابنتي أن تترجم المضمون له، بفصاحتها. ومن عجبٍ أنه لم يستلفتْه قصفُ البراميل والغاز، فذلك ما بدا خارجًا عن تصوّراته، ولكنه أَنحى باللائمة على حكومة بلاده أنها مقصّرةٌ بحقّ الناس!

ولم يُخفِ استحسانه للخطّ العربي، وهو يراني "أرسم" بقلمي المنحنيات الحنونة، وأبدى إعجابَه بي إنسانًا يمارس "التحدّث"، وعهدُه بالمتردّدين على عيادته أنهم يمارسون الصمت!

فلوريدا: ضحى الخميس ٥-٢-٢٠١٥

وتُطلّ المستعربة الإسبانية من قاسيون على دمشق

واستقبلتُ بدمشق، في خريف العام ١٩٩١، ابنةَ غرناطة المستعربةَ الإسبانية Eloiza Llavera Ruiz، التي تعمل أستاذةً للتاريخ الأندلسي بجامعة "لاس بالماس"، قادمةً من بلادها لتشارك في مؤتمر لـ"تاريخ العلوم عند العرب" (ممّا تتعهّده جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي)، وقد أكرمتْني بأن نزلت "ضيفةً" عندنا بدمشق، ثمّ سافرت إلى حلب، وصحبتها أسرتي في جولات في المدينتين.

كانت هذه السيدة المعنيّة بالتاريخ، تعبّر عن إعجابها بهذا الذي ترى، بما تملك من مفردات عربية.

وأمّا لحظة أطلّت من قمة قاسيون، في ليلة رقّ نسيمها، على دمشق، الرافلةِ بلألائها وجلالها، فإنّ لسانها نطق بعربيةٍ صافية: «هذا أسعد يوم في حياتي! »، ثمّ انتابتها حالةٌ من الوجد، فكفّت عن التعبير بالعربية، وأخذت تتمتم بلغتها كلامًا لم يفهمه أحدٌ ممّن حولها.

هل تذكّرتْ، هذه الإسبانية، مدينتها غرناطة؟ أم أنها تجلّت لها، في الشام المستلقية تحت بصرها، الأندلسُ، أندلسُها التي غَبَرت، فهزّها وجدٌ وحنين؟!

أقول اليوم: ألف آه تصعد من الأعماق، يا أيتها الإسبانية، العاشقة للتاريخ الأندلسي! لو تدرين ما تعانيه اليوم حاضرةُ الدولة الأموية، التي منها انطلقت جيوش الفتح، فقدّمت حضارة للعالم المعروف في زمانها!

[من تقديمي لكتاب "فضل الأندلس على ثقافة الغرب"، تأليف البروفسّور "خوان بيرنيت" Juan VERNET، نشر "دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع"، دمشق ١٩٩٧]

فلوريدا: فجر الجمعة ٦-٢-٢٠١٥

ولبستُ الطربوش طفلًا، لم أُستَشَر!

لمّا عادت أمي بي إلى البيت، سعيدةً بأنها سجّلتني في الصفّ الأول في ابتدائية الحيّ، أبلغتُ أبي بالمطالب التي تلقّتها من مدير المدرسة، فأخذني أبي، في اليوم التالي، من يدي إلى "محلاّت النعساني" في آخر خطّ الترامواي في "خان الحرير"، واشترى لي تلك البدلة، الكحليّة اللون، تَزِينها الأزرارُ الصفراء اللامعة.

ولكنّ أمي ادّعت فوق ذلك أنّ مدير المدرسة "أمين أفندي الكرمان"، طلب أن يكون لي طربوش، وما رأيت أبي يشكّ في قولها، لأنه كان سائدًا في ذلك الحين (العام الدراسي ٣٥-١٩٣٦) أن يلبس حتى تلامذة الابتدائي الطرابيش. من ناحيتي فرحت أن يكون لي طربوش وأنا في السادسة من عمري، فتواطأت بصمتي مع أمي!

وهكذا مضى بي أبي إلى "سوق الطرابيشيّة" (أحد أسواق "سوق المدينة" الذي يعمل فيه)، فألبسوني هناك طربوشا على القدّ، أحمر قانيًا، ذا شَرّابة أحرّك رأسي فتهتزّ.

ثمّ إني ضقت بالطربوش، الذي أعرف أنه غير مفروض على تلاميذ الصفّ الأول، فبعضهم يعتمرونه وبعضهم لا، فأهملته، بل ازدريتُه، وسحبت منه الشرّابة. وذات يوم غافلت أهلي فأخذت المقصّ، وسرت به في الطربوش حتى جعلته شريطًا طويلاً، لففت جزءًا منه فأصبح "مسّاحة" ممّا تُزال به الكتابة بالطباشير عن اللوح (السبّورة)، قدّمتُها للمعلم "عبد المجيد أفندي سيريس"، الذي طلب من تلاميذ الصفّ أن يصفّقوا لي على هديتي.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٨-٢-٢٠١٥

رجُلٌ تحت القصف!

في ساعة القيلولة بهذا اليوم، التي هي في ساعات ليل الوطن، رأيت، فيما يرى النائم، أني أتجوّل في أحد شوارع الوطن، وهدير الطائرات العملاقة يملأ الفضاء. ونَجَمَ في عقلي أنّ إنذارا كان قد عُمّم على الشعب بأنّ الطائرات سوف تقصف!

من عجبٍ أني كنت أمشي الهوينى لا يداخلني شعور بالخوف، والشوارع خالية من المارّة ومن السيارات. وكنت أقول في نفسي: لأَمُتْ! وماذا يعني أن أموت؟ أنا لست أفضل من الذين يسقون التراب بدمائهم، ما أنا إلّا رجلٌ يعيش في "الوقت المستقطَع"، أخذت حظّي من الحياة، عاينت، وعانيت، وكتبت في كل ألوان الكتابة!

قريبًا من البيت صادفت رجلا يهرول، فتراءى له أن ينصحني: «أسرع إلى بيتك، واجلس أمام حائط سميك!»، ولم يخطر لي أن أحدّثه عن رأيي في الموت تحت القصف!

عندما دخلت البيت -الذي لم أره بيتي! - لاحظت أنّ جدرانه كلّها سميكة، فاخترت أغلظها، ثمّ تبيّنت صوتًا يصل إليّ، عرفت أنه صوت النظام، يُبَثّ بتَقَنِيّة عالية جدًا، وكان حديثًا عن منجزاته، التي منها تفوّقُه على المعارضة في آخر جولة للمفاوضات، وتفوّقٌ متكرر في مجلس الأمن، ويزعم في ذلك أنه بنى البلاد، ورفع العماد، وأعزّ العباد.

وجلست، ملتفِعًا بِحرام[1]، أتابع الإصغاء وأنتظر المصير.

واستيقظت... لأروي لكم هذا.

فلوريدا: مساء الأحد ٨-٢-٢٠١٥

---

(١) غطاء

قصر فوق مرتفع يُطلّ على البحر

في حواري بجريدة "الوطن" (دمشق ٢٠٠٧، أدناه)، وَرَد أنّ رئيس تحرير مجلة "المعرفة"، قرأ مخطوطة قصتي "أحلام العاشقين" «ووافق على نشرها بعد تحفُّظ!»، فجاءني صديقٌ يسألني أمس، على الخاص، أن أحدّثه، أحدّثكم، عن موضوع هذه القصة، وأشرح معنى كلمة «تحفّظ»!

ومع ترحيبي بهذا السؤال، الذي يدلّ على ملاحقة أصدقائي لي في كلّ كلمة أقولها، أبيّن، بعبارتين، أنّ هذه القصة تحكي أشواقَ المواطنين -المثقفين منهم خاصة- إلى الحرية يتنسّمون أنفاسها، وقد أعيتهم ضروب الفساد المستشري وجرّحت أفئدتهم، ومن ذلك أنّ بعض "الفاسدين"، يبادرون -بعد انتهابهم أموال الشعب والوطن- إلى اتّخاذ البيوت، بل القصور، يركَنون إليها مطمئنّين إلى سوء ما يفعلون، وأعترف أنه كان في القصة مرورٌ على واحد من هؤلاء، «بنى قصرا فوق مرتفع يُطلّ على البحر، مؤلّفًا من طابقين، وستّ وستّين حجرة، وسبعة صالونات، مؤثّثة بأفخر الرياش[1]، كما في الأحلام، وفي حديقة القصر مبانٍ للخدم والحشم، ومرائبُ للسيارات، واصطبلات»... وما شاء كاتبٌ قصصيّ، يسكن بيتًا بالأجرة، أن يدع خياله يشطّ ويترك يراعه يخطّ!

كتبت القصة في صيف ٢٠٠١...

وبدا أنّ رئيس التحرير آنذاك، كان يعرف أنّ ما رنّق فيه الخيال كان واقعًا ملموسًا محسوسًا، فقد فعلها "أحدهم" على نحو ما وصفت القصة، لفتني إلى ذلك بعبارات غامضة أولًا، ثمّ في لقاء تالٍ فهمت منه أنه سوّى الأمر، ويبدو أنه حذف من القصة القصر ومنشآته، ولم يبادر إلى

---

(١) الأثاث الفاخر.

تقديمها للنشر في أقرب الأعداد، بل جعلها "في الدور"، وهو يعلم أنه ماض إلى التقاعد عمّا قريب، فلما جاء الخلف وعرف ما سلف، ادّعى لي بأنه عرض القصة على "الوزيرة" (وما أظنّ هذا صحيحًا) فأيدته في استبعادها، ووعدني: «دع الأمر لي، سأعرضها ثانية عليها حين تكون مروّقة»!... فبعثت بالقصة غير معنيّ بالوعدِ إلى مجلة "العربي" الكويتية، التي نشرتها في العدد (٥٣٨) أيلول ٢٠٠٣... ويا لي من كاتب مثير للمتاعب، رغم التحجيم والتهميش!

من منبري المتواضع هنا، أحيّي مجلة "العربي"، طويلة العمر عاطرة الذكر، التي ما أرسلت إليها نصًّا من هذا القبيل إلّا تهمّمت لنشره، وهم يقولون: "مجلة محافظة" ويحتكرون "التقدميّة"! فلوريدا: فجر الأربعاء ١١-٢-٢٠١٥

ذكرى تعود إلى العام ١٩٦٤

تلقيت اليوم الرسالة التالية من الصديق "جميل الحَمُو" بدمشق:

منذ حداثة سني أحببت الشعر والأدب لما كان يُقرأ في بيتنا في مدينة "الباب" (في الريف الشرقي لمدينة حلب)، وعندما أصبحت يافعا منّ الله عليّ بمعرفة اثنين من مبدعي الأدب في وطني، الشاعر مصطفى البدوي الملقب بـ"زوربا العرب" رحمه الله، والكاتب الروائي الكبير فاضل السباعي أطال الله عمره.

وأحبّ أن أذكر الآن أني قرأت في العام ١٩٦٤ في مجلة "الأديب" اللبنانية، أن الأستاذ فاضل السباعي يعاني آلامًا في ظهره نتيجة الإكباب على الكتابة، فخطر لي -وأنا دون العشرين من العمر- أن أكتب له إلى عنوان عمله في مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل بحلب، أسدي إليه "نصائح صحية"! وإذ به يردّ على رسالتي مع نسخة مهداة من روايته الكبيرة "ثم أزهر الحزن".

هل كانت قراءتي للشعر في بيتنا المتواضع، وأني تلقّيت هذه الرواية الرائعة وأنا في تلك

السن، دور في نزولي إلى عالم الصحافة؟

وكان أن التقينا بعد ثلاثة عقود وأنا أحرر مجلة أسبوعية بدمشق، وغدونا أصدقاء، وفاجأني بصورة فوتوكوبي لتلك الرسالة القديمة. وقد عرفت أنه يملك أرشيفا من الرسائل لا نظير له بين كتّاب هذا الزمان.

وفي مجلتي نشرت حوارا معه طويلا أفتخر به، وأكرمني بأن كتب مقدمة لأحد كتبي.

أنسام من الذكريات عطّرتني وأنا أقرأ خواطره اليوم، دفعتني لأن أكتب هذه الكلمات البسيطة، وأضيف أني لا أذكر أني سمعت له صوتاً أو نبرة عالية، وهو يتمتع بتواضع قلّ نظيره، وأشهد أنّ مجتمعنا الثقافي لم يعطه حقه. له كل الاحترام والمودة الصافية. [دمشق: ظهيرة الثلاثاء ١٠-٢-٢٠١٥].

فلوريدا: مساء الثلاثاء ١٠-٢-٢٠١٥

لغتنا العربية، هل يمكن "القبض" عليها!

قلت لها: أهنّئ نفسي بأني أكتشف فيك كاتبةً تتنفّس ألم الوطن شهيقًا وزفيرًا، وتُتقن التعبير بالكلمات الحنونة... ولكنّ هذا لا يمنعني من أن أبدي الرأي في أخطاء تتعلّق باللغة حتى يَنْقى نصُّك من العثرات. ولتعلمي أنّ لغتنا العربية صعبٌ "القبضُ" عليها!

كتبت لي: بصراحة، دخولي "كلية... " أعاق تقدّمي باللغة، لذلك أحسّني دائمًا خائفةً من الكتابة ومن الوقوع في الخطأ. أنت تشجّعني، يا أستاذي الغالي، كاتبةً وتنصحني تلميذة!

قلت: لا حرج. لا زلت أنا حتى هذا العمر، ألجأ إلى أصدقائي الأكاديميين، أحاول أن أُتمم بسؤالي لهم لغتي. إني في الليالي أتّصل بهم هاتفيا: بالدكتور محمود الربداوي (عميد كلية الآداب بجامعة دمشق سابقا) وبالأستاذ محمود فاخوري (أستاذ الآداب بجامعة حلب)، أسألهما

بشجاعة!

ولم ينته الحديث...

فلوريدا: عصر الجمعة ١٣-٢-٢٠١٥

القتل والخجل!

ممّا يلاحظ، في جريمة قتل الشاميين الثلاثة (سوريّ وفلسطينيتين)، أنّ المجتمع الأمريكي، في محاولةٍ للتقليل من هول الجريمة المروّعة، يسعى -بخزي وخجل- إلى أن ينفي عنها دافع الكراهية الدينية والعنصرية، عازيًا إيّاها إلى عصبية في مزاج الجاني.

ولكنّ الحاكمين في بلدٍ ما، ما زالوا يقصفون مواطنيهم بالصواريخ، حتى وهم نيام في بيوتهم، بحجّة أنهم "إرهابيون"، متلقّين في ذلك الدعم المادي والمعنوي واللوجستي من العاصمتين الأجنبيتين موسكو وطهران، في وَضَح النهار، ونرى أحد المهووسين الإيرانيين، ذاك الذي يدير ما يُسمى "مقرّ عمار الاستراتيجي لمكافحة الحرب الناعمة الموجهة ضد الجمهورية الإيرانية"، يرفع صوته مردّدًا بأنّ سورية تشكّل "المحافظة الرقم ٣٥ لإيران"، ولم نعلم أنّ أحدًا ألقَمَ هذا الوقح حجرًا.

فلوريدا: صباح الجمعة ١٣-٢-٢٠١٥

فَطور على مائدة مرتّبة!

لا أدري لماذا أعود بذاكرتي اليوم إلى "لوحة" ما زالت تتراءى في خاطري منذ سبعين سنة ويزيد، يوم كنّا تلاميذ في المدرسة الابتدائية، يدرّسنا مديرُها الرياضيات، وهو المعروف بشدّته، وكذلك بتقريعه المستلطف للتلاميذ المقصّرين.

وقد بدا لنا حريصًا على أن يعطينا دروسًا في الرياضيات، "إضافية" صباحية، طوال الشهر

الأخير من العام الدراسي الذي سبق امتحان الشهادة الابتدائية، التي كنا نسمّيها زمنَ الحكم الفرنسي "السرتفيكا"، وكان "الوقت" يساعد، فلم يكن هناك تقديمٌ للساعة وتأخير، فكنّا نحضُر إلى المدرسة عند السابعة والشمس طالعة، ونبتدئ الدراسة النظامية في الساعة الثامنة.

وكان يتفق لبعض التلاميذ أن يحضُروا الدرس متأخّرين، فيستقبلهم أستاذنا المدير بعبارات تقريع منتقاة تشكّل كلّ منها "لوحةً فنية"، وكان يروق لنا خاصة ما يوجّهه إلى زميلنا "مأمون"، الذي ينتمي إلى أسرة حلبية عريقة، ويتحلّى بوسامة وأناقة ولطف معشر، فكان الأستاذ يترك الشرح جانبا، ويسترسل في التقريع.

يقول (وإني هنا "أُفَصِّح" بعض العبارات): «جيت، يا مأمون، يا ابن الأكابر والذوات! معلوم، لازم تتأخّر، لأنك لا تتناول فطورك إلّا على المائدة، مربّى المشمش، مربّى الكرز والسفرجل، زبدة، جبنة قشقوان، خبز أبيض، و"مامونيّة" من عند "المستّت"، والوالدة تقول لك: "كول يا حبيبي، واتهنّا"! وأما نحن، الفقراء، فإنّ أحدنا يأخذ "الرغيف البيتوتي"، ويتسلّق "الكتبيّة"، يَلُتُّه بصحن الزيت ويغمسه بصحن الزعتر، ويعلكه وهو في الطريق!».

كان يطربنا سماع هذه "المعزوفة"، وكان زميلنا مأمون يبتسم وهو يتلقّى، وتبرق عيناه الزرقاوان مبتهجًا، وللعلم لم يكن مأمون من التلاميذ الكسالى، وقد ترافقنا في "ثانوية المأمون" حتى البكالوريا، ثمّ نال إجازة الحقوق من "الجامعة السورية" بدمشق وغدا محاميًا ناجحًا.

وقد علمت أنه كان يشكو لبعض أصدقائه الحميمين شقاءه في حياته الزوجية، ونُقلت عنه عبارة: «نحن "النوبليسّ" لا نسعد في زواجنا!»، ويؤسفني أني لم ألتقِ به، بعد انتقال عملي إلى العاصمة قبل خمسين سنة، وقد رحل إلى العالم الآخر قبل نحو عشر سنين.

رحم الله مديرنا ذا الضمير اليقظ، وزميلنا الحبيب مأمون، والراحلين من تلامذة ذلك الصفّ الذي أظلّنا سقفُه في العام الدراسي ١٩٤٢-٤٣، في ابتدائية كانت تسمّى "مدرسة الملك

فيصل"، القريب موقعُها من "ثانوية المأمون" جنوبيّ "حيّ الجميلية".

فلوريدا: ١٥-٢-٢٠١٥

مدرسة من طابقين

كان مبنى "مدرسة الملك فيصل" الابتدائية (العام الدراسي ١٩٤٢-٤٣، انظر خاطرة أمس)، مؤلفًا من طابقين اثنين، يعلو أحدهما باحة المدرسة بدرجات عشر أو نحوها، وينخفض الطابق السفلي مثلها.

وكان الترتيب، الذي جرت عليه إدارة المدرسة، أنها جعلت في الطابق العلوي شعبةً من كلّ من الصفوف الخمسة المزدوجة، يلبث تلاميذها حيث هم شهرًا كاملاً، ثمّ بتدبير حكيم من الإدارة، تنتقل هذه الصفوف، في مطلع الشهر التالي، إلى الطابق السفلي، متبادلةً الحجرات مع الشُّعَب المناظرة، وذلك عدلًا من الإدارة في أن يتمتّع التلاميذ كافّةً وبالتناوب بالطابق العلوي، بما يتخلّله من شمس، وهواء، وبُعدٍ عن الرطوبة.

ذلك، أيها الأصدقاء، كان في بلدي المتحضّر، سورية، أيام الحُكم الفرنسي الغاشم.

وأما زمن "البعث" فإنّ التلاميذ "المنتسبين" يتقدّمون الصفوف، ويُحوّم حولهم، ساعات الامتحانات، المعلمون يلقّنونهم. ووقَعت في ذلك أشياء أبعد، ليس أكبرَها أنّ معلمًا نطق في أثناء الدرس بما لم يُرضِ طلابًا في "شبيبة الثورة"، فقاموا يهمّون بضربه، لولا أن فتح باب الصفّ وأخذ يعدو في الباحة باتجاه الباب، ناجيًا بما تبقّى من كرامته، ثمّ لم يعد إلى المدرسة أبدًا.

ويسألون: لماذا قامت الانتفاضة؟

فلوريدا: فجر الإثنين ١٦-٢-٢٠١٥

حتى يطمئنّوا.

بعد أن نهضنا عن مائدة العشاء، وانتقلنا إلى حيث نتناول قهوة المساء، ومنّا مَن نصب أركيلته التي جاء بها من الوطن، وبدأنا أحاديث السَّمَر، لاحظنا أنّ أحدنا اعتراه بغتةً جحوظٌ في العينين غاب فيه عن وعيه لبضع ثوان.

هُرع الشباب يتّصلون بالإسعاف، وما هي إلّا هنيهة حتى كانت تقف بمحاذاة الرصيف سيارةٌ كبيرة ممطوطة، تشكّل مع غيرها وحدةَ الإسعاف الثلاثيّة.

استقبلْنا الرجالَ القادمين.

فأمّا جماعة الإطفاء والشرطة فقد انسحبوا حين تبيّنوا أنْ لا محلّ لهم. وشمّر رجال الإسعاف عن سواعدهم، فقاسوا الضغط، وعاينوا القلب، وجسّوا النبض، وحلّلوا الدم ارتجالا، ثمّ أعلنوا أنْ لا خطر، ولكنهم أشاروا بأنه يجب أن يُحمَل المسعَف إلى المستشفى احتياطًا بحسب التعليمات.

ولأسبابٍ، أبدى بعضنا الرغبة في أن نُقِلّ نحن رجلَنا إلى حيث أشاروا، ثمّ إنّ رجال الإسعاف تلبّثوا أمام البيت حتى إذا رأونا نتوجّه إلى المستشفى اطمأنّوا، وقيّدوا في تقريرهم - على نحو ما نعلم- أنّ المهمة أنجزت على الوجه الأكمل.

ومضوا، ومضينا.

فلوريدا: الثلاثاء ١٧-٢-٢٠١٥

رسالة من كاتبة ناشئة دمشق ٢٨-٩-١٩٩٨

رسالة تلقّيتها من كاتبة ناشئة قبل سبعة عشر عامًا. شابة جامعية في ربيعها الخامس

والعشرين. ساءها، يوم وقع في يدها كتابٌ من تأليفي لأول مرة، أنها لم تسمع باسمي من قبل وهي المولعة بالمطالعة والمحبة للأدب.

أنشر رسالتها اليوم طاويًا اسمها، إن شاءت -وإنّ لها اليوم نشاطًا في شبكة التواصل الاجتماعي- علّقت وبيّنت. والرسالة طويلة، منمّقة العبارة، ومكتوبة بالأزرق، وأحيانا بالأخضر والأحمر. أنشرها في حلقات ثلاث:

١- «وتعرّفتُ بالمصادفة على أعمالك» (١من٣)

سيدي الفاضل، الصدفة البحتة تلك التي جمعتني بمؤلفاتك.

كنت أمام صفوف وصفوف من الكتب الأدبية في المكتبة المركزية [بجامعة دمشق]. وللأمانة أقول: كنت أبحث بين عشرات الكتب الروائية والقصصية عن روايات يوسف السباعي، وتركيزي على كلمة "السباعي" جعلتْ نظرتي تتركز حول اسم يحوي الكلمة التي أبحث عنها. ولكن الاسم مختلف... فاضل... يوسف... تركتُ مؤلفاتك -ويا لسوء ما فعلت- وعدت باحثة عن مؤلفات يوسف السباعي. مؤلِّف سمعت به وقرأت له، وأحببت الاستزادة بالاطلاع على مؤلفاته الأخرى، ولم أجد غايتي... ورأيت أن من السخافة العودة بأدراجي دون أن أختار لي من كلّ الروايات والمؤلفات الأدبية التي تصطفّ أمامي ولو رواية واحدة. لذا وقع اختياري على البعض من مؤلفات حضرتك سيدي الفاضل...

قلت في نفسي: لعل كل بيت السباعي مبدعون، مميزون... فلمَ لا أقرأ لـ فاضل السباعي، لعله شقيق يوسف السباعي أو لعله قريبه؟!

وفعلاً اخترت من مؤلفاتك ثلاثة: "الطبل" و"حياة جديدة" و"اعترافات ناس طيبين"، وبعد اختياري ما اخترته لامست يدي صفحة الغلاف الداخلية، وقرأت لمحة عن حياتك سيدي، ففاجأني أنك سوري/ حلبي الأصل/ ولستَ مصريا حال يوسف السباعي. حينها

فقط استبعدت كونك قريبه، ولكني لم أستبعد فكرة اختياري لقصصك، وفضولي لقراءتها والاطلاع على مكنوناتها.

وقرأت... قرأت القصص... حقا قرأت وكررت فعل القراءة... ولشدّ ما أذهلني وجود مؤلِّف بهذه الثقافة والأسلوب والإبداع في بلدنا ونحن عنه غافلون ومتراكضون لمؤلف مصري، لا أعتقد ولا يعتقد أي مطالع غيري أنه يتفوّق عليك إبداعا... إنما العكس تمامًا؟! [(.....) دمشق: ٢٨-٩-١٩٩٨].

فلوريدا: الخميس ١٩-٢-٢٠١٥.

الذي قرأ التاريخ، وبكى!

وأخذ يقرأ، منتشلاً نفسه من واقعه للحظات، عن الحضارة التي أقامها الأجداد في الأندلس، من بناء للفنادق والمطاعم والحمّامات والحوانيت والأسواق، وممّا يحتاج إليه التجار والمسافرون من خدمات على طول مسالك السفر، وقد بلغت من الكثرة في البلاد حتى شاع الخبر في الآفاق بأنّ المسافر حيثما سار يجد الحوانيت في الفلوات والأودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والسمك وغير ذلك.

وضع الكتاب جانبًا.

وخرج من بيته يمشي كالمذهول، فقادته قدماه إلى حيث كانت قد سقطت، ليلة أمس، قذيفةٌ فوق بناية، فرأى الناس ما زالوا ينبشون التراب والخراب، بالمعاول، وبأيديهم وأظافرهم... بحثًا عن ناجين.

ودون أن يشعر... وجد نفسه يبكي!

فلوريدا: الأربعاء ١٨-٢-٢٠١٥

الفنان غسان السباعي، والشفافيّة في أعلى درجاتها

رحل عن عالمنا أمس، بدمشق، الفنان التشكيلي المبدع "غسان السباعي"، الأستاذ بكلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق.

كثيرا ما أتحفني ابنُ العمّ بإبداعه، الذي يتميّز بمستوى عال من الشفافيّة الفنية المطيّبة بالنزعة الإنسانية الرحيمة.

وماذا أذكر من كتبي التي حَنَت عليها ريشتُه البديعة المعطاء؟

"ثمّ أزهر الحزن"، "اعترافات ناس طيبين"، "الألم على نار هادئة"، "الشوق واللقاء"، "حياة جديدة"، "الطبل"، "بدر الزمان"... ولن أنسى الغلاف وكلّ لوحات القصص في كتابيّ الموجّهين إلى عالم الصغار: "هديل اليمام" و"العصافير تستحمّ بماء البركة"... ذلك كلّه قبل أن تنضمّ إليه في تزويدي بالأغلفة البديعة ابنتاي التشكيليّتان سهير وخلود.

قد خسرت الحياة التشكيلية في وطني برحيل الفنان غسان السباعي كثيرًا. تغمّده الله برحمته.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٢٢-٢-٢٠١٥

تحويل رواية أدبية إلى عمل تلفزيوني

في الأدبيّات أنه لا يُحسن أن يَنشر الكاتب رسائله التي كان وجّهها إلى الآخرين، إلّا في الحالات النادرة، وله أن ينشر رسائل الآخرين إليه إن كانوا من الراحلين، ويستأذنهم في ذلك إن كانوا على قيد الحياة، فقد يكون في نشرها ما يُحرجهم.

رسالة "رانيا بيطار" إليّ، المطوّلة، تلك التي يعود تاريخها إلى العام ١٩٩٨، طلبتها بالأمس من دمشق، ونشرتها مُغْفَلَةَ الاسم فحرّرتها بذلك من تلك المواضعات، وبيّنت أنّ لصاحبتها

أن تصرّح باسمها فتزيد الرسالة أَلْقاً... هذا إلى أني رأيت في الرسالة نكهةً، ولها دلالة.

فأما النكهة ففي أنها كُتبت بأنامل كاتبة شابّة واعدة، ثمّ صدقَ الوعدُ فأمست "كاتبة سيناريو" بين من يمارسون هذا الفنّ الجميل في وطني الحبيب.

وأمّا الدلالة، ففي أنّ الرسالة بيّنت لي -وكان قد مضى عليّ كاتبًا نحو خمسين عامًا- أنه ليس يعرفني من المثقفين في وطني إلّا قليل منهم، ويجهلني خريجو الجامعات. وذلك لافتقاد روح الإنصاف والنزاهة في الحالة الثقافية عندنا.

والحقّ أني لم آت بشيء يوم تلقّيت الرسالة، قلت في نفسي: هذه أوهام شابة تجرّب الكتابة، وحلُمٌ لي غير قابل للتحقيق!

ثمّ كان أن هتفت إليّ صاحبتها، وبعد زيارات وافقتُ على أن تشتغل في إعداد العمل، وقد لاح لي أنّ هذه الكاتبة الطموح، لها من التواصل الثقافي والاجتماعي ما يمكّنها من بلوغ الغاية. طرقت بابهم، فلم يغلقوه في وجهها. فرحتُ لها ربما أكثر من فرحي باجتياز عمل لي العقبات نحو الشاشة الصغيرة.

ولكن آذَني، بعد فراغها من عملها، أمران:

أولهما أنهم أبدَوا حرصهم على تغيير عنوان الرواية، الذي ظللت أراه جميلا «ثمّ أزهر الحزن»، إلى عنوان آخر ليس بشيء: "البيوت أسرار". وقد سألتُ في ذلك بعض أصدقائي العاملين في هذا المضمار، فأفادوني بأنّ هناك من لا يريد "شهرةً" لروايتك ولا لصاحبها!

ثاني الأمرين أنهم، عند تسلّمهم السيناريو، احتاز مسؤولٌ فيهم إلى نفسه ربعَ المكافأة المادية! سألت ثانية فنُصحت بالقبول، وإلّا أوقفوا تنفيذ العمل بحُجج!

ونُفّذ العمل بمدينة حلب، فالرواية "حلبية" بامتياز، فلما شاهدت أوائل الحلقات، عام

٢٠٠١، رأيت وكأنّ العمل فاتر العلاقة بروايتي، ولم أصرّح بذلك في الإعلام، بل إني، في لقاء بتلفزيون حلب جمعَنا أنا ورانيا والصديق المخرج "علاء كوكش"، قلت في العمل قولا جميلا، حتى إنّ معاون وزير الثقافة الصديق "علي القيّم" قال لي بعد ذلك بدمشق، إنه لم يسمع مثل هذا الإطراء من مؤلف رواية أدبية حوّلوها إلى عمل درامي!

نشرت رسالة رانيا أجزاءً ثلاثة، في أيام (١٩) و(٢٠) و(٢١) من الشهر الجاري، وسوف أنشرها معًا فجر الأربعاء القادم (٢٥-٢). وإني أرى فيها بوحًا أنيقًا من كاتبة شابة تعشق المطالعة والأدب، تحلُم، وتمضي في حلُمها حتى التحقيق... ويخيّل إليّ أنّ الرسالة جديرة بأن تُقرأ مرتين.

فلوريدا: الإثنين ٢٣-٢-٢٠١٥

هل يريد النظام

هل يريد النظام، بقصفه البيوت والناس، أن يُخلي سورية من أهلها؟

فلوريدا: الأربعاء ٢٥-٢-٢٠١٥

هل الغُربة

هل الغُربة القَسريّة مِحكٌّ لعواطف الأسرة وأخلاق الناس؟

فلوريدا: س ٤: ٣٠ مساء الخميس ٢٦-٢-٢٠١٥

لأنّ العدد بلغ الحدّ الأقصى

إلى الأصدقاء الذين أكرموني بعقد الصداقة معهم:

لقد بلغ العدد عندي، منذ مطلع هذا العام، الخمسة آلاف، وأصبح متعذّرًا عقد صداقات

جديدة، لذا فإني أعمد بين الحين والحين إلى التجوّل بين أسماء الأصدقاء، وأحذف بأسفٍ أسماء من أفتقد متابعتهم كي يحلّ محلّهم أصدقاء جدد. هذا وإنّ المشاهدة عندي متاحةٌ لأصدقاء الأصدقاء وللعموم. عذرًا وشكرًا.

فلوريدا: ظهيرة الخميس ٢٦-٢-٢٠١٥

ويُحطّم الجهلاء ثروة قومية لا تُعوّض!

قبل أربعين سنة أو خمسين، قرأت أنّ واحدًا من أثرياء أمريكا المغرورين، زار إيطاليا، ودخل أحد متاحفها الفنية العظيمة. ولمّا رأى انبهار الزوّار باللوحات الفنية المعروضة فيه، أنشأ يقول متبجّحًا بأنه يستطيع أن يُنْشِئ في بلده متحفا يضاهي هذا المتحف! فردّ عليه أحد العارفين بقيم الفنّ العظيم، بأنّ ثروته وثروة أمثاله، لا يمكنها أن تقيم متحفا، قد تجمّعت فيه كنوز المعروضات عبر مئات السنين.

أمس رأينا جهَلةً أغبياء يحطّمون بمطارقهم موجودات متحف تاريخي أثري في الموصل، غيرَ مقدّرين هَول الجريمة التي يرتكبون بحقّ ثروة بلادهم القومية، الواصلة إليهم عبر آلاف السنين... ولن أصف ما ملأ قلبي من حزن، وما أحسَّتْ به عيناي من حرارة!

فلوريدا: مساء الجمعة ٢٧-٢-٢٠١٥

في انتظار المصير

رأيت أمس، فيما يرى النائم، أني وبعضَ أصحابي نمشي باتجاه حديقة عامة، وكنت أتوكّأ على بعض الشباب منهم، ليس لوهنٍ في الجسد وحسب بل لضعفٍ في البصر أيضًا.

وفجأةً، وقد اقتربنا من الحديقة، ترامى إلى سمعنا أزيزُ طائرة، ثمّ رأيناها، رأوها، تُسقِط

قذائفها حيث تحلّق، فخاف كلّ مَن حولي، وركضوا باتجاه باب الحديقة وكأنهم يرجون الاحتماء بأشجارها الكثيفة.

وأما أنا فقد وجدتُني وحيدًا، أقتعد الأرض وألتحف السماء، منتظرًا مصيري.

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٧-٢-٢٠١٥

أمعقول...

أنّ هذا الدمار كلّه

الذي يحُلّ في بلادنا

مبيدًا البشر

ومحاولًا محوَ الذاكرة الجمَعية

يكون في معزل عن أصابع أمريكا؟!

فلوريدا: ليل الجمعة ٢٧-٢-٢٠١٥

مُظفّر سلطان، ١٩١١-١٩٨٦ أحد روّاد القصة القصيرة في سوريّة

كانت مصادفةً أني دخلت على "غوغل" لأتأكّد من "عُمْر" الراحل مظفّر سلطان، فسرّني أن وقفت، فيما قرأت اسمه "منتديات ستار تايمز"، على ملفٍّ مؤرَّخ في ١٨-١١-٢٠٠٨، يستعرض فيه الأديبُ السوري "دريد يحيى الخواجة" ما كتبه، عن أحد روّاد القصة القصيرة السورية "مُظفّر سلطان"، خمسةٌ من الكتّاب السوريين، هم: الدكتور عمر الدقاق، وفاضل السباعي، ومحمود منقذ الهاشمي، وملاحة الخاني، والدكتور سمر روحي الفيصل.

وأحسب أنّ مقالتي، التي عنوانها "مظفّر سلطان رفقة عمر"، هي تلك المحاضرة التي كنت

قدّمتها في "دار الكتب الوطنية بحلب" مطلع العام ١٩٨٦، قبل أن تنزل في ملفّ عن الرائد سلطان في مجلة اتحاد الكتّاب العرب "الموقف الأدبي" في ذلك العام.

ومع مفاجأتي بهذا العرض من الأديب الخواجة، أحببت أن أقدم لكم مناقشته الهادئة لمقالتي مساء هذا اليوم السبت.

وتعريفًا بالرائد مظفّر سلطان (الذي كان يكبرني بنحو عشرين عامًا)، أستحضِر من الذاكرة شيئًا ممّا أعرف عنه: تخرّج في "جامعة فؤاد الأول بالقاهرة"، عمل مدرسا للغة العربية في ثانويات حلب، فمديرًا لثانوية "إبراهيم هنانو" فيها. يتّسم أدبه باللغة العربية الجزلة، وبجنوحه في القصة إلى الإبهار والإدهاش، وأذكر أنه كان في ذلك من المعجبين بالكاتب الأمريكي "إدغار ألان بو". لم يكن يهتمّ بنتاجه الأدبي المبعثر، فتولّى بعضُ مريديه في أواخر حياته جمع ما تفرّق منه.

له ثلاث مجموعات قصصية: "ضمير الذئب"، "في انتظار المصير"، "رجع الصدى"، ورواية واحدة "المفتاح".

أنجب مظفّر ابنًا وثلاث بنات، إحداهنّ المهندسة "ناديا سلطان"، هي اليوم أديبة وكاتبة إسلامية لها مؤلفات، تقيم في كندا.

فلوريدا: فجر السبت ٢٨-٢-٢٠١٥

أيامَ كان "الدومري" يمرّ بحارتنا

في ثلاثينيّات القرن الماضي، كنّا، نحن صبيان الحارة، نرى "الدومري[1]"، قبيل أذان المغرب، حاملاً على كتفه سُلّمه الصغير، ومن يده يتدلّى إبريقُ "الكاز" وعدّةُ الشغل، وهو يمرّ

(١) كلمة تركية الأصل وتعني (الفوانيسيّ) أي الرجل الذي يشعل الفوانيس في الأزقة والحارات القديمة قبل الكهرباء.

بحارتنا "زقاق الزهراوي" بحلب.

كنا نراه يتوقّف تحت كلّ مصباح مُثْبت في الجدار يقبع داخل قفص من زجاج، يسند على الجدار سلّمه، ويصعد، يأخذ "اللمبة"، ينظّفها من سُخام الليلة الفائتة بخرقة وقضيب، يقصّ رأس الفتيلة المتفحّم، يسكب في زجاجة المصباح قدرًا من الكاز يكفي حتى هزيع من الليل، يُشعِل... ثمّ يمضي.

كنّا، عهدئذ، قانعين بذلك النَّزْر اليسير من الضوء، ترسله مصابيح الزقاق والفوانيس في أرجاء الدار.

كانت حياتنا بسيطة وهانئة، وكانت آمنة أيضا، فلا تُنغّصها قذائفُ تنزل علينا من الجوّ، ولا غازٌ يخنقنا، ولا أغرابٌ يقطّعون أيادينا، أو يُمرّرون على رقابنا السكاكين، ويَسْبُون نساءنا ويغتصبونهنّ ويبيعونهنّ إماءً.

فلوريدا: فجر الأحد ١-٣-٢٠١٥

رحيل الفنان «عمر حجّو»

قبل شهر من يوم الناس هذا، انتشر خبرُ رحيل الفنان عمر حجّو عن عالمنا، فكتبت خاطرة عنوانها «صديقي الفنان عمر حجّو»، ثمّ بلغني أنّ الرجل بيننا ما زال يتنفّس الحياة، فما سحبت ما كتبت، وأشرت إلى ما ورد إليّ من تصحيح، تاركًا الخاطرة تستمطر العواطف الصادقة، وأذكر أنّ اللايكات والتعليقات التي وردت في حقّ صديقي عمر كانت وافرة، هل لي أن أذكر تعليقا منها يقول: «إنّ من حظّ عمر حجّو أنّ له صديقًا كاتبًا روائيًا يسجّل هذه اللقطات البديعة من ذكرياته»، أقول: وإن من حظّي أن يكون عمر صديقًا لي.

اليوم أعيد نشر الخاطرة، وقد تغمّد الله برحمته الواسعة فناننا الشعبي المحبوب صباح

الأربعاء ٤-٣ وَوُوريَ الثرى بمقبرة باب الصغير بدمشق.

كلمة في الإتقان

كنّا، نحن الإخوة الصغار، معجبين بالدقّة التي يتحلّى بها أبونا الشابّ "أبو السعود السباعي" (كان له من العمر اثنان وعشرون ربيعا يوم أبصرت عيناي النور).

كنا نتحلّق حوله وهو يُقشّر ثمرة الخيار بالموسى، حريصًا على أن تنزل كلّ قشرة منها "متل ورقة السيكارة"، وكنّا نصفّق بعد أن نراه يتناول التفاحة الحمراء، يَمرّ عليها بالموسى، مديرًا إيّاها بين يديه، فلا يدعها إلّا والقشرة طولًا واحدا، لولبيّا، غير منقطع!

كان -رحمه الله- يُتقن أيّ عمل يمارسه، على حين كان أخوه الأكبر "رئيف" يتولّى إدارة العمل.

وكان يصحبني قسرًا أيام الصيف إلى الدكان في "سوق المدينة" بحلب، ليس لمساعدته بقدر ما كان يريد إراحة أهل الدار من شغب هذا الطفل الصغير! وهناك كنت "أكتسب" منه الدقة والأناقة والبراعة، أضِيق بما يُملي عليّ من "طقوسها"، وأستقي منها دون أن أدري. هل أخذت عنه الأناقة في صوغ الكلمات، حين تعلّمت على يديه الصبر والمعاناة وإعمال الفكر للوصول إلى الأجمل والأبدع!

بعد سنين وسنين، قُدْتُ ابني الوحيد "فراس" (الذي جاءني وأنا في الأربعين من العمر)، في "رحلة الإتقان". وكان يضيق بما أملي عليه من تفاصيل العمل، في التنضيد الضوئي والإشراف على طباعة الكتب ونشرها والتوزيع. ثمّ اكتشفت أنه تشرّب من ذلك ما زاد عن الحدّ، حتى صرت أضيق بإتقانه ذرعا!

فلوريدا: فجر السبت ٧-٣-٢٠١٥

"فرن نوري باشا" للخبز المشروح

عام انتقلت بوظيفتي الحكومية (١٩٦٦) من حلب إلى دمشق، قُدّر لي أن أسكن في "حيّ الروضة" في "شارع نوري باشا"، وفي بيت يملكه "آل الخباز" الكرام. وكانت الأسر البرجوازية المسلمة قد بدأت -منذ ثلاثينيات القرن الماضي- تسكنه، وهو في سفح "جبل قاسيون"، منتقلةً إليه من بعض الأحياء الدمشقية القديمة، وأطلق عليه اسم "نوري باشا" وهو اسم أحد الولاة العثمانيين الصالحين، فليس كلّ الولاة الأتراك أشرارا، ولا كلّ الحكام العرب أخيارا.

كان في هذا الشارع العريق، فرنٌ شهير يؤمّه الناس من أماكن بعيدة بدمشق لشراء خبزه "المشروح"، المرقوقةِ عجينتُه بغير خميرة، لا ينتفخ في النار طبقتين، تُرشّ عليه حبّة البركة، المقمّرِ تقميرا، وقد تأكل، يا صديقي، بعضه "قرمشة" قبل وصولك إلى البيت!

ثمّ إنّ الزمن تغيّر. أَزهِدَ الناس بالخبز المشروح، أم أنّ العاملين فيه زهدوا؟ فتحوّل "فرن نوري باشا" الشهير، مع مطالع الثمانينيات، إلى فرن شبه "آليّ" ينتج الخبز "المرقّد"، ثمّ "أسلم الروح" فغدا متجرًا ذا فخامة، لكن لم يمشِ سوقه مع انتقاله من يد إلى يد، فكأنما "لعنة" الخبز المشروح المهجور تلاحقه!

أُفاجأ، أيها الأصدقاء، قبيل ساعات، بابنتي الفنانة التشكيلية "خلود"، العائدة حديثًا من القاهرة بعد غياب سنتين وزيادة، تحمل وابنها التشكيلي "ماجد هنانو" حنينَهما إلى ملعب الطفولة، ولم تنس "فرن نوري باشا"... كتبت على جدارها بلهجتها السورية الحميمة، تقول:

«للأصدقاء اللي بيعرفوا "فرن نوري باشا"، للخبز المشروح والرغيف المرقّد التازة.. لما كنت طفلة كنت أشتري من هالخبزات الطالعين من الفرن واللي ريحتون بتغرّف القلب.. يبرّدن الفران شوي.. وأمشي عالبيت القريب جدا.. ولازم آكل الرغيف الفوقاني، اللي بيكون منفوخ

والبخار بيطلع منو لو ثقبتو بإصبعتي اللي كانت صغيرة.. رزق الله عهَديك الأيام.. وينو الفرن.. وينووووو؟».

ومن فلوريدا أجيبها بمثل لهجتها:

لا تندهي، يا بنتي، ما فيه حدا..

راح الفرن، وراحت البلد، ونصف سكان الوطن صاروا برّا...

وأبوك ما عم يعرف كيف بدّو يرجع لبيتو، وكتْبو، وأوراقو، والذكريات.. أمانة، عينك عليهن، يا بنتي، كنت حيًّا أو صعدت إلى السماء!

فلوريدا: فجر الخميس ١٢-٣-٢٠١٥

متل عَنّا!

توقّفت ابنتي بسيارتها عند التقاطع، مع أنّ الإشارة خضراء.

سألتها؟ فأجابت: أترى هناك، يا أبي، أولئك التلاميذ يعبرون، يقودهم واحدٌ من "المتطوِّعين volunteers"؟ إنه متى أشار بيده، توقّف السير وتجمّدت حركة المرور.

وقالت: الطفل هنا هو الأغلى. الأطفال هم المستقبل، يَحكُمون غدًا، ويُديرون، ويُبدعون!

لم أعلّق ساخرًا كما قد يفعل بعضهم: «متل عنّا، فَرْدْ شي! ». لا، أبدًا.

فقط... أحسست بسخونة في العينين.

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٨-٣-٢٠١٥

مَن وراء قذائف جِرار الغاز بحلب

كتبت تعلّق عندي، وقد رأتنا نشكو من ظلم جديد نزل بغاز الكلور على أطفال "سرمين"

بريف إدلب، تَلفت انتباهنا، أنا وصديقي، إلى أننا نُغفل النظر إلى جِرار الغاز التي تتساقط على حلب، نحن الذين نقيم خارج الوطن...

ثمّ انمسح "البوست" من أساسه لعلّةٍ ما!

فكتبت على جدارها: إنّ من يرمي جرار الغاز بحلب (وواحدة منها نزلت على بيت من بيوت أهلي)، وإنّ داعش، وإنّ الذين رمَوا دمشق بالهاون... هؤلاء كلّهم ليسوا من المطالبين بالحرية مثلي ومثلك! اسألي عن صانعيهم، الذين أنتجوهم كي تقولي هذا الذي تقولين الآن...

وأمّا صديقي الذي أشرتِ إليه، فقد رافَقهم -يقول- والأمل عنده أن يُنقذ ما يستطيع إنقاذه. وإنّ إنجازاته وزيرًا للثقافة تشهد، فلما عجَز انضمّ إلى صفوف الحرية.

وليس الذين في الداخل (مع معاناتهم الأليمة) أكثرَ معرفةً بما يجري، ممّن يقيمون في الخارج، فالعالم أمسى "قرية صغيرة"!

فلوريدا: عصر الثلاثاء ١٧-٣-٢٠١٥

وأجابنا المعلم

يوم كنت صغيرًا، أذكر أنّ معلّم المدرسة حدّثنا، ونحن نُصغي إليه بجوارحنا، أنّ السفينة إذا غرقت في عُرض البحر، فإنّ أول مَن يجب إنقاذهم من الركاب هم الشيوخ والأطفال و...

وعرفنا أنّ الشيوخ لعجزهم عن مصارعة الأمواج. وأما الأطفال فلماذا؟ سألناه فرحين، أجابنا معلّم الابتدائي البسيط: لأنّ منهم مَن قد يصبح رجلاً مهمّا في المستقبل، يُقدّم "مخترعات" تنفع الناس في كلّ مكان في العالم!

فازددنا إحساسًا بأنفسنا. ذلك ما ظلّ في ذاكرتي منذ كنت في الصفّ الثاني الابتدائي بحلب عام ١٩٣٦-٣٧، في مدرسة مُحدثة سمّوها "إبراهيم هنانو"، في العَدَسات، أزيلت وموضعها

أول "شارع المتنبي".

اليوم... ما حال الأطفال في وطني، والسفينة، والغرق، والمصير؟!

فلوريدا: فجر الخميس ١٩-٣-٢٠١٥

دوران الأرض، والدوران حولها

من نَهَفات الديمقراطية، التي كانت وليدةً عندنا في أربعينيات القرن الماضي، أذكر حكاية ذلك التاجر الدمشقي البسيط الذي أخذ ابنه من يده ومضى به إلى "القصر الجمهوري"، الذي ما زال قائما إلى اليوم قريبًا من نهاية سكّة "المهاجرين"، ليشكو لرئيس الجمهورية "شكري بيك القوتلي"، أنهم في المدرسة "سقّطوا" ولده في الصفّ الرابع الابتدائي بالجغرافيا التي تقول كفرًا بأنّ الأرض كرويّة!

وإني لأذكر، قبيل ذلك التاريخ وأنا تلميذٌ في الابتدائي قد امتلأ رأسي قناعةً بأنّ الأرض كروية وتدور، واحدًا من أقارب أبي -واسمه "غالب" كان يزور أسرتنا في بعض الأمسيات- عبّر لي، أنا أكبر أولاد الأسرة في الصف الثالث الابتدائي، عن مدى "التضليل" الذي نتلقّاه في مدارسنا عن كروية الأرض، وأراد أن يُثبت لي وهْم "رحلة ماجلاّن" حول الأرض، بأن طلب أن نُحضَر له صحنًا مُسطّحا، وأخذ يشير بإصبعه إلى أنّ دورة ماجلاّن كانت كمن يدور في داخل الصحن لا يخرج منه... ولم يُجبني عن سؤالي حين تكون عندنا ظلمةُ ليل وتكون الشمس ساطعة في الجانب الآخر من الأرض!

وما كان يخطر في بالي في ذلك الحين، أنّ وطني الذي أعيش فيه، سوف يخرج منه الناس بعد عقود من السنين، يدورون في الأرض، ولا يجدون لهم مكانًا آمنًا!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٥-٣-٢٠١٥

في إذاعة "مونت كارلو" مع هيام حموي (١من٢)

في مطالع العام ١٩٧٨ سجّلت لي الإعلامية "هيام حموي"، مع زميلها "مهيار"، حديثا في إذاعة مونت كارلو في باريس، مدته ساعة، وجدتُني فيه أتحدث بطلاقة أكثر ممّا عهدت في نفسي ممّا سجّلت من أحاديث قبلها في حلب ودمشق. وأذكر أنهم طفقوا يعلنون، طوال الأسبوع الذي سبق، عن موعد إذاعة الحديث ما أثلج صدري وأنا خارج الوطن.

واتفق -قبيل مغادرتي باريس صيف ذلك العام- أن كانت هيام غائبة عن عاصمة النور، فسجّل لي مهيار حديثا طال حتى بلغ الساعتين أو نحو ذلك، ثمّ بدا كما لو أنّ هذا التسجيل غاب عن الأعين هناك... إلى أن تناهى إليّ، بعد مدة وأنا بدمشق، أنّ حديثا لي يذاع على حلقات من إذاعة مونت كارلو مساء كل خميس، وفي استماعي إلى إحداها تبيّنت أنه ذلك الحديث الطويل لكن "مجَزّءًا"، عشر دقائق في كلّ حلقة، وكان "المُحاوِر" هيام! وأنا أردّ في إجاباتي على "محاوِر" رجل، ذلك أنّ هيام هي التي تولّت إعادة تسجيل "الأسئلة" بصوتها. حدّثتها بذلك، حين ضربت إذاعتُها في صيف ١٩٩٠ أو حول ذلك، خيمة في رحاب معرض دمشق الدولي تبثّ منها بثّا مباشرًا، والفارسة في هذه الإذاعة هي الإعلامية هيام... فقالت لي مازحة: «بقى هيك عملت! لم أعد أذكر!».

تملك هيام حموي صوتًا إذاعيًّا، ملائكيًّا، ندر مثيله بين المذيعات العربيات، تَرفِده ثقافةٌ، وحضورُ بديهة، ومرحٌ أيضًا. من مرحها وظَرفها أنها كانت "تفسّر" لنا، ونحن في دار الإذاعة في باريس، لِمَ تُكثر من تقديمها أغنية "صباح فخري" الطالعة حديثا تلك الأيام: «هيّمتْني، تيّمتْني، عن سواها أشغلتْني»، مشيرةً في ذلك إلى أولى الكلمات في الأغنية!

تنتسب هيام إلى أسرة دمشقية، وقد عاشت مع أهلها بحلب صبيّةً تدرس في "الفرنسيسكان" الحلبية، وهي تزاوج في حبّها لدمشق وحلب، كما أزاوج أنا في حبّي لهاتين

المدينتين العريقتين، وقد سكنتُ دمشق منذ خمسين عامًا منتقلاً إليها بحكم الوظيفة.

أعرف أنّ هيام عادت، بعد اغتراب طويل، إلى وطنها. أحيّيها اليوم حيثما كانت، وقد بدأتُ من ناحيتي "رحلة اغتراب" لست أعرف مداها، و"رحلةَ حنين" لبيتي، ومكتبتي، وأرشيف حياتي.

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٧-٣-٢٠١٥

متصفّحة.. لا تقرأ لي. ولا بأس!

كتبت، أمس، متّكئًا على سجع من المأثور الشعبي، خاطرةً ورد فيها أنّ «سكوتنا خمسين سنة سوَّدَ بُخوتنا»، فسألت متصفّحة، تعلن أنها تعمل "في الصحافة الساخرة": «وما الذي حدث من خمسين سنة، وسكوتنا عليه سوّد بخوتنا؟»، ففضّلت أن أختزل الردّ بأن أشير إلى قليل مما نالني أنا، مُعفيًا نفسي من "جردٍ" لا طائل وراءه، قلت: «إذا كنت ما تزالين تجهلين ما حدث ويحدث فعبثًا ما أشرح. ولكني أقول شيئًا واحدا يتعلق بي: حين كان بعض الأدب الذي أكتب منذ الخمسينيات يُترجم وتدار عليه أطروحات في بعض الجامعات الغربية، كنت أنت تجهلينني ولا تسمعين باسمي، بينما أسماء مَن لا يصلون إلى قامتي تملأ سمعك!».

فقالت: «بتعليقك هذا، هل تمدح نفسك أم تتهمني بالجهل؟ وهو ليس ردا على سؤالي!».
ولم أُجِبْها بأنّ ما ذكرتُ هو "وقائع" وليس "تقييمًا جماليًّا" يحتمل الجدل... وزعمتُ: «ليس فهمُ ما قلت عسيرًا! إني -وأنا على ما وصفتُ- لم تسمعي باسمي، يعني أنّ الكُتّاب الذين تُلقى الأضواء عليهم هم من أنصار النظام. وفي هذا جنايةٌ على الأدب، وعلى سائر فنون الإبداع ومناحي الحياة، هل فهمت؟... أم أنّ في تساؤلك شيئا من مكر مردود عليك حين تقولين: أنت تمدح نفسك أم تتهمني بالجهل؟ أقول لك: الاثنان».

قالت: «ألم تلاحظ أنك رددت على أسئلة أنا لم أطرحها واتهمتني بالمكر وهو ليس من خصالي، وإن كنت لا تريد شرح أسباب سكوتك خمسين عامًا فهو شأنك، مع أني لم أسمع بك معارضًا أو مضطهدًا أو ملاحقا من النظام. أما بالنسبة إلى اتهامك لي بالجهل فهذه صحيحة فأنا لم أقرأ إلا لكتّاب أمثال... [وعددتْ أسماء كتّاب عرب وأجانب]، أما روايتك "رياح كانون" -تتابع القول- لم تشدني، وهي في مكتبتي منذ زمن. والقراءة حريه شخصية وتذوق. ربما حضرتك معروف في أوساط ثقافية لا تهمني، فعذرا لجهلي بأدبك، وشكرًا لأنك قدّمت نفسك لي كما ظننتك»!

وأردّ هنا:

يحقّ لي أن أدّعي أني كاتب يناهض الظلم والفساد في غير قليل ممّا أكتب منذ ستينيات القرن الماضي، ما فوّت عليّ أن تتبنّى نشر كتبي أكبرُ مؤسستين في الدولة، فأنا أسوح بها من بيروت إلى القاهرة حتى تونس، وبما تُرجم من بعض أدبي في مدريد وباريس ولندن وبرلين وموسكو... حتى طهران. وأزعم أني مضطهد، نعم، حتى إني تركت وظيفتي مديرا في وزارة التعليم العالي (عام ١٩٨٢) طالبا إحالتي على التقاعد وأنا في الخمسين، ولكني لم أدّعِ أني "مطارَد"، وقد غادرت الوطن أواخر ٢٠١٣ بالمعابر الرسمية إلى حيث أبنائي وأحفادي ومنهم من وُلد هنا، وأنوي العودة إلى حضن الوطن قريبًا.

وعن تنديدي في أدبي بأفانين الظلم والفساد، دعوني أيها الأصدقاء، أَرْوِ لكم أني وقفت يوما (أواخر العام ١٩٨٠) في "مدرّج المتنبي" بمبنى كلية الآداب القديم، أحْيي أمسية أدبية. ومن هناك في ختامها أخذوني إلى الأمن السياسي، فإلى العاصمة موجودًا، فإلى معتقل الشيخ حسن، وذلك ما أوحى لي بقصتي "بدر الزمان"، التي نقلها فيما بعد إلى الإسبانية طالب بجامعة مدريد ونال عليها مؤهّل الدكتوراه، قد تكون المتصفّحة المناقِشة في ذلك الحين طالبة في هذه الكلية

أو لم تكن مولودة بعد!

وإني لتنتابني الآن رغبةٌ في أن أجاريها في ولعها بالسُّخْر، فأقول: إنّ حرصها على القول بأنها لم تقرأ روايتي "رياح كانون"، ذكّرني بما أعرف من خبر عميد الأدب العربي طه حسين، حين كان وزيرًا "للمعارف" في آخر حكومة لحزب الوفد بمصر (١٩٥٠–٥٢)، فقد اتفق له أن أصدر قرارا لم يعجب الطلاب، فساروا إليه بمظاهرة، وعلى باب الوزارة هتفوا: «يسقط الوزير الأعمى!»، فخرج إليهم يخطب، وقال: «أحمد الله على العمى حتى لا أرى وجوهكم! ».

أعترف أخيرا:

بأني كنت أتمنّى أن أقدّم للسيدة نفسي بصورة أفضل مما كانت تظنّني، ولكن خيبتي في هذا مردّها: إمّا إلى عجزي عن الإفهام، وإما إلى عجزها هي.

وأخرى: إني تمنّيت لو أنها حبّبت إلى نفسها قراءة "رياح كانون"، المركونة في مكتبتها منذ زمن، فأكسب قارئة ذات نظر، ولكن تظلّ خسارتي لذلك ليست بشيء.

فلوريدا: ليل الأربعاء ١-٤-٢٠١٥

نكتة أول نيسان!

يأكلون من خبز السلطان.. ويجعلهم البعض من كبار المعارضين

- - - - - - - - - - -

وقفتُ، يوم أمس الأول من نيسان، على ما كتبه أحدهم في أحد المواقع، فقرأت وصفه لأربعة من الكتّاب السوريين بأنهم من "كبار الأدباء المعارضين"!

فأما أنهم من "الكبار" فتلك مسألة تحتمل الجدل إيجابًا وسلبا، وأما القول بأنهم "معارضون"...

فأولهم (م. م) والأخير (م. ع!) -يرحمهما الله- كانا من "ممتهني المعارضة"، اللسان يتغنّى بالحرية والجسد يَسبح في تيار النظام.

وثانيهم (أ...) ما زال حتى يوم الناس هذا يتجوّل في بلاد الغرب، يتمسّح بالعتبات أملاً في أن يحظى بما حظي به نجيب محفوظ.

وثالثهم (ح...!) يغنّي للمعارضة الافتراضية، وهو يستظلّ كنف مَن كان يعدّ المال سعيدًا في وزارة الثقافة.

أعود إلى الأول (م. م): كان يشارك بكتابة زاوية في إحدى الجرائد الثلاث في العاصمة، كلّ أسبوعين مرة. ذات يوم أمسك أمنيٌّ كبير بسماعة الهاتف وسأل عمّا يدفعون لهذا "المعتّر" على المقالة الواحدة؟ أجاب رئيس التحرير: «ألفين وخمسمئة»، وكان هذا المبلغ "يحكي"(١) في أوائل هذا القرن. قال: «اضربها بخمسة أمثال، يقبض كل شهر ٢٥ ألف»، ولم يخطر لهذا الأمني أن يضيف: «كَتَب أم لم يكتب»، فجعل الكاتب، الذي بات يُتعتع قلمَه الإدمان على شرب الويسكي، يوَرِّد للجريدة ما كان في الماضي كتب.

ويأتي في آخر الزمان من يصف هؤلاء الأربعة "بكبار الأدباء المعارضين"!

"نكتة" أول نيسان!

فلوريدا: صباح الخميس ٢-٤-٢٠١٥

حوار مع تلميذ صف سابع

مساء أمس الخميس، في الساعة الرابعة والنصف عصرًا (وفي الوطن الحادية عشرة والنصف ليلاً)، جرى بيني وبين أحدهم الحوار التالي:

---

(١) أي كان ذا قيمة وأثر.

هو: السلام عليكم.

أنا: وعليكم السلام.

هو: أنت الأستاذ فاضل السباعي؟

أنا: نعم.

هو: يعني أنت تقرأ ما أكتب الآن وتردّ عليّ؟

أنا: نعم. عرّفني بنفسك.

هو: اسمي "أحمد... "، صف سابع، أخذنا اليوم درس عنك في كتاب "العربية لغتي"! وقرأنا نُبذة عن حياتك، مع صورتك في الكتاب.

أنا: ما عنوان الدرس؟

هو: نسيت. لحظة. طويل فيه كلمة "شمس". تذكّرت "الشمس تشرق من جديد". رجل متقدّم في السنّ، ساءت أحواله، فحملوه إلى دار العجزة. متى كتبت القصة؟

أنا: يمكن... في الخمسينيّات، قبل شي ستين سنة.

هو: هل هذه القصة واقعية؟

أنا: هي خياليّة، لكن عندما تتكرّر حوادث من نوع معين تتحوّل الحادثة إلى قصة من "الأدب الواقعي"!

هو: القصة حلوة كتير كتير ومؤثّرة، ومشان هيك حبّيت أتصل فيك. آنستنا، "الآنسة آلاء"، قالت لنا اليوم إنها "صديقة" لك في "الفيس بوك"، وأنها تحدّثت معك قبل أيام، حكت لنا عنك كلام جواهر[1]، جرّبت أتصل. هل أنت في الشام؟

---

(١) كلام طيب.

أنا: هل دخلتَ على صفحتي، يا أحمد، وقرأت شيئًا ممّا أكتب؟

هو: يعني المنشورات قصدك؟ لأ، هلّق[1] اتصلت.

أنا: اقرأ تعرف في أيّ مكان من العالم أنا موجود.

هو: يعني فين؟ [بعد لحظات] قرأت أستاذ، أنت في فلوريدا، أظنّ في أمريكا! يا ألله! أنا أكتب لك من الشام وأنت تجاوبني من أمريكا؟ أتمنى أن أراك. قرأت أنك من حلب، هل لك بيت في الشام؟

أنا: نعم.

هو: أين؟

أنا: (..........)، وأنت، يا أحمد، أين تسكن؟

هو: في "باب مصلّى".

أنا: ومدرستك؟

هو: "حسان بن ثابت"، قريبة من بيتنا، تحت "جسر الميدان".

أنا: أنت من "ريف دمشق"؟

هو: أخ! منين عرفت؟

أنا: دخلت على صفحتك، يا أحمد.

هو: إي صحيح، من "ببّيلا". بس نحن من "حيّ ساروجا"، كنا نسكن في بيت بـ ببّيلا، وبسبب الحوادث تركناه، بيتنا هلّق آجار. بس ما أكون ضايقتك أستاذ!

أنا: لا، يا أحمد، لو كنت متضايق منك كنت قلت لك: اختصر. أنا مسرور من "جرأتك

---

(١) الآن

الأدبية"، ومن أنك تستخدم "شبكة التواصل الاجتماعي" لأغراض نافعة. أريدك أن تقرأ، تطالع، ولا تكتفي بكتب المدرسة.

هو: أوعدك، أستاذ. امتى بدّك ترجع للشام؟ لا تقول بعد الحرب!

أنا: تراها مطوّلة!

هو: يوم الأحد بدّي أحكي لزملائي أني كلمت الأستاذ صاحب قصة "الشمس تشرق من جديد".

أنا: سلّم عليهم، وعلى الآنسة.

فلوريدا: صباح الجمعة ٣-٤-٢٠١٥

استكمالًا لحوار قديم

حواري مع الفتى "أحمد"، استدعى في خاطري ما عرفت، منذ قريب، من أنّ أديبة سورية نشيطة، تكتب بلغة أخرى، قامت، خلال السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية، بإعداد حوارات مع عديد من الكتّاب السوريين، مقدِّمةً لكلّ حوار تعريفًا بشخص المحاوَر ورصدًا لأعماله، وقد تضيف نصّا له، قصة أو قصيدة، وتترجم ذلك كلّه إلى لغتها الأمّ، وتنشره في المجلات التي تصدر في أنحاء العالم، قاصدةً التعريف بأدبنا السوري حيثما استطاعت.

ثمّ إنه قُدِّر للكاتبة أن تسافر برفقة زوجها ليقيما بقرب أبنائهما في ذلك القطر البعيد، ولكنّ حبّها للوطن الذي تربّت فيه، زيّن لها أن تعود إليه، فتجمع كلّ تلك الحوارات السخيّة، في كتاب جليل تُخلّد فيه حبّها للوطن وجهدَها الثقافي النبيل، تتولّى تمويله إحدى المؤسسات الثقافية الفاعلة في تلك اللغة.

وأملى عليها إتقانُها العمل أن تعيد النظر في تلك "المقدمات"، تستكمل فيها ما جدّ عند كلّ

كاتب، من شؤون حياته وأعماله. وناشدتني المساعدة، فاستجبت بأن قدّمت لها أرقام هواتف من طلبت... ومنهم ذلك الكاتب الذي أفاض عليه النظام الرعاية والعناية حتى جرى اسمه على الألسن.

حدّثَتْني بأنها لدى اتصالها به على الهاتف من بعيد، وما إن بدأت بالقول بأنها أجرت... تُجري... حوارا... حتى قاطعها سائلا بصوت أجشّ: «قدّيش بتدفعي؟ »، ومع استغرابها السؤال التزمت الصمت لحظةً تستجمع أفكارها، فكان أن أغلق الهاتف في وجهها!

سمعت منها ذلك، وما استغربت... وأوجزت لها القول: إنه البطر!

وصدر الكتاب، دون استكمال ما يخصّ هذا الكاتب، الذي رحل عنّا منذ قريب.

فلوريدا: ظهيرة السبت ٤-٤-٢٠١٥

يا بنات المُكَلّا

كتبت إليّ، ليلة أمس، صديقة هي طالبة جامعية في بلدها الواقع على شاطئ من شطآن الجزيرة العربية، تقول إنها -بعد أن قرأت الحوار مع تلميذ الصفّ السابع- باتت ترى أنّ أطفال سورية يَنْضَجون قبل الأوان! وانتهت إلى أن تسألني -وهي شَغوفٌ بالأدب إلى جانب دراستها الطبّ- أن أدلّها على ناشر في بلاد الشام يطبع لها كتابها الأدبي الأول؟

وقد وجدتها سانحة لأن أسألها، وهي من منطقة قد امتدّت إليها ألسنة اللهب، عن "حاضرة" المحافظة أو الإقليم الذي تنتمي إليه، مَن يسيطر عليها من "المتقاتلين"، حسب أخبار اليوم؟

قالت: قوات مختلفة، والله لا نعلم لمين تابعين، للجيش، للقاعدة، للحوثيين، لحلف القبائل! احتلّوا الحرم الجامعي، وطردوا الطلاب من سكناتهم، والمدينة في علمي محاصرة، وأنا

غادرت إلى بلدتي في الوادي. لم يعد أي مكان آمنا.

قلت: لو تعلمين، يا بسمة، كم كنت معجبًا بمسيراتكم السلمية، يمشي الناس كتفًا إلى كتف، في الشوارع العريضة، مطالبين بالحرية، آمنين، لا يتعرّضون لقمع أو لقتل، إلى أن اعتدى عليكم "ظالمُكم" بقتل الناس قنصًا. وما كنت أتوقّع أن تصل إليكم عدوى القتل والاقتتال من شمال بلاد الشام، إلى جنوب الجزيرة العربية! على ماذا نبكي؟ على العراق، أم الشام، أم اليمن الذي جرى التاريخ على أن يسمّيه "اليمن السعيد"!

ثمّ شاءت صديقتي بسمة أن تقدّم إليّ "رابطًا"، فتحتُه فإذا هو نشيدٌ يؤدّيه شبابٌ وشابات من بلدها. أصواتٌ شجيّة، تنشد الحرية، وتشكو كمّ الأفواه، قيود وسلاسل، دماء تقطر من سيوف، ولهب يشوي ويحرق الجلود...

قلت متّجهًا بالحديث وجهةً أخرى: هل لك أن تفسّري لي معنى كلمة "المُكَلاّ"، مكلاّ الساحل، التي غادرتِها إلى بلدتك في "الوادي"؟ ثمّ توقّعتُ لها أن تكون الكلمة محرّفةً عن "المَكْلأَة"، وهي الأرض كثيرة العشب والكلأ، أم أنّ علينا أن نعود إلى "معجم البلدان" لنقرأ ما كتب ياقوت؟

وأحببت أن أنهي الحديث بما يُفرّج الهمّ قليلا، قلت: أنتنّ، يا بنات المُكلاّ، ماذا فعلتنّ بقلوب الرجال حتى أطلق مطربٌ من بلاد الشام البعيدة عن دياركم، هو "فهد بلاّن"، أغنية يشكو فيها متغزّلًا: «يا بنات المكلاّ ... يا دوا كلّ علّه»، ويردّد ولا يتوقّف عن بثّ أشواقه؟

ولم أنتظر منها جوابا، بل قلت: ما رأيك، يا "بسمة الوادي"، في أن أنشر حوارنا هذا؟

قالت: معقول! تعملها بي متل تلميذ الصف السابع!

قلت: عودي إلى نومك الآن بعد أن أدّيت صلاة الفجر، ودعيني أذهب إلى أوراقي... ثمّ

اقرئي في ضحى غدك...

فلوريدا: فجر الأحد ٥-٤-٢٠١٥

العودة إلى الوطن.. العودة إلى البيت

رأيت فيما يرى النائم، أني عدت إلى الوطن ممتلئ القلب سعادة، وأني توجّهت، في أول الشهر، إلى "الصرّاف الآلي"، وقبضت معاشي التقاعدي، ثمّ ذهبت، وبرفقتي ابنتي، لدفع الفواتير المترتّبة:

الكهرباء، التي تنقطع كثيرا، الفيجة، أقلّ، الهاتف، قليلا جدا، النت، ماشي الحال...

كانت ابنتي تلاحظ ما أدفع، فقالت حزينةً: «راح المعاش، يا أبي!».

أجبتها، دون أن يفارقني فرحي: «معليش، بنتي... يكفي أني أستظلّ سماء الوطن، وبعد ذلك كلّ شيء يهون...».

ثمّ أخذت أفكر، وأنا عائد إلى البيت، وفرحتي تتضاءل: يهون؟!

فلوريدا: صباح الإثنين ٦-٤-٢٠١٥

عندما تتجذّر الديكتاتوريّة

وممّا يؤكّد فراغَ قلوب الديكتاتوريين من حبّ الوطن

أنهم حين يقتضي زوالُهم

يعمدون إلى أن يهدموا البلد

حتى لا يُبقوا فيها حجرًا فوق حجر

أو...

يسلّموها إلى من هم أشدّ ظلمًا وكفرًا

وبعد ذلك يلسع كلٌّ منهم نفسه

كالعقرب الغاضب

ويموت بعيدًا...

فلوريدا: فجر الإثنين ٦-٤-٢٠١٥

أبو عبد الله الصغير بكى وحده، ونحن كلّنا اليوم نبكي

يوم سقوط "غرناطة" عام ١٤٩٢م، أخذ الأمير "أبو عبد الله الصغير" يبكي بكاءً مُرًّا على ما ضيّع من مُلك ووطن. وبصرف النظر عمّا وَجّهت إليه أمُّه من تقريع: «ابكِ مثل النساء مُلكًا مضاعًا.. لم تحافظ عليه مثل الرجال»، فإنّ محنته جاءت على أيدي أعداء يقودهم المَلِكان الكاثوليكيان "فرناندو" و"إيزابيلاّ".

اليوم... نحن كلّنا نَذْرف الدموع أنهارًا ونموت على الطرقات، ليس بقهر من الأعداء، لكن على يد حكام ظللنا نصفق لهم عُقوداً من سنين، وكأننا نسمع اليوم من أمهاتنا ما يقرع أسماعنا: ابكوا على ديار ضيّعتموها حين كنتم تبصمون بالعشر على ٩٩، ٩٩[١] وأنتم غافلون!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٧-٤-٢٠١٥

بأي حقّ يُقتل هذا الرجل؟

في تلك اللحظة بدأ القصف، ومع القصف قَنصٌ. كان الرجل -الذي سوف يصبح بعد لحظات شهيدا! - في فِناء البيت، يعاين وأبوه الزرعات وما تفتّح على غُصيناتها في مطالع الربيع

(١) إشارة إلى نسبة نتائج الانتخابات الرئاسية الشكلية التي كان يجريها النظام.

من ورود.

لمح، من وراء السياج، نسوة يهرولنَ فزعات، وأطفالا يصرخون، بحثًا عن ملجأ. أسرع يفتح الباب على مصراعه العريض: «ادخلوا، ادخلوا! »... ولحظة كان يردّ الباب وراء أخيرتهنّ، اقتحمت رصاصةُ قنّاص غادر صاجَ الباب الحديدي، مخترقةً صدره، فيتلقّاه صدرُ أبيه مقتولا.

"زياد" في نضْج كهولته. هو ابنٌ بارّ، وزوج وأب، يعمل مهندسا، ويتغنّى بالشعر أيضا. ونحن صديقان في "الشابكة" منذ زمن. انتابني حزن عليه عميق، فأحببت أن أعبّر، وكان عليّ أن "أعرّف" أولا... وإذا "أصدقاؤه الافتراضيون"، المتفرّقون في الأقطار، لا يعرفون عنه إلّا النَّزر اليسير الذي أعرف، ولكنّ ما يذكرونه جيدا أنه كان يتجاوز "النثر" إلى قول الشعر، فيُطربهم بمقطوعاتٍ يُغرّد بها في الوطنية، والإنسانية، والشؤون الحميمة، فيتميّز بينهم ويسعَدون هم بهذا التميُّز.

ويبقى السؤال الأليم:

بأيّ حقّ قُتل، أمس الأول، صديقي "زياد نسب"، الساكنُ كالآمن في "ضاحية الكسوة" جنوبيّ دمشق. كلّ ما جناه أنه قام يفتح بابه، يفتح صدره، ليحمي هاربين من الموت، فيُرديه قنّاصٌ بلا قلب، برصاصة تستقرّ في القلب!

ماذا يقع في بلدي!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٨-٤-٢٠١٥

ثلاث شجرات "أكِدنْيا".. والرابعة!

اقتنى صهرنا العزيز "فِرْناس"، في بلدتنا الوادعة، بيتًا "ع العضم"، وبخِبرةٍ عنده أخذ

يكسوه على مزاجه، مستقدِمًا الورشات ومستكملاً كلّ ما ينبغي.

وبعد أن فرغ من ذلك، وسكن هو وزوجته حفيدتي "ديمة" والفَتَيان "حمّودة" و"ياسمين"، جاءه جاره، ساكن الفيلا المجاورة، ليُعلِمه أنّ في "الحديقة" (وحدائق الفيلات هنا تتواصل دون حاجة لأسْيجةٍ وفواصل حتى لتُشكّل كلاًّ واحدا) ثلاثَ شجرات "أكِدِنْيا loquat"، كان قد غرسها في جانب من الحديقة، والآن يتبيّن أنّ هذا الجانب يقع في أرض جاره! وسأله ما إذا كان يريده أن يقتلعها ويغرسها ضمن أرضه؟ فتلقّى الجواب بأنّ الأفضل أن تبقى حيث هي تتابع نموّها وعطاءها... فكان أن منحه الجار الطيب الحقّ في أن يشاركه في الثمر!

ولا بأس في التعريف بأنّ شجرة الأكدنيا تُعدّ من الأشجار دائمة الخضرة لا تتعرّى من ورقها على مدار العام، وهي تختلف في "دورتها" عن كلّ الأشجار، فتلك تزهر في الربيع، والأكدنيا في الخريف لتطرح ثمرها في الربيع، وأزهارها بيضاء اللون زكية الرائحة، ولا تحتاج هذه الشجرة لكبير عناية أو سقاية، وتتمتّع ثمرتها بطِيب المذاق، وهي مغذّية ونافعة بما تحويه من ألياف عالية القيمة.

وموطن الأكدنيا الأصلي الصين، ومنها انتقلت إلى اليابان، ثمّ انتشرت في أصقاع العالم، فكان أن غلب، في الاسم العلمي لها، اسمُ البلد المضيف لها أولا على اسم البلد المنقولة منه، فهي Eriobotya Japonica lind، ولست أدري كيف درج في لهجتنا السورية اسم "أكِدِنْيا" التركي، وفي حلب "أنْكِدِنْيا" (بإضافة نون)، والأصل التركي: "يِني دنيا yeni dunya"، وتعني "الدنيا الجديدة"!

وأسترسل فأقول: إنّ أكبر الأشجار في حديقة بيتي في "شارع نوري باشا" بدمشق، هي شجرة الأكدنيا، وأذكر أني رأيتها، يوم دخلت البيت ساكنًا قبل خمسين عامًا، وهي في عمر العاشرة أو يزيد، وقد غُرست -كما حدّثني المالك الحاج فؤاد الخباز رحمه الله – في العام الذي

تمّ فيه بناء البيت ١٩٥٠.

وعن الشجرة عندي أشير إلى صعوبة القطاف منها كلما علت وسَمَقت، وقد استعملنا "السيبا" (السلّم ذا القائمتين) للصعود المريح، ثمّ لم يعد هذا السلّم يُجدي، والزهر والثمر يزكوان في قمم الشجرة وفي نهايات أغصانها المتهدّلة، وذلك كلّه ما أصبح بعيد المنال، وغدت الثمار اليانعة طُعمة لعصافير الدوري. وذات مرة أذِنت لجاري، ساكن الطابق الفوقيّ، في إطلالة منه على حديقتي، أنّ قطفه لهذه الثمار متاح ومباح، فأشاح متعفّفًا، ثمّ ضبطته يومًا وهو يشدّ من القمة إليه غصنًا حافلاً، فلما رآني استحيا وأَفْلت!

أعود إلى صهرنا فرناس. حدّثته أمس، وأنا في بيته، عن شجرتي كما حدّثني هو عن شجرات جاره الثلاث، وقد جاؤوا إلينا بطشت فيه ماء مبرّد مثلّج، قد غُرّقت فيه عناقيد الأكدنيا، نتناول الغصن، نجرّده ممّا فيه من حبّات واحدة بعد أخرى، ومنّا من يقشّر بعناية، ومنّا من يَلْقَم الحبة يلوكها ثمّ يَنبِذ البَزْر والقِشر!

كنّا نأكل... يقول لي فرناس إنه يقطف من الشجرات الثلاث من الجانب الذي يليه، ويترك لجاره الجانب الذي من ناحيته... ونضحك!

وقد غَصَصت، وأنا أفكر... ليس في شجرة نوري باشا وما تنقره العصافير من ثمارها قبل أن يدركها اليباس، ولا في اليد التي تمتدّ إلى أغصانها الحافلة في غفلة من العيون... لكن في ساكني الخيام، ما إذا كان متاحا لهم أن يأكلوا الأكدنيا، أو التفاح، أو العنب الحلواني الذي يُتوقّع أن تجود به كروم الغوطة في تموز القادم!

فلوريدا: صباح السبت ١١-٤-٢٠١٥

«بُكرَهْ عيونْ الدهرْ تْشوف»

قبل ثلاثين عامًا ويزيد، أنجزت كتابة قصة سمّيتها «احتفال في الساحة العامة»، يطلِق فيها جندُ النظام، في دولة ما، النيران الكثيفة على جمهور يحضُر مهرجانًا رياضيًا باهرًا... وذلك لأنّ رصاصة أطلقت من مجهول استهدفت راعي الحفل، الذي ما كان إلّا "الفتى الوسيم" حفيد الزعيم الأوحد الغالي على قلبه، يستقبل بالهتاف المعهود:

بالـــــروحْ، بالـــــدمْ نـفـديـك يا حـفـيـدْ
بـرمـوشْ الـعـيـنْ نحـمـيـك يا مجـيـدْ

فانهمر الرصاص على الناس، عشوائيًا، تصاحبه الأهازيج المجلجلة:

نحـنـا لهـا، نحـنـا لهـا روسَ الـعِـدا نـذلّهـا
وانْ كـان مـانْهـا تـنـحـني نـكسّـرهـا ونحـتـلّـهـا

وأيضًا:

مـؤامـرهْ، مـؤامـرهْ دنـيـئـةٌ مـدبّـرهْ
وكـلُّ مَـن وراءهـا لا يسـتـحـقّ المـغـفـرهْ

وهم لم يُغفِلوا اتهام المحاولين بالاغتيال:

قـتـلـهْ، قـتـلـهْ سـقّـاكـينْ الـدمّ
راحْ يـعـومـوا بحـمّـامـات الـدمْ

ويتباهَون:

دمْ، دمْ، دمْ اضـربْ ولا تهـتـمّ
رصـاصْ مـتـلْ المـطـرْ أشـلاءْ مـا تـلـتـمّ

ويتوعّدون:

نحنا رجالِكْ يا سلطةْ بالنار نضربْ والبلطةْ
واللي ما نصلْ ليهُمْ م الخوفْ يموتوا بالجلطةْ

وأخيرًا يعلنون الانتصار:

العهدْ البائدْ دمّرناهْ والوطنْ نحنا عمّرناهْ
بكرةْ عيونْ الدهرْ تشوفْ وتشهدْ ع اللي أنجزناهْ

فرغتُ من كتابة القصة يوم ٢٧ من آب/ اغسطس ١٩٨٢، ونُشرت متأخرة ثلاثًا وعشرين سنة في مجلة "الآداب" اللبنانية (العدد الثلاثي أيلول/ ت١/ ت٢ عام ٢٠٠٥)، ونزلت في كتابي «تقول الحكاية» بإذنٍ مسبق بالطباعة والتوزيع من قبل السلطات الثقافية.

يقولون: كاد "المعلّم" أن يكون رسولًا!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٤-٤-٢٠١٥

تعديل في قسمة "الهلال الخصيب"

في الرسائل التي جرى تبادلها بين وزير الخارجية البريطاني "مارك سايكس" ونظيره الفرنسي "جورج بيكو"، ما بين شهر تشرين الثاني ١٩١٥ وأيّار ١٩١٦، تلك الرسائل التي أسفرت عن "تفاهم" صادقت عليه روسيا القيصرية حينذاك، كان اتفاق على تقسيم "الهلال الخصيب" بعد رحيل الجيوش العثمانية عنه، وتوزيعه بين هاتين الدولتين... حظيت فرنسا بموجبه بالجناح الغربي من هذا "الهلال"، شماليّ بلاد الشام مضافًا إليه منطقة الموصل، وكان لبريطانيا فلسطين وشرقيّها وبغداد والبصرة وما يلي ذلك جنوبا، ومع حدوث تعديل على تلك "القسمة" فإنّ بنود الاتفاقية تم تنفيذها "بسلام ووئام".

ولكن بدا أنّ هذه الاتفاقية، وقد مضى عليها قرنٌ من الزمان، تحتاج اليوم إلى تعديل وترميم. فهل كان التعديل يقتضي هذا القتل كلّه، والتدمير والتهجير، أم أنّ ذلك هو المقصود ابتداءً!

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ١٥-٤-٢٠١٥

نَعلم أنّ مفتي دولتنا

نَعلم أنّ مفتي دولتنا ظلّ يتحدّث، زمنًا، عن التفاهم بين الأديان، والتصالح، والعيش الجميل...

فما باله اليوم يناشد -باسم الشعب السوري وباسم أهالي مدينته حلب- الدولةَ والجيش وسائر القوى، بأن تضرب مناطق من ريف حلب، إنْ هي أطلقت أو فعلت، متوعدًا بإبادتها بأجمعها؟!

فلوريدا: فجر الخميس ١٦-٤-٢٠١٥

لكِ أغنّي

لكِ أغنّي

أعزف على نايي

أروي الحكايات

أقول وأقول...

تُصفَق في وجهي الأبواب

توصد عليّ الأبواب

أنطلق إلى عراء الوطن

أغنّي وأغنّي

والعينان في الأفق

أيتها الحرية الجميلة

آمنت بأنّ فيك الترياق

الذي يَشفي من كلّ فاسد وقبيح

ويُعيد إلى الحياة جمالها ورُواءها

افتتاحية كتابي "تقول الحكاية" دار إشبيلية، دمشق ٢٠٠٦

فلوريدا: فجر السبت ١٨-٤-٢٠١٥

البلبل ناغى قرب الياسمينة!

غرسةُ الياسمين التي نفضت ابنتي عنها ترابها في الوطن، وجعلتها في خرقة نديّة، ودخلت بها إلى البلاد خلسة، قد قُدّر لها أن تُمسِك بالتربة الأمريكية هنا، وتنمو، وتنجب كثيرا، وكان توزيع "الأولاد" على بيوت الأهل والخلاّن.

والياسمينة الأمّ، المتّخِذةُ مسكنًا لها الجانبَ الأمامي من الحديقة تزنّر البيت دون سياج، تتبرعم أزاهيرُها مساء كلّ يوم، لتتفتّق ساعة الفجر، أذهب إليها وفي اليد إناء من الكريستال... أقطف، أشرئبّ لأطول ما بَعُد منها، هنا زهرة، اثنتان متجاورتان، ثلاث، أعُدّ ما أجنيه مثل صبيّ صغير... وربما لمحني المُبْكِرون في الذهاب إلى أعمالهم وهم في سياراتهم، ولعلهم يعجبون: لماذا يُعَنّي هذا الرجل الغريب نفسه بأن يقطف تلك الأزهار الصغيرة التي لا تكاد تبصرها العين!

لم أقصد الحديث عن هذا كلّه، في خاطرة اليوم، أيها الأصدقاء، ولكن لأخبركم بأني

اكتشفت أنّ على شجرة النخيل، المجاورة لياسمينتنا المتعرّشة على جدار قد بُني من أضلاع خشبية، يسكنُ بلبل، وإنه يشرع في غنائه حين أبدأ في القطاف، ولا يكفّ إلّا لحظةَ يَئِين موعد ذهابه للبحث عن قوته اليومي... إنه يذكّرني:

البلبل ناغى ع غصن الفلّ آه يا شقيقَ النعمانِ
قصدي ألاقي محبوبي بين الياسمين والريحانِ

ذكّرني البلبلُ الغِرّيد هنا بمُطرب العرب، وأيضا بذلك "الشُّحرور" الذي دأب على أن يأتي إليّ من الغوطة، يقضي فصل الصيف في حديقة بيتي في "نوري باشا"، وقد ألهمني قصة "الشحرور القادم من الغابة"، التي نُشرت في أحد أعداد مجلة "العربي الصغير" في الخريف الذي مضى.

الجسم هنا، يا أصدقائي، والعقل هناك.

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٢٠-٤-٢٠١٥

رسالة من أب إلى ابنته

لم أحزن كثيرًا، يا ابنتي، وأنا أقرأ أمس ما أسمّيه "بيانك الاعتذاري" معلّقًا على جدار صفحتك، تعبّرين فيه عن إحساسك بالخيبة تجاه "المعارضة" في بلدك، التي بدأت انتفاضة أهلها سِلميّةً ثمّ -تقولين- «تعسكرت بطريقة لم تُرض الكثير من أفراد الشعب»، وتستغربين كيف أنّ هذه المعارضة لم تستطع أن توحّد فصائلَها على رأيٍ طيلة السنوات الماضية!

لم أحزن كثيرًا، لأنني أعرف مقدار ما عانيت، أنت وابنك الفنان الشاب "ماجد"، في ديار الغربة نحوًا من ثلاثة أعوام طويلة، لئن كانت غنيّةً بالإبداع، إنها مشحونةٌ أيضًا بالعمل الدؤوب للوقوف على الأقدام في عالم لا يرحم. وسوف أظلّ أذكر ما حدّثتِني به يوم وقف، في

عتبة بيتك المستأجَر بالقاهرة، مالكُه أو وكيل المالك، يردح لك، ويسبّ أباك الذي يوصف بالكاتب، ويلعن الشعب السوري الذي يهرب من المعركة مُلتجئا إلى دول أخرى دون أن يكون مزوّدًا بالمال. وما الرجل إلا واحد من حثالة "الرأسمالية الرثّة" التي صالت وعاثت في ظلّ الأنظمة الديكتاتورية... نعم، وأذكر كذلك المخاوف التي بعثْتها في نفسك، وفي نفوس أهلك، معرفتُنا بأنّ اسمك قد وُضع في قائمة المطلوبين لفرع الأمن العسكري بدمشق (فرع فلسطين) سيّئ السمعة.

ساعةَ عُدتِ من "المقابلة" الموعودة، أمس، هتفتِ إليّ، وصوتك يضجّ فرحًا، بأنك رأيتهم "لطفاء"، وأنّ اللقاء كان "راقيا"، وأنّ كلّ ما طلبوا منك أن "تكتبي"، أن تُعبّري، في صفحتك عمّا يعنّ لك من أمر الوطن.

كانوا لطفاء، نعم، وكنت في غاية السعادة، يوم وصل إليك، وأنت في الغربة، وعدٌ منهم بأنهم لن يزعجوك لحظة اجتيازك الحدود، وأنه سيكون لك أن تراجعيهم في يوم تركوا لك مسألة تعيينه، فظللت بدمشق على جمرٍ ستين يوما قبل أن تتشجّعي وتذهبي إليهم.

لطفاء... ولماذا لا يكونون كذلك في تعاملهم مع فنانة تشكيلية لا تحمل في يدها خنجرًا، بل هي ريشة تمرّغها بالألوان، لتسجّل بها حالات الموت والقهر والدمار التي تَغْشى بلدها، فضلاً عن تصويرك، يا ابنتي خلود، لحالات إنسانية أخرى، تبدعين، وتقتسمين الرَّيع الذي يتحصّل لك مع نزلاء الخيام، بأن يُشترى لهم قليل من "الحرامات" تَقيهم شرّ البرد والصقيع.

قلت لي أمس على الهاتف إنك سوف تكتبين، فنصحتك بألّا تبالغي في القول، والجماعة تركوا لك الخيار، فلم يحدّدوا لقولك سقفا ولا أرضا. وتحاشيتُ الدفاع عن المعارضة وتشرذُمها، لمعرفتي بأنّ الناس تربَّوا على إعلان ولائهم المطلق لشعارات «الوحدة والحرية والاشتراكية»، ولا ناقشتك في تساؤلك عن فشل المعارضة في العثور على «وسيلة للتفاهم

للعيش المشترك في ظلّ أمن ينشر أجنحته على كلّ أطياف مجتمعك الحبيب»، والنظام ما زال يرمي براميله على "حواضن" الفقراء والبؤساء الذين ما بنوا بيوتهم إلّا بكدّ اليمين وعرق الجبين.

لم أحزن كثيرا، يا ابنتي، لأني أعرف ظروف القول، وظروف العمل، وظروف العيش، وظروف الإبداع. وآه، لو تدرين كم أثّرت فيّ عبارتُك الأخيرة: «عدتُ إلى الوطن، وقد أتعبتني الغربة، وأرهقني الحنين والشوق إلى رائحة الألوان تعبق في بيتي أغمس فيها ريشتي وأخضّب أناملي! »، وأنا على يقين من أنّ أعمالك الفنية سوف تبقى في ضمير الشعب، والانتفاضة، والزمن، شاهدةً على انحيازك للمقهورين والضعفاء.

فلوريدا: مساء الثلاثاء ٢١-٤-٢٠١٥

الدولة العثمانية عند سقوط غرناطة ١٤٩٢م - ٣من٣

يهمّني القول بأني إن لم أتعرّض في الخاطرتين (الأخيرتين) لشجب المجزرة أو لتزكيتها، فإني أعرف الدور المتميّز لدولة بني عثمان في حماية الأمة العربية، مِن تغوُّل الغرب في أعقاب سقوط غرناطة (١٤٩٢م)، ووثوب العسكرتاريا الإسبانية إلى العُدوة المغربية (وسبتة ومليلة ما زالتا في الأسْر حتى يومنا)، استعدادًا "لحرب صليبية جديدة" يصلون فيها -عبر الشمال الإفريقي هذه المرة وليس أوروبا- إلى بيت المقدس... فكان للدولة العثمانية، وهي في عزّ قوتها، أن تُجهض ذاك المشروع عند ما يُعرف اليوم بالحدود المغربية - الجزائرية، فيتغيَّر بذلك مسار التاريخ. وهو دور ظلّ عرب المشرق، وأخصّ كتّاب التاريخ من الشاميين، يرفضون الاعتراف به. ولما ضعفت الدولة الحامية -وإنّ للدول أعمارًا- هجمت دول الغرب (إسبانيا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا) على أمتنا مغربًا ومشرقًا، وتوزّعتْنا لقمًا سائغة... ومن ذلك تطبيقهم اتفاقية

"السايكس"، التي يبدو أنهم يعملون اليوم على تعديلها!

فلطفًا، أصدقائي، لا يُزاوِدَنْ أحدٌ ههنا، وإني إن كنت أعي دور الدولة العثمانية وأذكره، فهذا لا يعني أن أتجاوز موضوعيتي التاريخية وإنسانيتي، ولنبقَ غير بعيدين عمّا رمت إليه الخاطرتان من قريب المعاني.

وشكرا لمن مَرّوا، وفي مرورهم كفاية.

فلوريدا: فجر السبت ٢٥-٤-٢٠١٥

وقال وزير الدفاع: «حتى يتثقّفوا»!

لا بأس في أن أقول إني اشتغلت طويلاً في إعداد ذلك الكتاب، الذي نقله أحد أصدقائي إلى العربية، من تأليف المستشرق الإسباني "البروفسور خوان فيرنيت"، وتولّيت نشره بعنوان "فضل الأندلس على ثقافة الغرب" (وكان العنوان بالإسبانية: "الثقافة العربية الإسبانية في الشرق والغرب")، وعكفت على الكتاب منمِّقًا لغته العربية، ومذيِّلاً صفحاته بحواش مستفيضة، صحّحتُ فيها وناقشت، وأضفت غير قليل في الهامش والمتن أيضا، حتى إنّ أحدهم قال: أوشكت الحواشي والإضافات أن تكون تأليفًا يضاف إلى التأليف. وصدَرَ الكتاب في نحو ستمئة صفحة مجلدًا.

أعرف أني أسرفت في الاسترسال، لأقول بعد ذلك إنه زارني ضحى، بُعيدَ صدور الكتاب في خريف ١٩٩٧، صديقُ العمر "العميد الدكتور بسّام سْخيطة" (ابن المربي الجليل بحلب نعمان سْخيطة)، وقد كان يشغل منصب المستشار العلمي لوزير الدفاع يومذاك، فقدّمت له الكتاب صديقًا مثقفا، فالتمَس مني نسخة أخرى للوزير العماد مصطفى طلاس، ثمّ نسخة مع خطابٍ مني للمكتبة العسكرية.

من جميل ما فعل صديقي بسّام، رحمه الله، أنه عاد يطرق بابي سويعة الظهيرة من ذلك اليوم، وفي يده "صورة فوتوكوبي" من خطابي ذاك، وقد ذُيِّل بعبارة خطّها الوزير المولع بالثقافة، يقترح، أو هو يُملي، أن تقتني المكتبة العسكرية نسخًا من الكتاب بعدد مكتباتها الثابتة والمتنقلة، ومئة أخرى تكون تحت يده يهديها لزائريه من الضباط، مُنهيًا عبارته بهاتين الكلمتين: «حتى يتثقّفوا»!

أعترف اليوم بمدى الفرح الذي غمرني لأنّ ضباطنا الأشاوس سوف يطّلعون على صفحات مشرقة من تاريخنا المجيد في الأندلس التي انتقلت عبرها العلومُ والمعارف العربية إلى الغرب، فكانت من عوامل نهضتهم في القرن الخامس عشر. وما كان لي أن أقرأ الغيب، فأعلم أنّ فئة من أولئك الضباط سوف يقومون بعد سنين، بما... أعجز الساعة عن وصفه أو الحديث عنه.

فلوريدا: فجر الخميس ٣٠-٤-٢٠١٥

ما زال أصدقاء جُدد يمنحونني مودّاتهم

ما زال أصدقاء جُدد يمنحونني مودّاتهم

وما زلت أتجوّل بين الخمسة آلاف وأمارس قسوة ليست من طبعي!

فلوريدا: الأول من أيار/ مايو ٢٠١٥

عريس الأحزان!

اتصلت بصديقي الشاب، طالب الدراسات العليا[1] الذي وجد بعد الجهد عملاً في البلد

---

(١) المقصود هنا: د. أحمد عمر، وكان آنئذ على وشك إتمام الدكتوراه.

الذي التجأ إليه، أهنّئه على أنه عَقَد على فتاة جامعية استطاعت أن تنجو بنفسها مع بعض أهلها إلى حيث يقيم، فأسمعني، في التعريف بها، أنّ أسرتها الكبيرة فقدت في الأحداث سبعة من شبابها، قُتلوا بالرصاص أو ماتوا تحت التعذيب، وأنّ عددا من نسائها والأطفال قضوا تحت الأنقاض، وأنّ أباها معتقلٌ منذ سنتين لا يعرفون عنه شيئا...

فصرخت به: أنت تُبكيني، يا عريس الأحزان!

وكان آخر ما ارتسم أمامي على الشاشة حروفا تَقَرَّيتُها بعينين نديّتين، تقول: «لمثلها تنحني القامات»، عبارة وددت لو أني أنا من سبق إلى قولها.

فلوريدا: فجر السبت ٢-٥-٢٠١٥

بين "الواقع" الميداني و"الحقيقة" الفنيّة

جريت على أن أعرض الخاطرة (التغريدة) التي أستلهمها من حواراتي مع الأصدقاء، على صاحب الحوار، وظللت أتلقّى منهم الرضا المقرون بالشكر، وليس يخلو الأمر أحيانًا من إبداء ملاحظة تتعلق بتغييرٍ يراه الصديق "اختلافًا" بين الواقع الذي مرّ، وما ترغب الخاطرة في قوله.

خاطرة أمس، "عريس الأحزان"، لدى عرضي إياها على ملهمها طالب الدكتوراه[1] الذي يُدرّس في جامعة قريبا من إسطنبول، أثنَى، ثمّ لاحَظ أنّ عدد الشهداء في الأسرة كان واحدًا وخمسين، رقمًا موثّقا بالأسماء والصفات، وأنه زاد شهيدا -هو ابن عمٍّ آخر للفتاة- صباح اليوم الذي تمّت في مسائه الخِطبة!

فأجبته بأني أسمح لنفسي بأن أتجاوز "الواقع الميداني" -إن صحّ التعبير- إلى تلك الحالة التي أسمّيها "الحقيقة الفنية"، وأوضحت أني إن ذكرت العدد الواقعي (٥٢)، جعلت القارئ

---

(١) وهو الدكتور أحمد عمر، المُشار إليه آنفاً، في الخاطرة السابقة.

يتصوّر أنه بإزاء "معركة" تُنازِل فيها "قبيلةٌ" النظامَ برمّته، وليس يُحقّق لي ذا غرضا. وأعترف بأني "نزّلت" العدد في المسوّدة إلى ستة وعشرين، ثمّ إلى اثني عشر، وما ارتحت إلّا حين جعلته سبعة -وإنّ لهذا الرقم دلالة في التراث الإسلامي- توصّلاً مني إلى ما أسمّيه مرة ثانية "الاستساغة الذهنية".

وللعلم، إنّ صديقي لـمّا يُصبحْ عريسا، فالخِطبة في أولها، وقد تمّت على مَبْعدة ألف وخمسمئة كيلو متر من مكان إقامته، وعاد دون الفتاة! وأني أغفلت الإشارة إلى موطن الأسرة "الشهيدة" تمويهًا تقتضيه الظروف! وأني قلت: «أنحني لها ولأفراد أسرتها»، وهو قال: «ذاقت من مرّ الحياة ما يجعلني أنحني لها احتراما وتقديرا»! ولعلني قصّرت حين تجاوزت عبارة حميمة قالها: «لو رأيتَها، يا سيدي، وهي تقف من جديد في هذه الحياة بعد أن يئسَتْ من كلّ شيء، إنها لن تكون غدًا زوجتي فقط، إنها ملهمتي، ومنها سوف أتعلم كثيرًا!».

وإلى الخطيبين أقول: اذهبا إلى العيش الجميل، فإنّ الحياة جديرة بأن تُعاش، رغم كلّ شيء!

فلوريدا: عصر السبت ٢-٥-٢٠١٥

ولا يَكُفّ الغرب عن نفاقه!

مليحٌ منهم أن يُفتّحوا عقولهم وهم يبحثون عن حلّ لمشكلة سوريّة، فيؤكّدوا ضرورة حماية "الأقليّات".

وقبيحٌ منهم إلى أبعد الحدود أن يُغمِضوا عيونهم حتى العمى، عمّن يسمّونهم "الأكثرية"، التي ما زالت تُهجَّر وتُباد منذ أربع سنين ودخلنا في الخامسة!

فلوريدا: ضحى الأحد ٣-٥-٢٠١٥

بعضهم يملك من السفاهة قدرًا يفوق ما يدّعيه من الوطنية الملتبسة

فلوريدا: فجر الإثنين ٤-٥-٢٠١٥

وتأتيني رائحتك من بعيد يا حلب!

عندما دخل البستاني "روجر" بعربته الصغيرة ليَجُزّ ما طال من عشب الحديقة، خُيّل إليّ أني أشمّ رائحة العشب المقصوص ممتزجةً برائحة الدم المسفوح، تأتيني من بعيد.. يا حبيبتي يا حلب!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٤-٥-٢٠١٥

يقولون إني طائفي!

عندما ابتدأت، في ستينيّات القرن الماضي، أشجب الظلم والعسف والفساد وأغنّي للحرية، في قصص أكسوها ثوب "الفانتازيا" المهذّبة، كانوا يَصِمونني بالتهمة الرائجة في ذلك الزمان: الرجعيّة!

اليوم... أراهم يتجنّبون اتهامي بما ابتدعوه حديثًا: "الإرهاب"، فهم يعلمون أنّ ما أحمل هو "أداةٌ" صغيرة، قلمٌ تَدْمَع عيونه حين أكتب بلون اللَيْلك القاني، فاخترعوا وصمة «الطائفيّة»!

أليس عجيبًا أنّ الطائفيّين... يرون فيّ طائفيًا!

فلوريدا: ضحى الإثنين ٤-٥-٢٠١٥

رحلة حرف "الجيم" في العربية واللغات الساميّة وفي مصر والشام

في مصر، في القاهرة خاصةً، يلفظون حرف الجيم العربي على صورة حرف الـ(G) الأجنبي،

وفي بلاد الشام يكتبون حرف الـ (G) على صورة غين... لماذا؟

مدير التحرير في مجلة ثقافية، يكتب في مقالته الشهرية، متسائلاً عن ذلك في شيء من استغراب، فحدّثتُه في مقالة، نُشرت في العدد التالي، عن "رحلة" حرف الجيم في بعض اللغات واللهجات.

قلت: يوم كنت أقرأ في الأربعينات وأنا فتى، الدوريات المصرية، وأسمع ما تقوله إذاعة القاهرة، وأشاهد الأفلام، وأستمع إلى الأغاني... كان يثور عندي سؤالٌ بدا لي حائرًا: لماذا يلفظ المصريون حرف الجيم على صورة حرف الـ(g) الأجنبي، ونحن في بلاد الشام نلفظه بصورة أخرى؟

وأمس، وبعد كثير من الأعوام تقضَّت على ذلك السؤال المضمَر، أقرأ في مجلة "دبي الثقافية" السؤال عينه، معلَنًا، بقلم مدير التحرير، المصري، الصديق ناصر عراق، لكنْ مطروحًا بطريقةٍ معاكسة: لماذا يلفظ أهل الشام، أو بالأحرى: لماذا يكتبون أسماء الأعلام الأجنبية، تلك التي تتضمّن حرف الجيم، بطريقةٍ مختلفة؟ ومثّل بأسماء أشهرها اسم الشاعر الفيلسوف الألماني Goethe: "جوته"، "غوته"!

في البدء أقول: إنه كان للقبائل العربية قديمًا لهجاتٌ مختلفة، سمَّاها الأقدمون "لغات العرب"، وكان الاختلاف في مفرداتٍ، وفي استعمالاتٍ لغويّة، وكذلك -وهذا ما يهمّنا الآن- في نطق بعض الحروف على هذه الصورة أو تلك. وقد نزل القرآن الكريم على نبيِّنا محمد بعربية قريش، بخصائصها اللغوية، ومنها أنَّ حرف الجيم ينطق "مُعَطَّشًا"، على نحو ما انتشر بعد ذلك في بلاد الشام وغيرها. فإنّ "جيم" أهل الشام، هي العربية القرشية.

في تساؤلي ذاك، الذي كان حائرًا (لماذا ينطق المصريون الجيم بتلك الطريقة المختلفة؟)،

عرفت، في أثناء إقامتي بالقاهرة طالبًا بجامعتها (١٩٥٠-٥٤)، أنّ الناطقين بحرف الجيم "محنَّكًا" (لأُسَمِّ كذلك تلك الطريقة في نطقهم)، لا يتعدّون المدينتين الكُبرَيَيْن القاهرة والإسكندرية ومَن يجاريهم من أبناء الأقاليم النازلين بينهم. ثمَّ إني التقيت، في خريف ١٩٩١ وأنا في ليبيا مشاركًا في الاحتفال بافتتاح "النهر الصناعي العظيم"، ثلاثةً من أدباء اليمن، فرأيتهم – يا للعجب! –ينطقون الجيم بمثل ما ينطقها أبناء العاصمتين المصريتين، وعرفت منهم أنّ أبناء المدن (دون الأرياف) في اليمن السعيد ينطقونها كذلك.

وقد قرأت في الكتب أنّ نطق الجيم محنّكةً كان شائعًا عند بعض القبائل العربية، إلى أن غَلَبت الجيم القرشية. ثمّ وقفتُ في المراجع على أنّ اللغات الساميّةَ (أو "اللغات العروبيةَ" حسب المفكر الليبي علي فهمي خشيم)، تنطِق الجيم كما نطقها أهل العاصمتين المصريتين، ويتبدّى ذلك اليومَ في اللغتين السُّريانية والعِبرية.

أقول: في عصر النهضة العربية، الذي أَهَلَّ في أواخر القرن التاسع عشر، ومع زيادة الاحتكاك بالأجنبي الأوروبي والأخذ بالنقل عن لغاتهم إلى العربية، لم تظهر مشكلةٌ عند النَّقَلة والمترجمين في مصر في رسم حرف (g) الأوروبي، فكلمة Goethe رُسمت "جوته". ولكن المشكلة ظهرت عند أهل الشام لغياب ذلك النطق في لغتهم الفصحى القرشية، وجاء الحلّ، مُؤَيِّدًا من قبل المستشرقين المعنيّين بلغتنا، بأن يُرسَم ذلك الحرف بصورة (غين): "غوته"، على أن يقرأ (g).

أقول: حلّها "الشّوام"، ولكن كيف يحُلُّ المصريون مشكلة الكتابة والقراءة لكلمات أجنبية مثل: جونسون وكيسنجر؟ وقد سمعتهم في مصر يلفظون جرجس محنَّكةً، وذلك مخالفٌ لكلّ المعايير.

كنت قد توسَّعت في حديثي هذا، في مسوّدة المقالة في وضعها الأول، فاسترسلتُ متناولاً

نطق العرب في أقطارهم لحرف القاف، هذا المتذبذب ما بين القاف -القرشية أيضًا- (قال يقول)، والغين (الحغيغة)، والجيم (جاسم)، وثالثة الأثافي أو رابعتها "تهميز" هذا الحرف -إن صحّ التعبير- كما عند أبناء المدن في الشام وفي مصر (ما آل لي وأُلْت له)، وذلك -زعموا- بتأثيرٍ من أكابر الأتراك أيام العثمانيين، الذين كانوا يتجنّبون نطقه على طريقة القَرويين[١]... توسَّعتُ، لولا أنّ ناصر عراق أوصاني على الهاتف بأن أتقيّد بطولٍ للمقالة لا تزيد فيه الكلمات على ستمئة!

ولكني لن أترك القلم قبل أن أشير إلى حالات نطق الجيم وأحوالها: فهذا الحرف في قرشيّته قد «تقطَّعت به السُّبُل» على ألسنة أبناء الأقطار والأقاليم والمناطق، والأصل نطقُه معطَّشًا (في حلب وحماة وحوران، مثلاً)، وكما نراه من حرص مقرئي القرآن الكريم في الإذاعات والتلفزة وفي جميع المساجد على مرّ الزمن. ولكنّا رأينا التعطيش "يتغلَّظ" عند بعض الناس حتى ليلفظون الجيم على صورة (تش ch الإنكليزية)، ولكنّ التعطيش يتلاشى و"تُرَقَّق" الجيم في دمشق وحمص والساحل الشامي فتُنطَق على صورة (j) الأوروبية. وربما سمعتَ عجوزًا دمشقيّة تشير إلى زوجها قائلة: «زوزي»! وعن شجرة الجوز، الجوزة، تقول: «زوزة»! وسمعتهم في بعض أنحاء المغرب يقول أحدهم: «عندي زوز ولاد»، يعني أنّ عنده ولدين اثنين.

والله أعلم، يا ناصر عراق...

---

(١) الحق أن الأتراك، الأكابر وغير الأكابر، لم يكن لهم دورٌ في قلب القاف همزة. صحيح أن بعضهم كما أشار الكاتب يرغبون عن نطق القاف الفصيحة المفخّمة كما ينطقها القرويون، لكن يميلون إلى الكاف بتفخيم متوسط، لا إلى قلبِها همزةً، كما يوحي كلام الكاتب، فلا يوجد في لغة الأتراك الآن من الكلمات العربية التي تحتوي حرف القاف، على كثرتِها، كلمة واحدةً قد غُيِّرتْ إلى همزة البتة، رغم كثرة التحريفات الصوتية في الكلمات عن أصلها العربي.

- - - - - - - - - - - - - - - - - - -

وقد قدّم مدير التحرير، ناصر عراق، لمقالتي بكلمة تَوَّجَها بعنوانٍ لطيف: «قبل أن تقرأ»... قال:

فاجأني الكاتب السوري الأستاذ فاضل السباعي بهذا التعليق المهم ردًّا على مقالي في العدد ٤٩ عن اختلاف نطق بعض الأسماء الأجنبية بين المصريين وأهل الشام. وقد بذل الرجل جهدًا محمودًا ليصل إلى لبّ الخلاف في النطق، وإنْ كنت أرى أنّ القاهرة ليست مجرد مدينة أو عاصمة كبيرة فحسب يتحدّث أهلها فقط بالجيم المصرية كما يقول الأستاذ الفاضل بالاشتراك مع الإسكندرية، لا.. القاهرة مدينة بمقام دولة إقليمية كبرى إذا جاز القول، وقد فرضتْ لهجتَها على كافة مدن مصر، كما أنّ أشهر فنّانيها وزعمائها ومبدعيها لا يتحدّثون إلاّ بهذه اللهجة القاهرية، فجمال عبد الناصر وأمّ كلثوم وطه حسين والعقاد ونجيب محفوظ وعبد الوهاب وعبد الحليم وغيرهم وأكثر من ٩٠٪ من إنتاج الأفلام المصرية (بلغ عددها كلها في القرن العشرين نحو ٣٠٠٠ فيلم) ومئات المسلسلات التلفزيونية والإذاعية كلها لا تستخدم إلاّ اللهجة القاهرية التي نطلق عليها مجازًا اللهجة المصرية ذات الجيم الخاصة جدًّا.

على كل حال.. شكرًا للأستاذ الفاضل على مداخلته وتعليقه المهمّ.

مجلة "دبي الثقافية"، العدد (٥٠) يوليو ٢٠٠٨، ومخطوطة كتابي "قمر لا يغيب، فصول في أدب الرحلات"، قيد الطباعة.

فلوريدا: فجر الخميس ٧-٥-٢٠١٥

أمعقول؟!!

أن يفرح بعض المؤيّدين في سورية، لنزول البراميل على أهالينا، أهاليهم، وما ينجم عن

ذلك من تدمير وتقتيل!

بمقدار ما نفرح نحن لتراجع قوات الحوثيّين وصالح، المعتدية على الشرعية في اليمن؟

فلوريدا: فجر الجمعة ٨-٥-٢٠١٥

وبكتْ القارئة حزنًا على بطل "رياح كانون"

بعد أن أتمّت طالبة الآداب بجامعة حلب "صباح ك. "، حوارها معي، عبر التراسل بيني وبينها من حلب إلى دمشق طَوال أسابيع من ربيع العام ٢٠٠١، تلقّيت منها هذه الرسالة:

لقد تشوّقت إلى قراءة روايتك "رياح كانون" من خلال حديثك لي عنها، وعبثًا كانت محاولاتي في تأجيل قراءتها إلى شهر "كانون" القادم(!)، فقد كان شوقي إلى قراءتها أقوى من أن أصبر حتى ذلك الحين.

استعرت الرواية من مكتبة الكلية يوم الخميس ٣١-٨ (أكتب لك التواريخ التي انحفرت في نفسي)، وقرأت مساء ذلك اليوم حوالي تسعين صفحة حيث لم يُسعفني الوقت بأكثر من هذا القدْر، وفي اليوم التالي الجمعة الأول من أيلول وبعد السادسة مساء، استأنفت قراءة رياحك الباردة، فما رفعت رأسي عن الرواية إلّا عند الثانية بعد منتصف الليل، وقد أتيت على صفحاتها الأربعمئة. وأعترف بأنني غرقت -بعد فراغي من قراءتها- بدموعي!

نعم، فقد حزنت لأجل بطل الرواية الناقد الأدبي "رامي حسام الدين" الذي عقد آمالاً كبيرة على الكاتبة الناشئة البرجوازية النبيلة "لبنى آل الأمير"، وقد اشتغل في روايتها الأولى "أحزان إلى الأبد" وعمل على نشرها والترويج لها... إلاّ أنّ حزني سرعان ما خفّت حدّته أمام تصميم البطل رامي -وهو حقًا بطل- في اتخاذه قرارًا حاسمًا، بأن يهجرها ويُبقى منها ذكرى يجعلها مادة لكتابة "رواية" تؤرّخ للحبّ الذي كان.

أهنئك، أستاذ فاضل، على هذه الرواية الجميلة، ولسوف تظلّ "رياح كانون" رغم فشل قصة الحب فيها مبعثًا على الأمل والتجدُّد، ومتابعة طريق الحياة في عزم وتصميم.

(ص. كيالي): حلب، السبت ٢ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١

- - - - - - - - - - -

والحوار، أصدقائي الأعزاء، التي وسمته الأديبة الناشئة بـ"مكتبة عامرة.. وأرشيف متميّز"، لم تكتحل عيناي برؤيته منشورًا، لأنّ الجريدة الخليجية الموعودة رأته أطول مما اعتادت أن تنشر من حوارات، لا ولم ألتق بعد تلك الرسالة بالشابة التي ذهبت تشقّ طريقها في معترك الحياة، ولكنّ الحوار بطوله وهذه الرسالة، أصبحا من المواد التي تضمّنها كتابٌ لي ينتظر النشر بعد عودتي المأمولة إلى الوطن.

من كتاب "قمر لا يغيب، فصول في أدب الرحلات" قيد النشر.

فلوريدا: فجر السبت ٩-٥-٢٠١٥

بين تغريد العنادل وعطر الياسمين

في رياضة المشي التي أمارسها كلّ يوم، إمّا بأن أمشي على الرصيف إلى موضع من هذا "الطريق السريع" (الأتوستراد) في ظلال أشجار الغابات الوارفة، وأعود أدراجي... وإمّا بأن أطوف، حول "الجزيرة السكنية" ما يقتضي وقتًا أطول، وأنتهي عائدا إلى البيت.

في طوافي هذا، يَطيب لي أن أستمع إلى تغريد البلابل، في مجموعة من أشجار عتيقة متعانقةٍ أغصانُها، أمرّ من تحتها في موضع يبدو لي وكأنه قطعةٌ من الجنّة، أتوقّف، أصغي إلى زقزقة العصافير المرافَقة بترتيل البلابل والعنادل، المتداخلة المتناغمة، ما يزيد السامعَ طربا... ولكني لا أُطيل الوقوف، حتى لا أسترعي انتباه العابرين بسياراتهم، يقولون: ما بال هذا الرجل، الذي

يبدو غريبًا، يتوقّف ويشخَص ببصره إلى أعلى، ولا يتابع المسير؟!

وإني لأتذكّر، في كلّ مرة، سالفةً صغيرة حكاها لي قبل عشرين سنة صهري "الدكتور محمد نعمة" بحلب -الذي يبُزّني في ولعه بالمطالعة وإن لم يسعَ لأن يكون كاتبا- بأنه كان يمشي، في عصر يوم، في "حي الشهباء" المشيَّد حديثًا والباذخ بعمرانه، فرأى رجلا، متقدّما في السنّ رقيق الحال، يمشي الهوينى، ثمّ يتوقّف أمام أشجار الياسمين المستلقيةِ أغصانُها من فوق الأسيجة نحو الرصيف، يتملّى النظر من الأزاهير الخماسية الصغيرة، التي تبدو وهي على الأغصان الخُضر وكأنها النجوم في ليلة معتمة، يقترب، يشمّ، ثمّ يمشي، ليتوقّف ثانية أمام شلال ياسمين آخر!

ولأنّ صهري، رحمه الله، يملك من "الفُضول" ما يملك ابنُ حَمِيه، فقد تراءى له أن يسأل الرجل عن حاله؟ فعرف أنه يأتي في بعض الأماسي من حارته البعيدة إلى هذا الحيّ، ليستمتع بالياسمين نظرًا ورائحة.

أقول: ألا يُشبِه وقوفي هنا، وقفاتِ الرجل هناك! مع اختلاف المكان والزمان، لكن مع تلاقي الرغبة في التمتّع بجمالات الطبيعة، من تطريب للأذن ومن تنسُّم عطر الياسمين.

فلوريدا: فجر الأحد ١٠-٥-٢٠١٥

القصف هنا.. القصف هناك

تساءلت:

كيف أنّ الناس يشتكون من القصف ينهال عليهم هنا، ويؤيّدونه في اليمن هناك؟

ولم يَطل تساؤلي. ذلك أنّ الناس يعانون من الفتك يَطال دُعاةَ الحرية هنا، على حين أنه يستهدف هناك الساعين إلى اغتصابها.

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٣-٥-٢٠١٥

آخِر من يقرأ - ١

حدّثني صديق كاتب يُعَدّ من المرموقين، أنه يتلقّى الإعجاب، بما تخطّه أنامله، من الناس، إلّا من زوجته وبنيه، الذين يرونه إنسانًا عاديًا جدا، يأكل ويشرب وينام، ويغضب أحيانًا... ويتحدثون عن أنهم يرونه يقرأ، ويتأمل، ويسهر، يكتب ويمزّق ورقا ويعيد الكتابة بصبر يثير إشفاقهم، وأنه يشكو أحيانًا من صعوبة الكتابة، وأحيانًا يفرح لأنه أفلح مثل فرح الأطفال بالحصول على لعبة!

وقال إنه نادرًا ما رأى كتابا من كتبه بين أيديهم... إلّا إذا اتفق أن سمعوا حديثًا من بعض أصدقائهم فيه ثناء على كتاب، فيدفعهم الفضول إلى أن يقرؤوه. ويعتقد أنّ ابتهاجهم بالقراءة -إن وُجِد- "مستعارٌ" من مشاعر أصدقائهم.

فقلت أخفّف عنه: وإنّ عندي، يا صديقي، بعض ما رويت، فإني، مثلا، منذ دخلت عالم التواصل الاجتماعي أكتب، وأتناول أحيانًا بعض ما يتحلّى به أفراد أسرتي من جميل الخصال والفعال، وأروي نهفاتهم فأُمتع بها القراء، دون أن أتوقع منهم الثناءَ المُستطاب. وما من مرة رأيت أحدهم قرأ، أو أشار إلى ما قرأ.

ومضى صاحبي إلى شأنه، ومضيت.

فلوريدا: مساء الأربعاء ١٣-٥-٢٠١٥

آخر من يقرأ ٢ - كتبٌ عزيزة مفتقدة

وحدّثني صديقي -وقد بدا لي أنّ القلب عنده "مَلْيان"! - أنه يُقدّم إلى أبنائه واحدًا واحدًا، نسخًا من كلّ كتاب جديد يصدر له، ممهورًا بتوقيعه، على نحو ما يُمليه الاعتزاز بالبنوّة والنفس

والأدب.

وقد يقع أن يخطر له، وهو في زيارة لأحدهم، أن يطلب كتابا من كتبه هذه قصد الرجوع إليه في مسألة ما، فيضطرب أمرهم في التعرّف على مكان وجوده. وعندما يأتون به إليه يراه معفّرا... «فأين كان يبيت هذا الكتاب، بربكم خبّروني؟!».

وذات يوم -يتابع حديثه صديقي الحبيب- عثر في إحدى المكتبات على نسخ من كتاب له قديم أصبح في حكم النادر، فاشتراها كلّها، ووجّهها إلى المجلِّد، وأوصاه بالإتقان، ثمّ قام يوزعها على أولاده ممهورةً، مع تنويهه لهم بالندرة والنصح بالمحافظة على هذا الكتاب. واتفق له يومًا أن سأل عنه في بيت أحدهم، فما أتوا له به، لا بالغَ الأناقة ولا معفّرا، بل إنهم نسُوا واقعة الإهداء!

وما فاته أن يختتم حديثه: «أعرف أني أضايقهم في هذه الأمور... ولكن أليس عليهم أن يحتفظوا بمؤلفات أبيهم، وأن يعتزّوا بها أيضا؟».

وللحديث صلة، أيها الأصدقاء... ولكنه سيكون عني في المرات القادمة.

فلوريدا: فجر الجمعة ١٥-٥-٢٠١٥

آخِر من يقرأ ٣- لا "مشاهدة" ولا "تعليق"!

منذ حللت في فلوريدا، قبل عام وسبعة أشهر، كتبت ونشرت في صفحتي نحو ألف خاطرة/ تغريدة، كان منها حوالي الخمسين يتعلق بأفراد أسرتي، صغارهم والكبار، أتابع تصرفاتهم الحميمة، وأرصد هفاتهم النادرة... ولكني ما رأيت "مشاهَدةً" لهم، ولا "تعليقا"، ولا همسة بأنهم قرؤوا!

سوى مرة واحدة حدثتني حفيدتي "ديمة" عن أنها قرأت على ابنها الفتى الوسيم "محمد

شاهين"، أو ترجمت له، تغريدةً حول مصادفتي إياه، وأنا في الضاحية أقوم برياضة المشي المسائية، كيف سمعتُ صوته ينادي "جدّو"، وكان يلعب كرة السلة مع رفاقه... وأذكر وصفَها لإصغائه لها، وأنه سُرّ لما يسمع منها مترجَمًا، وضحك له من الأعماق.

أقول مازحًا ومتشفّيا أيضًا: إنه "تقصير" من الأبناء، تغفره لهم المحبة.

فلوريدا: ضحى الجمعة ١٥-٥-٢٠١٥

آخِر من يقرأ ٤ - ولكنهم يعتزّون.

ونحن في العاصمة دمشق، فإنّ ابنتي "خلود" وابني "فراس"، أراهما يهتمّان بنتاجي الأدبي الذي جريت، منذ خمس وعشرين سنة، على نشره في الدار التي أسّستها، ويعتزّان... وقد دأبا على أن يأخذا من كلّ كتاب جديد أُصدره، "كرتونة" ملأى بالنسخ (بالسعر المخفّض!)، يُهديان إلى أصدقائهما اعتزازًا، وإلى موظفي الدولة تيسيرًا للأمور!

حادثة نموذجية أحبّ أن أرويها. لمّا آن لابنتي أن تسكن البيت الذي سهرت على "كسْوتِه"، توجّهت إلى "شركة الكهرباء" لطلب تركيب عدّاد له. ويعرف المواطنون مقدار المعاناة في إنجاز هذا الأمر، تسويفًا وابتزازًا. طرقت باب المدير العام مباشرة، معرِّفةً بنفسها: فنانة تشكيلية، وأبوها مؤلّف هذه الكتب... وطرحت ما جاءت به أمام الرجل.

تقول إنه أقبل على الكتب، يقلّب صفحاتها، ويتأمّل، ويُبدي استحسانا. لقد رآها مواطنة "مختلفة"! وتقول أيضًا إنها لحظة وصلت إلى بيتها، رأت أمام الباب سيارةَ الشركة وفريق العمل ينتظرون، وسمعت منهم عتابًا راق لها: «لماذا تأخرت يا ستّ، ونحن من الصبح ننتظر؟ ».

وعمّ نور الكهرباء أرجاء البيت. وهم قبلوا أن يتناولوا "الإكرامية" باستحياء، فثمة توصية من المدير العام بالامتناع عن تناول أي شيء، فصاحبة البيت فنانة تشكيلية وأبوها أديب!

فلوريدا: ظهيرة: الجمعة ١٥-٥-٢٠١٥

آخِر من يقرأ ٥ – كلمة إهداء حميمة!

وحكاية أخرى...

أنّ ابني، في أخْذِه "كراتين" الكتب مُهديًا إياها اعتزازًا بأدب الأب وتيسيرًا للعمل، كان يطلب مني أحيانًا أن أَمهر بعض الكتب بتوقيعي!

ولكنْ... ما باله يُلحّ عليّ، في تلك الليلة، أن أخطّ بيدي، في الصفحة الأولى من ذلك الكتاب، كلمة إهداء، إلى موظف حكومي مرموق هو ضابط في الجيش برتبة "عميد"، مع أنه يعرف أني لا أحبّ!

وما كان له أن يقبل اعتذاري، وما قدرتُ أن أواصل الامتناع، فخطّت يدي كلمة، أراد لها أن تكون حميمة... ولله درّهم، أبناءَنا، عندما يغلبون إرادة الآباء!

بعد حين، وأنا في ساعة "رَواق"، تلقّيت مكالمة هاتفية من أحدهم، بدا من سلامه أنه صديق لي "حميم"، فسألته من يكون؟ فعرّفني، وكنت قد نسيت ذلك الاسم والكلمة الطيّبة، والرجل، مع ما بدر مني، آثر الانسحاب.

ثمّ جاءني ولدي بعد أيام، لينقل لي أنّ "المُهدى إليه" حدّثه وقال: «طلع أبوك ما بيعرفني!». ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فلوريدا: فجر السبت ١٦-٥-٢٠١٥

آخِر من يقرأ ٦ – سنّ المطالعة الشّغوفة!

حرصًا على استكمال رسم الصورة...

أذكر أول ما قرأ أولادي من أعمالي الأدبية -وكانوا فيما أسمّيه "سن المطالعة الشغوفة" وأخصّ سهير وخلود- أن كُبراهما كانت في الثالثة عشرة تصغُرها خلود بسنتين، وقد أقبلتا بشغف على قراءة "ثمّ أزهر الحزن"، المكوّنة من نحو مئة ألف كلمة، مسفوحة على أربعمئة صفحة من القطع الكبير.

وأعترف بأنه كان يطيب لي أن أسترق النظر إليهما، وكلٌّ منهما منتحيةٌ ناحيةً في بيتنا الدمشقي، تستغرقها المطالعة، وأراهما "تتبادلان" الرأي فيما يشدّهما من إيقاع الأحداث، من حزن وفرح واستغراب! ثمّ كان أن تجاوزتا ذلك إلى أن أقبلتا على قراءة ما عندي من "روايات الهلال"، وبعد ذلك أخذتا تُعيران الكتب لصديقاتهما، وامتدّت أيديهما إلى رواية "نساء صغيرات"، للأمريكية لويزا ماي ألكوت، نقلتها إلى العربية أمينة السعيد بأربعة أجزاء (عن دار المعارف بمصر)، ثمّ لم يبق عندي منها إلّا جُزءان!

هل انتقلت عدوى المطالعة -أم أنها "السنّ الشغوفة"- إلى أولى الحفيدات، "ديمة" بحلب، ومنها إلى صديقاتها الحبيبات؟ ولأذكرْ أني تلقّيت، قبل أيام من إحداهنّ، التي ما زالت على الودّ القديم، رسالة، تلتها أخرى:

«الأستاذ..... جدّ صديقتي ديمة. لك جزيل الشكر على إضافتي.

روايتك "ثمّ أزهر الحزن"، التي أعارتني إياها ديمة الغالية في الزمن الجميل، ما زالت نكهتها تعبَق في نفسي، وأظنّ أنّ حياتي الخاصة التالية أشبهت، بطريقة ما، الجانب الحزين من هذه الرواية!

غدوت كاتبة أراسل المجلات لكن باستحياء.

أعيش مهاجرةً في عمّان الأردن. آمل أن نجتمع في الوطن قريبا». [(زين...)، عمّان: ١١-٥-٢٠١٥]

فلوريدا: ظهيرة السبت ١٦-٥-٢٠١٥

بعد الأرغفة التسعة الطريّة

إذا قدّم لك أحدهم رغيفَ خبز طريًّا، يُؤْمنُك من جوع، على مدى تسعة أيام متواليات

وفي اليوم العاشر يأتيك يقول: أنت عبدٌ لي!

عندئذ تحسّ أنّ تلك الأرغفة قد استحالت في دمك إلى سمّ

فتقذف بالرغيف العاشر في وجهه

وتمضي جائعًا حرًّا...

فلوريدا: فجر الأحد ١٧-٥-٢٠١٥

أصوات الأطفال العذبة

دخلنا بيت الأب الشابّ في سهرة، وعنده أربعة أطفال، زُغْب الحواصل لا أجملَ أشكالًا ولا أعذب ألحانًا.

وبينا نحن في سَمَرنا، ارتفعت أصواتُهم في لعب، فإذا الأب يطلق صرخة انقطعت بعدها أصواتهم دفعةً.

بعد قليل علا صراخهم كرةً أخرى، فصاح بهم. فمِلتُ عليه أسأله ما يريد منهم؟ فأجاب: «أن يسكتوا، فصراخهم يزعجكم!»

فقلت: «والله ما يزعجني إلّا صرختك هذه التي تُجمّدهم عن الحركة إلى حين! يا أخي، دع صغارك يمرحون، يَشْغَبون، فليس هناك أعذبُ من أصوات الأطفال وهم يلعبون، وليس أوجعُ للقلب من سماعِهم وهم يبكون، ومن رؤيتِهم حزانى!».

وأخذت أُنشِد أبياتا من قصيدة للشاعر عمر بهاء الأميري، في أولاده يوم ابتعدوا عنه في سفر:

أين الضجيجُ العذبُ والشَّغَبُ ... أين التدارسُ شابَهُ اللعبُ
أين الطفولةُ في توقّدها ... أين الدُّمى في الأرض،
أين التشاكُسُ دونما غرض ... أين التشاكي ما له سببُ
أين التباكي والتضاحكُ، في ... وقت معًا، والحزنُ والطربُ
إني أراهمْ أينما التفتتْ ... نفسي، وقد سكنوا، وقد وثبوا
وأحسّ في خَلْدي تلاعبَهم ... في الدار ليس يَنالهم نَصَبُ
وبَرِيقَ أعينِهم إذا ظَفِروا ... ودُموعَ حُرقتِهم إذا غُلِبوا
في كلّ ركن منهمُ أثرٌ ... وبكلّ زاوية لهمْ صخبُ
في الصحن فيهِ بعضُ ما أكلوا ... في علبة الحلوى التي نَهبوا
في الشطر من تفاحةٍ قضموا ... في فَضْلة الماء التي سكبوا
في النافذات زُجاجَها حَطَموا ... في الحائط المدهون قد ثقبوا
في الباب قد كَسَروا مزالجَه ... وعليه قد رسموا، وقد كتبوا
إني أراهمْ حيثما اتّجهت ... عيني كأسرابِ القَطا سَرَبوا

وقضينا السهرة على خير!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٠-٥-٢٠١٥

عن جائزة الدولة التقديرية في بلدي

بعد أن أعلنت وزارة الثقافة بدمشق أسماء الفائزين "بجائزة الدولة التقديرية للعام ٢٠١٥"، فنالها في مجال الفنون المخرج السينمائي "عبد اللطيف عبد الحميد"، وفي مجال الآداب الكاتب

"عبد الفتاح قلعه جي"، وفي مجال الدراسات "ندرة اليازجي"، وكلّهم أكنّ لهم التقدير، سألني أحد الأصدقاء لماذا لا يكون اسمي بين هؤلاء اليوم، ولا بالأمس كان؟

فأجبته صريحًا وغير مستاء:

«يا أخي! إذا كان اتحاد الكتّاب العرب، ممثّلاً برئيسه "ع.ع.ع"[1] مدة ثمانية وعشرين سنة متوالية (١٩٧٧-٢٠٠٥)، لم يرضَ أن يطبع لي كتابًا واحدًا بين منشورات الاتحاد، لا ولا رشّحني يوما لأكون بين الذاهبين إلى المؤتمرات الأدبية، وقد ظلّ يرشح الكبار ويرشح الصغار ممّن لا تصل قاماتهم إلى كتفي، فكيف يَتوقَّع عارفٌ بالأمور أن أنال جائزة دولة تقديرية أو تشجيعية!».

وتذكّرت ما وقع قبل عشر سنين، يوم تهمّم رئيس الاتحاد الجديد مشكورا للاحتفاء بالكتّاب "المتقاعدين" و"المؤسّسين" وإني واحد من هؤلاء منذ العام ١٩٦٩، ثمّ اتفق أن اقترح أحدهم أن ألقي الكلمة باسمهم في الاحتفال الكبير الذي يحضره عدد من الوزراء، وكيف أنّ بعض أعضاء "المكتب التنفيذي" هبّوا يعترضون على ذلك بشدّة، وكأنني قاتل أمّهم أو أبيهم!

فلوريدا: فجر الخميس ٢١-٥-٢٠١٥

قلب أمريكا

ما أحنّ قلبَ الإدارة الأمريكية على مواطنيها والنازلين في ديارها!

وما أشدّ ظلمَه وظلامه على بلاد الشام وأهاليها!

فلوريدا: فجر السبت ٢٣-٥-٢٠١٥

(١) إشارة إلى علي عقلة عرسان

الحلبيّة ومربّى الورد

كتب إليّ:

أرى أبناء شعبك يَعْتِلون جِرار الغاز على ظهورهم

ويأتي أطفالُهم إلى البيوت بسطول الماء الثقيلة يملؤونها من آبار الحيّ

وذلك دون أن تفارق البسماتُ وجوهَهم المضيئة

ولا ينسى الحلبيّةُ منهم مؤونة "مربّى الورد" التي اعتادوها كلّ سنة!

فلوريدا: ليل السبت ٢٣-٥-٢٠١٥

العودة إلى الآبار المهجورة

في ثلاثينيّات القرن الماضي كنت وأنا طفلٌ صغير، أذهب وأختي إلى "الحنفيّة العامة" في آخر الزقاق، نملأ الوعاء ماءً عذبا للشرب حين نفاجأ بأنّ مخزون الماء -الذي دلقه سقّاء الحارة في الخابية يوم أمس- قد قارب النفاد، وأما ماء الغسيل والشطف فكان من الجبّ المركّب عليه "الطُّرُمْبة"، نضخّه نحن صغار العيلة باذلين في ذلك أقصى الجهود.

أذكر، وكان لي من العمر خمس سنوات أو ستّ، أنّا كنا نقف أمام الحنفيّة، نصفّ الأباريق والسطول الفارغة منتظرين الدور، لا خلاف ولا جدال... هل أقول: إننا تلقّينا، عند عتبة تلك الحنفيّة، الدروس الأولى في النظام وفي الصبر معًا، حتى أدخل أهلُنا إلى البيت "ماء الشركة" الممدّد بالأنابيب؟

اليوم، بعد ثمانين من الأعوام حضارةً وتقدّما، أرى الصغار في وطني يَعْتِلون السطول الثقيلة، بعد أن ملؤوها من آبار الحيّ المهجورة ماءً ليس عذبا.

فأحار: هل أشفق عليهم، للجهد الذي تشي به حركاتُ الأجساد؟ أم أشاركهم الفرح الذي

ترويه البسماتُ في الوجوه والعيون، لأنهم ظفروا بماء يعودون به إلى أهلهم... أنا، أنا النازل هنا في بيوت أبنائي، يأتينا الماء فاترًا، وساخنا، وعذبا مبرّدا، ويملأ المسبحَ، الذي يغوص فيه الصغار ويعومون... فأزداد حُرقةً وألما؟!

فلوريدا: فجر الإثنين ٢٥-٥-٢٠١٥

أول "قوات حفظ سلام" في التاريخ!

عندما بلغت الحوادث في "جبل لبنان" عام ١٨٦٠ ذِروتها، ووقع العدوان الفادح على الطائفة المارونية هناك، وتحرّك بعدئذ الرَّعاع في دمشق، وبلغ عدد الضحايا، في هذا الهَيج، ما بين ثلاثين إلى أربعين ألفًا من الأبرياء حسب التقديرات الشائعة...

أقول: إنّ حكومة نابليون الثالث في فرنسا أَعمَلت اتفاقيةً قديمة كانت قد وقّعتها في عام ١٥٢٣ الدولتان الفرنسية والعثمانية، تنصّ على أنّ لفرنسا دورًا تاريخيّا في حماية المسيحيين في الامبراطورية العثمانية، وبناء على ذلك دخل بلادَ الشام ستةُ آلاف جندي فرنسي لتحقيق هذه المهمّة. وما نسي المؤرخون أن يسجّلوا أنّ ذلك كان أول "قوات حفظ سلام" في التاريخ.

طيب...

اليوم يقع في بلدنا اعتداءٌ ليس على الأقلية بل على "الأكثرية"، من قِبل النظام نفسه وليس من رَعاع أو شذّاذ آفاق، تجاوز فيه عددُ الضحايا ذلك الرقم أضعافا مضاعفة، والمهجّرون قد فرغت منهم البيوتُ والحارات والحقول...

أسأل: فأين هم أصحاب "القُبّعات الزُّرق"، البدعةِ البديعة التي اخترعتها حضارةُ القرن العشرين وإنسانيتُه السامية، يأتون إلينا من أصقاع الأرض، يحقّقون لنا ما فقدناه من الأمن والسلام، ويخلّصوننا من فظاعة القتل، وألم الجوع، وذلّ التهجير؟

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٦-٥-٢٠١٥

كبّة بالصينيّة لسجين رأي.. أيام زمان

سنة ١٩٣٦ أو ما حولها، ذهب عمّي الأكبر "رئيف السباعي" -المولع بالسياسة- إلى اجتماع في قناق[1] "الزعيم حسن بيك إبراهيم باشا"، ولم يعد إلى البيت، فقد أطبقت السلطات الفرنسية على المجتمعين وساقتهم إلى السجون.

ممّا تعيه ذاكرتي وأنا ابن سبع سنين، أني صحبتُ جدّتي -ولم يصحبنا أبي اتّقاءً- إلى السجن في يومِ زيارة. وكانت الجدّة قد أعدّت لابنها كثيرا من المآكل منها كبّة بالصينيّة، ذهبت أنا إلى فرن "أواديس" بالسويقة أستدعي أجيره الذي أخذ الصينية وعاد بها مشويّة.

على الرصيف المقابل لباب السجن، ذاك الواقع بجوار مبنى البلدية يومذاك، رأت عيني كثيرا من الناس مقتعدين الأرض، وقد أتَوا مثلنا بالمآكل لذويهم سجناء الوطنيّة، وأذكر أنهم كانوا في أكثريتهم الساحقة نسوةً متجلببات بالملاءات السود متلفّعات الرؤوس بالمناديل. ولا أذكر أنّا عوملنا بأكثر من أن نلتزم الهدوء فكلٌّ سوف يدخل ويلتقي. وقد شاهدنا عمّي من وراء القضبان، فذرّفت جدّتي الدموع وأعدتْني فبكيت: عمّي، كبير العيلة، في الحبس! ولكني رأيت وجهه صارما وعيناه كعينَي صقر، وهو يهدّئ جدتي، ولا يبالي بدموعي.

لم تطل غيبة عمّي... خرج بعدها وطنيّا. وبدا أنه كان مقدَّرًا له، ولأبي، أن يكونا من كبار تجار "سوق المدينة"، يشاركهما في ذلك رجالٌ من "بيت منصور" يعملون في "خان خيري بيك". وأما الزعيم "الطبيب الدكتور حسن إبراهيم باشا قَطار أغاسي"، فإنّ هتافًا في حقّه لم

---

(١) القناق: نوع من أنواع القصور العثمانية تكون الطوابق العليا منه خشبية. والزعيم حسن بك المذكور هو الدكتور المجاهد الذي ناضل ضد الفرنسيين وأسس مع إبراهيم هنانو الكتلة الوطنية في حلب، وكان رئيسها بعد استشهاد هنانو، وكان أهل حلب يكنّون له احتراماً، ويناديه بعضهم: أبونا حسن بك.

يزل في سمعي منذ ثمانين عاما: «بدْنا أبونا.. حسن بيك»، فقد كان زعيمًا متفرّدًا، وإنّ له قصة استثنائيّة سوف أرويها لاحقا.

أتساءل: هل يستطيع أهالي سجناء الرأي، اليوم، أن يحملوا إلى ذويهم الكبّة بالصينية... أم أنهم...؟!

فلوريدا: فجر الخميس ٢٨-٥-٢٠١٥

أمهات وآباء في أحضان الغربة!

قبل عامين -وكنت ما أزال في الوطن- حدّثتني صديقةٌ في شبكة التواصل، قد ألجأتها ظروف القتال إلى الاغتراب حيث يقيم ابنها الطبيب في أمريكا، عن أنه وزوجته بدأا يضيقان بوجودها في أسرتها... فتعجبتُ!

وقبل عام -وأنا في القارة الجديدة- حدّثتني صديقةٌ أخرى عن أنّ ابنها هنا ضاق وزوجتُه بها... إلى حدّ أنهما استأجرا لها غرفة بمنافعها تعيش فيها وحيدة، وهي لا تتكلم الانكليزية ولا تقود سيارة... فازددتُ عجبًا!

قلت في نفسي: إنها المشكلة الأزلية، الكنّة والحماة!

ولكن ما بال هذا الصديق، الرجل، يحدّثني قبل أيام، عن أنّ صوت "صهره" بدأ يعلو: «نحن لسنا ملزمين بك! »، ولم تنبس الابنة، الطبيبة، التي تسمع، ببنت شفة... ولكنّ الصغار بكَوا!

قلت في نفسي: هذا من تداعيات الحرب، وصل الأمر أن يُعبّر الصهر عن رفضه لحميه، وعلى مشهد من الزوجة التي قدّمها أبوها له طبيبةً.

واستدركتُ: ولكنّ الأطفال ما زالوا في عافية!

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٩-٥-٢٠١٥

«أبونا حسن بيك» الذي وأد الفتنة في مهدها!

في ثلاثينيّات القرن الماضي، وفي عام ١٩٣٦ على وجه التحديد، تولّى الزعيم "حسن بيك إبراهيم باشا" مع رفاقه المجاهدين بحلب، تشكيل ما سمّوه "الحرس الوطني" بقصد تنظيم وحماية الأحياء الشعبية أيام الانتداب الفرنسي. وتشكّلت، في الوقت ذاته، فرقة مشابهة من المسيحيين بإيعازٍ من أحد ضباط السلطة للمناوأة وإحداث فتنة، وكان أن وقع من بعض شبابها، في يوم أحد من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ذاته، اعتداءٌ على مسلمين في حيّ "قسطل الحرامي"، فاستُثير أهل الحيّ وخرجوا مستنفرين!

لـمّا سمع الزعيم الوطني الغيور "حسن بيك" بالحادثة، أسرع إلى حيث المتجمّعون في الحيّ، وطرح نفسه أرضًا أمام الجميع، قائلاً كلمة بقيت في الأذهان: «لا يمكن مهاجمة إخواننا المسيحيين إلّا على جثّتي! ». فصحا الناس وعادوا إلى صوابهم، وتمّ وأد الفتنة في مهدها. ودُعي رجال الدين من مسلمين ومسيحيين، إلى حفل عشاء في دار "الكتلة الوطنية" -التي كانت تجمع كلّ فئات الشعب- وتعاهدوا على المحبّة والإخاء.

تقول الرواية الوطنية: إنه أُطلق، منذ ذلك اليوم، على زعيم حلب لقب جديد: «أبونا حسن بيك»، عنوانٌ كنت أسمعه بحلب هتافًا وأنا طفل دون العاشرة.

توفي الطبيب الدكتور حسن بيك إبراهيم باشا قَطار أغاسي عام ١٩٥٦ عن عمر ناهز التاسعة والسبعين، رحمه الله زعيمًا جاهد ضد الاستعمار ورفع راية الوئام بين المواطنين.

فلوريدا: فجر السبت ٣٠-٥-٢٠١٥

أصدقائي الأعزاء قرّرت العودة إلى الوطن.

أغادر البلدة الصغيرة Palm Bay ظهيرة الأحد السابع من هذا الشهر، إلى مطار أورلندو القريب، ومنه إلى شاطئ الولايات المتحدة الشرقي، ثمّ إلى عاصمة قطر، فإلي بيروت... ومنها برّا إلى الوطن الحبيب.

أكون قد قضيت في هذه البلاد الجميلة أياما جميلة وغير جميلة، مدتها عشرون شهرًا، ستمئة يوم وعشرةٌ فوقها.

فلوريدا: صباح الإثنين ١-٦-٢٠١٥

إنه الحنين إلى الوطن، وإلى الأدب، أيها الأصدقاء

توضيحًا لخاطرتي صباح أمس الأحد، التي عبّرت فيها عن اعتزامي العودة إلى بلدي في يوم قريب جدًا، بدا أنّ عليّ أن أبيّن لأصدقائي الأسباب، وقد طلب بعضهم مني التوضيح.

ولمن لا يعرفني من أصدقاء الشابكة أقول إني جريت على انتقاد ما بتّ أحسّه من القهر وما أشهده من الفساد في تصرفات النظام، منذ ستينيات القرن الماضي، في اللون الأدبي الذي أحترفه، القصة، متّخذًا غالبًا أسلوب "الفانتازيا" وما كانت الأهداف عندي لتخفى على العيون، فمنعوا نشر قصصي هذه، متفرّقة في دوريّاتهم الأدبية، وكذلك نشرها في كتب تصدر عن مؤسساتهم، ما جعل المؤسسات الخاصة تحجم أيضًا عن نشرها اتقاءً... أقول: إلا ما تسرّب من قصص نُشرت في أحيان قليلة في مجلة "المعرفة" (وزارة الثقافة) ومجلة "الموقف الأدبي" (اتحاد الكتّاب العرب، الذي كنت أحد أعضائه المؤسسين عام ١٩٦٩)، ومرة واحدة أقدمت وزارة الثقافة على نشر كتاب لي "رجيم" (الألم على نار هادئة)، بوساطة صديق لي في الوزارة متفهّم ("ش. ي") وباحتضان ملحوظ أسبغه عليّ كبير المستشارين فيها "انطون

مقدسي" رحمه الله... ذلك كلّه دون أن تفوتني الإشارة إلى أنّ النظام في أعلى مستوياته، ما كان ليبالي بقصة من مثل ذلك تنشر أو بكتاب، وهو الواثق من نفسه، ولكنّ مسؤولي الدرجة الثانية والثالثة والعاشرة في دنيا ثقافتنا بدوا لي "ملكيين أكثر من الملك".

ذلك ما حداني إلى أن أؤسس، في عام ١٩٨٧، دارا للنشر "بيتوتيّة"، عبرها أنشر نتاجي المتواضع، تعذّر الحصول على الموافقة الأمنية أولا، ثمّ تذللت الصعوبة بمساعدة صديق ذي نفوذ ("أ. ح"، أصبح فيما بعد سفيرا)، وقد نشرتُ، تحت عنوان "دار إشبيلية" (وإني لذو هوًى أندلسي)، بضعة عشر كتابًا (وسألني أصدقاء أن ينشروا عندي، فكان).

ولما قامت "الانتفاضة"، اتّخذتُ من الفيس بوك وسيلة للتعبير (شباط/ فبراير ٢٠١٢)، وما كان لي إلّا أن أنسجم وأنا أكتب فيه مع مواقفي المبدئية، أن أعبّر عن رأيي بذلك المستوى من التعبير الذي رسمته لنفسي، يغمره الصدق وتوشّحه الشفافية. خاف عليّ فيه بعض الأصدقاء، وما خفت على نفسي.

فأما مغادرتي دمشق، عصر يوم الأحد ٦-١٠-٢٠١٣، باتجاه أمريكا، فتفسيرها أني -وأنا أقطن بدمشق منذ ١٩٦٦- أنتمي إلى أسرة حلبية أصلها من حمص. ويقتضي القول إنّ ثلاثة من أبنائي وبناتي، مقيمون وذرّيّتهم في غير دمشق، أعني فلوريدا، من سنوات قريبة أو بعيدة ترجع إلى ثلاثين، حتى إنهم شكّلوا قبيلة صغيرة ههنا، وآخر من بقي لي بدمشق ابنتي الفنانة التشكيلية "خلود"، التي تراءى لها قبل أعوام أن تغادر وابنها التشكيلي "ماجد" إلى القاهرة، أملا في تعزيز فنّها المتميّز (مثلها في ذلك مثل شقيقتها ابنتي "سهير" المتميّزة بفنّها في أمريكا)، فلم يبق لي بدمشق من يعتني بي وأنا عامئذ في الرابعة والثمانين، أقيم وحيدا في بيتي المستأجر في شارع نوري باشا، فسألني أولادي أن آتي إليهم للعناية بي، فقبلت، ثم عدلت، وألحّوا، وغادرت، وكأني غدرت بنفسي وبأدبي.

أقول: بأدبي، نعم!

ذلك أنّ في دروجي وعلى أرفف مكتباتي كثيرا من الأضابير والكلاسورات، تتوزّع فيها دراساتٌ أدبية، وبحوث في التراث الطبي الأندلسي كنت قدمتها في المؤتمرات، وقصص، ومقالات، وذكريات... عليّ أن أقوم بنسلها من مواضعها، وضمّ بعضها إلى بعض، في تحرير وتنضيد حتى أجعلها مشاريع كتب مهيّأة للنشر... و... والله والله، إنْ تركتها بعيدة هكذا لذهبت بها الرياح!

إنّ عودتي إلى الوطن تسوّغها العوامل:

- أني كنت صادقًا وشفافاً في كلّ ما كتبت في ظلّ النظام، وأكتب. وما تعرّضت للقامات العالية.

- أني أعود لدمشق لأتابع المرحلة الأخيرة من حياتي الأدبية، إعداد نتاجي الأدبي والفكري للظهور للنور.

- أنّ ابنتي وابنها قد عادا من القاهرة إلى دمشق، ففي ظلّ رعايتهما سأكون.

- مقدّما جزيل شكري وعرفاني بالجميل إلى أبنائي وبناتي وأحفادي وأسباطي، وخاصة حفيدتي الحنون الفنانة التشكيلية "ديمة سعود، أم حمودة وياسمين"، على ما لقيته من عناية من الجميع ومن تمتّعي بمعانقتي الصغار والكبار.

ولأختتمْ كلمتي بنصّ كنت كتبته وأنا فوق السحاب في طريقي إلى أمريكا قبل عشرين شهرًا:

واللهِ

ما فارقتُك، يا وطني

خوفًا من عيونهم المبثوثة

ولا رَهَبًا من سيوفهم المسلولة

ولكن

لأنّ الأسرة التي أنجبتُها

على مدى نصف قرن ويزيد

قد رحل أفرادُها في كلّ اتجاه

ولم يبقَ لي بدمشق

مَن إذا انتابني وجعٌ

يمّد يده إليّ بكأس ماء!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢-٦-٢٠١٥

«أكتب إليك، يا أخي، من "تالين"! »

نعم، أنجب المواطنُ السوري، البسيط، أبي "أبو السعود السباعي" بحلب، تسعة عشر من البنين والبنات (من زوجتين طبعا!)، هؤلاء الذين قاربَ عددُ مَن أنجبوهم هم، حتى الأمس القريب، المئة... أقول: إذا كنّا، نحن أبناءه، لا نغلط في الأسماء حين نتنادى بها، فإنّ أسماء الأحفاد والأسباط ابتدأت تضيع علينا... ولكنّ ما أخذ يضيع أيضا، في هذه الأيام الغبراء، أسماءُ الأماكن والبلدان التي يَتفرّقون فيها بأصقاع الأرض!

في غمرة التعليقات التي يتلطّف الأصدقاء بإيداعها جدارَ صفحتي متمنّين لي سلامة الوصول للوطن، لمحت اسم إحدى أخواتي، "ضَحُوك السباعي"، مدرّسة اللغة الانكليزية التي اتفق لها أن تقاعدت مع بداية الانتفاضة، وحملتها الرياح إلى حيث يعمل بعض أبنائها في

دول الخليج، سنة، سنتين، وأكثر، وتضيق ابنتُها "هَلا" -الصيدلانية التي تركت محلّها في الوطن- بالعيش دون عمل، وكنت قد سمعتُ صوت أختي قبل حين يأتيني من تركيا... وهأنذا أسمعها أمس تخاطبني فتقول: «أكتب إليك، يا أخي، من "تالين"! ».

قلت لها: وأين "تالين" هذه، يا أمّ فريد؟ أين موقعها على خارطة العالم!

قالت: إنها عاصمة "إستونيا"، ألا تعرف، يا أبو فراس؟

قلت: تعنين إحدى دول البلطيق الثلاث!!

هي: نعم، نعم... إستونيا، التي توصف بأنها أقلّ دول الاتحاد الأوروبي نموًّا في السكان، ولكنها الأكثرُ تمتّعًا بحرية الصحافة والحريات السياسية والاقتصادية! عدد سكان العاصمة تالين نصف مليون، وسكان الدولة كلّهم مليون ونصف!

أنا: أيّ ريح حملتك إليها، يا غالية!

هي: الجامعة هنا منحت ابنة أختك فرصةً لدراسة الماجستير في الصيدلة. أُعْلمك، يا أخي، أنّ درجة الحرارة عندنا تنزل إلى العشرين والثلاثين تحت الصفر، وضوء الشمس لا يُرى في الشتاء إلّا نصف ساعة في اليوم. زرت وهلا "فنلندا" المجاورة، سوف ننتقل إليها لعلّ العيش فيها أطيب. بعد قليل سوف "تسطع" شمس نهار جديد... أصبحت أحبّ الشمس... أنتظرُها كلّ يوم!!

آه، أيها السوريون! أين يَحُطّ بكم الزمن!

فلوريدا: مساء الثلاثاء ٢-٦-٢٠١٥

المُثل التي آمنت بها

أقدّس الحرية والعدالة لأنها جوهر الكرامة الإنسانية. وأكره الفقر والاستعباد، لأنهما

والكرامة الإنسانية على طرفي نقيض.

أؤمن بالإسلام دينًا يجمع على المُثل العليا، ولا يُفرّق بين الإنسان والإنسان.

أؤمن بالعروبة قوميةً إنسانية، بعيدةً عن الغلوّ، تتعايش مع القوميات الأخرى، وتعطف على القوميات التي تنطوي تحت أجنحة أمتي.

أؤمن بالاشتراكية، التي تخدم المجتمع ولا تعلو عليه، وتتنزّه عن أن تكون مجرد شعاراتِ تملّق أو مزاودة أو انتقام.

أؤمن بأنّ الإنسان أخٌ للإنسان في كلّ مكان.

مقتطف من موسوعة "أعلام الأدب العربي المعاصر"

الطبعة العربية، ١٩٩٦ [الكتابة: دمشق ١٩٨٢]

فلوريدا: صباح الأربعاء ٣-٦-٢٠١٥

قلق سوري!

أحزم حقائبي

لست نادمًا لأني جئت

ولست آسفًا لأني سأغادر

فقط ينتابني قلقٌ... سوريّ!

فلوريدا: السبت ٦-٦-٢٠١٥

أمسيتُ في الوطن وحيدًا

أمسيتُ في الوطن وحيدًا

وقد تفرّق مَن حولي في الأمصار

فلما غادرتُ إليهم

أنشُد الرعايةَ والحنان

هزّني الوجدُ والحنين

فعدتُ أمتطي الريح

شوقًا إليك

يا وطني!

فوق المحيط الأطلسي باتجاه الشام

ظهيرة الأحد ٧-٦-٢٠١٥

ساعة دخولي بيتي بدمشق عصر الإثنين ٨-٦-٢٠١٥! عائدًا من فلوريدا.

ويحدّثني القمر

... وأستمع، في عتمة الفجر، إلى حبّات اللؤلؤ وهي تسّاقط على ماء البِرْكة، مردّدةً سؤالها العاتب: «لماذا تركتني؟ »، ويُعييني الجواب.

والقمر... يسترق النظر إليّ من بين أغصان الشجر، يحدّثني ضاحكا: «كنت ألاحقك، وأنت تتوارى عني فيما يَشغلك هناك. إني في كلّ مكان، رقيبٌ للعاشقين! ».

دمشق الشام: فجر الأربعاء ١٠-٦-٢٠١٥

ياسمين الشام

وتحدّثوا عن أنّ "البستاني" الذي استقدموه لتقليم الشجر، قد جار بالقصّ على أغصان

الياسمينة الظليلة، فارتفعت في النموّ ساقُها حتى بلغت شرفة الجيران، وأصبح على أهل الحديقة السقايةُ والرعاية، وليس لهم إلا المتساقط من أزاهيرها!

ولله درّهم!

لقد سَهَوا عن أنّ عطر الياسمين متاحٌ للذين يزرعون ويسقون، ولأبناء الجيران، ولكلّ العابرين في الدروب الشامية.

دمشق الشام: مساء الأربعاء ١٠-٦-٢٠١٥

العودة إلى نبع الطفولة

في الضاحية نشؤوا معًا. احتضنتْهم ابتدائيةُ الحيّ ستّ سنوات غير منقوصة. لعبوا في الحارة الكرة، تصايحوا، أزعجوا المارّة وأقلقوا الجيران. تردّدوا على الأندية الشبابيّة، غنَّوا، وتعلّموا الرقص حديثَه والدَّبْكة. استهوتْهم صبايا الحيّ، فتنافسوا، وتأنّقوا، وتحسّنت ألفاظهم.

كبِروا، وما فرّقهم خلافُ الأصدقاء أو شِقاقُ الأشقّاء. لكن فرّقهم الاقتتالُ الذي فجأةً اندلع في البلد.

جابَهَ بعضُهم بعضا: «أنتم تقتلوننا!»،

وقال آخرون: «أنتم تريدون أن تذبحونا!».

وتفرّقوا...

وما آن للدم المسفوح أن يتوقّف، وكذلك ما كان للذكريات، الهاجعة في الصدور، أن تغيب.

ذات يوم اجتمعوا... وراحوا يستعيدونها، تلك الذكريات، المستعذبة...

قال "حسن" وهو يذوب حنينًا: «تتذكّرون أنّا كنا نلعب بالكرة تحت شباك "ماسة" الحلوة؟

تابع "عمر": «ونزلت الكرة يوما على شرفة بيتها، فاحتجزتها أمّها، وما ردّتها لنا إلا بعد أن وعدناها بالاستجابة بألا نلعب أمام بنايتها في ساعة القيلولة، التي حدّدتها لنا من الساعة ٢-٥، وما درت أننا كنا نستلفت نظر ابنتها!

فضحكوا لهذه الذكرى حتى سالت دموعهم.

ولكنهم أوشكوا أن يحزنوا عندما ذكّرهم "جورج" بما وقع لصديقهم "مصطفى" يوم ضربته سيارةٌ وهم يلعبون، وكيف أسرعوا يحملونه إلى المستشفى وهو يتظاهر بالعطب!

هل التمعتْ دمعةٌ على خدّ أحدهم، وما عرفوا إن كانت من حزن أو من فرح؟

وهل التمعت في العيون دموعٌ أخرى، فتعانق اثنان، وعمّ العناق... حتى شمل الجميع؟

في تلك اللحظة... كانوا يعودون إلى نبع الطفولة الصافي.

دمشق الشام: فجر الخميس ١١-٦-٢٠١٥

حبايب

- لاحَظَها عند الفجر تهمّ بالنافذة فتجعلَها موارَبةً، ثمّ تسحب الستارة عليها حجبًا للضوء الآتي، ملتمسةً السكون لابنها الفتى المستغرق في نومه.

- فاستحضر في خاطره صورة ذلك الابن، الذي يسأل أمَّه عمّا إذا كان اللحم الذي قُدّم لها في طبق غضًّا طريّا؟ والسلَطة، هل تُفضّل لها الخلّ الأمريكي أم الإيطالي؟ ثمّ يرافقها إلى حيث يقف على بابٍ ينتظر.

- وتذكّر الحفيدة، التي أخذت على عاتقها أن تصحب جدَّها إلى مشافي العيون، والآذان، والأسنان.

كم هي جميلةٌ الحياةُ مع "الحبايب"، من أمهات وأبناء وأحفاد! وكم هي موحشةٌ إذا ما خلت

منهم!

دمشق الشام: فجر السبت ١٣-٦-٢٠١٥

عناق في منتصف شارع نوري باشا

في العالم الافتراضي تلاقينا، أنا في فلوريدا وهي في باريس، والتحمنا ذات يوم في خصام، دافعت هي وتصدّى لي من دافع عنها، ثمّ... "صافي يا لبن! ".

اليوم عند الظهيرة، وأنا أمشي في شارع نوري باشا الذي أسكن، رأيت سيدةً تمشي على الرصيف متّجهةً نحوي، وقد طفح وجهها بابتسام عذب، وما إن دنت مني حتى أقبلت عليّ معانقةً، ولم يكن لي إلا أن أستجيب!

سألتها: «من أنت، يا سيدتي؟ ».

أجابت: «التي خاصمتَها من فلوريدا... ثمّ صافي يا لبن! ».

وازددنا، في عاصمة الوطن، تفاهمًا.

لا تظنّوا... إنها في مثل عمري!

دمشق الشام: مساء الخميس ١١-٦-٢٠١٥

"رجل الأمن" لماذا!

بعد أن قرأ، ذلك السياسيُّ المخضرم، ما كانت قدّمت له ابنتي من أعمالي القصصية، اتّفق أن التقت به في احتفال عام، فأنشأ يقول لها بلباقته المعهودة:

«قرأت كتب والدك، وأنا أتذكّر اقتحامَه "قلعة النشر المصرية" قبل خمسين ستين سنة وهو في العشرينيات من عمره، حين نشروا له في "سلسلة اقرأ" الشهيرة كتابه "مواطن أمام القضاء".

اليوم أستأنف قراءتي له، فأتأكّد من نزوله بموضوعاته إلى قاع المجتمع وتصويره حياة الفقراء بلغةٍ سلسة ومفردات مأنوسة... بس بدّي أسألك: ليش أبوكي حاطِطْ دابُه ودابْ رجل الأمن؟! ».

دمشق الشام: فجر الجمعة ١٢-٦-٢٠١٥

حواكير تين الصبّار

في بدايات الانتفاضة جرى إتلاف كثير من حقول "تين الصبّار" (جنوبيّ دمشق) منعًا من أن يتسلّل عبرها حملة سلاح إلى داخل العاصمة.

ما أذكره أني شعرت يومذاك بالأسف لإبادة تلك الحواكير[1]، التي أعرف أنّ محاصيلها من التين الشوكي قد أمست جزءًا من مواسم الصيف الدمشقي، حيث نتمتّع بمشاهدة "مجالس الصبّارة" على أرصفة "شارع أبو رمّانة": خيماتٌ تُنصَب، كراسي وطاولات، وأنوار كهرباء تتلألأ، وأكلُ التين مقشّرًا ومبرّدا... ذلك ما أتيت على وصفه في قصة لي سمّيتها "الكلام المباح" (نُشرت في مجلة "العربي" الكويتية عدد يوليو/ تموز ٢٠٠٤، ثمّ نزلت في كتابي المسيّس "تقول الحكاية" دمشق ٢٠٠٦).

فيما بعد...

أدركت مدى سذاجتي في أسفي ذاك، فإنّ ما تلا إبادةَ تلك الحواكير دمارٌ نزل بالحارات والأحياء والمدن، وقضى على غير قليل من المحاصيل التي يجنيها الفلاحون في نهاية مواسمهم الزراعية.

دمشق الشام: فجر الأحد ١٤-٦-٢٠١٥

(١) جمع حاكورة: قطعة أرض مزروعة في قرية، قريبة من سكَن صاحبها وتُسَيَّج غالبا.

المحتويات